
تفسير وبيان لبعض آيات القرآن
المسمى:
الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير وبيان لبعض آيات القرآن

المسمى:

الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية

الجزء الثالث

الفتح - الناس

جمعه

المفتقر إلى عفو الله ورحمته

عبد الرحيم محمد أحسن المتميز

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ -٢٠١٧م

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)﴾ [الفتح: ٩]

قال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قوله عز وجل: ﴿وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا﴾، فقلت: إن قال قائل: كيف يجوز التسبيح للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والتسبيح لا يكون إلا لله جل ثناؤه؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: هذا مستعمل في لغة العرب، من قصة تدخل بين قصتين، قال: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾، ثم ندب إلى نصرة النبي صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿وتعزروه﴾، أي: تنصروه، ﴿وتوقروه﴾، والتوقير لا يخفى على أحد، ثم رجع إلى نفسه تبارك وتعالى، فقال: ﴿وتسبحوه بكرة وأصيلا﴾؛ لأنه قال: ﴿لتؤمنوا بالله﴾، ثم عطف الكلام، حتى عاد إلى تسبيحه هو عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾[الفتح: ١٦]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألت عن: قوله سبحانه: ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾: من هؤلاء؟

فقال: هم هوازن، وهم أشد الناس بأسا، وقد قالوا: فارس والروم. وقالوا: بنو حنيفة.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿قل للمخلفين من الأعراب﴾، إلى قوله: ﴿يعذبكم عذابا أليما﴾؟

فقال: المخلفون هم: الذين تخلفوا في أهليهم؛ وتخليف رسول الله صلى الله عليه وآله لهم فلم يكن بالإذن منه لهم؛ ولكن باختيارهم هم، لمعصيتهم لربهم. وإنما جاز أن يقول: ﴿للمخلفين﴾، وهم: المتخلفون -من أجل أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعرض عنهم، حين اختاروا التخلف، ولم يغصبهم على الخروج معه؛ فلذلك جاز أن يقول: المخلفين. والقوم الذين هم أولوا البأس الشديد فهم: أهل فارس وخراسان، فقال: ستدعون إلى قتالهم، ﴿أو يسلمون فإن تطيعوا﴾ في ذلك ﴿يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا﴾ عن قتالهم وتتخلفوا ﴿كما توليتم﴾ وتخلفتم ﴿من قبل يعذبكم عذابا أليما﴾، فكان دعاؤهم إلى جهاد أهل فارس من بعد النبي صلى الله عليه وآله. وقد قيل: إن أولي البأس الشديد

هم: الروم، وأنها وقعة موتة. وهذا عندي أشبه المعنيين بالحق؛ بأسباب تدخل فيه، ومعاني توضح ذلك وتبينه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)﴾ [الفتح: ١٨]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

قوله سبحانه: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾؟

فقال: خبر عن رضى الله عمن بايع تحت الشجرة؛ إنما هو: لقد رضي الله عمن آمن بالله؛ ألا ترى كيف يقول رب العالمين: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾، فذكر: أن رضاه تبارك اسمه إنما هو عمن آمن ممن بايعه، وشايعه في البيعة وطاوعه.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾، إلى قوله: ﴿وكان الله على كل شيء قديرا﴾؟

فقال: الشحرة التي بايع المؤمنون رسول الله تحتها فهي: شجرة بالحديبية، بايعوا تحتها رسول الله على الصبر والبلوى، أو يدخلوا مكة وهم بالحرم، وبجانب فخ؛ فأنزل الله على نبيه: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾، فلما طلبوا السلم أجابهم رسول الله إلى ذلك، وكتب الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو، على الهدنة عشر سنين، وعلى شروط شرطوها بينهم، ونحر هدي عمرته في الموضع، ورجع على أن يأتي في السنة الأخرى، فيدخل مكة هو وأصحابه، ويقيمون بها ثلاثا ويخرجون؛ وكذلك فعل رسول الله عليه وآله

السلام من السنة المقبلة، وتم لهم على الهدنة حتى نقضوا. ومعنى قوله: ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ يقول: علم ما في قلوبهم، من النية والصبر، والاحتساب له سبحانه. ﴿وأثابهم فتحا قريبا﴾، يقول: أعطاهم ورزقهم فتحا قريبا، وهو فتح خيبر، ومغانمها الكثيرة التي أخذوا منها، من النخيل والأثاث، والذهب والفضة. والتي لم يقدروا عليها في ذلك الوقت، ثم قدروا عليها من بعد فهي: بلاد الروم والشامات، وما والاها، ثم افتتحوها في غزوة تبوك، ثم افتتحوها من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لبنيه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)﴾ [الفتح: ٢٤]

قال في المجموعة الفاخرة، في جوابه على ابن الحنفية:

وأما ما سأل عنه من: قول الله سبحانه: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾، فقال: هل كان يستطيع أحد أن يمد يده إلى عدوه؟

وقد كف الله سبحانه أيدي حزبه، من رسوله والمؤمنين، عن حزب الشيطان الفاسقين، وأذن لرسوله وأطلق له مهادنة قريش ومن معهم من المشركين؛ نظرا منه سبحانه للمؤمنين، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لما أن طلبته قريش منه، ولو لم يأذن الله له عز وجل في ذلك لم يفعله، ولم يك ليرجع يوم الحديبية حتى يقاتلهم، وعلى الحق وبالحق ينازلهم، ولقد أراد ذلك صلى الله عليه وآله، وبايع أصحابه على الموت فيه بيعة ثانية، وهي البيعة التي ذكر الله عن المؤمنين ورضي بها عنهم، وأنزل السكينة عليهم، وصرف القتال، وكف أيدي الكل من الرجال؛ بما أطلق لرسوله صلى الله عليه وآله من اجابته لهم، إلى ما طلبوا من المهادنة في ذلك

العام، والرجوع عنهم، والدخول في السنة المقبلة إلى البيت الحرام، فأطلق له الرجوع عنهم، والترك لمقاتلتهم؛ لما ذكر سبحانه، فمن كان بمكة ممن كان بمكة من المؤمنين والمؤمنات؛ لئلا يطؤوهم فيقتلوهم بغير علم، فتصيبهم منهم معرة عند الله بالحكم. والمعرة ها هنا فهي: الدية، لا ما قال غيرنا به فيها من الإثم، وكيف يأثم من بر وكرم، وقاتل على الحق - كما ذكر الله عز وجل - من خالفه من الخلق؛ فقتل مؤمنا بغير علم ولا تعمد، وهو إنما قتله وهو يحسبه كافرا، ويظنه في دين الله فاجرا، فهو – والحمد لله – في ذلك غير آثم، ولا متعد في فعله ولا ظالم؛ ولكنه مخطئ فعليه ما على مثله، وهو ما ذكر الله في قوله حين يقول: ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾ [النساء: ٩٢]. وإنما جعل عليه العتق والدية تعظيما لقتل المؤمن، وتشديدا على المؤمنين في التثبت والتبيين، عند قتال الكافرين، كما قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ [الحجرات: ٦].

وأما معنى قوله سبحانه: ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾ -فهو: الحكم لهم من الله عز وجل بالنصر إذ نصروه، ومن ذلك ما قال ذو العزة والجلال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد: ٧]، ولا نصر يكون أكبر من نصره لرسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه من المؤمنين، فحكم الله سبحانه لهم على أعدائه بالنصر إذا اتقوا، وبالغلبة إن احتربوا؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا (٢٢) سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢٣)﴾ [الفتح]، يقول: حكم الله للمؤمنين بالنصر على الفاسقين، ولن تجد لما حكم به رب العالمين للمؤمنين تبديلا؛ فهذا معنى الآية وتفسيرها، لا كما قال من نسب إلى الله جل ثناؤه فاحش المقال، من جبر العباد على الخير، وإدخالهم في كل شر وضير.

سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)﴾[الحجرات: ١]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه للمؤمنين: أن يقدموا بين يدي الله ورسوله، في شيء من الأشياء، ببسط أمر أو أخذ أو إعطاء، أو إيمان عدو أو مسالمة أو لقاء، دون الله ورسوله، والأذن في ذلك من الله ونبيه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾[الحجرات: ٣]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله...﴾، إلى آخر الآية؟

فقال: هذا إنباء من الله تبارك وتعالى، على من يفعل ذلك عند رسول الله صلى

الله عليه وآله؛ إجلالا له وتعظيما مما يكون من غض صوته وتكريما؛ فأنبأ الله على من فعل ذلك، وأخبر أنه ممن قد امتحن الله قلبه للتقوى، وامتحان الله لقلبه فهو: بما أمره به، من تعظيم لنبيه، وإجلال ما جاء به صلى الله عليه وآله من وحيه؛ فكان غضهم للأصوات عنده قياما منهم لمؤكد المحبة، وكان قيامهم بالامتحان تقوى منهم وإيمانا.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ [الحجرات: ٧]

قال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

يعني بالتحبيب والتكريه: الأمر والنهي، وما وعد وأعد من الجنة والنار، لا جبرا على طاعته، ولا على معصيته؛ عز الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩)﴾

[الحجرات:٩]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾، إلى قوله: ﴿إن الله يحب المقسطين﴾؟

فقال: هذا أمر من الله سبحانه لنبيه وللمؤمنين، فيمن تشاجر وخرج بالجهل والمعصية، إلى ما ذكر الله من القتال؛ فأمرهم إذا صارت فئتان من المؤمنين إلى هذا الحد: أن يصلحوا بينهما، ويمنعوهما من التقاطع في فعلهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى، وأبت القبول، وأقبلت الأخرى إلى الحق في الفعل والقول -قاتلوا التي تبغي وتأبى، حتى تفيء إلى الحق والتقوى؛ والمقاتلة فهي: المحاربة بالطعن والضرب والرمي أبدا، حتى ترجع إلى ما خرجت منه من النصفة، وتترك ما صارت إليه من البغي والحمية. ثم قال سبحانه: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾، ومعنى بالعدل فهو: بالحق، ومعنى قوله: ﴿وأقسطوا﴾ فهو: تحروا الحق في ذلك، واعدلوا. ﴿إن الله يحب المقسطين﴾، يقول: يحب العادلين المحقين، وقوله: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما﴾ يدل على أنه أراد: فإن لم تف فقاتلوها، حتى تفنوها وتهلكوها وتبيروها، أو ترجع إلى الحق الذي منه خرجت، وتترك الباطل الذي فيه دخلت.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾[الحجرات: ١١]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألت عن: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾؟

فقال: الألقاب: الأنباز التي يلقب بها بعضهم بعضا، التي هي خلاف الأسماء، التي سمت بها الأباء؛ فحرم الله عليهم أن يسمي بعضهم بعضا بالألقاب، وجعل ذلك حكما مفروضا في الكتاب.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قوله سبحانه: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾؟

فقال: معنى: ﴿لا تلمزوا أنفسكم﴾ هو: لا يقع بعضكم في بعض بالباطل، ولا يؤذيه بالكذب والوقيعة فيه بالمحال. ومعنى: ﴿لا تنابزوا بالألقاب﴾ فالتنابز هو: التداعي بالألقاب، وتسمية بعضهم بعضا بها، والألقاب فهي: أسامي مكروهة عند الناس، ينبز بها بعضهم بعضا؛ ليتنقصه بذلك؛ فنهى الله من كان كذلك عن العودة إلى ما يورث الشحناء، ويوقع البلية بين أهل التقوى، ثم ذكر سبحانه: أن من فعل هذا بعد أن نهاه عنه -فقد دخل في اسم الفسوق؛ بالمعصية لله؛ إذ نهاه عن ذلك، فقال: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾، يقول: بئس الرجل رجل عصى، فسمي بعد ما كان مطيعا بفعله ومعصيته فاسقا؛ فبئس البدل من تبدل الفسق بالإيمان. ومعنى قوله: ﴿ومن لمن يتب فأولئك هم الظالمون﴾ يقول: من لم يتب عما نهي عنه من التنابز وغيره -فهم الظالمون لأنفسهم؛ بما أوقعوها فيه من الهلكة عند الله على فعالهم.

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾ [الحجرات: ١٢]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن﴾،

إلى قوله: ﴿إن الله تواب رحيم﴾؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه لعباده عن سوء الظن بإخوانهم المؤمنين، الذين قد عرفوا منهم محض الإيمان، وأيقنوا منهم بترك معاصي الرحمن. ثم أخبر سبحانه: أن من ظن بأخيه المؤمن ما قد علم منه خلافه من التقوى -فقد دخل في الإثم والردى. ثم قال سبحانه: ﴿إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا﴾، يقول سبحانه: ولا تجسسوا من طريق طلب العيب من إخوانكم والبحث؛ أن تجدوا لهم عيوبا تعيبوهم بها، من بعد أن قد شهدتم بالإيمان لهم، وأقررتم بالتقوى لهم؛ فهذا الذي نهى الله المؤمنين أن يتجسسوا عليه وفيه وله. فأما من كان ذا تهمة من أهل الزلة والعثرة، والدخول في ما يسخط الله من المعصية -فالتجسس عليه واجب؛ ليظفر به، ويشهد على فعله، فتقام واجبات حدود الله عليه في صنعه، فيكون ذلك نكالا له ولغيره من شكله. وأما قوله: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ فهو: نهي منه سبحانه عن أن يقع بعضهم في بعض من ورائه بالباطل والبهتان، أو بالظن الكاذب في بعض الشأن. ثم قال سبحانه: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا﴾: بالاغتياب له من ورائه، وجعلهما سيان في كل معنى، وفي ذلك ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله أنه قال: ((إن الله يبغض البيت آكل اللحم))، يريد: الذي يوقع فيه بالمؤمنين، ويغتابون ويؤذون، وبالباطل فيه يرمون، وفي ذلك ما روي عنه صلى الله عليه وآله، حين رجم ماعز بن مالك الأسلمي، الذي أقر عنده بالزنا فرجمه، ثم انصرف والمسلمون معه، فقال طلحة والزبير: انظروا إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم يستر على نفسه، حتى رجم مرجم الكلب. فسمعهما رسول الله صلى الله عليه وآله، فسكت عنهما، حتى أجاز بجيفة حمار شاغر برجله، فوقف، ثم قال لهما: ((انزلا فأصيبا من هذه الجيفة)). فقالا: نعيذك بالله يا رسول الله، أناكل الميتة، ونصيب منها؟! فقال صلى الله عليه وآله: ((لقد

أصبتما من أخيكما آنفا أعظم مما تصيبان من هذه الجيفة؛ إنه الآن ينغمس في أنهار الجنة))، يريد: لما أصبتما من ماعز بن مالك،، من الأذية والاغتياب -أعظم عند الله من أكلكما هذه الميتة؛ لأن الله سبحانه قد حرم اغتياب المؤمنين، كما حرم أكل الميتة، ثم للمؤمنين حرمة ليست للميتة؛ فمن عصى الله بقطيعة رحم ذي حق، فاغتيابه أعظم من إصابته من الميتة المحرمة، التي لا حرمة لها، مع تحريمها.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام:

في هذه الآية حجة لآل محمد صلى الله عليه وآله، وبيان فضلهم على الناس. ما فضل نبينا نفسه؛ ولكن الله فضله، وجعل لذريته وقومه الفضل به على الناس، كما جعل ذلك لمن كان قبله من الأنبياء، وجعل أكرم كل قبيلة وشعوب من الناس أتقاهم، كما قال الله جل ثناؤه. وقد فضل الله القبائل بعضها على بعض، فجعل التفاضل بين الأنبياء وسائر الناس، فقال: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ [الإسراء: ٢١]، وقال: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ [الروم: ٢٢]، فإذا اختلف شيء من خلق الله تفاضل، فللرجل الفارسي على الرجل الزنجي فضل – وإن أسلما جميعا – في نسبهما وألوانهما يعرفه الناس، وللسان العرب فضل على لسان العجم يعرفه الناس؛ لأنه لا يدخل في هذا الدين أحد من قبائل العجم،

إلا ترك لسان قومه، وتكلم بلسان العرب؛ هذا لتعرف - إن شاء الله -: أن الله قد فضل القبائل بعضها على بعض في ألوانها وألسنتها، وتسخير الله بعضها لبعض، ثم جعل الله جل ثناؤه - أفضل القبائل حين فضل بينها في النعم لبني إسرائيل - وهم: قبيلة واحدة وبنو أب - فضلا على قبائل بني آدم في زمانهم الذي كانوا فيه، فقال: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ [الجاثية: ١٦]، وقال موسى عليه السلام لقومه: ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾ [المائدة: ٢٠]، فكان بنو إسرائيل - وهم قبيلة واحدة وبنو أب - مفضلين على قبائل بني آدم في الزمن الذي كانوا فيه؛ بنعمة الله عليهم؛ إذ جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكا؛ وأكرم بني إسرائيل أتقاهم، كما قال الله عز وجل.

وإنما فسرت لك تأول الناس هذه الآية -لتعلم أن الله جعل لذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولقومه الفضل به، حين بعث الله منها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنزل الكتاب عليه؛ وأكرمهم عند الله أتقاهم كما قال الله عز وجل... (إلى آخر كلامه عليه السلام)

وقال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قوله عز وجل: ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾: ما الشعوب، والقبائل ؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما: أما القبائل فهي: قبائل العرب، وبطون العرب، وأفخاذ العرب، ورؤوس العرب، كل ذلك شيء واحد؛ تقول العرب:" نزلت في موضع كذا وكذا رأس بني فلان من بني فلان "، تريد: قبيلة، وقال ذو الرمة في نحو ذلك يصف الإبل:

تبرك بالسهل القطاء وتنفى ... غداها برأس من تميم عرمرم

يريد بالرأس: قبيلة. وأما الشعوب: فإنها قبائل العرب وبطونها وأفخذها، مثل ذلك سواء.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)﴾ [الحجرات: ١٤]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾؟

فالإسلام هو: الاستسلام والذلة والإذعان، يعني: الإجابة والطاعة والإيمان، فهو سر أو إعلان، فسره في القلوب الباطنة، وعلانيته في الأعمال الظاهرة؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا﴾، إلى قوله: ﴿إن الله غفور رحيم﴾؟

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه، وشهادة منه على: أن الإيمان قول مقول، وعمل معمول، واعتقاد في العقول، وتكذيب لمن قال بغير ذلك، من: أن الإيمان قول بلا عمل؛ فأخبر سبحانه: أن الأعراب الذين قالوا، وأقروا وصدقوا، ولم يعملوا -أنهم في قولهم:" إنهم مؤمنون " مبطلون كاذبون، وأمرهم أن يقولوا:

أسلمنا. ومعنى ﴿أسملنا﴾ فهو: صدقنا واستسلمنا للحكم؛ ألا ترى كيف قال: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾، يريد: لم يصح الإيمان لكم، ولم يدخل في قلوبكم بالقول دون العمل، فلستم من المستسلمين العاملين، ولستم من المؤمنين المخلصين. ثم أخبرهم سبحانه: أنهم إن تابوا ورجعوا إلى العمل، فعملوا بعد القول، واعتقدوا طاعة ذي الجلال والطول، فعملوا بأمره كله، وانتهوا عن نهيه كله، وكانوا مع إقرارهم بالوحدانية له عاملين مجتهدين -كانوا من بعد ذلك عنده من المفلحين، وصح لهم اسم المؤمنين؛ وذلك قوله: ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾، يريد: لا ينقصكم من جزاء أفعالكم وسعيكم؛ ولو كان كما يقول أهل الجهل والبهتان: إن الإيمان قول بلا عمل -لما قال: ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾، ولما قال للأعراب الذين وحدوا، وشهدوا بالشهادتين وصدقوا وجاهدوا، ولم يعملوا بكل الفرائض: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا﴾، يريد سبحانه: لن تكونوا أبدا مؤمنين، حتى تكونوا بالفرائض كلها عاملين.

وقال في كتاب البساط للإمام الناصر الأطروش عليه السلام:

أعلمهم: أنهم لم يكن منهم ما يستوجب إيمان أنفسهم؛ ولكن كان منهم التسليم، وإظهار قبول الحق الذي لا ينفع في الآخرة، وينفع في الدنيا إذا قارنه معصية لله كبيرة؛ وقد يكون العبد متقيا لله في بعض الأمور، ومسلما وبرا ومحسنا، ويكون مع ذلك غير متوق شيئا آخر، ولا بر ولا محسن في غير ما أحسن فيه، فيجوز أن يسمى فيما اتقى وأسلم وأحسن باسم ما فعل، ويكون ذلك نافعا له مع إصراره على معاصي الله، ولا يكون مستحقا اسم الإيمان الممدوح أهله، الموجب رضوان الله ؛ لأنه قد كان منه مع تقواه وبره في إحسانه -ما لم يؤمن به نفسه من سخط الله ووعيده، ولم يكن منه تقوى لله ولا بر ولا إحسان فيه، ولا يكون متقيا لله غير متق له، ولا مسخطا لله غير مسخط له، ولا محسنا عند الله غير محسن عنده، مستوجبا للجنة وغير مستوجب لها، ومستوجبا

للنار وغير مستوجب لها في حال واحدة.

وقد يجوز أن يقال لهؤلاء جميعا: إنهم متقون ومحسنون، ومقرون ومؤمنون، فيما كان منهم من تقوى وإقرار وإحسان، تقوى وإقرارا وإحسانا لا ينفعهم، مع ما قارنه من كبائر معاصيهم لله، المحبطة كل عمل صالح، إذا أصر عليها فاعلها، ولو لم يكن في هذا إلا شهادة الله بنص كتابه: أن المؤمن لا يستوي هو والفاسق -لكفى وأغنى، وذلك قوله جل ذكره: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون (١٨)﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (١٠٦)﴾ [يوسف].

قوله تعالى: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، بعد ذكره للآية:

فقد دخل في هذه الصفة كل طاعة؛ لأن الجهاد في سبيل الله يأتي على كل طاعة، فمن أطاع الله في أداء فرائضه، واجتناب محارمه -فهو مجاهد بنفسه لربه، في اتباع أمره، وترك هوى نفسه؛ فلا جهاد أفضل من مجاهدة النفس؛ ليردها من هواها فيما يرديها، ومن مجاهدة الشيطان، عدو الرحمن؛ فمن عمل ذلك فهو مؤمن؛ لأن الإيمان طاعة لله.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾ [الحجرات: ١٧]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي

إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾؟

فقال: هذا ذم من الله سبحانه لمن من على رسول الله صلى الله عليه وآله بالطاعة والمعاونة، والقيام فيما أوجب الله عليه؛ فأخبر الله سبحانه: أن من يمن بطاعة رسول الله، أو بالدخول في طاعته، والقيام بواجب فرض الله -مخطئ في فعله، عاص لربه، منقص لدينه، غير شاكر لنعمة خالقه. ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله: أن يبين لمن كان كذلك، أو فعل شيئا من ذلك، فيعلمه أنه ليس على رسوله له في إسلامه منة، فإنه لم يفعل في ذلك إليه حسنة. ثم أخبر: أن المنة على من فعل ذلك لله ولرسوله؛ إذ هداه إلى النجاة، وخلصه من الهلكة، حتى صار من أهل الجنان، بعد أن كان من حطب النيران، وحتى صار برحمة الله ومنته لله وليا، مستوجبا لثوابه، بعد أن كان لله حربا عدوا، مستأهلا لعقابه. ثم قال: ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾، أي: إن كنتم صادقين في أنكم مؤمنين، وفيما تدعون من الإخلاص -فاقروا بما قلنا، واخضعوا لحقنا، فإن لم تقروا بذلك وتخضعوا -فلستم بصادقين فيما تدعون من الإيمان، وتنسبون إليه أنفسكم من الإخلاص للرحمن. وهذه الآية نزلت في بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وآله، من كبار قريش، كان عتب عليه النبي في بعض أفعاله، ومن على النبي بإسلامه، وإتباعه له، وقيامه معه، ونصره له؛ فأنزل الله عز وجل فيه ما تسمع، وأوقع عليه في ذلك من الذم ما أوقع.

سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ [ق: ١، ٢]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿ق﴾، إلى قوله: ﴿هذا شيء عجيب﴾؟

فقال: ﴿ق﴾ هو: جبل كريم جعل الله فيه بركة وخيرا عظيما، ويقال: إنه أكبر جبال الدنيا، أعظمها عظما، وأبعدها أمدا، وأشدها ارتفاعا. ﴿والقرآن المجيد﴾ هو: قرآن محمد صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى المجيد فهو: العظيم الكريم. ﴿بل عجبوا﴾ معناها: لقد عجبوا، وهو جواب القسم بـ﴿ق والقران﴾، فقامت الباء مقام اللام، والمعنى فهو باللام. ﴿أن جاءهم منذر منهم﴾، فالمنذر هو محمد صلى الله عليه على آله، ومعنى منذر فهو: مخوف معذر، بين يدي عذاب الله ونقمه، وأخذه وبطشه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾

[ق: ٤]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾؟

فقال: يخبر سبحانه: أنه عالم بكل ما تنقص الأرض، ممن يقع في جوفها من موتاها؛ فأخبر: أنه يعلم ما تأكل منهم الأرض، وما يبقى من ترابهم ورميمهم، ومعنى قوله: ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾، يقول: عندنا من ذلك علم محفوظ، حتى نردهم من حيث ما كانوا، أو نجمع أجزائهم وأعضاءهم من حيث ما توجهوا، حتى نلم بعضها إلى بعض، من حيث ما كانت من الأرض.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)﴾ [ق: ٦]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج﴾؟

فقال: تزيينها فهو: بما فيها من النجوم، وذلك قوله سبحانه: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ [الملك: ٥]، ومعنى قوله: ﴿ومالها من فروج﴾ هو: وما فيها من فروج؛ فقامت اللام مقام " في "؛ لأنها من

حروف الصفات، وحروف الصفات يعقب بعضها بعضا. والفروج فهي: الفتوق والشقوق، والاختلاف بالفطور؛ فأخبر سبحانه: أنها مستوية، ليس فيها من ذلك شيء؛ وأصل ما أراد بذكر السماء وأمرها، وما جعل فيها من زينتها ونفى عنها من فطورها: أنه أراد سبحانه: أفلا توقن - يريد: يا هذا - من فعلنا بقدرتنا على ما أنكر، بما ذكرنا له من حشرنا لعبادنا، وبعثنا البشر؛ من فعل ما فعل في السماء -بقادر على أن يحشر ويعيد الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠)﴾[ق: ٩، ١٠]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠)﴾؟

فقال: هذا مثل قوله سبحانه: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ فأخبر: أنه أنزل من السماء ماء، فأنبت به ما أنبت من الجنان، والحب الحصيد، والنخل الباسقات ذوات الطلع النضيد. وأما معنى قوله: ﴿جنات﴾ فالجنات هي: البساتين، والحدائق ذوات الالتفاف، والثمار والائتلاف، ذوات الأنهار الجاريات، والثمار المذللات، اللواتي قد جمعن كل الثمار، وجرت فيها بينهن وخلالهن الأنهار، فما كان هكذا فالعرب تسميه جنانا؛ فعلى ذلك يخرج ما سمي: حصيد اليبسة، وبلوغه واستحصاده؛ فكل شيء بلغ غايته وينع تسميه العرب مستحصدا و حصيدا، أي: قد جاء وقت حصاده وقطعه، وبلغ غايته، وما ينتظر به، وأخذه. ومعنى قوله: ﴿والنخل باسقات﴾

فالباسقات هن: الطوال المشرفات، المرتفعات الساميات. ﴿لها طلع نضيد﴾ فالطلع هو: هذا الطلع الذي يخرج في النخل المعروف، ومعنى ﴿نضيد﴾ فهو: منضود بعضه على بعض، مداخل بعضه في بعض، مجتمع متقارب، وتلك صفته ما دام في أكمامه، حتى تنفلق عنه أغشيته، ثم تنفرق من بعد التناضد شماريخه، وتتباعد خيطانه.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق: ١٥]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾؟

فقال: هذا تقريع من الله للكافرين، وإخزاء منه بالتبكيت للمكذبين، الذين كذبوا النشأة الآخرة، وأنكروا ما ذكر في البعث والقيامة، وكبر ذلك في صدورهم، ولم يوقنوا برد الأبدان بعد بلائها وفنائها، وتفرقها في الأجداث وذهابها، فقال سبحانه: ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾، يريد: إن كان الخلق الأول أعيانا وأتعبنا -فسيعيينا إعادته في النشأة الآخرة، وإن لم يكن بدؤ خلقكم أعيانا فإن ردكم هو أهون من ابتدائكم علينا. ثم قال: ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾، أي: بل هم في شك من ردنا لهم بعد البلاء في خلق جديد.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩)﴾[ق: ١٨، ١٩]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨) وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩)؟

فقال: يخبر سبحانه بحفظ الحفظة له، الذين عن يمينه وعن شماله، وهما الملكان اللذان ذكر الله عن اليمين وعن الشمال قعيد، يحفظان عليه كل لفظه وفعله، وهما: الرقيب العتيد الذي مع كل آدمي، والرقيب فهو: المحصي لفعل كل فاعل، والعتيد فهو: الثابت الراتب الذي ليس بمفقود. ﴿وجاءت سكرة الموت﴾ فهي: غشية الموت وشدته، وإزالته لعقل الميت وكربته، فشبه الله زوال عقل الميت وكربته، وما ينزل به من غشيته -بالسكرة التي تذهب العقل وتفسده، والعرب تمثل كل شدة أزالت عقل صاحبها بالسكر، تقول:" مرت بنا من هذه الأمور سكرات بعد سكرات "، تريد: شدائد حالات بعد حالات. ومعنى قوله: ﴿بالحق﴾ فهو: بحقائق ما وعد الله، من ذلك قوله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، فجاء وعد الله على حقائقه، ونزل بأهله على يقينه وصدقه. ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾، يقول: ذلك ما كنت منه يا هذا الميت تحيد، ومعنى ﴿تحيد﴾ فهو: يفر منه، ويكره قربه، ولا تريده نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ [ق: ٢١، ٢٢]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن قول الله سبحانه: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾؟

فقال: هذا في يوم القيامة، عند خروج الخلق من قبورهم، ومصيرهم إلى حشرهم، ووقت حسابهم، حينئذ تأتي كل نفس ومعها ما ذكر الله، من السائق والشهيد، والسائق والشهيد فهو: الرقيب الذي ذكر الله العتيد، وهما الملكان اللذان قال الله: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ فهما يشهدان عليه ويسوقانه. ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك﴾ يقول سبحانه: قد كنت – لتكذيبك، وقلة نظرك لنفسك، والإعراض عن العمل في الدنيا بما يخلصك في هذا اليوم – في غفلة، والغفلة فهي: من التارك للعمل. معنى: ﴿كشفنا عنك غطاءك﴾ فهو: بما أظهر له من المعاينة، لما كان فيه شاكا، وعن العمل له معرضا، حتى رآه عيانا، وواجهه صراحا. ﴿فبصرك اليوم حديد﴾، فهذا مثل مثل به الله له، يريد: إنك كنت من قبل تكذب بهذا وبرؤيته، فقد أصبحت اليوم حديد البصر بمعاينته، وزال عنك الخبر، ووقع العيان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣)﴾ [ق: ٢٣]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾؟

قال: القرين الذي يقول هذا فهو: الصاحب الفاسق، المغوي له في الدنيا، والمشارك له في الإثم، من جني موسوس مغوي، أو إنسي ردي فاجر مؤذي. معنى: ﴿ما لدي عتيد﴾ فهو: ما عندي ولي، مما استوجبه بفعلي. ﴿عتيد﴾ فهو مقيم، وهو عذاب الله الأليم، النازل به وبقرينه، المشارك له في آثامه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ [ق: ٢٨، ٢٩]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩)﴾؟

فقال: أخبر سبحانه باختصام الفاجر وقرينه، وتلاومه هو ونظيره؛ فكان من رد الله عليهما، حين كان عنهما ما كان من قولهما -أن قال: ﴿لا تختصموا لدي﴾، يقول: لا تختصموا اليوم عندي. ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾، يقول: قدمت إليكم بالإعذار والإنذار، والوعيد لهذا النهار، فلم ينفعكما إعذاري، ولم يردعكما عن المعصية وعيدي؛ فاليوم لا يبدل القول لدي، وتبديله فهو: تحريفه، والتحريف فهو: من الكافرين عند تخاصمهم، يقول بعضهم لبعض: هذا بأفعالكم، وهذا بأسبابكم نزل بنا، وحق علينا وعيد ربنا. ويقول الآخرون مثل مقالتهم، وينسبون سبب ذلك إليهم؛ فكل يطرح الذنب على صاحبه، ويحيل الإغواء عليه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق: ٣٠]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾؟

فقال: هذا اليوم يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، ومعنى قوله: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾ هو: قوله لخزنتها هل امتلأت، وكذلك قوله: ﴿وتقول هل من مزيد﴾، لما أن كان الخزنة من أسبابها -جاز أن يطرح " الخزنة "، ويكون الخطاب لها، على مجاز الكلام، وهذا في القرءان موجود وفي اللغة، ومثل ذلك من كتاب الله قوله سبحانه: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾، والعجل لا يشرب في القلب، وإنما الذي شربه القلب حبه؛ فأراد: أشربوا في قلوبهم حب العجل؛ فطرح: " حبه "، وأقام:" العجل " مقامه؛ إذ كان من سببه، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

ألا إنني سقيت أسود حالكا... ألا بجلي من الشراب ألا بجل

فقال: سقيت أسود، والأسود لا يسقاه أحد، وهو سم الأسود، فطرح:" السم "، وأثبت:" الأسود " مكانه؛ إذ كان من سببه، والشاهد على ذلك من كتاب الله سبحانه أيضا قوله: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ [يوسف: ٨٢]، والقرية فإنما هي: البيوت والأبنية، وليس شيء من هذا يخاطب ولا يسأل، وإنما أراد: أهل القرية وساكنها، فطرح:" الأهل والساكن "؛ إذ كانوا من سبب القرية، وأثبت:" القرية "، وكذلك قوله: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾، أراد: لخزنة جهنم، فطرح:" الخزنة "؛ إذ كانوا من سبب جهنم،

وأثبت:" جهنم "؛ فجاء المنادى: كأن المخاطبة لجهنم، وإنما المخاطبة لخزنتها، والقومة بها.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)﴾ [ق: ٣١، ٣٢، ٣٣]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣)﴾؟

فقال: ﴿أزلفت﴾ معناها: كرمت وشرفت، وقربت منهم وقربوا منها، وهذا مشتق من الزلفى، والزلفى فهي: الكرامة بالخلاصة العالية. معنى: ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ فهو: خشيه في الغيب، والغيب فهو: ما غاب عن الناس واستتر، من ضمير القلوب، أو عمل مستور. ومعنى: ﴿جاء بقلب منيب﴾ فهو: جاء يوم القيامة بقلب نائب راجع، وقد رجع في دنياه إلى الله، وأناب إلى طاعة الله، فكان لها في دنياه من العاملين، ورجع إلى الله، وهو من المنيبين المكرمين.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق: ٣٦، ٣٧]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾، إلى قوله: ﴿وهو شهيد (٣٧)﴾؟

فقال: معنى ﴿نقبوا﴾ هو: ركضوا فهربوا؛ خوفا من العذاب، فلم يفدهم ذلك، ولحقتهم من الله النقم والمهالك. معنى قوله: ﴿هل من محيص﴾ هو: هل وجدوا من الله محيصا، ومعنى: ﴿محيص﴾ فهو: مهرب وملجأ يحيصون إليه، أو يرغبون إليه، أو يلجؤون نحوه. ﴿لذكرى﴾، يقول: تذكرة وعبرة. ﴿لمن كان له قلب﴾، أي: من كانت له فكرة ونظر، واستعمال للتمييز بعقله إذا فكر. معنا: ﴿ألقى السمع﴾ فهو: ألقى بالطاعة إلى الله ورسوله، فسمع لأمر الله وأطاع، وكان لأحكام الله ذا قبول واتباع. ﴿وهو شهيد﴾، يقول: شاهد لله بالحق، قائل فيه بالصدق، يشهد أن ما جاء به نبيه من الله، وأنه أنزل بأمر الله، وأنه من عند الله.

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾

[الذاريات: من (١)، إلى: (٦)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿والذاريات ذروا (١)﴾، إلى قوله: ﴿لواقع (٦)﴾؟

فقال: ﴿الذاريات﴾ هي: الرياح اللواتي تذري ما تذري من التراب وغيره، مما تحمله الرياح وتذروه. ﴿ذروا﴾ فهو: تأكيد لذروها، وتعجيب لأمرها، وهو كقول الرجل:" فلان يضرب ضربا شديدا، وفلان جرى جريا ". ﴿فالحاملات وقرا﴾، فهن: السحاب، والوقر فهو: ما فيهن من الماء. ﴿فالجاريات يسرا﴾، فقد قيل: إنهن السفن. ﴿والمقسمات أمرا﴾، فهي: الملائكة التي تقسم رحمة الله بأمره، وتسوق أرزاقه إلى خلقه، من ماء السماء الذي به حياة جميع الأشياء. ﴿إنما توعدون لصادق﴾، هو: جواب قسم بما أقسم الله به من هذه الأشياء المتقدمة؛ فأخبر: أن وعده حق، وأن قوله في ذلك كله صدق. ﴿وإن الدين لواقع﴾، الدين فهو: الجزاء، والجزاء هو: يكون في يوم الدين، ويوم الدين فهو: يوم حشر العالمين، وفي ذلك يقع الدين، والدين فهو: ما ذكرنا، من أنه الجزاء للخلق على

أفعالهم، يجازى ويدان أهل المعاصي بعذاب النيران، ويدان ويجازى أهل الإيمان بالثواب الكريم في الجنان، ومعنى قوله: ﴿لواقع﴾ هو: واقع بأهله، حال بمستأهله.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)﴾

[الذاريات: من (٧)، إلى: (١١)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩) قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١)﴾؟

فقال: الحبك هو: الاستواء والانحباك، والمنحبك من الأشياء فهو: المعتدل المستوي، الذي لا اختلاف فيه ولا افتراق. ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾، يقول: إنكم لفي آراء وأقاويل مذاهب مختلفة، لا تجتمعون على الحق، ولا تقولون ما يجب من كلمة الصدق. ﴿يؤفك عنه من أفك﴾، معنى: ﴿يؤفك﴾ فهو: يعجز عن قول حقه، واتباع صدقه، من عجز؛ والعاجز هاهنا من قبوله فهو: المكذب بما سمع من قيله. ﴿قتل الخراصون﴾، معناه: لعن الخراصون، والخراصون فهم: الكاذبون، المتقولون على أهل الحق بالباطل، الذين ينطقون فيهم من المنكر ما ليس فيهم، ويقولون بالمحال والكذب عليهم. ﴿في غمرة ساهون﴾، أي: في غفلة، وبحور جهالة. ﴿ساهون﴾، أي: معرضون، غافلون عما يجب عليهم في تكذيبهم، وعما هو نازل بهم من العقوبة على كفرهم.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾ [الذاريات: ١٢- ١٤]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿يسألون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣)﴾؟

فقال: معنى: ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ هو: إخبار من الله عن قولهم؛ وذلك أنهم كانوا يقولون:" أيان يوم الدين؟ " ومعنى: ﴿أيان﴾ أي: متى يوم الدين، وأي يوم الدين الذي تصف يا محمد، والدين فهو الجزاء، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾، يريد: هذا اليوم الذي يسألون عن وقته، ويكذبون بك وبه -هو يوم هم على النار يفتنون، ومعنى: ﴿هم على النار يفتنون﴾: هم في النار يفتنون، فقامت " على " مقام " في "، ومعنى: ﴿يفتنون﴾ فهو: يعذبون؛ فأخبر الله: أن يوم الدين يوم عذابهم في النار وخزيهم، وحين ملاقاتهم لسوء فعلهم.

وقال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم﴾:

يعني: يعذبون ويحرقون بالنار في الآخرة. ﴿ذوقوا فتنكم﴾، يعني: حريقكم بالنار؛ والآخرة ليس فيها فتن مثل فتن الدنيا، وهذا دليل لمن عقل.

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)﴾؟

فقال: يريد: أن في السماء ومن السماء ينزل الماء، الذي منه وبه حياة كل شيء، وصلاح أرزاق كل شيء من الثمار، والأشجار والزروع، مما يأكله الأنام، وتعيش به سوائم الأنعام. ﴿وما توعدون﴾، يخبر: أن من السماء ينزل عليهم كل وعيد، من العذاب الفادح الشديد، المهلك العتيد. ثم أقسم سبحانه: أن كل ما ذكر، وعدد لنا وحذر، من البعث والحساب، والثواب والعقاب، وهبوط الأرزاق –حق كما أنكم تنطقون حقا، لا شك فيه ولا امتراء.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الذاريات: من (٢٤)، إلى: (٢٨)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤)﴾، إلى قوله: ﴿ألا تأكلون (٢٧)﴾؟

فقال: ﴿ضيف إبراهيم﴾ هم: الملائكة التي أرسلها الله إلى لوط تنجيه وأهله، وتهلك قومه الذين يعملون السيئات، أتوا إلى عند إبراهيم بديا، ﴿فقالوا سلاما﴾، سلموا عليه، فرد عليهم السلام، ثم قال: ﴿قوم منكرون﴾، أي: لا نعرفكم من أهل دهرنا، ونحن ننكر خليقتكم وصوركم. ﴿فراغ إلى أهله﴾، يقول: عطف إلى أهله ومنزله، فجاء إلى القوم بعجل سمين مشوي، يطعمهم إياه، فوضعه بين أيديهم، ثم قال: ﴿ألا تأكلون﴾، ﴿فلما رأى﴾ صلى الله عليه ﴿أيديهم لا تصل إليه﴾ [هود: ٧٠] كما ذكر في غير هذه السورة -﴿فأوجس منهم خيفة﴾، والخيفة فهي: الفزع والمخافة، ومعنى: ﴿أوجس﴾: أحس منهم بالحق، وعلم عند ذلك أنهم ملائكة، فقالوا له: ﴿لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾: بإسحاق صلى الله عليه، فوهب الله له إسحاق بعد إسماعيل عليهما السلام، كما قال في غير هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات: من (٣٨)، إلى: (٤٢)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين (٣٨)﴾، إلى قوله: ﴿كالرميم (٤٢)﴾؟

فقال: يريد: وفي موسى آيات وعبرة. ﴿إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾، يريد: بحجة وبرهان مبين. ﴿فتولى بركنه﴾، يريد: بجانبه، أي: حول

وجهه، وثنى شقه وجانبه، ملتفتا عن موسى، معرضا عما جاء به من الهدى، ناسبا ما جاء به موسى إلى السحر والجنون؛ وهذا شيء يفعله الجبابرة المتكبرون، الفراعنة الطاغون، فإذا سمعوا ما لا يحبون، وواجهوا ما لا يريدون -صدوا بأحد جانبهم، ولوو وجوههم مع مناكبهم، منحرفين عن من بذلك يقاربهم. معنى: ﴿فأخذناه وجنوده﴾ أي: أوقعناه وجنوده في النقم. معنى: ﴿فنبذناهم في اليم﴾، أي: رمينا بهم في اليم، واليم فهو: البحر المالح الأعظم. ﴿وهو مليم﴾، معنى: ﴿وهو مليم﴾: مستوجب للعقوبة بفعله، مستدعي لدواعي اللائمة إلى نفسه، فاعل لكل ما يلام به؛ واللائمة هنا فهو: الذنب الذي عوقب عليه، ولامه الله فيه، وعاقبه عليه، وقد قيل: إن المليم هو: الصامت، المتحير الباهت، يرى من الأمر ما قد بهته وأفزعه. والقول الأول أحبهما إلي، وأصحهما عندي. ﴿وفي عاد﴾، يقول: وفي عاد آية وعبرة، وتذكرة لمن أراد التذكرة. ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾، والريح العقيم فهي: ريح العذاب الشديد الأليم، الذي لا فسحة معها، ولا فرج فيها، ولا تنفس لمن استوجبها، فلما أن لم يكن فيها راحة، ولا تخفيف ساعة واحدة -قيل: هي عقيم من الفرج والراحة، أي: لا فرج فيها، كما يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيمة، وهما اللذان لا يلدان، ولا يكون منهما ولد، فكذلك هذه الريح الشديدة العظيمة، التي لا راحة فيها، ولا يكون منها سكون طرفة عين عن أهلها، حتى تدمر كل ما أتت عليه. معنى: ﴿إلا جعلته كالرميم﴾، يقول: ضربته وطحنته، وأبادته حتى تركته مثل الرميم، والرميم فهو: الحشيش البالي، القديم العهد بالحياة الذي قد بلي، واسود وفني، ولم يبق فيه إلا فتات لا منفعة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات:٤٧-٤٩]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾، إلى قوله: ﴿لعلكم تذكرون (٤٩)﴾؟

فقال: معنى: ﴿بنيناها﴾ هو: جعلناها وخلقناها، وقدرناها سقفا عليكم ودبرناها، ومعنى: ﴿بأيد﴾ فهو: بقوة واقتدار. ﴿وإنا لموسعون﴾، يقول: إنا لها لمعظمون موسعون، فهي واسعة عظيمة، طبق على طبق، غير ناقصة ولا صغيرة. ﴿والأرض فرشناها﴾، يقول: بسطناها لكم ومهدناها، فصارت لكم بتقديرنا فراشا، ولأحيائكم وأمواتكم برحمتنا كفاتا. و﴿الماهدون﴾ فمعناها: الباسطون المسوون، الموطؤون لصعبها، المسهلون لسبلها، ومعنى قوله: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾، يريد سبحانه: إنا خلقنا من كل صنف ذكرا وأنثى، ثم خلقنا منها نسل ذلك الصنف والمعنى، وأخبر سبحانه: بأصل التناسل أنه من الزوجين. والزوجان فهو: الزوجة والزوج المتزاوجان. ﴿لعلكم تذكرون﴾، يقول: لعلكم تتفكرون في قدرة من جعل ذلك، ودبره كذلك، حتى توالد كل صنف من ذكر وأنثى، فتعلموا أن الذي دبر ذلك في الابتداء -قادر سبحانه على أن يحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات: ٥٤، ٥٥]

قال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام، بعد ذكره للآية:

فأمره بالتولي عمن عصاه، والتنحي عمن أباه، وأخبر أنه من بعد الاجتهاد غير ملوم في تركهم، ولا بمعاقب في رفضهم، ثم أمره بالتذكرة للعالمين، والدعاء لجميع المربوبين، وأخبره أن ذلك ينفع المؤمنين، وكلما ينفع المؤمنين من العظة والتذكرة فهي حجة الله على العصاة الكفرة، فإذا ابتلي بذلك من أتباعه، وخافهم على دين ربه، فليتنح عنهم إلى غيرهم، وليجتهد في الطلب لما له قصد، ولله فيه انتدب، ولا يفتر ولا يني، ولا يهن في أمر الله ولا يضعف؛ فإن الله يقول سبحانه: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، ويقول سبحانه: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾. قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه: كذلك فعل الحسن بن علي عليه السلام، حين خولف وعصي، ولم يجد على الحق متابعا ولا وليا، فخرج لما أن أخرج، وترك لما أن ترك، ثم كان من بعد ذلك متربصا راجيا، طامعا بالأعوان المحقين، ليقوم بما ألزمه الله من جهاد الظالمين، فإذا صار الإمام من خذلان الرعية له، والرفض لأمره، وقلة الأنصار على حقه، إلى ذلك -فعل كما فعل الحسن عليه السلام من قبله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩)﴾

[الذاريات: من (٥٦)، إلى: (٥٩)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٢٦)﴾، إلى قوله: ﴿فلا يستعجلون (٥٩)﴾؟

فقال: هذه شهادة من الله، وقول بالحق، وإخبار عن فعله الصدق: أنه لم يخلق خلقا إلا لطاعته، والعمل بمرضاته، لا ما يقول الكفرة الفاسقون، الجورة المجترؤن من أنه خلق فريقا للمعصية، وفريقا للطاعة، فأكذبهم الله تبارك وتعالى بما ذكر في هذه الآية. ثم أخبر: أنه لم يخلقهم ليرزقوه ولا ليطعموه، وإنما على هذا المثل؛ تبارك الله وتعالى عن الأكل والشرب، والحاجة إلى الرزق، والذي ليس كمثله شيء، ولا يشبهه شيء، وهو على خلاف كل شيء، مباين لكل شيء، وهو السميع العليم. ثم أخبر أنه الرزاق غير المرزوق، الذي لا يحتاج إلى المخلوقين، وهم إليه محتاجون، وإلى رزقه وفضله مضطرون. ﴿ذو القوة المتين﴾، يقول: ذو القدرة والسطوة، والمتين فهو: القوي العزيز، العظيم المحال، الشديد النكال. ﴿فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم﴾، يقول: سجال من العذاب واقع بهم، كما نزل بالأولين العاصين. وفي ذلك ما يقول الشاعر:

لنا ذنوب ولكم ذنوب... فإن أبيتم فلنا القليب

يقول: لنا جزء ولكم جزء، ولنا دلو ولكم دلو، فإن أبيتم أن نستقي

وتستقون طردناكم عن القليب، وأخذناه كله، والقليب فهي: البير العادية.

وقال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦)﴾:

المراد به: المتعبدون منهم، كما قال تعالى: ﴿والعصر (١) إن الإنسان لفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [العصر]، والأطفال من الناس لم يؤمنوا، ولا عملوا الصالحات، فلما لم يستثنهم من الخسر، ولم يكونوا ممن استثنى -علمنا أن الآية خاصة للمتعبدين من الناس، فكذلك الآية الأولى.

قوله تعالى: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]

قال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام، بعد ذكره للآية:

معناه: القوي المتين.

سورة الطُّور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)﴾ [الطور: من (١)، إلى: (١٠)]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألت عن: ﴿والطور (١) وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣) والبيت المعمور (٤) والسقف المرفوع (٥) والبحر المسجور (٦)﴾؟

الطور هو: طور سيناء، وقد ذكره الله في غير مكان، والبلد الأمين؛ فأقسم بهما؛ لما هو أعلم به سبحانه من أمرهما. ﴿وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣)﴾، هو: ما نزله الله من كتبه، وكتب في رق وغيره. ﴿والبيت المعمور (٤)﴾، هو: بيت الله الذي يعمر أبدا بذكر الله، وبالوافدين في كل حين إلى الله، كما قال سبحانه لإبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما، ﴿طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ [البقرة:١٢٥]. ﴿والسقف المرفوع (٥)﴾، هو: السماء. ﴿والبحر المسجور (٦)﴾، هو: البحر الأعظم. المسجور فهو: المحبوس على حدوده ومنتهاه، فليس يجوز حدا من حدوده ولا يتعداه.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿والطور (١) وكتاب مسطور (٢)﴾، إلى قوله: ﴿وتسير الجبال سيرا (١٠)﴾؟

فقال: هذا قسم من الله سبحانه بهذه الأشياء؛ لما فيها من عظيم الآيات والثناء، والبركة والخير لمن اهتدى. ﴿والطور﴾ فهو: جبل بالشام، يسمى: الطور، كثير البركة والخير. ﴿وكتاب مسطور﴾، فهو: كتاب محمد صلى الله عليه وعلى آله المذكور. ﴿في رق منشور﴾، والرق فهو: الرق المعروف، الذي تكتب فيه المصاحف. ﴿منشور﴾ فهو: مفتوح معلوم. ﴿والبيت المعمور﴾، فهي: كعبة الله التي جعلها قبلة للمؤمنين، وهي: بكة، وهي: بقعة البيت التي في وسط مكة. ﴿والسقف المرفوع﴾، فهي: السماء المرفوعة، التي جعلها الله سقفا للأرض الموضوعة. ﴿والبحر المسجور﴾، فهو: البحر الأخضر، المالح الأكبر، والمسجور فهو: ذو الصوت والهيجان والأمواج؛ فشبه الله اضطرابه، وتقلب مياهه، واصطدام أمواجه -بالتنور المسجور، والمسجور فهو: الموقد الذي قد تأججت ناره، واستوقدت فيه، فهاج لها صوت لديه، والعرب تقول:" اسجر التنور "، أي: أوقده، فشبه الله تبارك وتعالى البحر بالسجير؛ لتسجير النار في التنور. ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾: فوقع القسم على وقوع العذاب. ﴿ما له من دافع﴾، يقول: ما فيه من حيلة، ولا له من مانع. ثم أخبر: متى يقع العذاب الذي عليه أقسم، فقال: ﴿يوم تمور السماء مورا (٩) وتسير الجبال سيرا (١٠)﴾، وذلك فهو: يوم القيامة الذي تمور فيه السماء، ومورها فهو: امحاقها وذهابها، وتقطعها ورجوعها، إلى ما منه خلقها ربها، وفي ذلك اليوم تسير الجبال سيرا، ومعنى:" تسير سيرا " فهو: نسفها عن وجه الأرض، وذهابها من الأرض، كما ذكر الله سبحانه حين يقول: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾، أي: تنقطع وتذهب وتمحق، كتقطع السحاب وذهابه، من بعد تجسمه واجتماعه؛ فهذا معنى: ﴿تسير الجبال﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥)﴾ [الطور: ١١]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿فويل يومئذ للمكذبين (١١) الذين هم في خوض يلعبون (١٢)﴾، إلى قوله: ﴿أم أنتم لا تبصرون (١٥)﴾؟

فقال: هذا إخبار من الله بأن الويل ينزل بالمكذبين، في يوم تمور السماء مورا، وتسير الجبال سيرا، والويل فهو: العذاب، والمكذبون فهم: الذين كذبوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله. ﴿في خوض يلعبون﴾، فالخوض هو: التكذيب والهروج، والشك والمزح. و﴿يلعبون﴾ فهو: يعبثون ويهزؤون. ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾، معنى: ﴿يدعون﴾ أي: يدفعون ويدقون، ويجرون ويضربون؛ تقول العرب:" دعه "، أي: ادفعه بيدك، والكزه بجمعك. ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾: في الدنيا تجحدون، ومواقعتها في هذا اليوم تنكرون. ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ يقول: هذا سحر كما كنتم تفعلون في الدنيا إذا أنذرتم بذلك؟! ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾: ما قد دفعهم فيه، يريد: بلى، إنكم لتبصرونه وترونه عيانا، بعد أن كنتم تكذبون به وتنكرونه إنكارا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾ [الطور: ٢١]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿والذين آمنوا وتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾، إلى قوله: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾؟

فقال: يريد سبحانه: أن كل مؤمن يتبعه ذريته بإيمان مثل إيمانه، ولقيت الله بذلك؛ فإنهم يلتقون به في دار الثواب. وقوله: ﴿وما ألتناهم﴾ يريد: وما انتقصناهم مما وعدناهم على إيمانهم شيئا، فأما قوله: ﴿من عملهم﴾ فإنما يقول: من جزاء عملهم، وأما قوله: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾، فهو يخبر: أن كل امرئ بعمله مرتهن، وبكسبه مجازا، خيرا فخيرا، وشرا فشرا.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾

[الطور:٢٣]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم﴾؟

فقال: اللغو فهو: الهذيان، والكلام الذي يخرج ممن قد زال عقله، فيلغى في لفظه، عند سكره وشربه لخمره؛ فأخبر الله: أن خمر الآخرة لا يفسد منها العقول، ولا ينطق شاربها باللغو والفضول، وأما قوله: ﴿ولا تأثيم﴾، فهو: لا إثم على شارب خمر الآخرة، من الإثم والعقوبات، وما أوعد الله عليها شاربها

من النكرات.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾[الطور: ٢٦، ٢٧]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

أي: من الذنوب، تاركين لها، مجدين في الأعمال الصالحات، مشفقين ألا يقبل منا، ﴿فمن الله علينا﴾، فنعم أجر العاملين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين (٢٦) فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم (٢٧)﴾؟

فقال: هذا قول من المؤمنين، عندما ينجيهم الله في الآخرة من العذاب المهين؛ يخبرون: أنهم كانوا في الدنيا، وهم بين أهليهم -مشفقين من عذاب الله؛ ومعنى: ﴿مشفقين﴾ فهو: خائفون وجلون. ﴿فمن الله علينا﴾: بصرف ما كان منه وجلنا، وإشفاقنا من عذاب السموم، وإنما اشتق السموم من الأمر الشديد من وجه السموم، والسموم فهي: النار ذات الحريق، والحر المهيل، ومنه اشتق اسم السموم للريح الحارة، الشديدة الحر، التي تلفح الوجوه منها، كمثل لفح وهيج النار.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾

[الطور:٢٩]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون﴾؟

فقال: هذا أمر من الله، أمر به نبيه صلى الله عليه وعلى آله: أن يذكر به، ويدعوا إليه، ثم أخبر: أنه ليس كما يقول الكافرون فيه، ويقذفونه به، من الكهانة والجنون؛ فنفى الله ذلك عنه، فقال: ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾، بل أنت الرسول الكريم الأمين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤)﴾ [الطور: من (٣٠)، إلى: (٤٤)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (٣٠)﴾، إلى قوله: ﴿سحاب مركوم (٤٤)﴾؟

فقال: هذا إخبار من الله عما يقول الكافرون في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، كانوا يقولون: إنه شاعر لا رسول، وكان بعضهم يقول لبعض: تربصوا به ريب المنون؛ معنى:" تربصوا " فهو: انتظروا وتوقعوا ريب المنون، والريب فهو:

الوقوع والنزول، والمنون فهي: الموت؛ فأمر الله نبيه عليه السلام أن يقول لهم: ﴿تربصوا إني معكم من المتربصين﴾، يقول: انتظروا بي؛ فإني أنتظر بكم مثل ما تنتظرون بي، وأعظم من ذلك، مما أرجوه من نزول عذاب الله عليكم. ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾، يقول: أليس يزعمون أن لهم أحلاما وعقولا، أفحلامهم تأمرهم وتدلهم على المكابرة للحق، وقول الباطل. ﴿أم هم قوم طاغون﴾، يريد: أم هم قوم قد طغوا عليك، فسينزل بهم البلاء على طغيانهم، ويحل بهم النقم على كفرهم. معنى: ﴿أم يقولون تقوله﴾ يريد: أم يقولون: إنه كذبه، وادعى أنه من الله، وليس من الله. ﴿بل لا يؤمنون﴾، يقول: بل هم لا يصدقون أنه من الله. ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾، يريد سبحانه: إن كانوا صادقين أنك تقولته –﴿فليأتوا بحديث مثله﴾، يريد: بقرآن مثله؛ لأنه إن كان منك فسيقدرون على أن يأتوا بمثل ما أتيت به، وإن كان من عندنا فلن يقدروا على ذلك أبدا. ثم قال سبحانه: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾، يريد: أفلا يعتبرون، فينظروا في خلقهم: أمن غير شيء خلقوا أم من شيء جعلوا، فإن نظروا فسيبين لهم من أثر صنعنا ما يدلهم على أن ما جئت به من عندنا، ثم لينظروا: أهم الخالقون أم غيرهم الخالق، فإن أقروا بخلق غيرهم لهم، وبأنهم لم يخلقوا أنفسهم –فسيعلمون أن الذي أرسلك إليهم هو الخالق لهم. ﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون (٣٦) أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون (٣٧)﴾: فكل هذا يريد سبحانه: أنهم إن كانوا كذلك، وكانوا يفعلون ذلك –فالقول قولهم، وإن كانوا ليسوا بفاعلين ذلك، ولا قادرين عليه –فليعلموا أن الفاعل لما عجزوا عنه هو الباعث لك، والمنزل لما معك ،مما عجزوا أن يأتوا بمثله. ﴿أم هم المصيطرون﴾، يريد: أم هم المستحصون لكل الأشياء، الموكلون عليها، الحافظون لقليلها وكثيرها؛ فلن يكونوا كذلك أبدا، ولن يكون غير الله كذلك، ولن يعلمه ويحصيه سواه. ﴿أم

لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾: هذا مثل مثله الله تبارك وتعالىٰ، يقول: أم لهم سلم يرقون فيه إلىٰ السموات، حتىٰ يسمعوا وحي الله الذي ينطق به ملائكته عنه، فإذا كان ذلك كذلك عندهم -فليأت الذي استمع في السلم لهم بسلطان مبين، أي: بحجة تدل علىٰ ذلك وتبينه، وإلا فهم مبطلون؛ والحجة فهي: السلطان، والمبين: بين ظاهر. ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾: هذا إنكار من الله لقولهم: إن الملائكة بنات الله، فقال الله تبارك وتعالىٰ: هل يكون ما قلتم من ذلك، أو يجوز أن يصفيكم بالبنين، ويدع لنفسه البنات، لو كان كما تقولون؛ تعالىٰ الله عن ذلك علوا كبيرا، وتقدس عما يقول فيه الكافرون تقديسا عزيزا كريما. ﴿أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾، يقول: أم هذا الصدود والمنافرة لك لأجر سألتهم إياه، والأجر فهي: الأجرة علىٰ ما جاء به. ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾، يقول: فهم من شدة الغرم الذي ألزمتهم إياه مثقلون؛ فمعنىٰ: ﴿مثقلون﴾ أي: مفدوحون، لا يطيقون ما كلفتهم، ولا يجدون ما سألتهم، فهم كارهون لأمرك؛ لعظيم ما كلفتهم من أجرك. ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾، يقول: أم عندهم علم الغيب، فهم يعلمون كل شيء، فيكون ما قالوا من علم غيبهم؛ ومعنىٰ: ﴿يكتبون﴾ فهو: يعلمون. ﴿أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون﴾، يقول: أم هذا الذي يفعلون بك، من التكذيب وغيره - هو مكر يمكرونه، وكيد لك يريدونه. ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾: هم المعذبون الذين يقع عليهم الكيد، ويحقهم دون غيرهم، حتىٰ يكون ما أملوا إيقاعه بك من الكيد عليهم، وتكون أنت سالما من ذلك، وهم فيه واقعون. ﴿أم لهم إله غير الله﴾، يقول: أم لهم خالق ومدبر غير الله، فهم إليه يلجؤون، وبه يتعززون؛ كلا ماهم من آله غير الله الذي عليه يجترؤون، وبه يكفرون. ﴿سبحان الله عما يشركون﴾، يقول: تعالىٰ الله وتنزه عما يقولون ويفعلون، من شركهم وكفرهم. ﴿وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم﴾،

الكسف هو: العذاب النازل من السماء؛ فأخبر سبحانه: أنهم عند معاينتهم لو عاينوه -لقالوا: هذا سحاب مركوم - المركوم فهو: الذي بعضه على بعض -؛ فإذا رأوه توهموا أنه سحاب، حتى يقع عليهم فيهلكم، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ [الأحقاف: ٢٤].

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾ [النجم: من (١)، إلى: (٢٣)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿والنجم إذا هوى (١)﴾، إلى قوله: ﴿ولقد

جاءهم من ربهم الهدى (٢٣)﴾؟

فقال: هذا قسم من الله سبحانه بالنجوم عند هويها، ومعنى: ﴿النجم﴾ فهو: النجوم جميعا، كما قال الله: ﴿يا أيها الإنسان﴾، وهو يريد: الناس طرا، ومعنى: ﴿هوى﴾ فهو: غاب وتدلى؛ فأقسم بهويه عند هويه؛ لما في ذلك من عظيم الآيات، وكبير الدلالات، على مسير الأرض والسموات. ثم قال: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾، فأقسم بالنجم: أن محمدا صلى الله عليه وعلى آله ما ضل عن الهدى، ولا عدى عما أمره به العلي الأعلى، وأنه ما أفك ولا غوى، ومعنى: ﴿غوى﴾ فهو: ضل وهلك إذا أساء. ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾، يقول: ما يأتيكم صاحبكم إلا بوحي يوحى إليه، ولا يأمركم إلا بما ينزل من الله عليه. ﴿علمه﴾ معناها: فهمه وأمره به. ﴿شديد القوى﴾ فهو: جبريل صلى الله عليه، يقول: شديد الأسر والخلق. ﴿ذو مرة﴾، والمرة فهي: العزيمة والقوة، والنفاذ فيما يؤمر به. ﴿فاستوى﴾ معناها: فتم وكمل. ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾، والأفق الأعلى: أفق السماء الدنيا. ﴿ثم دنا فتدلى﴾، يقول: تقرب ودنا، ونزل حتى كان من محمد صلى الله عليه وآله في الهوي ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾، ومعنى: ﴿قاب قوسين﴾ فهو: قدر علوتين في الهوى. ﴿أو أدنى﴾، يقول: أو أقرب من القوسين، وفوق القوس. ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، يقول: أوحى جبريل المتدلي على قاب قوسين أو أدنى، إلى عبد الله محمد، ما أوحى من الوحي، الذي بعثه به الواحد الأعلى. ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾، يقول: ما كذب فؤاد محمد وقلبه فيما قد أيقن به من آيات ربه، من تدلي جبريل إليه بوحي خالقه. ﴿أفتمارونه على ما يري﴾، يقول: تكابرونه وتجاحدونه فيما قد عاينه عيانا ورآه. ﴿ولقد رآه نزلة أخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤) عندها جنة المأوى (١٥)﴾: فشهد سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله: أنه قد رأى جبريل في الصورة التي خلقه الله فيها مرتين، حين دنا فتدلى، وعند سدرة المنتهى؛ وسدرة المنتهى فهي: أعلى عليين، وعندها جنة المأوى

في أعلى عليين أيضا، من فوق السماء السابعة العليا؛ وهذه الآية حجة بأنه أسرى بعبده ليلة اسرائه إلى المسجد الأقصى -إلى السماء السابعة العليا، التي فوقها سدرة المنتهى، حتى رأى جبريل عندها نزلة أخرى، وهذه الآية أيضا حجة في أن الله قد خلق الجنة. ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى (١٦) ما زاغ البصر وما طغى (١٧)﴾، فالسدرة هي: سدرة المنتهى، والذي غشيها فهو: جبريل، حين رآه محمد عندها وفوقها، غاشيا لها ولغيرها، في خلقه الأعظم، الذي خلق فيه. ﴿ما زاغ البصر﴾، يقول: ما عدل عنه ولا شبهه، ولا تخايله ولا ظنه؛ بل قد رآه بحقائق الرؤية وأبصره. ﴿وما طغى﴾: رجع الخبر إلى محمد عليه وآله السلام، يقول: ما طغى في ما خبركم به عن ربه، ولا دخله في ذلك أشر ولا بغي؛ بل قد صدقكم عما أبصر ورأى. ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾، يقول: لقد رأى من جبريل في هذه الصورة مرة بعد مرة آية من آيات الله العظمى، لا يشبهها شيء من الأشياء. ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾، اللات هي: قبة كانت بالطائف، والعزى فهي: أخرى كانت لهم ببطن نخلة، على مرحلتين من مكة، كانوا يزينونهما بالجوهر، والذهب والفضة، والثياب الحسنة، وكانوا يعبدونهما كما يعبدون الأصنام، ويرونهما أعظم قدرا من الأصنام. ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾، فهو: صنم كان لهم على الكعبة؛ فعنفهم الله في عبادة مثل ذلك، يقول: أرأيتم ما تعبدون من هذه، لأي معنى تعبدونه؟! ولأي سبب تتخذونه آلهة، من دون الله، وهن لا ينفعنكم، ولا يضررنكم؟! ﴿ألكم الذكر وله الأنثى (٢١) تلك إذا قسمة ضيزى (٢٢)﴾: هذا في ما كانوا يزعمون من أن الملائكة بنات الله إناث، وأن لهم هم البنين الذكور، فقال الله: أي حكم هذا، أو عدل عندكم، أن تجعلوا لربكم البنات، وتجعلون لأنفسكم البنين؟! هذا إذا قسمة ضيزى، والضيزى فهي: الجائر الفاسدة، التي لم تقع على عدل، ولا على حق. ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾، وكذب كذبتموه على الله، لم ينزل به سلطانا، والسلطان فهو: الحجة

والدليل والبرهان. ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾، يقول: إن يتبعون فيما يسمون ويذكرون إلا هوى أنفسهم، وظنا منهم، بلا حقيقة ولا بيان. ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾، يقول: قد جاءهم من الله نفي ذلك على لسان نبيه، وبان لهم طريق الهدى، والحق والتقوى.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى (٩)﴾:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾؟

الجواب: أن الذي صار قاب قوسين أو أدنى هو: جبريل صلى الله عليه؛ فكان في هذا الموقف قد دنى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صورته التي هو عليها مع الملائكة المقربين، حتى كان من الرسول قاب قوسين أو أدنى. ومعنى: ﴿قاب قوسين﴾ فهو: مقياس رميتين بالقوس في الهواء، فدنى منه صلى الله عليهما، حتى كان في الموضع الذي ذكره الله تبارك وتعالى فيه، ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، مما أرسله الله به من الأشياء؛ فهذا تفسير ما عنه سألت من قوله: ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾.

وقال في الأساس للإمام المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿عندها جنة المأوى (١٥)﴾:

تلك جنة تأوي إليها أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم والشهداء، في بقية أيام الدنيا، لا جنة الخلد التي وعد المتقون؛ جمعا بين الأدلة.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)﴾ [النجم: ٢٤-٢٦]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿أم للإنسان ما تمنىٰ (٢٤)﴾، إلىٰ قوله: ﴿لمن يشاء ويرضىٰ (٢٦)﴾؟

فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنىٰ﴾، يقول: هل يكون للإنسان ما تمنىٰ، هل يأتيه ويستوي له تمنيه، إذا تمنىٰ، أم ليس له غير الحق، وإن لم يكن يشاؤه؟! ﴿فلله الآخرة والأولىٰ﴾، يقول: لله الأمور كلها، أمور الآخرة والأولىٰ؛ والأولىٰ فهي: الدنيا؛ فأخبر سبحانه: أنه لا يمنع أحدا ما يتمنىٰ، ولا يصح في يده شيء من ذلك أصلا، وأن الأمر كله لله الواحد الأعلىٰ. ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا﴾، فقال: هذا نفي من الله لما تروي الحشوية والإمامية من الشفاعات لأهل المعاصي؛ فأخبر سبحانه بما أخبر من كثرة الملائكة في السموات، وأنهم لا تغني شفاعتهم لأحد من خلق الله لو شفعوا، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضىٰ﴾، يقول: إنهم لو شفعوا بأسرهم في مذنب واحد ممن قد حق عليه الوعيد لم ينفعه ذلك، ولم تجز شفاعتهم عند الله فيه، إلا من بعد أن يأذن الله للمستشفعين، فيشفعوا للمؤمنين، الذين قد رضي الله سعيهم، فتشفع لهم الأنبياء في زيادة الثواب، وكثرة العطاء، وبلوغ ما لا يبلغونه بأعمالهم من الأشياء.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٢٩)﴾

[النجم:٢٩]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

الإعراض فهو: الهجرة والمجانبة، وسواء في ذلك القرابة وغير القرابة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ(٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم: ٣٢-٦٢]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾:

وسئل عن: قول الله سبحانه: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾؟

فقال: هذا نهي من الله سبحانه لعباده عن تزكية أنفسهم؛ لأنه - لا شريك له

- أعلم بسرهم وعلانيتهم، والله تبارك وتعالىٰ لا يخطئ علمه فيهم ولا يغلط، ولا يسخط إلا في موضع السخط، وقد يغلطون في أفعالهم ويخطئون، فيظنون أنهم في بعض ما يعملون لله مرضون، وهم عنده في ذلك مسخطون، ويقولون القول الذي يتوهمونه لله رضىً، وهو عند الله سخط؛ ألا ترىٰ كيف يقول سبحانه: ﴿هو أعلم بكم﴾، وكذلك الله سبحانه: هو أعلم بهم من أنفسهم، والمحيط بعلانيتهم وسرهم.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام، في هذه الآيات:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾؟

فكبائر الإثم والفواحش فهو: ما وعد الله عليه النار. ﴿إلا اللمم﴾، واللمم هو: ما ألم به الإنسان من غير تعمد، ولا قصد ولا إرادة. ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾، معناه: كثير المغفرة. ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾، يقول: هو عالم بكم وبأخباركم، وبما يكون منكم إلىٰ يوم القيامة، فقد علم ذلك كله مذ وقت إنشائه لكم من الأرض، ومعنىٰ: ﴿أنشأكم من الأرض﴾ فهو: خلقه لآدم عليه السلام في بدئ الخلق من التراب والأرض. ﴿وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾، يقول: إذ أنتم مستجنون في بطون أمهاتكم، قبل خروجكم إلىٰ الأرض، فهو يعلم ما ستفعلون عند كبركم، وبلوغ أشدكم. ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقىٰ﴾، يقول: لا تقولوا أنكم أزكياء ولستم بأزكياء، ولا تسموا أنفسكم أتقياء وأنتم تعملون غير عمل أهل التقوىٰ. ﴿هو أعلم بمن اتقىٰ﴾، أي: بمن آمن واهتدىٰ واستوىٰ. ﴿أفرأيت الذي تولىٰ (٣٣) وأعطىٰ قليلا﴾، يقول: ممن أعطىٰ حق الله قليلا. ﴿وأكدىٰ (٣٤)﴾: علىٰ كثير منه، ومعنىٰ: ﴿أكدىٰ﴾ فهو: منع وأبىٰ أن يدفع ما عليه من حق الله، فقال تبارك

وتعالى: ﴿أعنده علم الغيب﴾: في ما فعل أنه لا يعاقب عليه، ﴿فهو يرى﴾، أي: فهو يعلم ما له وعليه في ذلك. ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى (٣٦) وإبراهيم الذي وفى (٣٧)﴾: الذي في كتبهما صلوات الله عليهما -فهو ما ذكر أنه: ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ومعنى: ﴿وفى﴾ فهو: بلغ وأدى، ومعنى: ﴿وازرة﴾ فهي: حاملة، يقول: لا تحمل حاملة حمل أخرى، وهذا مثل؛ فالذي لا يحمل هاهنا فهو: العمل لا يحمله غير صاحبه، أي: لا يلزم عمل واحد غيره ؛بل كل إنسان مأخوذ بعمله دون غيره. ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾، يقول: ليس يجب للإنسان ولا عليه إلا عمله. ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾، يقول: عمله سوف يظهر، ويوجد غدا عند الله جزاؤه؛ ألا ترى كيف يقول: ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾، يقول: يعطى عليه العطاء الأوفى، من خير أو شر، والأوفى فهو: الذي لا يزيد ولا ينقص. ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾، يقول: إلى الله المصير غدا. ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾، يخبر سبحانه: أنه الذي جعل في الإنسان استطاعة الضحك والبكاء، وركب فيه السخط والرضى. ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾، يخبر: أن الموت منه والحياة، في مبتدأ الخلق والإعادة، بعد الموت والإنشاء. ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى (٤٦)﴾، فأخبر أنه يريد النطفة في الرحم حينا ذكرا، وحينا أنثى، حتى خلق من هذا الماء المهين الزوجين اللذين منهما يكون نسل الآدميين. ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾، يقول سبحانه: إن عليه أن يبعث الخلق ويردهم، بعد فنائهم ويردهم أحياء، يحاسبهم ويعاقبهم، ويثيبهم بأفعالهم المتقدمة؛ فالبعث من القبور هي: النشأة الأخرى؛ والنشأة الأولى: فابتداء الخلق من النطفة في الرحم بشرا كاملا. ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾، معنى ﴿أغنى﴾ فهو: رزق وأعطى، ومعنى: ﴿أقنى﴾ فهو: رزق وكفى، وتولى كفاية عبيده، وأرزاق خليقته. ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾، والشعرى: نجم معروف في السماء، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

نظرتكم العشاء إلى سهيل... أو الشعرى فطال بي الأناء

يقول: انتظرت قراكم أن يأتي إلى طلوع سهيل أو طلوع الشعرى، فطال بي الانتظار، ولم يأت شيء. ﴿وأنه أهلك عادا الأولى (٥٠) وثمود فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى (٥٢)﴾، ومعناه: يخبر سبحانه: أنه الذي أهلك عادا الأولى، ومعنى: ﴿الأولى﴾: الأولة. ﴿وثمودا فما أبقى﴾: فلم يبق منهم أحدا؛ لما أن عقروا الناقة، وعصوا صالحا. ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾، يقول: أظلم من ثمود وأطغى، ومعنى: ﴿أطغى﴾ فهو: أبغى، وأشر وأردى. ﴿والمؤتفكة أهوى﴾، معنى: ﴿أهوى﴾ فهو: أهلك وأردى. ﴿فغشاها﴾ الله من عذابه ﴿ما غشى﴾، ومعنى: ﴿غشى﴾: نزل عليهم وابتلى. ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾، يقول: ففي أي آلاء ربك تشك، والآلاء فهي: الآيات هاهنا والابتلاء. ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾، معنى: ﴿نذير﴾ فهو: مبلغ معذر منذر. ﴿من النذر الأولى﴾، يريد: كالنذر الأولى؛ يخبر: أنهم قد أنذروا كما أنذر الأولون، فإن عصوا كما عصوا أهلكوا كما أهلكوا. ﴿أزفت الآزفة﴾: قربت القريبة؛ الآزفة فهي: القيامة الآخرة. ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾، يقول: ليس لها من بعد مجيء الله بها دافع ولا مؤخر. ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) وتضحكون ولا تبكون (٦٠) وأنتم سامدون (٦١)﴾، يريد سبحانه: أفمن إخبارنا إياكم بالآزفة، وقرب الآخرة، ووقوع الواقعة -﴿تعجبون﴾، أي: تشكون ولا تصدقون، ﴿وتضحكون﴾ إذا قرئ عليكم ما تسمعون، ضحك ممتري في قولنا، شاك في وعدنا ووعيدنا. ﴿ولا تبكون (٦٠) وأنتم سامدون (٦١)﴾، والسامد فهو: المنصت المغموم، الهائم الوجل الراهب، الذي قد انقطع كلامه لخوف ما أمامه وقدامه. ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾: أمر منه سبحانه لهم بالإيمان، والتصديق بما جاء به رسولهم من الوعد والوعيد؛ والسجود فهو: وضع الجبهة على الأرض، والعبادة بالقول والطاعة.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى بن الهادي عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾:

معنى قوله سبحانه: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ فهم: الصالحون العارفون بالله سبحانه، الذين لا يدخلون في سخطه، ولا يتجنبون ساعة طاعته، فاجتنبوا المعاصي التي يستوجبون بها النيران، ويخرجون بارتكابها من طاعة الرحمن، وهي التي يجري بفعلها الحدود، وتقع بها الآثام، مما قد أوجب الله تبارك وتعالى فيه ما أوجب على مرتكبه من جميع الأنام، من قتل وقطع وحد؛ فأخبر سبحانه أنهم مجتنبون لهذا، ثم ذكر اللمم وما قد تفضل به من العفو، واللمم فهو: ما ألم بالقلب وخطر عليه، مما لو أنفذه صاحبه لكان معصية لله، ألم بقلبه، ثم أعرض عنه، ولم يعقده في نفسه، ولم يفعله بيده، ولا بشيء من جوارحه؛ فهذا هو اللمم، ومن اللمم أيضا: ما ألم به الإنسان من غير تعمد ولا قصد له؛ فهذا معنى اللمم ومخرجه، فافهم ذلك إن شاء الله.

سور القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾ [القمر: من (١)، إلى: (٨)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر (١)﴾ إلى قوله: ﴿هذا يوم عسر (٨)﴾؟

فقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ فهو: إخبار من الله سبحانه لنبيه بقرب الساعة ودنوها، وأنه لم يبق من الدنيا إلا يسير، وقوله: ﴿انشق القمر﴾، يقول: اقتربت الساعة، واقترب انشقاق القمر، وانشقاقه فهو: في يوم الدين، في وقت تبديل السموات والأرضين. ﴿وإن يروا آية﴾، يقول تبارك وتعالى: وإن يرى المشركون آية من آياتنا يعرضوا عنها، بالتكذيب بحقائقها. ﴿ويقولوا هذا سحر مستمر﴾، أي: مستوى متتابع، كل يوم يأتينا منه شيء. ﴿وكذبوا واتبعوا

أهواءهم﴾، يقولوا: كذبوا واتبعوا أهواءهم، يقول: كذبوا بالآيات، واتبعوا في ذلك ما يهوون من الباطل. ﴿وكل أمر مستقر﴾، يقول: كل أمر يكون منهم فهو مستقر عندنا، حتى نجازيهم غدا عليه، ونوفيهم ما كان من وعدنا فيه، ومعنى: ﴿مستقر﴾ فهو: محفوظ بائن، لا ينسى ولا يضل. ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾، يقول: قد جاءهم من الأخبار والآيات الصادقات، والدلائل الباهرات -ما فيه زجرهم، عما هم عليه، ومعنى زجرهم فهو: نهاهم ومنعهم عما هم فيه من باطلهم. ﴿حكمة بالغة فما تغن النذر﴾، يقول: آيات محكمة، ودلائل كافية بالغة. ﴿فما تغن النذر﴾، يقول: ما يردعهم الرسل عند ذلك، والنذر هنا فهي: إنذار الرسل لهم، وبعثها بذلك من الله سبحانه. ﴿فتول عنهم﴾، يقول: دعهم إذ لم يقبلوا، وأعرض عنهم؛ إذ لم يطيعوا. ثم ابتدأ سبحانه الخبر، فقال: ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾، معنى ذلك: ستعلمون يوم يدع الداع لشيء نكر، والنكر فهو: الأمر المنكر الذي ينكرونه، حتى يعاينوه ويفزعهم حين يرونه. ﴿خشعا أبصارهم﴾، معنى: ﴿خشعا﴾ فهي: مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم، ولا يمدون أبصارهم أمامهم، من الفزع والخوف، والإيقان بالبلاء العظيم. ﴿يخرجون من الأجداث﴾، فالأجداث هي: القبور. ﴿كأنهم جراد منتشر﴾، فشبههم في كثرتهم، بالجراد المنتشر، وهو: الكثير المعروف. ﴿مهطعين إلى الداع﴾، معنى: ﴿مهطعين﴾ فهم: تابعون مسرعون إلى نحو الداعي، والداعي فهو: الذي يدعوهم إلى موضع الحشر، ويأمرهم بالمصير إليه. ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾، ومعنى: ﴿هذا يوم عسر﴾، أي: عسر لدينا، شديد علينا؛ إذ حق وعد الله فينا.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾ [القمر: ١٣، ١٤]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤)﴾؟

فقال: هي: السفن التي تعمل من الألواح، وتشد بالدسر، والدسر فهي: الحبال والمسامير التي يربط بها ويدسر. ﴿تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾، فهي: تسير في البحر بعلمنا، ﴿جزاء لمن كان كفر﴾، والذي كفر هو: نوح صلى الله عليه، يقول: جزيناه على صبره على من كان كفر نعمته، وعصى أمره، بالنجاة في هذه السفن، مما وقع بالكافرين لنعمه، المشركين بما جاء من الله به.

وقال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

أي: بعلمنا.

وقال في كتاب ينابيع النصيحة للأمير الحسين بن بدر الدين عليه السلام، في جوابه على المشبهة:

المراد: تجري بعلمنا، وعن الحسن أنه قال: ﴿بأعيننا﴾ بأمرنا. وقيل: تجري بأعين أوليائنا الموكلين بها. وقيل: بحفظنا وحراستنا لها. وقيل: بأعيننا التي أجريناها في الأرض.

وقال في كتاب الأساس للإمام المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام:

عبر عن حفظه تعالى للسفينة بقوله: ﴿بأعيننا﴾؛ مشاكلة لكلمة " العين "

المقدرة الخاطرة بذهن السامع؛ لما كان لا يتم حفظ مثلها لأحد في الشاهد، إلا بمتابعة أبصارها بالعين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ [القمر: ١٥]

قال في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام:

معناه: إلقاء السفينة على الجودي، حتى أدركها أوائل هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠)﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠)﴾؟

فقال: هذا إخبار من الله سبحانه بما أرسل على عاد، من ريح الصرصر، وريح الصرصر فهي: الريح الباردة الشديدة، العظيمة القوية. ﴿في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (٢٠)﴾، يريد: تنزع نفوس الناس من أبدانهم، تخرجها من جثثهم، حتى تبقى أبدانا مطرحة ميتة، لا أرواح فيها. ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾: شبه جثثهم وعظمها بأسافل النخل الساقط المتقلع؛ المنقعر فهو: المتقلع من أصله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ [القمر: من (٢٧)، إلى: (٣١)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمه بينهم كل شرب محتضر (٢٨)﴾؟

فقال: معنى: ﴿مرسلوا الناقة﴾ أي: جاعلوا الناقة فتنة لهم، أي: محنة لهم. ﴿فارتقبهم﴾، أي: انتظر معصيتهم فيها. ﴿واصطبر﴾، أي: اصبر حتى يعصوا في فعلهم، فترى ما تحب فيهم. ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾، يقول: أعلمهم وقل لهم: إنا قد قسمنا الماء بين الناقة وبينهم، فيوم لها تشربه كله، لا يشربون معها، ولا يردون الماء يوم وردها، ويوم لهم لا ترد فيه الناقة عليهم. ﴿كل شرب محتضر﴾، يقول: كل يوم فهو شرب لأهله، يشربون فيه الماء ويحتضرونه، ومعنى يحتضرونه: يشهدونه؛ فكانوا كذلك، حتى عقروا الناقة، ونزل بهم عذاب الله، ﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾، والعذاب الذي نزل بهم فهو: ما ذكر الله من الصيحة الواحدة. والصيحة فهي: الأمر الذي نزل بهم فأهلكهم؛ هشيم المحتظر فهو: دقاق ما قد بلي من الشوك والعيدان، الذي احتظر به المحتظر على نفسه وغنمه، ثم طال عهده فبلي وتفتت، وهو شيء كانت العرب تفعله، يجمع الرجل منها الشوك والعيدان، فيحظره حظيرة على غنمه، حتى لا يخرج منها شيء؛ فشبه الله هؤلاء الذين أهلكهم بهشيم ذلك الشوك الذي جعل حظيرة بعد فنائه وبلائه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام:

والذين نجاهم بسحر ثلاثة نفر: لوط، وابنتاه عليهم السلام.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا﴾؟

فقال: الحاصب هو: الرمي الذي وقع بهم، والرجم الذي نزل من السماء عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾ [القمر: ٣٧]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾؟

فقال: هو: لوط صلى الله عليه، راوده هؤلاء المرجومون ليسلم إليهم ضيفه، وهم الملائكة المقربون، وكانوا يظنون أنهم فتية آدميون، فطمس الله أعينهم، ومعنى طمس أعينهم فهو: حجبناها عن رؤيتهم، ومنعناها عن الوقوع على ملائكة ربهم.

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾

[القمر: ٤٣-٤٥]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر (٤٣) أم يقولون نحن جميع منتصر (٤٤) سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥)﴾؟

فقال: شبه سبحانه قصص من ذكر في هذه السورة، ممن أهلكهم من القرون بكفرهم، ثم قال: ﴿أكفاركم﴾، يعني: قريشا والعرب. ﴿خير من أولئكم﴾، يقول: من أولئك الذين قصصنا عليكم هلكتهم. ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾، يقول: أهم خير فنصرف عنهم ما أوقعناه بغيرهم، ممن كفر ككفرهم. ﴿أم لهم براءة في الزبر﴾، والزبر فهي: كتب الله، من التوراة والإنجيل، والزبور والفرقان، يقول: هل لكم من الله حكم بالبراءة مما وقع بغيركم، فأنتم تجترون لذلك على ربكم. ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾، يريد: أم يقولون يا محمد: نحن لكثرة جماعتنا وعددنا منتصرون من جنود الله إن قاتلتنا؛ فهذا قليل من جهلهم، وضعف رأيهم، وقولهم: ﴿سيهزم الجمع﴾ الذي به يدلون، وعليه من دون الله يتكلون، حتى ينهزموا من جند الله، ويولون أدبارهم هاربين من أولياء الله.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن علي العياني عليه السلام:

وسألت عن: معنى قول الله سبحانه: ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم

براءة في الزبر (٤٣)﴾؟

الجواب: اعلم أن الله تبارك اسمه قص على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان من تكذيب الأمم قبله لأنبيائها صلوات الله عليهم، فلما كان نبينا صلوات الله عليه وعلى آله وسلم تسليما، المقصوص عليه خبر من كان قبله من كفار الأمم، قال : ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾، وأدغم الميم، والعرب تستعمل ذلك في كلامها كثيرا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)﴾[القمر: ٤٧]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام عبد لله بن حمزة عليه السلام:

يريد: عذابا ونارا؛ لأنه لا تكليف هنالك، فيقع فيه ضلال المعصية، والصدود عن الدين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١)﴾[القمر: ٥١]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام:

أي: معتبر، ومتعظ.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر﴾؟

فقال: ﴿أشياعكم﴾ هي: أمثالكم ونظراؤكم، وإخوانكم في كفركم. ﴿فهل من مدكر﴾، يقول: هل من مدكر أو معتبر.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر: من (٥٢)، إلى: (٥٥)]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام، بعد ذكره للآية:

سمى أفعالهم: شيئا، فقد أوقع في الزبر، والزبر هي: الكتب. وقد قال ابن عباس: إن الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها هي: هذه الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، من التوراة والإنجيل، والفرقان الكريم الجليل. ونحن فنقول: إن الزبر هي: الكتب التي ذكر الله في قوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١٤)﴾ [الإسراء]، وفي قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ فهذه التي ذكر الله من الكتب عنده، وأنه يظهرها يوم دينه وحشره -هي: الزبر التي ذكر الله أن أفعالهم فيها، لا ما قال ابن عباس من: أنها هي المنزلة على أنبيائه، من توراته وإنجيله، وما نزل على محمد من فرقانه؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)﴾، وهذه الكتب المطهرة، من التوراة والإنجيل والفرقان المكرمة -ففيها بعض ما فعل العباد، وكثير منها لم يقص خبره، ولم يذكر جل جلاله أمره، كما قال ذو العزة والأياد، ورافع السماء وداحي الأرض ذات المهاد: ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ [غافر: ٧٨]، وقال: ﴿نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون﴾ [القصص: ٣]، يريد: نقص عليك بعض خبرهما، وما كان من محاورتهما وأمرهما، وقال سبحانه في أهل الكهف، وما كان من سؤال قريش للنبي عنهم، فقال الله في ذلك: ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا

عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا (٢١) سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا (٢٢)﴾ [الكهف]، وقال سبحانه: ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ [غافر: ٧٨]، وقال: ﴿من نبأ موسى وفرعون﴾ [النحل: ٨٩] ، فأخبر نبيه صلى الله عليه وآله بما كان من قول أهل بلدهم فيهم، وقص عليه قبل ذلك ما كان من فعلهم في أنفسهم رحمة الله عليهم، واعتزالهم إلى الكهف، وإخلاصهم لله دينهم، ثم أمره بأن لا يماري فيهم إلا مراء ظاهرا، وكتمه عدتهم، ثم قال: ﴿قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾، ففي كل ذلك يخبر: أنه لم يعلمه صلى الله عليه وآله، ولم يخبره في كتابه من أخبار من مضى، وفات في قديم الدهر وانقضى، إلا باليسير من القصص دون الكثير، ويدل على: أن ما لم يقص عليه من أخبار الأمم الماضية، والحقب الخالية -أكثر مما قص وأعظم، وأطول وأطم، وكل ذلك فدليل، من الله في واضح التنزيل، على: أن ما ذكر الله من الزبر، التي فيها كل ما فعله العباد مستطر -غير هذه الكتب التي ذكر فيها جزءا، وترك ولم يذكر بعضا؛ لأن ما جمع فيه كل شيء، بخلاف ما جمع فيه بعض شيء؛ إذ نصف الشيء أو بعضه خلاف الشيء كله.

فأما الكتب التي ذكرها الله في كتابه، ونزل فيها ما نزل من وحيه وقرآنه - فهي ما أقسم به سبحانه حين يقسم، فيقول: ﴿والطور (١) وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣)﴾ [الطور]، وقوله: ﴿وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿إنه لقرآن كريم (٧٧) في كتاب مكنون (٧٨) لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)﴾ [الواقعة]، وقال سبحانه فيما حكى عن مؤمني الجن؛ إذ صرفهم إلى نبيه يستمعون منه القرآن، فقال: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من

الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين (٢٩) قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم (٣٠)﴾ [الأحقاف]؛ فهذا وما كان مثله في القرآن، من ذكر الكتاب والكتب -هو ما أوحى الله ونزل سبحانه، مما قص فيه من أخبار خلقه وما أراد، وترك ما لم يرد من أخبار العباد.

ثم نقول من بعد شرحنا ما أراد الله في قوله: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾: إن هذه الزبر، وإن الاستنساخ، وإن الكتاب الذي يخرج لهم فيه أخبارهم، وما كان من أعمالهم -فهو كاللوح المحفوظ، واللوح والكتاب والزبر عند رب الأرباب -فهو: العلم المعلوم، المحيط بالملك المفهوم، الذي لا يزل شيء من الأشياء عنه، ولا يخرج - ولله الحمد - منه، وهو علم الله، العالم بنفسه، المتقدس عن شبه خلقه؛ وإنما يحتاج إلى كتاب المعلومات -من يكل علمه في بعض الحالات، فأما رب الأرباب فهو محيط بكل الأسباب؛ فكل ما عمل الخلق فهو في العلم مستطر، والمستطر فمعناه: معلوم مختبر، يوقفهم في يوم حسابهم عليه، فيعرفونه طرا لديه، فلا يضل عن أفهامهم، بقدرة الله شيء من أعمالهم، ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨)﴾ [الزلزلة]،وقال: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف: ٤٣]، وقال لقمان لابنه، وهو يعظه: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ [لقمان: ١٦]، وقال في ذلك رب العالمين: ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ فأخبر: أنهم يلاقون كل ما كانوا يفعلون، وأن ذلك كله، صغيره وكبيره -مثبت في الزبر عنده، وكل هذه الأسباب -تدل على أن الزبر خلاف ما نزل من الكتاب.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾، إلى آخر السورة؟

فقال: الزبر هنا هي: العلم، يقول: كل شيء فعلوه وأحدثوه وقالوه -هو في علمنا ثابت مستقر، لا يزل منه ما كبر وما صغر. ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾، معنى: ﴿مستطر﴾ فهو: مكتوب، ومعنى مكتوب فهو: محفوظ. ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾، فالنهر: نهر الأنهار التي تجري في الجنان. ومعنى: ﴿مقعد صدق﴾ فهو: محل صدق. ﴿عند مليك مقتدر﴾، معنى: ﴿عند﴾: لدى، ﴿مليك﴾ فهو: المالك لكل شيء. ﴿مقتدر﴾، فهو: القادر على كل ما يريد، الذي لا يمتنع منه قريب ولا بعيد.

وقال في كتاب ينابيع النصيحة للأمير الحسين بن بدر الدين عليه السلام، في جوابه على المشبهة المثبتين للمكان:

ومن جملة ما تعلقوا به في المكان: قوله تعالى: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر (٥٥)﴾، قالوا: فهذا يوجب كونه في مكان.

والجواب: أنه يريد به: الرفعة والمنزلة العالية، كما يقال:" فلان عندي بالمنزلة الخطيرة، ولفلان عندي جاه عريض، وهو عندي بالمنزل الأعلى والدرجة العالية "، ويدل على ذلك: قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ [السجدة: ١٢]، ولا خلاف بين الأمة أن المجرمين لا يكونون عند الله على جهة المكان، وإنما هو وصف أحوالهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وعنده علم الساعة﴾ [الزخرف : ٨٥]؛ فإنه ليس المراد به: أن علم الساعة في مكان، وإنما أراد: أنه عالم به، وكذلك قوله تعالى: ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ [النساء:

١٣٤]، ليس يريد به إلا: أنه القادر عليه، والمالك له. ويقال:" عند الهادي إلى الحق عليه السلام في المسألة كذا "، و" عند القاسم عليه السلام فيها كذا "، أي: مذهبهما؛ قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ ... ـــدك راض والرأي مختلف

وليس يذهب في ذلك إلى مكان؛ وإذا ثبت ذلك قلنا: إن كل لفظة تتصرف على وجوه من المعاني -فليس لأحد أن يقتصر منها دون سائر ما تحتمله إلا بدليل، وقد دلت الأدلة من الكتاب والعقل وإجماع المسلمين -على أن الله تعالى ليس في مكان؛ فبطل ما ذهبوا إليه.

سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤) الشمس والقمر بحسبان (٥) والنجم والشجر يسجدان (٦) والسماء رفعها ووضع الميزان (٧) ألا تطغوا في الميزان (٨) وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (٩) والأرض وضعها للأنام (١٠) فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام (١١) والحب ذو العصف والريحان (١٢) فبأي آلاء ربكما تكذبان (١٣) خلق الإنسان من صلصال كالفخار (١٤) وخلق الجان من مارج من نار (١٥) فبأي آلاء ربكما تكذبان (١٦) رب المشرقين ورب المغربين (١٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (١٨) مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان (٢٠) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢١) يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٣) وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام (٢٤) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٥) كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٨) يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن (٢٩) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٠) سنفرغ لكم أيه الثقلان (٣١) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٢) يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض

فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (٣٣) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٦) فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان (٣٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٨) فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (٣٩) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٤٠) يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٤١) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٤٢) هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن (٤٤)﴾ [الرحمن: من: (١)، إلى: (٤٤)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿الرحمن (١) علم القرآن (٢)﴾؟

فقال: الرحمن هو: الواحد ذو المن والإحسان والرحمة، ذو الامتنان. ﴿علم القرآن﴾، فمعنى علمه هو: أنزله وأمر بقراءته وتعلمه. ﴿خلق الإنسان﴾ فهو: فطره، وجعله وصوره وقدره. ﴿علمه البيان﴾ فهو: هداه إلى البيان، وفهمه اللغة واللسان، وفهمه لما يحتاج إليه من الحجج والبيان. ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾، فمعنى الحسبان هو: الحساب، ومعنى ﴿بحسبان﴾ فهو: لحسبان، ومعنى: لحسبان، يقول: خلقهما للحساب، يعرف بهما السنون، والشهور والأزمان. ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾، فمعنى سجودهما هو: إسجادهما للمعتبرين، المستدلين على الله ممن رآهما، فلما أن كان السجود من معنى الساجدين -جاز أن يطرح: " الساجدين "، ويثبت " السجود "، كما قال: ﴿واسأل القرية﴾؛ لما كانت القرية من سبب الأهل -طرح: الأهل، وأثبت: القرية، وقد فسرنا: ﴿يسجدان﴾ في موضع آخر، واستقصينا التفسير فيه، مع

تفسير قوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾، معنى ﴿رفعها﴾ هو: علقها سماء، وأقلها فوق الأرض. ﴿ووضع الميزان﴾ فهو: جعل الميزان، وهدى إليه. ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾، يقول: لا تظلموا فيه، ولا تحتالوا بحيلة باطل عليه، واستوفوا وأوفوا؛ فقد جعلته عدلا بيننا وبينكم، وخلقته مبينا لكم. ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا﴾، واعدلوا الوزن، وأوفوا بالحق ولا تبخسوا، يقول: لا تنقصوا ولا تبخسوا ﴿الميزان (٩)﴾. ﴿والأرض وضعها للأنام (١٠)﴾، ومعنى ﴿وضعها﴾ هو: خلقها وبسطها ومهدها. ﴿للأنام﴾، فهم: الخلق. ﴿فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾، فالفاكهة هي: الفاكهة المعروفة، من ألوان الفواكه والأشجار. ﴿والنخل﴾ فهي: النخل المفهومة، ﴿ذات الأكمام﴾، والأكمام هي: قشر الطلع الذي ينشق عما فيه من الشماريخ، حتى يخرج الثمر من جوف الأكمام، وتبقى الأكمام معلقة لا شيء فيها، وهي: القشور التي تكون عليه أول ما يخرج. ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾، فالحب ذو العصف فهو: الحب من البر والشعير، والعصف فهو: القصب الذي يدق، فيكون تبنا، وهو الذي ذكر الله عز وجل: أنه جعل أهل الفيل كالعصف المأكول، والريحان هاهنا فهو: الرزق الواسع من الرحمن، وهو في لغة العرب موجود، تقول:" أطلب من ريحان الله "، أي: أطلب من رزق الله، وإنما سمت العرب الرزق ريحانا؛ لما لها فيه من الطيب والمعيشة والإحسان. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، يقول: بأي نعم الله وإحسانه تكذبان، ومعنى: ﴿تكذبان﴾: أيها الثقلان، والثقلان فهما: الجن والإنس. ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾، والإنسان فهو: آدم عليه السلام، وهو بدي الناس، والذي تفرعوا منه كلهم، والصلصال فهو: الطين اليابس الذي يتصلصل إذا حرك عند يبسه، وصدم بعضه بعضا. ﴿كالفخار﴾، يقول: هذا الطين في اليبس والصلصلة كالفخار الذي صوته إذا ذفر بعضه

ببعض، وإنما كان آدم صلصلا من بعد تصوير الله له جسما من صلصال، قبل أن ينقله إلى اللحم والعظم والدم، ومن قبل الصلصال كان طينا لازبا رطبا منعلكا. ﴿خلق الجان من مارج من نار﴾، والجان هي: الجن كلها، والمارج الذي خلقت الجن منه فهو: اللسان الذي ينقطع ويذهب في الهوى من النار إذا أججت وأوقدت، وهو خالص النار وحقيقتها. وإنما سمي مارجا لمرجه في الهواء، ومرجه فهو: ذهابه وسرعته، تقول العرب: " فلان قد مرج "، أي: قد ذهب في معناه وأسرع. ﴿فبأي آلا ربكما تكذبان (١٦) رب المشرقين ورب المغربين(١٧)﴾، فقد تقدم تفسير: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، والمشرقان والمغربان فهما: مشرقا الشمس والقمر، ومغرباهما: من حيث يطلعان في الصيف ويغيبان؛ وذلك أن لهما في الشتاء مطلع ومغرب، وفي الصيف مطلع ومغرب غير مطلع الصيف ومشرقه. ﴿مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان (٢٠)﴾، ﴿مرج البحرين﴾ معناهما: خلقهما وجعلهما، وبعثهما وإخراجهما، وإسباحهما على وجه الأرض، كاحتجاجنا في قوله: ﴿مرج﴾، وفي قول العرب:" مرج الإنسان "، وقد تقدم شرح ذلك في أول السورة. والبحران فهما: البحر المالح، والبحر العذب، وهو: الذي يسمى دجلة، والبحر المالح: الذي بمصر إلى فارس، وهما يلتقيان بموضع يقال له: رأس نهر السند عند مقصاه من البصرة. ومعنى: ﴿يلتقيان﴾ فهو: جعلهما يلتقيان ويصطدمان، وقدرهما على ذلك سبحانه من الشأن، فيلتقي البحران، حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين، وتقف السفن على ملتقاهما، فينظر شق السفينة، هذا أخضر، وشقها هذا أبيض، يشرب من يمينها مالحا، ومن يسارها عذبا، ليس بينهما سبب يحجزهما ولا معنى. ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾، والبرزخ فهو: فعل الله تبارك وتعالى فيهما، وتقديره لالتقائهما واصطدامهما، وما حجزهما به من قدرته سبحانه عن اختلافهما، كما قال ذو الجلال والسلطان: ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾، ومعنى: ﴿يبغيان﴾ فهو:

لا يجوزان ما جعلا له، ولا يقدران على أن يخرجا مما ركبا عليه. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢١) يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢)﴾، فاللؤلؤ هو: اللؤلؤ المعروف، المستغني بفهم من يسمع ذكره له من تفسير معناه، والمرجان فهو: شيء أحمر يخرج منه، فيجعل خرزا يلبسه من شاءه وأراده. ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾، فهي: قلوعها التي ترفع بالحبال، في رؤوس الأدقال؛ ليدخل الريح فيها، فتجري بها، فتحملها على ظهر الماء، بتقدير ربها. ﴿كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٨)﴾، يخبر سبحانه: أن كل شيء فان مما عليها، وهذه التي ذكر الله سبحانه أن ما عليها يفنى -فهي: الدنيا؛ أراد بـــ:" عليها ": كل من فيها، فقامت " على " مقام " في "، والدنيا فهو: كل ما خلق من سموات وأرضين، وما بينهن وفيهن من ملائكة أو جنيين أو إنسيين. ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾، فمعنى: ﴿وجه ربك﴾ هو: ربك، أراد: الذات، لا أن ثم وجها موجها وأعضاء غيره مؤلفة؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا؛ فأخبر سبحانه: أن كل ما في الدنيا فان، وأنه تبارك وتعالى الوارث كل شيء الباقي. يقرأ بالخفض والياء:" ذي الجلال "، ولا يجوز أن يقرأ بالضم والواو:" ذو الجلال " كما يقرأها الجهال؛ ردا على:" ربك "، لا ردا على:" الوجه ". الجلال فهو: الكبرياء والعظمة والمحال، والإكرام فهو: التقديس والإجلال والإنعام. ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن (٢٩) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٠)﴾، معنى: ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ فهو: يطلب منه الحوائج، ويسأله الفضل والرزق، والمغفرة والرحمة. ﴿كل يوم هو في شأن﴾، يقول: كل يوم في هو في تدبير ما يحتاج إليه ملكه، وتقدير أمر خلقه، من موت من يموت، وخلق من يخلق. ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان (٣١) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٢)﴾، معنى: ﴿سنفرغ لكم﴾ هو: سنفرغ من إفناء الأجل الذي جعلناه أجلا لإمهالكم

وتأخيركم، فإذا أفنينا هذه المدة، وفرغنا منها -أتى كلا ما أوعدناه عند فناء مدته، وانقضاء مهلته وإمهاله، من موت أو حلول نقم؛ فهذا معنى: ﴿سنفرغ لكم﴾. والثقلان فهما: الجن والإنس، وقد يكون المعنى الذي ذكر الله: أنه يفرغ منه -هو: مدة الدنيا، التي جعلها ووقتها، ويكون عند فراغه منها وإفنائه -ما يكون من الجزاء في يوم الدين، جزاء المثابين، وجزاء المعاقبين. ﴿يا معشر الجن والإنس﴾، إلى قوله: ﴿إلا بسلطان﴾: هذا إخبار من الله سبحانه وتوقيف للثقلين على عجزهما، وأنهما غير خارجين من قدرة الله ولا إرداته، ولا ما جعلها مسكنا من الأرض والهواء، ﴿إلا بسلطان﴾، والسلطان فهو: السبب من الواحد الرحمن، يقول: لا تنفذونه، أي: لا تقطعونه ولا تجوزونه ولا تخرجون منه إلا أن يشاء الله ذلك، فيقدركم على ما يشاء، وينقلكم إلى ما يحب من الأشياء؛ فهذا معنى السلطان الذي ذكره العلي الأعلى. ﴿يرسل عليكما شواظ من نار﴾، الشواظ فهو: اليسير من النار، وهو: اللهب. ﴿ونحاس﴾، فالنحاس هو: الدخان. ﴿فلا تنتصران﴾، يقول: إن نزل بكم ما ذكرنا، وأرسلناه عليكم كما قلنا -لم يكن عندكم لأنفسكم انتصار ولا امتناع. ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾: هذا يوم الدين، عند تبديل السماء، فحينئذ تنشق للبواد والفناء، ثم تعود وردة كالدهان، والوردة فإنما هي: مثل مثله الله تبارك وتعالى، يخبر أنها تكون عند تمحقها وتقطعها كاصفرار الورد. ﴿كالدهان﴾، يقول: يكون لونها كلون الوردة، ويكون بعد هذا التجسيم كالدهان، والدهان فهو: المهل الذي شبه الله به في غير هذا الموضع، وهو: ماء القطران وصفوه؛ فأخبر سبحانه: أنها تكون كهذا الدهن عند رجوعها إلى الدخان الذي منه خلقت، بعدما هي عليه اليوم من العظم والجسم الذي عليه جعلت. ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾، معنى ﴿لا يسأل﴾ هو: لا يسأل عن استفادة أمر مجهول، وإنما يسأل للتقريع والإخزاء، لا على أن يعلم منه شيء من الأشياء.

﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾، السيماء الذي يعرف به المجرمون فهو: خلقهم وشناعتهم، واسوداد وجوههم في ذلك اليوم، مع آيات كثيره يبديها الله فيهم، ويجعلها علامات عليهم، يعرفهم بها خزنة جهنم، فحينئذ تأخذهم بنواصيهم وأقدامهم؛ والنواصي فهي: شعور رؤوسهم وأرجلهم، حتى تلقيهم في جهنم؛ وبئس المصير. ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون (٤٣) يطوفون بينها وبين حميم آن (٤٤)﴾، معنى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ هو: يعذبون بها وبالحميم، والآن فهو: الشديد الحمو، الحار جدا، الذي قد انتهى وبلغ في الحرارة كل مبلغ.

وقال عليه السلام في موضع آخر منه:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿الرحمن (١) علم القرآن (٢)﴾، إلى قوله: ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾، وعن قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، فقلت: لم يذكر في أول هذه السورة اثنين، فمن هاذان؟

فقوله: ﴿الرحمن﴾ فهو: ذو الرحمة والإحسان. ﴿علم القرآن﴾، فقد يكون تعليمه له هو: تنزيله، والحض على قراءته وتعليمه، بما جعل في ذلك من الثواب لمن كان له من القارئين، وبه في الليل من المتهجدين، وقد يكون معنى ذلك هو: الدلالة منه سبحانه على تأويله، والتسديد والتوفيق لعلم غامض سننه، والمن بذلك على عباده المؤمنين، والإحسان به إلى أوليائه الشاكرين. فأما قوله: ﴿خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤)﴾ فخلقه: إيجاده له، وتعليمه إياه البيان فهو: تركيبه فيه ما به يميز بين السوائة والإحسان، ويفرق به بين الخير والشر، وينقلب به فيما يحتاج إليه من الأمر، وينال به الطاعات، وينحرف به عن المهلكات، من المعقول المفطور عليه، المركب بفضل الله فيه، ومن البيان: ما جعله فيه من استطاعة القول والكلام باللسان، وما ينال به من المحاجة لمن حاجه من الإنسان. ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾، فالحسبان هو: الحساب بالأيام،

والشهور والسنين والأزمان. ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾، فسجودهما هو: سجود من سجد لعظمة خالقهما، ممن تفكر في عجيب أمرهما وتصويرهما، وما في خلقهما من العبر والآيات، من ارتفاع النجوم ونورها، ومجاريها وسيرها، واعتدالها في فلكها وتقويمها، وغير ذلك من عجيب حالاتها، وكذلك الشجر في اختلافه وثمره، وما ترى فيه من تدبير خالقه، واختلاف ألوانه وطعمه، وعجيب فعل الله في تغذيته وتنقيله، من حال الصغر والفساد، إلى حال الانتهاء ومنافع العباد، فلما أن كان سجود من يسجد لله من المؤمنين، العارفين بالله المعتبرين، المستدلين عليه بما خلق من المخلوقين، من أجل ما يرون من آيات الله في خلق البشر، وعجيب ما فعل في النجوم والشجر -جاز أن يقول: ﴿يسجدان﴾، وإن كان الساجد غيرهما من الإنسان، كما جاز أن يقال: إن الله زين للكافرين أعمالهم، وأغفل عن ذكره قلوبهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾، وقوله: ﴿زينا لهم أعمالهم﴾، والتزيين من الله فهو: الإملاء والتأخير، والنظرة والتعمير، وكذلك الإغفال فهو: ترك التوفيق لهم والتسديد، والعون من الله والتأييد، فلما أن كان من الله السبب الذي كان به غفلة قلوبهم واكتسابهم لذلك -جاز أن يقول: أغفل الله قلوبهم. وكذلك التزيين لأعمالهم: لما أن كان من الله السبب الذي كان به التزيين -جاز أن يقال: زين الله لهم أعمالهم، لا أن الله فعل التزيين للكفرة، ولا شاءه ولا أراده منهم، ولا ارتضاه ولا أغفل سبحانه عن ذكره قلوبهم؛ بل نهاهم عن ذلك، وعاقب من كان من الخلق كذلك؛ فعلى هذا المثال والمجاز من قول الله -جاز أن يقال: ﴿النجم والشجر يسجدان﴾، وإن كانا في أنفسهما لعدم استطاعة التخيير لم يسجدا؛ ولكن لعجيب تدبير الله وصنعه فيهما؛ إذ أسجدا عباده المعتبرين، وأخشعا من كان ذا خشية لرب العالمين. وأما قوله: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان (٧) ألا تطغوا في الميزان (٨) وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان

(٩)﴾: فإخبار منه جل جلاله بما رفع السماء بلا عمد، ودلالة منه على قدرته لكل أحد، قوله: ﴿وضع الميزان﴾ فهو: جعل الميزان، ودل عليه، وجعله حكما عدلا بين عباده، لا حيف ولا ظلم فيه، ثم نهاهم عن الظلم فيه، وأمرهم باتباع القسط فيه، والوزن بالحق والإحسان، ونهاهم عن البخس والعدوان. ثم قال: ﴿والأرض وضعها للأنام (١٠) فيها فاكهة﴾، يقول: دحاها، وللأنام مهدها، وأخرج لهم ما ذكر من فاكهتها؛ تفضلا عليهم بها، وإحسانا منه إليهم فيها، ﴿والنخل ذات الأكمام﴾، فالأكمام: قشر الطلعة، والغلاف الذي يكون فيه الشماريخ، قبل اتساق أكمامها. ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾، والحب فهو: الحنطة والشعير، وغير ذلك مما جعله اللطيف الخبير، والعصف فهو: الحب الأجوف الذي لا حشو فيه، ولا صلابة لديه، وذلك [قول] الواحد الجليل فيما خبر من فعله في أصحاب الفيل، حين يقول: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾. ثم قال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، فعنى بذلك من خلق من الإنسان والجان، والمناجيان في سورة الرحمن فهما: الثقلان؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان (٦)﴾:

وسألت عن: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾؟

وأما ما سألت عنه من ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾، فتأويله: يخضعان لله ويذلان، بكل ما فيهما من أصل وفرع، أو مفترق من أفنانهما أو مجتمع.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام، فيها أيضا:

وأحسن ما أرى - والله أعلم وأحكم - في تأويل قوله سبحانه: ﴿والنجم

والشجر يسجدان﴾، أنه أراد بقوله: ﴿يسجدان﴾، ومعنى: ﴿يسجدان﴾ فهو: لما فيهما من التدبير، وأثر الصنع والتقدير، لله الواحد القدير. فإذا رأى المعتبرون المؤمنون ما فيهما من جليل صنع الله، وعظيم جعله لهما، وما سخرهما له، وجعلهما عليه، من جولان النجم في الأفلاك، تارة مصعدا، وتارة منحدرا، وتارة طالعا، وتارة آفلا، تقديرا من العزيز العليم؛ لما أراد من الدلالة على الدهور والأزمان، والدلالة على عدد الشهور والسنين والأيام للإنسان، فإذا رأى ذلك كله مسلم تقي، أو معتبر مهتد -سجد له بالمعرفة والإيقان، واستدل عليه سبحانه بذلك الصنع في كل شأن؛ فعبده عبادة عارف مقر، عالم غير منكر، فسجد له متذللا عارفا، مستدلا عليه سبحانه بما أبصر من الدلائل في النجوم عليه. وكذلك حال الشجر، وما فيه من عجائب الصنع والتدبير، وما ركبه الله سبحانه عليه من التقدير، في ألوان ثمارها وطعومها، واختلاف ألوانها، وهي تسقى بماء واحد، وتكون في أرض واحدة، كما قال الله سبحانه: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [الرعد: ٤]، فكل ذلك من اختلافها، دليل على قدرة جاعلها، ووحدانية فاطرها؛ فهذا أحسن المعاني عندي - والله أعلم وأحكم - في ﴿يسجدان﴾، أنه يسجد من أثر الصنع فيهما، وأثر القدرة في تقديرهما -كل مؤمن عارف بالله، مقر بصنع الله وحكمته، ويستدل عليه بأثر قدرته.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧)﴾:

إنما يريد تعالى: كل شيء فان هالك إلا هو، لا غيره. ﴿ويبقى وجه ربك﴾، يريد: يبقى ربك وحده، لا يريد بذلك ولا يعني: وجها في جسد، ولا جسدا ذا وجه؛ تعالى الله عن هذه الصفات، التي هي في المخلوقين موجودات.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام عبد للّه بن حمزة عليه السلام، فيها أيضا:

معنى قوله تعالى: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾: ويبقى ربك، وهذا التأويل يطبق عليه الكافة من الأمة؛ إذ ليس أحد منهم جوز عليه تعالى الفناء إلا وجهه، ودلالة العقل تحكم به، وهو أنه لا يجوز عليه العدم؛ لاستحقاقه البقاء لذاته، وقد نطق محكم القرآن بأنه الأول والآخر، الأول قبل كل شيء، والباقي بعد كل شيء، والظاهر بالأدلة الدالة عليه لكل مستبصر، والباطن عن إدراك الحواس، على مرور الأجراس.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيه الثقلان (٣١) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٢)﴾:

وبالإسناد: حدثنا محمد، قال: حدثني عبد الله، قال: حدثني عمارة، قال: حدثني عبيد الله بن العلاء، عن أبيه: أنه سأل زيدا عليه السلام عن قوله عز وجل ﴿سنفرغ لكم أيه الثقلان (٣١)﴾، فقال: هذا وعيد من الله عز وجل وتهديد، كقولك للرجل عند الغضب:" سأفرغ لك وللنظر في أمرك "، وأنت غير مشغول عنه؛ ولكن تتواعده أنك ستفرغ له، وتنظر في أمره، ثم أنشد:

سأفرغ للمعروف غير مفرط ... وعادتي المعروف والعرف أجمل

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى بن الهادي عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (٣٩)﴾:

وأما قوله: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾، فإنما أراد سبحانه: أنهم لا يسألون مسألة استخبار ولا استفهام؛ بل هو العالم بجميع الأسرار.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦)﴾[الرحمن: ٥٦]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾؟

فقال: ﴿قاصرات الطرف﴾ هن: غواض الطرف عن غير أزواجهن؛ عفة وطهارة وكرما. ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾، يقول: لم يدن منهن إنس ولا جان؛ والجان فلا تدنوا، وإنما هذا على مجاز الكلام، كما تكلم العرب، تقول:" ما قال هذا القول جني ولا إنسي ". فقال:" جني "، والجن فلا تقول ذلك المقال، وإنما هذا على مجاز الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾[الرحمن: ٦٢]:

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿ومن دونهما جنتان﴾؟

هاتان أخروان بعد الجنتين المذكورتين، وهذه الجنان كلها فهي في الجنة، غير أنها مواضع تنعيم مرتبة، والجنة تجمع هذه الجنان كلها.

قوله تعالى: ﴿مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦)﴾ [الرحمن: ٦٤-٦٦]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿مدهامتان (٦٤)﴾؟

فقال: هما الجنتان، فهما: ذواتا الأشجار والأنهار، والمدهامتان فهما: الريانتان، اللتان قد رويت أشجارهما حتى ادهامت، معنى: ادهامت فهو: علاها السواد لريها، وشدة خضرتها. ﴿فيهما عينان نضاختان﴾، فهاتان العينان فهما: الماء المنبثق، الذي يثج من الأرض ثجاجه منهما حتى يتطاير، ويخرج من ينبوعه خروجا. ﴿نضاختان﴾ فهما: اللتان ينضخ ماؤهما؛ لكثرة خروجه منهما، حتى يتطاير عند انسكابه تطايرا، يقع منه النضخ على ما حواليهما، وإنما أخذ ذلك من نضخ الشيء، تقول العرب: أنضح وأنضخ بالحاء والخاء جميعا، فالحاء أفصح اللغتين.

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ [الرحمن: ٧٠-٧٢]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿فيهن خيرات حسان﴾؟

فقال: الخيرات فهي: كل خير مجتمع، من حوريات، أو طعام، أو شراب، أو فواكه، أو شيء من النعم؛ فجمع الله ذلك كله في ما سمى من الخيرات.

و﴿حسان﴾ فهن: فاضلات في معاينتهن، كاملات في شبابهن. ﴿حور مقصورات في الخيام﴾، فالحور هن: النساء الحور العين، والحور فهو: نعت من صفات الأعين، وهو: حور يكون في العين دعج حسن، يحسن به الأعين إذا كان فيهن، وتفتخر من كان فيه منهن. ﴿مقصورات﴾ فهن: محبوسات مصونات محجوبات، ليس بدوارات ولا خارجات؛ بل هن مثافنات لمساكنهن خفرات، والخيام فهي: خيام الدر والياقوت، المنضود والمنسوج، وهي: القباب المعمولات، المرفوعات في قصور الحوريات.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦)﴾

[الرحمن:٧٦]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾؟

قال: الرفرف فهو: اللين من الفرش، والعبقري فهو: اسم صنف من فرش الجنة، وقد تقول العرب لما كانت حمرته غالبة على غيرها من الألوان: عبقري.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾ [الرحمن: ٧٨]

قال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

معنى ﴿تبارك اسم ربك﴾ هو: تبارك ربك.

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩)﴾ [الواقعة: من: (١)، إلى: (١٩)]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿إذا وقعت الواقعة (١) ليس لوقعتها كاذبة (٢) خافضة رافعة (٣)﴾؟

فقال: الواقعة فهي: السابقة النازلة، والقيامة الواقعة بأهلها. ﴿ليس لوقعتها كاذبة (٢)﴾، يقول: ليس لوقوعها ونزولها بهم كاذبة، فالكاذبة فهي: الباطلة، الدافعة لما يهجم منها، زائلة عمن تقصده بهولها، فتقول العرب للشيء المصمم

الواقع بالشيء:" أتى غير مكذب حتى وقع به "، وتقول:" ما كذب حتى أصابه أو حتى ضربه "، تريد: ما انصرف ولا التوى، ولا عوج ولا عرج، حتى وقع بمن أراد أن يقع به. ﴿خافضة رافعة﴾، الخافضة فهي: الخافضة لمن تخفض من الخلق عن محل الثواب، فتصيرهم بخفضها لهم إلى أليم العقاب، والخفض هاهنا فهو: من باب الإطراح والقلة والزلة. ﴿رافعة﴾، فهي: رافعة للمؤمنين إلى مراتب الصالحين، مصيرة لهم إلى رضى رب العالمين. ﴿إذا رجت الأرض رجا﴾ هو: زعزعت للبواد والفناء فارتجت، وقلقلت للتبديل وزعزعت. ومعنى ﴿رجت﴾ فهو: تحريكها وقلعها. ﴿وبست الجبال بسا﴾، معنى: ﴿بست﴾ فهو: أبيدت وأفنيت، حتى انبست بغيرها من الأشياء واختلطت، فصارت بعد العظم كالبسيس، والبسيس فهو: الشيء المائع، كالطعام المسكوب فيه الماء، وهو الدهن من السمن والزيت، وإنما أراد الله بذلك: أن يخبر: أنها تعود بعدما هي عليه من العظم إلى الذهاب والبواد، والاختلاط بغيرها من الأشياء، التي تبسها بسا، أي: تختلط بها خلطا. ﴿فكانت هباء منبثا﴾، والهباء فهو: الغبار الخفي الذي يدخل مع الشمس من الكوى، والمنبث فهو: الكثير المنتشر؛ فأخبر سبحانه: أنها تعود بعدما هي عليه من الهباء، للذهاب والفناء. ﴿وكنتم أزواجا ثلاثة (٧) فأصحاب الميمنة﴾، إلى قوله: ﴿وقليل من الآخرين (١٤)﴾، معنى: ﴿أزواجا ثلاثة﴾ فهي: أصناف ثلاثة. ﴿فأصحاب الميمنة﴾ فهم: أصحاب اليمن والبركة، والإيمان والطاعة. ﴿وأصحاب المشئمة﴾ فهم: أصحاب الشؤم واللعنة. ﴿والسابقون﴾ فهم: الذي سبقوا إلى الله بالطاعة، وقدموها إليه في الحياة الدنيا. ﴿أولئك المقربون﴾، يخبر: أنهم عند الله في القيامة مدنون من كراماته، ومن جزيل ثوابه، مدخلون في جنات نعمته. ﴿ثلة من الأولين (١٣) وقليل من الآخرين (١٤)﴾، الثلة فهي: الجماعة الصالحة، فأخبر: أن المتقين يكونون ثلة من الأولين، ويكونون قليلا من الآخرين. ﴿على سرر موضونة﴾،

السرر فهي: السرر المعروفة باسمها، موضونة فهي: منسوجة معمولة، وهي: سرر تنضد للمؤمنين بالذهب والجواهر. ﴿متكئين عليها متقابلين﴾، معنى: ﴿متكئين﴾ فهو: مضطجعون على جنوبهم، متقابلون فهو: بعضهم حذاء بعض، مقابل له. ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون (١٧) بأكواب وأباريق وكأس من معين (١٨)﴾، والولدان فهم: الوصفاء، والمخلدون فهم: الباقون، الذين لا يفنون ولا يزالون في الآخرة. ﴿بأكواب وأباريق﴾، فالأكواب فهي: ضرب من آنية من آنية الشرب، تكون من الجوهر، من الدر والياقوت، يشرب فيها المؤمنون في الآخرة، ﴿وأباريق﴾ فهي: الأباريق المعروفة في الدنيا من الصفر، ومن الفضة والذهب، يعملها المتجبرون، فتكون في الآخرة من الدر والياقوت وأنواع الجوهر. ﴿وكأس من معين﴾، فهي: الخمر خمر الآخرة التي ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾، كما يصدع شراب خمر الدنيا منها وينزفون، والنزف فهو: القيء، وغير ذلك مما يكون من شراب الخمر في ما ذكر لنا عنها، الله أعلم بأمرها، فقد ذكر أنهم ينزفون من طرفيهم من فوق، ومن أسفل إذا شربوها. ومعنى ﴿ينزفون﴾ فهو يخرج منها، وينزف ما في بطونهم؛ فأخبر الله تبارك وتعالى: أن خمر الآخرة لا ينزل بشاربها ما ينزل بشارب خمر الدنيا من الآفات؛ بل خمر الآخرة فيها اللذات والطيبات، والصحة والسلامة، والنعمة الكاملة، تم ولله الحمد.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿والسابقون السابقون (١٠)﴾:

قال الإمام أبو الحسين زيد بن علي عليهما السلام: هو رجل واحد نزلت فيه هذه الآية، وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وهو أول من سبق إلى الإسلام.

وقال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام، فيها أيضا، في سياق كلام عن أن هذه الآية في علي عليه السلام:

فكان السابق إلى ربه غير مسبوق.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)﴾ [الواقعة: ٧٥]

قال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قوله عز وجل: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾، فقلت: ما معنى هذه النجوم؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: قد جاء في التفسير: أن القرآن نزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم آيات بعد آيات، فذلك في لغة العرب يجوز؛ تقول العرب:" اجعلوا لنا الدية على آل فلان نجوما "، أي: يدفعونها إليهم شيئا بعد شيء، فيسمون ذلك: نجوما؛ قال زهير بن أبي سلمى:

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

وإنما أقسم بها كما أقسم بالطور، وإنما أراد بهذا القسم: أن هذا القرآن لقرآن كريم؛ فهذا موضوع القاسم، وهو عندي الجواب في هذه المسألة، والجواب الأول: قول بعض أهل العلم.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة: ٧٩]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام عبد لله بن حمزة عليه السلام:

من: دنس الشرك والحيض والجنابة، وعبادة غير الله تعالى؛ فاعلم ذلك موفقا.

سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾[الحديد: ١١]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسئل الهادي إلى الحق صلوات الله عليه عن: قول الله سبحانه: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم﴾، فقال: إن الاستقراض لا يكون إلا عن حاجة من المستقرض إلى ما استقرض، فما معنى القول؟

قيل له: إن الاستقراض خارج على معنين، فأحدهما: يكون للإنسان، ولا يكون للرحمن، والآخر: يجوز للإنسان وللرحمن، ويجوز بذلك القول في الإنسان.

فأما الوجه الذي يكون للإنسان، ولا يجوز في الرحمن فهو: استقراض المحتاج لما يحتاج إليه، مما يقيمه ويحييه، من قوته المضطر إليه؛ وهذا فلا يجوز القول به في الرحمن.

وأما الوجه الذي يجوز أن يقال به في الرحمن وفي الإنسان فهو: ما يكون من طاعة المطيع لمن يطيعه، وذلك موجود في اللغة والكلام، عند أهل الفصاحة والعلم والتمام؛ وذلك قول العرب لمن اصطنع خيرا، أو أسدى إلى صاحبه يدا:" إن لك عند فلان لقرضا حسنا يجزيك به "، وكذلك إن كان سوءا قيل له:" إن

لك عنده لقرض سوء قدمته إليه و أقرضته إياه، فاحذره "، وكذلك وعلى ذلك يخرج معنى: القرض لله، فمن أقرض الله قرضا، وقدم إليه عملا حسنا أعطاه على ذلك من الفضل ثوابا حسنا؛ لأنه يجزي بالحسنة حسنات، ويعطي من أقرضه بطاعته ثوابا وخلودا في جنته.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام:

وبالإسناد قال: حدثنا محمد، قال: حدثني عبد الله، قال: حدثني عمارة، قال: حدثني عبيد الله بن العلاء: وسمعت زيدا عليه السلام يقول في قول الله عز وجل: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾.

قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام: إنه لم يرد الكفار بالله تعالى، وإنما أراد: الزراع، وواحد: كافر، وإنما سمي كافرا؛ لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كفره، أي: غطاه، وكل شيء غطيته فقد كفرته؛ ومنه قيل:" تكفر فلان بالسلاح "، أي: تغطى بالسلاح واستتر، ويقال:" الليل كافر "؛ لأنه يستر بظلامه كل شيء؛ قال لبيد بن ربيعة:

.... في ليلة كفر النجوم غمامها

أي: غطاها، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾، فقلت: أمثل هو أم حق؟

قال محمد بن يحيى عليه السلام: بل هو حق كما أنكم تنطقون؛ فأخبر سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: أن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض.

فإن قال قائل: فإذا كانت كذلك فهي أوسع من هذه الدنيا؟

قيل: ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وإذا الأرض مدت﴾ [الإنشقاق:٣]، ومعناه: أي: بسطت وزيد فيها مثلها؛ لأن السماء والأرض في الطول والعرض سواء، وذلك قول الله سبحانه في كتابه: ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ [الأنبياء:٣٢]، فلما أن كانت السماء على قدر الأرض صارت سقفا لها، ولو كانت السماء أمد من الأرض لكانت على غير الأرض سقفا، وليس شيء بعد الأرض يوقع عليه ولا يقال به، فسماء الآخرة كما ذكر الله سبحانه كعرض السماء والأرض، والأرض فتمد حتى تكون كمثلها كما ذكر الله سبحانه من فعله فيها، وما تصير إليه من حالها.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد: ٢٢]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام:

واحتجوا أيضا بقوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾، وتأولوا في ذلك بأقبح التأويل، ولم يتدبروا الآية، فيصح لهم فساد تأويلهم، وزعموا أن المصيبة هي: الكفر، وغيره من أعمال الإثم.

وليس ذلك كذلك؛ لأن آخر الآية يدل على غير ما تأولوا وقالوا، وإنما أراد بقوله سبحانه: ما أصاب الناس في الأرض من مصيبة، ولا أصابتكم في أنفسكم، إلا وقد علم الله ذلك من قبل أن يبرأ النفس، وهو خلقها برؤها، فعنى: ما في الدنيا من الآفات التي تقع في الأموال والثمار، وغيرها من المصيبات

التي يكثر شرحها، ولم يرد بذلك سبحانه: الإيمان، والكفر والعصيان، ولو أراد سبحانه ما تأوله الجاهلون من الجبر على الإيمان والكفر -ما قال: ﴿وبشر الصابرين﴾، وكيف يكون كافرا وفاسقا من كان محسنا صابرا، ومبشرا بالخير؟ ألا ترى إلى تصديق ما قلنا في تمام الآية، حين يقول: ﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣] ، فصح عند كل فهم أنه إنما أراد بهذا القول: محن الدنيا وبلواها، وفرحها وحزنها، وكثرة المال ونقصانه، وزكاء ثماره، ولو كان مراده عز وجل بهذا القول: الكفر والإيمان -لم يقل: لا تأسوا على الإيمان إن فاتكم، ولا تسروا به إن نلتموه، ولا تفرحوا بفوات الكفر لكم، فأي سرور يسر العبد إذا لم يسره الإيمان؟! وأي فرح أعظم منه على العبد، وأحلى من فوات الكفر له، وتخلصه منه؟! والحجة في هذا تفسد قول من قال بما ذكرناه، ومما يبين ما ذكرنا، ويشهد له: قوله سبحانه: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (١٥٦) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١٥٧)﴾[البقرة]، فقال سبحانه: ﴿أصابتهم مصيبة﴾، وإنما عنى بها ما ذكرناه، ولم يقل: الذين إذا أصابهم الإيمان والكفر فقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون؛ فبهذا علمنا أن المعنى هو: ما ذكرنا من محن الدنيا وآفاتها، ولو كان على ما تأوله الجاهلون ما سمي مصيبة، ولا أمرهم بالصبر عليه؛ للعلة التي شرحت لك؛ كيف يجوز أن يأمرهم بالصبر على الكفر، ويبشرهم بالثواب؟! هذا أحول المحال.

وقال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله عز وجل: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في

أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم (٢٣)﴾، فقلت: فيقول القائل: وأي مصيبة أعظم من المصيبة في الدين، وإن المصيبة مكتوبة على العباد؟

قال أحمد بن يحيى عليه السلام: لعمرو الله إن المصيبة في الدين لأعظم المصائب؛ ولكن الله عز وجل لم يعن بذلك الضلالة ولا الهدى؛ لقوله: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾، فلو كانت هذه الآية في الأعمال -لم ينبغي للعبد إذا أطاع الله عز وجل، وأحسن العمل: أن يفرح، ولا إذا عصى أن يحزن، ولكان ذلك منه خطأ وعصيان لله: أن يفرح بما أوتي من خير في دينه، أو أن يحزن على ما ضيع وفاته من دينه؛ لأن الله في قولهم قد نهى عن ذلك، وإذن لانتقض قوله، واختلف كتابه، وقد قال: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ [النساء: ٨٢]، ولخالفت هذه الآية التي ذكرتم هذه الآية التي أنا ذاكرها، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ [يونس: ٥٨]، وقال عز وجل: ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون﴾ [التوبة: ٨٢]، وليس وجه هذه الآية التي ذكرت على ما وضعوه عليه هم، إنما عنى الله عز وجل في هذه الآية: المصيبات التي يصيب بها عباده في الأنفس والأولاد، والأموال والثمرات، وما سخر لهم من الأشياء التي سخرها لهم به؛ أعلمهم قبل نزول المصيبة لهم أن سوف يبتليهم، وعلمهم كيف يقولون عند المصيبة إذا نزلت بهم، وما لهم فيها من الأجر إذا صبروا، وقالوا القول الذي علمهم، وقال: ﴿ولنبلونكم بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابته مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (١٥٦) أولئك عليهم صلوات من ربك ورحمة وأولئك هم المهتدون (١٥٧)﴾ [البقرة]، يقول سبحانه: إنما علمناكم ما تقولون، وبينا لكم في ذلك من الأجر والثواب؛ لكيلا تأسوا عند

البلاء على ما فاتكم، ولا عند المصيبة تجزعوا، تسليما لأمر الله تبارك وتعالى، ولو كان الأمر على ما توهموا -ما كان ينبغي لمن صلى وصام، وحج وجاهد، وفعل الخيرات -أن يفرح، ولا لمن زنى وسرق، وشرب الخمر، وقتل النفس الحرام، وعصى الله عز وجل -أن يحزن على معصيته؛ ولكن الناس تركوا الحق وأهله، واتبعوا أهوائهم، وقلدوا أمر دينهم من أضلهم وأغواهم، وقد أمروا فأعرضوا، وزجروا فلم ينتهوا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأما الكتاب الذي ذكرت هاهنا فهو: العلم؛ لأن الله عز وجل لا يحتاج إلى الكتاب.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام عبد للّه بن حمزة عليه السلام، في سياق كلام:

وأما قوله : ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾، بمعنى: يخلقها -فذلك مستقيم، وهي: المصائب النازلة من قبله تعالى في الأرض وفي الثمار والأشجار، والأمتعة الأرضية، ﴿ولا في أنفسكم﴾: النساء والأولاد، والأحباب والأوداد، والمصائب فيهم: بالموت والمرض، والصعق والبرق، إلى غير ذلك من الأمور، التي لا يقدر عليها سواه تعالى؛ فتفهم ذلك موفقا.

قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]

قال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام:

قال: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾، وإنما أراد تبارك وتعالى: ليعلم أهل الكتاب.

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾ [المجادلة: ٤]

قال في كتاب البساط للإمام الناصر الأطروش عليه السلام، في سياق الاستدلال على أن الله سمى العاصي كافرا:

﴿وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم (٤)﴾، معنى ذلك: وللتاركين ما فرضت عذاب أليم.

وقال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا﴾، المراد به: من قبل أن يتماسا، كسبيله في العتق والصيام، إذ المعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ [المجادلة: ٧]

قال في كتاب ينابيع النصيحة للأمير الحسين بن بدر الدين عليه السلام:

المراد به: أنه تعالى محيط بكل مكان علما وقدرة، فكأن ذاته في كل مكان؛ ومتى كانت هذه الآية وما شابهها محتملة لما ذكرناه من التأويل، ومطابقة في ذلك دلالة العقول، ومحكم الآيات ، غير خارجة عن اللغة العربية، والقرآن نزل عليها، فيجب أن تحمل على ذلك؛ لتتفق الأدلة، وينزه الصانع عن صفات النقص.

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾ [المجادلة: ١٢]

قال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

مما نسخ قول الله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾، وسبب نزول هذه الآية أن المسلمين أكثروا النجوى، حتى أضر ذلك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأراد الله أن يخفف عنه، فأنزل هذه الآية، فامتنع كثير من الناس من المناجاة، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ((إن في كتاب الله لآية وفرضا ما عمل بهما أحد غيري، ولا يعمل بهما أحد بعدي: لما أنزل الله: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾؛ كان معي دينار فصرفته، فكنت كلما أردت أن أناجي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصدقت بدرهم، فلم يفرغ الدينار حتى نسخت الآية الكريمة)). فنسخها الله بقوله: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾

[المجادلة:١٣].

وفي كتاب ينابيع النصيحة نحوا من هذا.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

معنى ﴿يوادون﴾ هي: يراضون ويحابون من حاد الله ورسوله، والمحاد لله: من عصى الله، ولم يؤد ما أمر الله بفعله؛ فذلك المحاد لله ولرسوله، ثم قال في ترك موادة المحادين من ذوي الرحم الأقربين، وغيرهم من العصاة الأبعدين: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾، يعني سبحانه بـ" كتب": حكم لهم، وأوجب أن في قلوبهم الإيمان إذا كانوا لا يوادون ولا يحابون أقرب الأقرباء، من الأبناء والإخوة والآباء، والعشيرة الذين هم بعد من سمى أقرب إليهم من الأجناس البعيدة؛ فلم يوجب الإيمان لمن حاده وعصاه وعصى رسوله، ولا لمن أحبهم وزادهم، فعلم كل من فهم عن الله : أنه لم يوجب الإيمان لمن يواد أباه وابنه وأخاه وعشيرته على معصية الله، وأنه يوجب الإيمان لمن أبغضهم وعاداهم؛ فهذا

فرض الله على من آمن: أن لا يواد من قريب قرائبه ممن سمى على ارتكاب معصيته ومحادته، ولغرض عصية.

وقال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام:

قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه: لا تحل مكاتبة الظالمين، ولا تحل مؤانستهم بكتاب ولا غيره للمؤمنين؛ لأن في المكاتبة لهم تطمينا وتحننا إليهم، وما تدعو المودة بينهم، وقد قال الله سبحانه: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾، إلى آخر السورة. قال يحيى بن الحسين رضي الله عنه: إلا أن يضطر مؤمن إلى مكاتبة ظالم لضرورة يخاف فيها إن ترك مكاتبته تلف نفسه، فيكاتبه عند وقت الضرورة، ويقطع مكاتبته عند الفسحة، ويعتذر إلى الله عز وجل في ذلك بما قد علمه له سبحانه من العلة، ويتحرز في مكاتبته إليه مما لا يجوز له من اللفظ أن يلفظ به لمثله، ولا يركن إليه بمكاتبته في شيء من أمره؛ فإن الله يقول: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ [هود: ١٣].

وقال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

قول الله تعالى: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾، يقول: إنه قد أرسخ في قلوبهم الإيمان، حتى صار مثل الخلق، كما قال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ [الحجرات:٧].

وقال في شرح الرسالة الناصحة للإخوان للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، في الاستدلال بهذه الآية على وجوب الولاء والبراء:

ووجه الاستدلال بهذه الآية: أن الله تعالى نفى الإيمان عمن ود من حاد الله سبحانه، ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، من قريب وبعيد على سبيل العموم؛ بل قد زاد سبحانه ذلك بيانا بذكر الآباء ولا أخص منهم، والأبناء ولا أقرب

منهم، والإخوان ولا أولى منهم، والعشيرة ولا أدنى منهم؛ فكيف بمن سواهم؟!.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن محمد عليه السلام، بعد ذكره للآية ما لفظه:

وهذا: بمعنى النهي؛ يستحق مخالفه العقاب.

وقال عليه السلام في موضع آخر في جواب سؤال:

وما أورده السائل من قوله تعالى: ﴿ولو كانوا آباءهم...﴾ الآية، فالمراد: تحريم الموادة، كما يدل عليه أول الآية، وذلك لا ينافي صلتهما.

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر: ٢]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام، في جوابه على ابن الحنفية:

وأما ما ذكر من قول الله سبحانه في بني النضير من اليهود: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾؛ فكذلك فعل الله بهم؛ وذلك: أنهم كانوا قد هادنوا الرسول عليه السلام، وخضعوا لأهل دعوة الإيمان والإسلام، حتى كان يوم الأحزاب، فجاءت قريش ومن تحزب معها من العرب، من اليمن ومضر، وأمدهم في ذلك يهود خيبر، يقاتلون الرسول والمؤمنين، مع أعداء الله الفاسقين، فلما أتى يهود خيبر – أرسلوا إلى يهود بني النضير، فوعدوهم أن يقاتلوا الرسول من ورائه إذا حميت الحرب بينه وبينهم، فنزلت بنو عامر أحدا من فوق المؤمنين، ونزلت قريش بطن الوادي من أسفل منهم، وكانت اليهود يهود خيبر قبل المسلمين مما يلي الحرة، وبنو النضير من وراء الرسول صلى الله عليه وآله، وفي ذلك ما يقول الله عز

وجل: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (١٠) هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (١١)﴾ [الأحزاب]، فكان فيمن نزل أحدا من العرب رجل أشجعي يحب الإيمان، ويبغض أهل العدوان، فأفسد بين المشركين طرا؛ وذلك: أنه أتى قريشا فقال لها: إن العرب قد ظافرت محمدا عليكم، ووعدته المحاربة معه لكم، وآية ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة، فخذوا حذركم، ولا تبدأوه حتى يقاتلوه قبلكم. ثم أتى أصحابه وبني عمه وجماعة العرب، فقال: إن قريشا قد عاقدت محمدا عليكم، وعلامة ذلك أنهم لن يبدأوه بالمحاربة قبلكم، فاعملوا لأنفسكم، ودبروا أموركم، ولا تقاتلوا حتى ترسلوا إليهم، فيقاتلوا قبلكم، فإن فعلوا وإلا فاحذروا مكرهم، والحقوا وشيكا ببلدكم. ثم أتى يهود خيبر، فقال: إن قريشا قد عاقدت محمدا عليكم، وآية ذلك أنها لا تبدأه بالمحاربة قبلكم. وأتى قريشا، فقال لها: إن اليهود قد ظافرت محمدا عليكم، وآية ذلك أنهم لا يبدأونه بالمنابذة قبلكم. فطرح في قلوب كل لكل بلاء وحقدا، ومخافة وشحناء، فأقام كل ينتظر أن يبدأ بالمحاربة غيره، فلما طال ذلك عليهم تراسلوا بينهم، يسأل كل كلا أن ينصب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حربا، وكلهم يأمر صاحبه أن يبدأ، فصح لذلك عندهم قول الأشجعي فتفرقوا، وفسدت قلوب بعضهم على بعض، فرحلت العرب طرا راجعة إلى بلدها، وأرسل الله سبحانه الريح على قريش واليهود، وأمد المؤمنين بالنصر منه والجنود، فلم يقم لقريش خباء ولا ظل، ولا تستوقد لهم نار إلا أطفأتها الريح وفرقتها وحرقتهم بها، فأقاموا ثلاثا لا يختبزون ولا يصطلون، فاشتد عليهم القر والجوع، ورماهم الله بالذل، فأزمعوا على الرجوع، ورحلوا راجعين خاسرين، خائبين نادمين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون

بصيرا﴾ [الأحزاب: ٩]، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقاتل بني النضير؛ إذ نقضوا عهده، وخالفوا أمره، فحاصرهم حتى جهدوا، فقالوا: يا محمد، خلنا نخرج من البلد بما حملت إبلنا التي في الحصن معنا من متاعنا، ونخلي لك الباقي، ومالنا من الضياع، ونشرط ألا نخرج بسلاح، ونترك الديار والنخل والقرى. فرضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فخرجوا بإبلهم، عليها جيد متاعهم، وتحف أبوابهم، فلما قلعوا التحف تهدمت وجوه البيوت، وذلك تدبير منهم، ليخربوها عليهم، فكان أحدهم إذا هدم لحاف بيته بطل البيت، ثم خرجوا على الإبل بالتحف، فذلك قول الله سبحانه: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾، فخرجوا جالين، ولنعمهم تاركين، وذلك قول أصدق الصادقين: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ [الحشر: ٣]، والتعذيب فهو: القتل، فكان الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو: ما كان من خذلانه لهم، حتى عمي عليهم رشدهم، وفاسدوا إخوانهم، ودخل الفزع عند ذلك من النبي والمؤمنين في قلوبهم، وأيقنوا أنه إذا علم بما كان من مظافرتهم عليه، وصاروا من الغدر به إليه -أنه لا يتركهم، وأنه يقاتلهم على فعلهم، حتى يظهر الله عز وجل الحق، ويزهق الباطل من الخلق؛ وهذا معنى إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين؛ لما أرادوا من هلاك المؤمنين، وكذلك كان فعله بأهل خيبر، حتى أخذوا وأسروا، وقتلوا وسبوا؛ فهذا قولنا في إلقاء الله الرعب في قلوب الفاسقين، لا ما ذهب إليه من خالف المحقين، وعند من قول الصدق في رب العالمين.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام عبد لله بن حمزة عليه السلام في سياق كلام:

سورة الحشر كلها نزلت في بني النضير بأسرها، يذكر فيها تعالى ما أصابهم من نقمه، وما سلط عليهم رسوله، وما عمله فيهم، فقال تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله...﴾، إلى آخر السورة. ولا بد لنا أن نذكر طرفا من القصة؛ لنعرف معاني الحكمة، لما كان من عامر بن الطفيل لعنه الله في أهل بئر معونة ما كان، ولم يسلم منهم إلا عمرو بن أمية الضمري، ورجل آخر أعتقه عامر عن نذر أمه في عتق نسمة، ولما رجع عمرو بن أمية؛ لأنه كان في الركاب يرعاها، فنجا لما رأى أصحابه قد أحيط بهم، فلقيه رجلان من بني عامر في ذمة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقتلهما، فوداهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخرج إلى بني النضير ليستعينهم في الدية، قالوا: نعم، يا أبا القاسم نعينك. وهموا بإلقاء صخرة عليه، فجاءه العلم من السماء، فأعلم أصحابه، ورجع المدينة، فآذنهم بالحرب، واستعمل على المدينة، وسار إليهم، حتى نزل بهم في شهر ربيع الأول، فسألوه أن يخليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم، إلا الحلقة فهي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحملوا ما أقلت الإبل وساروا إلى خيبر، يقدمهم أشرافهم: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب... (إلى آخر كلامه عليه السلام).

قوله تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]

قال في كتاب الأساس للإمام القاسم بن محمد عليه السلام:

معنى ﴿فبإذن الله﴾: فبإباحته، وذلك حكم واحد.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨)﴾ [الحشر: ٨]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

يقول: هذا من فعلهم على التصديق لهم، والإيقان بخالقهم؛ فاستوجبوا بذلك صدق موعده، وجزيل ثوابه، وتتابع نصره، وعموم نعمه، في عاجل دنياهم، وآجل أخراهم، وهؤلاء هم أهل العلم الباطن، الذين نظروا إلى دناءة الدنيا بقلوبهم، ورفعة الآخرة، فلم يلفتوا إلى الدنيا؛ فهانت في صدورهم، وقلت في أعينهم، فربحوا وأنجحوا، ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الحشر: ١٦]

قال في كتاب الرد على مسائل المجبرة للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

هذا يخرج على ثلاث معان؛ واحد منها: أنه يجوز أنه عنى شيطان الجن، وما كان من خديعته لآدم عليه السلام، والآخر: أن يجوز أن يكون شيطان الإنس أيضا. والثالث: الهوى، وهو أشرها على بني آدم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر: ٢٣]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألت عن: ﴿المؤمن المهيمن﴾؟

فالله هو: المؤمن لأوليائه من سخطه، والمهيمن: الشهيد، والله هو الشهيد على أعدائه بمعصيته.

وقال في كتاب المجموعة الفاخرة:

باب تفسير معنى: ﴿القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾

﴿القدوس﴾ فهو: المستحق من خلقه للتقديس، والتقديس فهو: التنزيه والتعظيم، فكذلك ربنا الواحد الكريم.

و﴿السلام﴾ فهو: السالم من الآفات التي تحل بغيره، النازلات بالخلائق، الحالة بهم، الهاجمة عليهم.

و﴿المؤمن﴾ فهو: المؤمن لأوليائه من أليم عذابه، الصارف عنهم ما يوقع بأعدائه من عقابه.

و﴿المهيمن﴾ فهو: المتقدس الحاكم، الفاصل حكمه العالم، الشاهد على خلقه بحكمه العادل.

و﴿العزيز﴾ فهو: الغالب الجليل، الممتنع المتعالي عن التشبيه والتمثيل، المتعزز فلا يرام، العظيم الجليل فلا يضام، المعز لأوليائه، المذل لأعدائه.

و﴿الجبار﴾ فهو: المالك القاهر، الذي ما جبر من الأشياء كلها انجبر، فكان على ما جبره عليه وصوره من الأجسام، فتبارك الله ذو الجلال والإنعام، الذي جبل الأشياء، وجبرها على ما شاء، من تصوير خلقها، وتركيب أجسامها

وأبعاضها، وتقدير ألوانها وأماكنها، وتغيير طعم مأكولها واختلافها؛ فجبر السموات على ما أراد من الارتفاع، وجبل وجبر الأرضين على ما أراد من الاندحاء والاتضاع، وجبر ما بينهما على ما شاء من التصوير والخلق، والتقدير والتركيب، وجبل وجبر العباد على ما شاء من تصويرهم، وخلق ما خلق من تقديرهم، فجعلهم من ضعف، ثم جعل من بعد الضعف قوة، ثم جعل من بعد القوة ضعفا وشيبة، يخلق ما يشاء، كما قال الله سبحانه: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ [الروم: ٥٤]، وكذلك جبلهم على ما شاء من خلق أجسامهم، فجعل منهم الطويل والقصير، وجعل منهم النبيل في جسمه والحقير، وكلهم مريد للأفضل من الأمور، فكانوا كما شاء أن يجعلهم، وجعل فعله فيهم وفي غيرهم آية لهم، كما قال سبحانه: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢]، فكان تركيب خلقهم كما أراد من تصويرهم، لا اختلاف في ذلك ولا تفاوت، كما قال سبحانه: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور (٣) ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير (٤)﴾ [الملك]، فالحمد لله الذي جبل العباد، وجبرهم على ما شاء من تركيب خلقهم، محبوبهم من ذلك وغير محبوبهم، ولم يجبرهم على شيء من أفعالهم، صغيرها ولا كبيرها، دقيقها ولا جليلها؛ بل أمرهم ونهاهم، وبصرهم غيهم وهداهم، ثم بعث إليهم النبيئين، فأمروهم بطاعة رب العالمين، وحذروهم أن يكونوا له من العاصين، وخلق للمطيعين ثوابا، وللعاصين نكالا وعقابا، ثم لم يحل بين أحد وبين طاعته، ولم يجبر أحدا على معصيته؛ بل أمر عباده تخييرا، ونهاهم سبحانه تحذيرا، ثم قال ذو المن والعزة والجلال، من بعد إكمال الحجة عليهم في كل حال: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا

أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨)﴾ [الزلزلة]، فتبارك المتقدس عن خلق أفعالهم، المتعالي عن جبرهم على شيء من أعمالهم، العدل في كل أفعاله، الصادق في كل مقاله، البريء من شبه المجعولات، المتعالي عن درك الغفلة والسنات.

و﴿المتكبر﴾ فهو: العظيم الجبير، الذي لا يشبهه في القدرة والعظمة كبير.

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]

قال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

يعني: تبرأنا منكم.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ [الممتحنة:٧]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام:

وأما ما قال، وعنه سأل، من قول الله عز وجل: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم﴾، فتوهم أن الله جعل فيهم مودة قسرهم عليها، وأدخلهم جبرا فيها. وليس ذلك بحمد الله كذلك، وتفسير هذه الآية فهو يخرج على معنيين، وكلاهما شاف، ومن التطويل كاف:

فأولهما: ما جعل الله للمؤمنين من الإذن، وأطلق لهم من البر والإقساط والإحسان، إلى من كان على غير الإيمان، من المشركين الذين لم يقاتلوهم، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم؛ فقال: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾، ثم قال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾؛ فكان ما أطلق لهم من البر والإقساط أول الرحمة منه لهم،

وجعل المودة بينهم؛ إذ قد أطلق لهم من الفعل ما يجتلب المودة، ويزرع المحبة، من اللطف والبر، في العلانية والسر، فلما أن تباروا وتنافعوا -جرت المحبة والمودة للمؤمنين في قلوب الكافرين؛ لما ينفعونهم به، ويحسنون إليهم فيه؛ فكان الإذن من الله عز وجل للمؤمنين، بما يجتلب المودة في الإقساط إلى الكافرين - أفضل المنة منه على المحسنين.

وقد تكون تلك المودة هي: ما في الإيمان من البركة واليمن، وما جعل الله بين المؤمنين من المحبة، وافترض عليهم من التواد على الدين، وحكم به من الأخوة بين المؤمنين، حين يقول: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ [الحجرات: ١٠]؛ فكان كل من دخل فيما أمر بالدخول فيه من الإيمان إذا دخل، وإلى الله سبحانه أقبل -سدده الله سبحانه ووفقه، وحببه إليه من بعد إقباله إليه، وبغض إليه الكفران، كما قال الله الرحمن: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾ [الحجرات: ٧]، فكان كل من دخل في الإسلام، من جميع الأنام - أخرجته بركة الإيمان من الحقد، والدغل والحسد، حتى يعود إلى المؤاخاة على الحق، والقول في ذلك على الله بالصدق؛ فهذا ما لا ينكره ذو عقل وتمييز؛ ألا تسمع كيف حكى الله عز وجل ذلك عنهم، وذكر لك قولهم، حين كانوا يدخلون في الدين، ويتابعون المسلمين على اليقين، حين يقول: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ [الحشر: ١٠]، فلما أن دخلوا في الإيمان -صاروا عليه وفيه نعم الإخوان متحابين، متواصلين متواخين، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فكانوا كما قال الله جل جلاله: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن

المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج: ٤١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ [الممتحنة:٨]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾؟

قال محمد بن يحيى عليه السلام: هذا تبيين من الله عز وجل للمؤمنين، وإعلام بمن حظر عليهم معاشرته من الفاسقين، ومن أطلق لهم مكاونته من المخالفين؛ فنهاهم عز وجل عن الذين حاربوهم، وأدخلوا عليهم، واستجلبوا العدو إلى حربهم، وطلبوا الغوائل، ولم ينههم تبارك وتعالى عن من كان غير محارب لهم، ولا موجف عليهم، ولا مكاون لعدوهم؛ والقسط فهو: العدل وترك الظلم؛ فأمر نبيه صلى الله عليه وآله والمؤمنين معه أن يقسطوا في من وفى بعهدهم، ويبروا من لم يشهر نفسه بعداوتهم، وكان منصفا لهم؛ فهذا معنى الآية وتفسيرها.

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾ [الصف: ١٠، ١١]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

سألني عن: قول الله سبحانه: ﴿ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠)﴾، إلى قوله: ﴿إن كنتم تعلمون (١١)﴾، فقال: المؤمنون - ولله الحمد - عند الله من العذاب فمبعدون، ومن غيرهم يوم القيامة فمميزون، كما قال الله الرحمن الرحيم، في ما نزل على نبيه الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون (١٤) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون (١٥) وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون (١٦)﴾ [الروم]، وفي ذلك من تمييزهم ما يقول: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون (١٨)﴾ [السجدة]، إلى قوله: ﴿الذي كنتم به تكذبون (٢٠)﴾؛ فأخبر تبارك وتعالى: بالفرق بين المؤمنين والفاسقين، وقص علينا ما يكون في عباده يوم الدين، والحمد لله العدل في كل أفعاله، المتفضل بالإعذار والإنذار إلى خلقه، معين المطيعين، ومذل الفاسقين، المصدق بقوله لقول الموحدين، الشاهد لهم في ذلك بالحق واليقين،

المكذب للفسقة المبطلين، من المشبهة المجبرين؟

قيل له: إنما أراد الواحد الأحد، المتقدس الفرد الصمد بما عنه سألت من قوله -الدلالة على فضل الجهاد، والقيام بالحق في الخلق والبلاد؛ فدلهم بما قال، وبما ضرب لهم من التجارة في الأمثال، على أنه لا شيء عنده يعدل الجهاد، من جميع ما افترض على العباد؛ فنبههم للخطر والفضل المبين، وأخبر أنه أعظم وأجزل ما يلقونه يوم الدين؛ وكيف لا يكون - يا بني - ما ذكر الله من الجهاد كذلك، ولا تكون تجارة عند الله سبحانه للعباد -من العذاب والمهالك؟! وبه تقوم أحكام رب العالمين، وتحيى سنن خاتم النبيين، ويعز المؤمنون، ويذل الفاسقون، وتشبع الأكباد الجائعة، وترفع الرقاب الخاضعة، وتظهر حجج الحق الدامغة، وتموت البدع السابغة، وتعلو وتظهر الخيرات، وتماط وتنفى الفاحشات، ويعمل في كل البلاد بالصالحات، وينصر المظلومون، ويردع الجائرون، وتكسى الظهور والجنوب العاريات، ويمات الظلم والشرور، وتقضى الغرامات عن الغارمين، وينصر الله به المستضعفين، ويعز به الإسلام والمسلمين؛ فيالها تجارة ما أربحها، ودعوة ما أنورها، لو كان لها من الأنام مجيبون، أو في هذه الأمة المخذولة طالبون!! ولكن لا طالب لها، ولا تاجر فيها، ولا مقبل إليها؛ تعلقوا بالشبهات، وتسلوا بالأمنيات، وكرهوا الوفاة، واستطابوا تافه الحياة، ومالوا إلى غرور الدنيا، وجروا واستبقوا في ميادين الهوى، وزهدوا في دار الخلد التي تبقى، التي لا نصب فيها ولا تعب ولا شقاء؛ كأن لم يسمعوا الواحد العلي الأعلى يقول في ما نزل من الوحي على نبيه المصطفى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون (٦٤)﴾ [العنكبوت]؛ فلعمري إنها الفرة من القتل؛ ليلاقي من الموت ما هو أشد وأبلى، وأطول نكدا، وأعظم هولا، وما عن الموت لهم من مهرب ولا مصدر، وما ينجوا منه من أحد، كما قال رب العالمين: ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا

ترجعون (٥٧)﴾ [العنكبوت]؛ فما عسى من فر من القتل والقتال: أن يمتع، وإن جمع في الاغترار وطول الآمال أياما يسيرة، وحياة غير كثيرة، ثم إلى الله المصير، كما قال في ذلك اللطيف الخبير: ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم﴾ [الأحزاب: ١٦]، إلى قوله: ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا (١٧)﴾.

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧)﴾ [المنافقون: ٧]

قال في كتاب الأساس للإمام القاسم بن محمد عليه السلام:

المعني بها: عبد الله بن أبي وحده؛ لنقل المفسرين ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]

قال في كتاب البساط للإمام الناصر الأطروش عليه السلام:

دعاهم بالصفة لما انتحلوه، كأنه قال سبحانه : يا أيها الذين زعموا أنهم آمنوا. وليس ذلك الذي دعاهم به موجبا لهم أن يكونوا مؤمنين أنفسهم من سخط الله وعقابه؛ ولكن يوجب أن يكون معهم إقرار بالإيمان باللسان لا ينفعهم؛ ألا ترى أنه جل ذكره وصف أنهم يسألون الرجعة عند معاينة الموت، والمؤمن لا يسأل الرجعة عند الموت؛ بل يكون بما تلقاه به الملائكة من البشرى فرحا مسرورا، وإنما يكون اسم الإيمان الحق واجبا لمن دعاه الله فقال:" يا مؤمن "؛ فهذا يكون دعاء بحقيقة الاسم لا بالصفة، وقد بينا هذا في:" كتابنا الكبير في الإيمان "، وأوضحناه إن شاء الله. وكذلك: كل من أصر على شيء من كبائر

معاصي الله وذنوبه، التي تكتب عليه في كل يوم وساعة، تزيد ولا تنقص إلا جملة؛ قياسا على ما تقدم وصفنا إياه من زيادة الإيمان. وإني لأكثر التعجب من قوم يسمعون الله سبحانه يصف في محكم كتابه الإيمان بالزيادة، ويقولون هم : لا يزيد.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله عز وجل: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾: هذا خبر من الله تبارك وتعالى، أنزله إلى رسوله صلى الله عليه وآله، يخبره بضمير المنافقين، عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه، وهو رأس المنافقين؛ فكان هو وأصحابه - عليهم لعنة الله - يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فيقولون إذا حضروا المجلس، وسمعوا ما يتلو من آيات الله، وبراهين نبوته: ﴿نشهد إنك لرسول الله﴾؛ رياء منهم ونفاقا، ومراءاة للناس وشقاقا؛ فأخبره الله أنهم كاذبون في قولهم، وما يعلنون من تصديقهم بنبي الله، والإقرار به، وأعلمه أنهم يضمرون ما لا يبدون، ويقولون غير ما يعتقدون؛ فقال سبحانه:﴿إذا جاءك المنافقون﴾.

يريد بقوله:﴿جاءك﴾: أتاك. ﴿المنافقون﴾ فهم: الذين يقولون غير ما يضمرون، وينافقون رسول الله فيما به يتكلمون. فـ ﴿قالوا﴾ معناها: تكلموا، وذكروا. ﴿نشهد﴾ معناها: نقر ونعلم، ونعتقد ونفهم. ﴿إنك لرسول الله﴾ معناها: أنك أنت رسول الله. ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾، يقول: الله أعلم ما أرسلك به، وحقيقة بعثه لك إلى خلقه، واحتجاجه برسالتك على بريته. ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾، معنى قوله:﴿والله يشهد﴾ فهو: الله يعلم أن

المنافقين الذين زعموا أنهم يشهدون إنك رسول الله كاذبون في قولهم، وما ذكروا من إقرارهم بك، وتصديقهم؛ فأخبره أن ضميرهم واعتقادهم خلاف ما يبدونه بألسنتهم، وأنهم في قولهم ينافقون، وفيما زعموا أنهم يشهدون به كاذبون.

ثم قال سبحانه:﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾: هذه الآية وما ذكر قبلها من نفاق المؤمنين، فيما شهدوا به من الشهادة التي كانوا في ادعائها مبطلين -نزلت وما ذكر في السورة كلها من ذكرهم، فنزلت على النبي صلى الله عليه وعلى آله في غزوة عسفان، وفيما كان من كلام الكافر عبد الله بن أبي وأصحابه، وكان أصل ذلك أن خدم العسكر كانوا يتقدمون إذا بلغوا المناهل، فيستقون الماء لأصحابهم، فتقدموا عند رجوع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من غزوته - كما كانوا يفعلون - إلى الماء، فاجتمع على الماء خدم المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، وخدم المؤمنين من المهاجرين والأنصار، فازدحموا عليه، وتطارحوا الكلام، حتى تضاربوا، فطرد خدم المؤمنين خدم المنافقين، فلما نزل العسكر وجد عبد الله بن أبي ابن سلول خدمه لم يستقوا بعد، فسألهم، فأخبروه بما كان من خدم المهاجرين، فقال: آويناهم وقويناهم، حتى قووا علينا؛ ﴿والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾. ثم قال لأصحابه: لا تشاروا أصحاب محمد، ولا تبايعوهم، ولا ترشدوهم ولا تعينوهم، ولا تنفقوا عليهم؛ حتى ينفضوا. فلما أن بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخبر هم بقتله، فأتاه ابن لعبد الله بن أبي ابن سلول، وكان مؤمنا مخلصا، فقال: يا رسول الله، إن كنت عزمت على قتله فمرني أنا، فآتيك برأسه؛ فوالذي بعثك بالحق نبيئا ما قولي هذا لشك فيك، ولا معارضة لك في شيء تراه، غير أني أخاف أن تأمر به غيري فيقتله، فيقع في قلبي خشونة على قاتله، فينقص ذلك علي من اسلامي. فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: ((بل نهبه لك، بل نهبه لك))، ثم وهبه له؛ فيروى أن العسكر لما

وردوا المدينة أخذ ابن عبد الله السيف، ثم أتى إلى أبيه به مسلولا، ثم قال: والذي بعث محمدا بالحق نبيئا لتقولن: إن رسول الله الأعز، وأنت الأذل، أو لأضربن رأسك بالسيف. فلما رآه مزمعا على قتله إن لم يقل ما أمره به قالها صاغرا داخرا مكرها، فلما أن بلغ عبد الله ابن أبي أن رسول الله قد علم بقوله أتى إليه في جماعة من المنافقين، فحلف له بالله مجتهدا جاهدا: إن كنت قلت ما بلغك عني، ولا تكلمت بهذا الكلام. وحلف إخوانه المنافقون: ما قاله، ولا تكلم به، ولقد كنا حاضرين للفظه، ولجميع قوله. فأنزل الله فيهم على نبيئه صلى الله عليه وعلى آله: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾.

معنى ﴿اتخذوا﴾ فهو: جعلوا. ﴿أيمانهم﴾ معناها: قسمهم وحلفهم بالله. ﴿جنة﴾، فمعنى ﴿جنة﴾ أي: تقية يتقون بها، وسترا يستترون به من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويدفعون بها ما يجب عليهم في فعلهم من العقوبة، التي تجب عليهم في قولهم ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله. ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾، يقول: إنهم صدوا عن الحق، وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وعلى أهله، حين زالت عنهم العقوبة؛ لعفو رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم، عندما كان من أيمانهم وحلفهم له، فصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وصدوا غيرهم، ومعنى صدوا فهو: أعرضوا وتركوا سبيل الله التي أمرهم بسلوكها، من أبواب طاعته، وأنواع فرائضه. ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾، يقول: إنهم بئس ما كانوا يعملون، فمعنى ﴿ساء﴾ أي: قبح ما كانوا يعملون، ومعنى ﴿يعملون﴾ فهو: يفعلون ويصنعون، من صدهم عن سبيل الله، ودعائهم إلى غير الله، وتكذيبهم لرسول الله.

ثم أخبر سبحانه من أين نزل بهم خذلان الله، حتى فضحهم الله في كتابه، وأطلع المؤمنين على عوراتهم في فرقانه، فقال:﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾؛ فأخبر سبحانه: أنهم آمنوا في أول أمرهم، ثم

حملتهم الحمية الجاهلية، والعصبية والأنفة والباطل، عن أن يكونوا هم وغيرهم في الحق سواء، وأن يناصفوا أحدا في الحق، فكفروا من بعد إيمانهم، وأبدوا العداوة للرسول صلى الله عليه وآله حين ناصف بينهم، وبين من هو دونهم في الحق، وساوى بينهم في النصفة، ومنعهم من تجبر الجاهلية وتكبرها، وتعفرتها وظلما، فرجعوا بعد أن آمنوا برسول الله كافرين به، جاحدين لنبوته، طاعنين عليه، مغتمين من جواره، كارهين لقربه؛ فسقا وظلما، وتجبرا وكفرا؛ فأخبر الله سبحانه أن الذي أنزل بهم في كتابه من اللعن والتنقص، وما افترض على المسلمين من البراء منهم، ومنعه لنبيئه من الوقوف على قبر من مات منهم، وما أمره به نبيئه من مجاهدتهم، والغلظة عليهم، وغير ذلك مما أمر به فيهم هو: لكفرهم بعد إيمانهم، ولنقضهم العهود بعد توكيدها؛ ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ﴿فطبع على قلوبهم﴾، يقول سبحانه: شهد على نفوسهم بالطبع، والانقفال عن الهدى، والإعراض عن التقوى، وأخبر أن ذلك كله لخذلان الله لهم، يقول: أنزل الخذلان على قلوبهم، فتحيروا وحل بهم خذلان الله فهلكوا، ورانت المعاصي على قلوبهم، فعموا، ﴿فهم لا يفقهون﴾، يقول: فهم لا يهتدون للرشد فيتبعوه، ولا يجدون من دون الله توفيقا، فيستعينوا به على أمرهم، فهم منغمسون في الضلال والعمى، زائغون عن الحق والهدى، متمادون في الحمية والردى.

ثم أخبر سبحانه نبيئه صلى الله عليه وآله بصفاتهم فقال: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن تقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾، فدل رسوله عليهم بصفاتهم، بعد أن دلهم عليهم بأسمائهم، فقال: ﴿وإذا رأيتهم﴾، يقول: إذا أبصرتهم وعاينتهم يمشون مقبلين أعجبتك أجسامهم، يقول: أعجبك خلق الله لأبدانهم، وعجب ما قدر فصور من أعضائهم، وحسن من تصويرهم، وأتقن

من تقديرهم، الذي لم يشكروا الله عليه، ولم يحمدوه فيه. ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾، يريد تبارك وتعالى بقوله:﴿يقولوا﴾ أي: يتكلموا بقول، وإن يتكلموا تسمع لقولهم، ومعنى ﴿تسمع﴾ فهو: تستمع، ومعنى ﴿لقولهم﴾ فهو: لكلامهم، يريد سبحانه بقوله:﴿تسمع﴾ أي: تستمع لحلاوة ألسنتهم، وتعجبك فصاحة ألسنتهم، وحلاوة لفظهم، حتى تصغي إلى استماع كلامهم، تعجبا منك لجودة لغاتهم، وبيان أقوالهم؛ فهذا معنى: ﴿تسمع﴾، لا على أنه يستمع كلامهم استماع تصديق، ولا قبول تحقيق؛ بل هو عالم بكذبهم، وإنما استماعه وإصغاؤه إلى قولهم تعجب منه لحسن كلامهم، وفصاحة ألسنتهم، الذي لم يشكروا الله عليه، كما تعجب من خلق أجسامهم؛ فهذا معنى ﴿تسمع لقولهم﴾. ثم شبههم سبحانه بالخشب المسندة، فقال تبارك وتعالى: ﴿كأنهم خشب مسندة﴾، يريد سبحانه: الذم لهم بذلك، يخبر سبحانه عن: عظم أجسامهم، وتمام خلقهم، وعظيم ما هم فيه مع ذلك من جهلهم، وقلة استعمالهم لما ركب فيهم من عقولهم؛ فلما أن لم يستعملوا عقولهم، ولم يتدبروا أمورهم، مع عظيم ما أنعم الله عليهم به، من الخلق الكامل السوي، الحسن النير البهي -شبههم بما لاعقل فيه؛ إذ لم تنفعهم عقولهم، فضرب لهم بالخشب مثلا، فشبه عظم أجسامهم في الطول والغلظ والجسم -بالخشب المسندة، خشب النخل الكبار؛ فأخبر نبيئه صلى الله عليه وآله: أن من عظم جسمه، وحسن خلقه، وقل عمله، وعدم استعمال عقله، وعزب فهمه -كان في المعنى كالخشبة العظيمة، التي تعجب من نظر اليها، طولها وعرضها، فهي لا تنفع نفسها في شيء من حالها؛ فكذلك هؤلاء المنافقون؛ إذ عظمت أجسامهم، وحسنت صورهم، وعدموا استعمال عقولهم، بالإعراض عن أمر ربهم، حتى نزل بهم خذلانه، وأحاط بهم انتقامه، ورانت المعاصي على قلوبهم، فصاروا في قلة النظر لأنفسهم، والاعتبار بآيات خالقهم - كالخشب المسندة التي لا تنفع أنفسها، ولا تعتبر بشيء من أمر خالقها، واستوى

عندهم الحق والباطل، كما استوى عند الخشب المسندة؛ فكل لا يفهم رشده، ولا يميز أمره؛ فبعدا لأصحاب السعير.

ثم أخبر سبحانه نبيئه صلى الله عليه وأهله بما يلقون من الفزع من الحق وأهله، وما يخشون من سطواته على عدوه، فقال سبحانه: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾، معنى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ هو: يظنون أن كل دعوة دعوتها، أو وثبة وثبتها، ونهضة نهضتها أنها عليهم وإليهم، وأنك تريدهم بها وتقصدهم، وأنك لا تريد غيرهم، ولا تفعل ذلك إلا للبطش بهم. والصيحة فمعناها: الوثبة والنهضة، ودعاء الرعية، وجمع الرجال؛ فكانوا كلما تحرك رسول الله صلى الله عليه وآله لمواثبة عدو توهموا أنه يقصدهم، وأنه بذلك يريدهم دون عدو من غيرهم؛ وذلك لما في قلوبهم من الريبة والبلاء، والكفر بالله العلي الأعلى، والمعاداة لرسوله المصطفى، فأعلمه الله بذلك من أمرهم، وأطلعه بما أخبره به سبحانه عن سوء ضميرهم. ثم قال سبحانه: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾، ومعنى ﴿هم العدو﴾ أي: أولئك الذين يفعلون هذا هم أعداؤك حقا، وحربك دون غيرهم صدقا؛ والعدو فهو: المحارب والمبغض والمناصب، والمدغل المداخل لرسول الله صلى الله عليه وآله بنوع من أنواع الفساد، كائن من كان. معنى ﴿فاحذرهم﴾ أي: اتق شرهم ومكرهم، وكن على حذر، ولا تأمنهم في شيء من أمرك، ولا تثق بهم في سبب من أسبابك. ﴿قاتلهم الله﴾ معناها: لعنهم الله. ﴿أنى يؤفكون﴾، معنى ﴿أنى﴾ هو: كيف يؤفكون، ومعنى ﴿يؤفكون﴾ فهو: يعرضون، ويتركون سبيل رشدهم، وقد يرون الحق في ذلك باديا لهم، ويؤفكون هاهنا فليست في معنى: يكذبون، وإنما هي في معنى: يعرضون، ويفرطون، ويتركون، ويقصرون، وليست من جنس قوله سبحانه: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ [الجاثية: ٧]؛ لأن الأفاك هاهنا هو: الكذاب، وإنما ﴿يؤفكون﴾ في هذه السورة في معنى قوله

سبحانه:﴿يؤفك عنه من أفك﴾ [الذاريات: ٩] معناها: يستل عنه من فرط وقصر، في يوم الجزاء بمن قصر، ويعرض في ذلك اليوم عمن أعرض في الدنيا عما دعي إليه من الهدى، فأفك في قبول الهدى، وفي تعلقه بضده من الردى، وسلوكه في طريق الحيرة والعمى.

ثم أخبر سبحانه بعتوهم واستكبارهم، وإعراضهم عن الله سبحانه وإدبارهم، فقال سبحانه: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾، معنى قوله:﴿وإذا قيل لهم﴾ هو: متى قيل لهم. ﴿تعالوا يستغفر لكم﴾، معنى ﴿تعالوا﴾ هو: ائتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، واسألوه يستغفر لكم ربكم، ومعنى ﴿يستغفر لكم﴾ فهو: يسأل الله المغفرة لكم، والتوبة عليكم. ﴿لووا رؤوسهم﴾ هو: أعرضوا عن الحق، وهو شيء يفعله الكاره للشيء، إذا دعي إليه لوى رأسه في شق، وأعرض اعراضا عن المكلم له، بما لا يهوى. ﴿ورأيتهم يصدون﴾، يقول: أبصرتهم يعرضون عن الحق اعراضا، ويعندون عن الله عنودا، ويصدون ﴿وهم مستكبرون﴾، ومعنى ﴿مستكبرون﴾ أي: متجبرون، لا يعرفون الله ولا يهتدون، ولا له سبحانه يتذللون.

ثم أخبر سبحانه نبيئه بأنه لن يغفر لمثلهم، ممن كان مصرا على مثل ما هم عليه مصرون، من الكفر والفجور والفسق، وارتكاب الشرور، فقال سبحانه: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾: معنى ﴿سواء عليهم﴾ فهو: سواء عندهم؛ لفسقهم. ﴿أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾؛ إذ هم بك مكذبون، وعلى الله مجترون، فهم لا يوقنون بك، فيطلبوا استغفارك، ولا يصدقونك فيتبعوا دينك. وقد يكون معنى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾: أن يكون الله تبارك وتعالى أخبر نبيئه صلى الله عليه وآله أنه لن يقبل استغفاره لهم لو استغفر؛ إذ هم مصرون على كبائر

عصيانه، والتكذيب بآياته وقرآنه؛ فأخبر أن استغفاره لمن كان ضميره كذلك، وإمساكه عن الاستغفار لهم سواء؛ لأن الله سبحانه لا يغفر إلا لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، فأما من لم يتب، وكان ضميره فاسدا فلن يغفر له سبحانه أبدا. ومعنى ﴿أستغفرت لهم﴾ فهو: سألت الله المغفرة لهم. ﴿أم لم تستغفر لهم﴾، يقول: أم لم تسأل المغفرة لهم. ﴿لن يغفر الله لهم﴾، يقول: لن يتوب الله عليهم، ولن يعفو عنهم، ولن يغفر أبدا لهم؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، يقول: لا يسدد ولا يوفق، ولا يغفر ولا يرشد القوم الفاسقين؛ والفاسقون فهم: الفسقة في الدين، والفسق في الدين فهو: التكذيب بالحق المبين، والعنود عن شرائع الدين، وفيما قلنا به من ذلك ما يقول الله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٨٠].

ثم أخبر سبحانه بما يقولون ويلفظون، وبه في أنديتهم يأتمرون، فقال: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾؛ فهذا قول عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين؛ فأخبر أن هؤلاء الذين لا يقبل استغفار الرسول لهم؛ لما قد علم الله من سوء ضميرهم -﴿الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾، ومعنى ﴿لا تنفقوا﴾ يقول: لا تعينوا ولا تواسوا من عند رسول الله، من المهاجرين الواردين من آفاق الأرض عليه. ﴿حتى ينفضوا﴾، يقول: حتى يذهبوا ويفترقوا إذا مسهم الضر، ونالهم البلاء. فأخبر سبحانه: أن له خزائن السموات والأرض، وخزائنها فمعناها: ملكها، وملك جميع ما فيها من الأرزاق، في جميع الآفاق، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب، وأن لن يضيع المؤمنين إذا أخلصوا نياتهم، وصبروا على أمره في جميع أسبابهم، وأنه سيأتيهم برزقهم من حيث لا يحتسبون، ويأتيهم بمحبوبهم من حيث لا يرجون. ﴿ولكن

المنافقين لا يفقهون﴾: يخبر: أن المنافقين لا يعلمون ذلك ولا يوقنون به، ولا يتوهمون أن رزق أصحاب محمد عليه السلام إلا منهم، لا من عند ربهم؛ بل الله سبحانه هو الرزاق للصنفين، المؤمنين والمنافقين؛ نعمة منه على من آمن به، وإكمالا للحجة على من كفر به؛ ألا تسمع كيف يحكي قولهم حين يقول:

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾؛ فهذا قول من عبد الله بن أبي وأصحابه - لعنهم الله -. معنى: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة﴾، يقولون: لئن قدمناها، وصرنا إليها. ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾: كأنهم - لعنهم الله - يعرضون بأنهم هم الأعزون، وأن أصحاب رسول الله هم الأذلون، وقد كذبوا - عليهم لعنة الله - بل هم الأذلون، وأصحاب رسول الله هم الأعزون، ومعنى قولهم:﴿ليخرجن﴾ فهو: ليطردن، ولينحين منها، وليخرجن عنها؛ ألا تسمع كيف قال الله في إكذابهم، ودفع قولهم، وإبطال لفظهم، وإثبات العزة له ولرسوله وللمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾، والعزة فهي: القوة والقدرة والبطش، ونفاذ الأمر والنهي. ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾، معنى ﴿ولكن﴾ هو: معنى التكذيب لقولهم، وإثبات الكذب عليهم؛ وهي: كلمة تستعملها العرب في مثل هذا، ترد بها كذب الكاذب، وباطل المبطل، وتوجب الجهل عليه في قوله. ﴿المنافقين﴾ فهم: أهل الكذب والنفاق، وقول المحال والشقاق. ﴿لا يعلمون﴾ يقول: لا يفقهون، ولا يدرون ما يأتون ويذرون.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بما فيه نجاتهم، والبعد لهم من شبه غيرهم، ممن ينسب إلى النفاق والكفر، فقال:﴿ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، فمعنى: ﴿ياأيها﴾ فهو: يا هؤلاء الذين آمنوا، فمعنى ﴿آمنوا﴾ فهو: صدقوا وأيقنوا.

﴿لا تلهكم أموالكم﴾، يقول: لا تشغلكم. ﴿أموالكم وأولادكم عن ذكر الله﴾، والأموال فهي: الأموال المعروفة، التي يستغنى بمعرفتها عن شرحها، من الذهب والفضة، والحرث والأنهار والأشجار، والثمار والأنعام، التي تشغل الفاسقين عن الله، وتلهي المنافقين عن ذكر الله، وتمنعهم محبتها والاشتغال بها عن طاعة الله، والأولاد فهم: البنون المحبوبون، المتزين بهم، المفتخر بكثرتهم، الذين يلهون أباهم بالمحبة لهم، مع الجدة في أموالهم عن ذكر الله سبحانه، إذا لم يكونوا مؤمنين؛ فأمر سبحانه المؤمنين بالحذر عن الاشتغال عن الله بالأموال والأولاد، كما يفعل من لا دين له من العباد. ومعنى: ﴿عن ذكر الله﴾ فهو: عن طاعة الله، والعمل بمرضاة الله؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، ومعنى ﴿أولئك﴾ فهم: الذين يفعلون ذلك فهم الخاسرون.

ثم أمرهم سبحانه بالإنفاق في سبيله، فقال: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾، ومعنى: ﴿وأنفقوا﴾ يريد: أخرجوا واعطوا في سبيل الله مما رزقناكم. معنى ﴿رزقناكم﴾: أعطيناكم ووهبناكم، وفتحنا من أرزاقنا عليكم. ﴿من قبل أن يأتي﴾، معناها: من قبل أن يرد على أحدكم الموت، وينزل به، ويأخذه؛ والموت فهو: الفناء والزوال. و﴿أحدكم﴾ فهو: واحد منكم بعد واحد، وواحد بعد واحد. ﴿فيقول رب لولا أخرتني﴾، معناه فهو: يتكلم ويتمنى، ويطلب ويشاء. ومعنى: ﴿رب لولا أخرتني﴾ فهو: يا رب لو أخرتني إلى أجل قريب، فأدخل " لا " استحسانا لها في الكلام، وهو لا يريدها، وليس لها هنا أصل، وقد تقدم شرح مثل هذا في كتابنا. ﴿أخرتني﴾، يقول: أبقيتني، ودفعت الموت عني. ﴿إلى أجل قريب﴾، يريد: إلى أمد قريب، ووقت دان، تزيدنيه من هذا الوقت الذي نزل بي الموت فيه، فأكون من بعده مؤخرا، ويكون

الموت عني مردودا أياما يسيرة. ﴿فأصدق وأكن من الصالحين﴾، يقول: أخرج الآن - عند تصديقي لما عاينت من صدق وعدك ووعيدك - ما كنت ضانا به من مالي، وبخيلا به من موجودي، وأصدق به، وأخرج مفروض زكاته، وأنفقه في سبيلك، وأتقرب به إليك، حتى أكون بذلك عندك من الصالحين، وبما فعلت من ذلك من المؤمنين.

ثم أخبر سبحانه: ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾، ومعنى قوله:﴿ولن﴾ هو: إخبار بأنه لا يفعل، وهي في معنى:" لا "؛ فأراد: لا يؤخر الله نفسا، ومعنى ﴿يؤخر﴾ فهو: يملي بعد الفناء، ويعمر. ﴿نفسا﴾، فهو: إنسانا وروحا وشخصا، حتى ﴿إذا جاء﴾، ومعنى: ﴿إذا جاء﴾ فهو: حل ودنا، وأجلها فهو: موتها، وفناء مدتها، التي أجلت لها، وجعلت حية إلى بلوغها، وهو المدة التي جعلها الله لها عمرا، من الأيام والليالي الحاليات، والأوقات والساعات الفانيات، التي بانقضائها ينقضي الأجل، وبكمالها ينقطع الأمل. ﴿والله خبير بما تعملون﴾، فمعنى ﴿خبير﴾ فهو: عليم محيط، حافظ غير ناس، لا يعزب عنه شيء من الأشياء، قاصيا كان في الأرض أو دانيا؛ فعلمه بكل شيء محيط. ﴿بما تعملون﴾، يقول: بما يفعلون ويصنعون.

قال يحي بن الحسين - رحمة الله عليه ورضوانه، وضاعف له أجره وإحسانه - : تالله ما رأيت أشبه بالذين ذكرهم الله، وقص خبرهم في هذه السورة من المنافقين، من أهل دهرنا، وسكان دارنا، هؤلاء الذين نحن معهم في نفاقهم، وقبيح أفعالهم، وسوء صنيعهم، وقلة شكرهم، وكثرة كفرهم، وميلهم الى الدنيا الغارة لمن كان قبلهم، المهلكة إلى من ركن إليها من نظرائهم؛ فنحن من نفاقهم في أمور كقطع الليل المظلم، الهائل الحندس المدلهم، لا همة له في الحق ولا يقين، ولا رغبة لهم في معرفة شرائع الدين، همج أتباع كل ناعق، أعوان وعضد كل منافق؛ إن قالوا كذبوا، وإن أوعدوا أخلفوا، وإن عاهدوا نقضوا، يبغون

المسلمين الغوائل، ويؤلبون على الحق القبائل، لا في ثواب الله يرغبون، ولا من عقابه يخافون، ولا منه سبحانه مستحيون.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن علي العياني عليه السلام:

وسألت عن: سورة المنافقين إلى آخرها؟

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله جل اسمه مخبرا لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم تسليما: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون (١)﴾: معنى ذلك: ﴿جاءك﴾ فهو: أتاك. ومعنى المنافقين فهو: اسم سمى الله به الذين يقولون ما لا يفعلون، ويظهرون غير ما يسرون. ومعنى: ﴿نشهد﴾ فهو: نقر ونوقن. ومعنى: ﴿والله يشهد﴾ فهو: والله يعلم أن المنافقين لكاذبون. ومعنى الكاذبين فهم: المبطلون؛ فأخبر الله من مكرهم بما كانوا يكتمون.

ثم قال سبحانه: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٢)﴾: معنى: ﴿أيمانهم﴾ فهو: حلفهم وإقسامهم. ومعنى: ﴿جنة﴾ فهو: وقاية يدرأون بها عن أنفسهم. ومعنى: ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ فهو: أعرضوا عن سبيل الله. ومعنى: ﴿ساء ما كانوا يعملون﴾ فهو: قبح ما كانوا يفعلون.

ثم قال سبحانه: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٣)﴾: معنى: ﴿بأنهم﴾ فهو: لأنهم. ومعنى: ﴿آمنوا ثم كفروا﴾ فهو: إخبار من الله سبحانه بإقرارهم ثم جحدهم. ومعنى: ﴿طبع على قلوبهم﴾ فهو: ختم على قلوبهم؛ وذلك عقوبة من الله بعد كفرهم. ومعنى: ﴿لا يفقهون﴾

فهو: أنهم بعد الطبع لا يفقهون ولا يعون، إلا ما يوجب عليهم حجة رب العالمين.

ثم قال سبحانه: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٤)﴾: ومعنى: ﴿وإذا رأيتهم﴾ فهو: وإذا أبصرتهم. ومعنى: ﴿تعجبك أجسامهم﴾ فهو: تستحسن أبدانهم. ومعنى: ﴿وإن يقولوا﴾ فهو: وإن ينطقوا تسمع لما نطقوا به، فيعجبك كما أعجبتك أبدانهم، وتستحسنه منهم. ومعنى: ﴿أنهم خشب مسندة﴾ فهو: صفة وصفهم الله بها، وشبههم بالجماد الذي لا معقول فيه، وهو من الهيئة والجلد على ما هو عليه. ومعنى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ فهو: يظنون. ومعنى : ﴿صيحة﴾ فهو: حركات العساكر، والإلحاح من الأصوات بالبواتر. ومعنى: ﴿هم العدو فاحذرهم﴾ فهو: إخبار من الله لنبيه بما أسروا من عداوته، وكتموه من بغضه؛ فحذره ما يطلبون من غرته. ومعنى: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ فهو: لعنهم الله وأهلكهم؛ كيف يعرضون؟!

ثم قال سبحانه: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥)﴾: معنى: ﴿إذا قيل لهم﴾ فهو: متى قيل لهم. ومعنى: ﴿تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾ فهو: أقبلوا وهلموا، يطلب لكم رسول الله العفو عنكم. ومعنى: ﴿لووا رءوسهم﴾ فهو: إخبار من الله بفعلهم إذا دعوا ليستغفر لهم. ومعنى: ﴿رأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾

...

فهو: سواء عليه أستغفرت لهم أم تركتهم؛ فأخبر الله نبيه أنه لن يغفر لهم؛ لما علم من تماديهم في الضلالة، وقلة رغبتهم في الهداية، وعرفهم بعد ذلك أنه لا

يهدي من فسق. ومعنى الفسق: فهو المخالفة لرب العالمين.

ثم قال سبحانه: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون (٧)﴾: معنى: ﴿هم الذين يقولون﴾ فهو: الذين يتوامرون. ومعنى: ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله﴾ فهو: لا تخرجوا شيئا من زكوات أموالكم، ولا تطهروا شيئا مما تنتفعون به من تجارتكم. ومعنى: ﴿من عند رسول الله﴾ فهو: من مع رسول الله. ومعنى: ﴿ينفضوا﴾ فهو: يفتروا ويتشتتوا. ومعنى: ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾ فهو: إخبار من الله لنبيه وللمؤمنين أن بيده ملك السماوات والأرض، وأن عنده من الرزق ما يعم جميع العالمين، وأنه لا يضيع عباده الصالحين؛ بل يرزقهم من حيث لا يحتسبون، ويسبب ذلك من حيث لا يرجون. ومعنى: ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ فهو: لا يعلمون، ولا يوقنون أن لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رزقا سوى ما ينالهم مما في أيديهم، من واجب ما جعل الله عليهم. فأما سوى ذلك من المواساة فلم يكن ذلك من أخلاق المنافقين، وإنما المواساة من أخلاق الأنصار المتقين.

ثم قال سبحانه: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٨)﴾: معنى: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة﴾ فهو: متى عدنا إلى المدينة. ومعنى: ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ فهو: لينفذن الأعز منها الأذل، وقدروا أنهم الأعز، وأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الأذلاء؛ فأكذب الله قولهم، وما قدروا بجهلهم؛ فقال عز وجل: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾، وقال: ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ معناه: لا يوقنون.

ثم قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٩)﴾: معنى: ﴿يا أيها الذين

آمنوا﴾ فهو: يا هؤلاء. ومعنى: ﴿لا تلهكم﴾ فهو: لا يشغلكم ويسهكم. ومعنى: ﴿أموالكم﴾ فهو: أملاككم من أنواع ما خلق الله لكم، من رزقه الذي رزقكم. ومعنى: ﴿أولادكم﴾ فهو: نسلكم. ومعنى: ﴿عن ذكر الله﴾ فهو: عن طاعة الله التي من أداها لم يخل من ذكر الله فيها، ومن ذكر الله فلم ينسه، ومن لم ينسه لم يخالفه ولم يعصه. ومعنى: ﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، معنى: ﴿يفعل﴾ هو: يعمل. ومعنى: ﴿ذلك﴾ فهو: هذا الذي نهى الله المؤمنين عنه. ومعنى: ﴿الخاسرون﴾ فهم: الخائبون، الذين لم ينالوا ما كانوا يأملون.

وقال سبحانه: ﴿وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين (١٠)﴾: معنى: ﴿وأنفقوا من ما رزقناكم﴾ فهو: أعطوا مما وهبناكم. ومعنى: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ فهو: يأتي كل واحد منكم من الموت، فطرح الكاف واللام وهو يريدهما، فجاء الخطاب كأنه لواحد دون الجميع. ومعنى: ﴿فيقول رب﴾ فهو: عطف على النسق الأول؛ لأن جنس الخطاب الآخر من جنس الخطاب الأول. ومعنى: ﴿لولا﴾ فهو: " لو " بلا ألف ولام؛ ولها نظائر في الكلام. ومعنى: ﴿أخرتني﴾ فهو: تمهلتني، وتركتني ولم تمتني. ومعنى: ﴿أجل قريب﴾ فهو: وقت قريب. ومعنى: ﴿فأصدق﴾ فهو: فأخرج وأنفق. ومعنى: ﴿وأكن من الصالحين﴾ فهو: وأعود إلى المسلمين؛ و" من " و " إلى " يعتقبان، يقول: وأعمل من الطاعة مثل ما يعملون.

وقال سبحانه: ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١)﴾: معنى: ﴿يؤخر﴾ فهو: ليس يخلف. ومعنى: ﴿إذا جاء أجلها﴾ فهو: إذا أتى وقتها. ومعنى: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ هو: تعريف من الله لعباده أنه عارف بما يصنعون.

وأما خبر السورة، وفي من نزلت: فإنه يروى أنها نزلت على رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم في غزوة عسفان، وفيما كان من كلام الفاسق الكافر المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين، عليهم غضب رب العالمين؛ وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما كثروا في الطريق وقلت عليه المياه – كانوا يقدمون أخدامهم، فيستقون لهم قبل وصول العسكر إلى الماء، وكذلك خدام المنافقين، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلوا من التقدم مثل ما كانوا يفعلون، فلما وردوا الماء ازدحم عليه خدم المهاجرين والأنصار، وخدم الفاسق عبد الله بن أبي بن سلول وخدم أصحابه المنافقين، حتى تضاربوا؛ فكانت الغلبة لخدم المؤمنين، فطردوا إذ ذاك خدم المنافقين وأبعدوهم عن الماء، فلما نزل العسكر وجد عبد الله بن أبي بن سلول خدمه لم يستقوا، فسألهم عن حالهم؛ فأخبروه بما كان من خدم المؤمنين؛ فقال اللعين عند ذلك: آويناهم وأقويناهم حتى قووا علينا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم قال لأصحابه: لا تبايعوا أصحاب محمد ولا تشاروهم، ولا تنفقوا عليهم؛ حتى ينفضوا، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الخبر هم بقتله، فأتاه ابن لعبد الله بن أبي بن سلول، وكان الابن مؤمنا مخلصا، فقال: يا رسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرني أنا، فآتيك برأسه، فوالذي بعثك بالحق ما قولي هذا لشك فيك، ولا معارضة لك في شيء تراه، غير أني أخاف أن تأمر به غيري فيقتله، فيقع في قلبي خشونة على قاتله؛ فينقص ذلك إيماني، ويفسد علي شيئا من إسلامي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ما كان من كلامه: ((بل نهبه لك، بل نهبه))؛ فكرر القول، ووهبه له.

وروي أنه لما وصل العسكر المدينة أخذ ابن عبد الله السيف، ونهض به إلى أبيه مسلولا، ثم قال: والذي بعث محمدا بالحق نبيا لتقولن: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأعز وأنت الأذل، أو لأضربن عنقك بالسيف، فلما رآه

أبوه مجمعا على قتله إن لم يقل ما أمره به – قاله صاغرا، مكرها مجبورا، فلما علم عبد الله بن أبي بن سلول أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغه علمه، أتى إليه في جماعة من المنافقين، فحلف بالله جاهدا: إن كنت قلت ما بلغك عني، ولا تكلمت بهذا الكلام. وحلف إخوانه المنافقون: ما قاله ولا تكلم به، ولقد كنا حاضرين لجميع أمره. فلذلك أنزل الله سبحانه ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾.

ثم ذكر الله سبحانه المؤمنين في آخر السورة، فكان ذكره لهم موعظة ودلالة على الفضل الذي يوجب الثواب؛ فهذا ما كان من الخبر، وربنا محمود لا شريك له.

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله سبحانه: ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾، معنى ﴿يسبح﴾ فهو: يقدس ويعظم، ويجل ويكرم. ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو: كل ما أنشأ وبرأ من الخلق؛ فمن الخلق: ما يسبحه ويقدسه بلسان ناطق ويذكره، وهم أهل الأمر والنهي من الخلق، المأمورين بالطاعة، المنهيين عن المعصية، من الملائكة والثقلين، من الجن والإنس المذكورين؛ فهؤلاء يسبحون له ويذكرونه بالتقديس والتكبير، والإجلال والتعظيم. وما كان مما في السموات والأرض، من غير المأمورين من الأشياء المخلوقات، والأمور المدبرات، من سائر ما خلق الله وذرأ، من جميع ما أوجد من الأشياء، من النجوم والشجر، وغيرهما من كل ما فطر -فإنما تسبيحه وتقديسه تسبيح من يسبح من أجله، ولعظم ما فيه من صنعة ربه، فإذا رأى المؤمنون أثر صنع الله في هذه الأشياء، سبحوه بما رأوا فيها، وقدسوه لعظم ما رأوا من صنعه في إيجادها، فكان تسبيحهم لما رأوا من أثر الصنع فيها سببا لقول القائل: إنها سبحت؛ لما كان التسبيح من أجلها وبها، ولما رأوا فيها من أسبابها، كما كان من السجود من الملائكة لآدم عليه السلام هو: سجودهم لله الذي أوجد آدم، فكان سجودهم لله من أجل ما رأوا من أثر صنعه في عبده، وعظم تقديره في خلقه، فجاز أن يقال: سجدوا لآدم؛ إذ كان السجود من أجل آدم وسببه، ولما أظهر الله سبحانه فيه من قدرته، فعلى ذلك ومثله جاز أن يقول

القائل في قوله:" سبح كل شيء لربه، من حجر أو مدر، أو نجم أو شجر؛ وفي هذا المعنى يدخل ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾. ﴿الملك﴾: ما جعل الله وما خلق، من السموات والأرضين، والآخرة والدنيا وما فيهما. ﴿وله الحمد﴾، معنى قوله: ﴿له الحمد﴾ فهو: له الشكر لا لغيره؛ لأن الشكر الذي هو: الحمد -لا يجب إلا للمستحمد إلى خلقه، بنعمه وآلائه، وفضله ونعمائه؛ وذلك الله رب العالمين. قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، يخبر سبحانه: أنه على ما أراد مقتدر، وله فاعل.

﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾: فأخبر سبحانه: بأنه الذي خلق الخلق، كافرهم ومؤمنهم، وبرهم وفاجرهم، فكان سبحانه المتولي لجميع الخلق، [يخلق] جميع الخلق من أهل الباطل والحق: خلق أبدانهم وصورها، وركب خلقهم وقدرها كيف شاء، وعلى ما شاء؛ ولم يخلق سبحانه أفعالهم وكفرهم ولا إيمانهم، ولا صلاحهم ولا ضلالتهم؛ بل كان من ذلك بريا، وعن إيجاد شيء من أفعالهم متعاليا عليا؛ فأفعاله بائنة عن أفعالهم، كما ذاته غير مشابهة لذاتهم. فأخبر سبحانه بقوله:﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾: بأن من خلقه: المؤثر لمعاصي ربه، المختار للكفر به، ومنهم: مؤثر للإيمان، مطيع للرحمن؛ فوصفهم بأفعالهم، من كفرهم وإيمانهم، ولم يصف نفسه بخلق شيء من أفعالهم؛ وكيف يخلق أفعالهم أو يوجد أعمالهم، وأعمالهم المنكرات من الأمور، من المظالم والشرور؛ فتعالى عن ذلك الواحد الرحمن، وتقدس أن يكون كذلك ذو المن والإحسان. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فأخبر سبحانه: أنه بكل ما يعمل العاملون بصير، ومعنى ﴿بصير﴾ فهو: عالم خبير.

﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾، معنى: ﴿خلق﴾ فهو: أوجد وفتق، وابتدع وخلق. ﴿السموات﴾ فهن: السموات المبنيات، المرفوعات المقدرات.

﴿والأرض﴾ فهي: الأرض المدحوة، الذي جعلها سبحانه لخلقه فراشا، وقدرها سبحانه لهم مهادا. ﴿بالحق﴾ فهو: بالعدل والصدق، ومعنى:" بالعدل والصدق " فهو: جعلها وجعل ما فيها على الحق و الصدق، ومعنى:" على الحق والصدق " فهو: أمر من فيهما به، وافترض عليهم اتباعه. ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ يقول: خلقكم وقدركم، فأتقن ما خلق من صوركم، ومعنى: ﴿فأحسن﴾ هو: فأجاد وأتقن ما برأ من بريتكم، ودبر من أمركم، وقدر من نباتكم. ﴿وإليه المصير﴾ يقول: إليه المرجع والمعاد، وإليه مصير كل العباد.

﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾، ومعنى قوله: ﴿يعلم﴾ فهو: يحفظ ويخبر، ولا يسقط عنه شيء صغر ولا كبر. ﴿ما في السموات﴾، يخبرهم: أنه عالم بكل ما في السموات والأرض، من كل شيء من الأشياء من جسم أو عرض، من فكر أو خاطر في قلوب المخلوقين، وأنفس المربوبين؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ويعلم ما يسرون في أنفسهم فيخفونه، أو يظهرونه من أمرهم فيعلنونه. ﴿والله عليم بذات الصدور﴾، فأخبر سبحانه: أنه عالم بكل ما تكنه صدور العالمين، وتخفيه سرائر المخلوقين، ومعنى قوله:﴿بذات الصدور﴾ فهو: بما في الصدور، من جميع الأمور.

ثم قال سبحانه احتجاجا عليهم وتنبيها لهم، بما كان من أمر القرون التي كانت من قبلهم: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾، معنى ﴿ألم﴾ فهو: أليس. و﴿يأتكم﴾ فمعناها: يجيئكم، ويصل بكم ويبلغكم؛ فأراد بقوله:﴿ألم يأتكم﴾: أليس قد جاءكم؛ فطرح " قد "؛ لأن " ألم " تقوم مقام " أليس " و " قد "، جمعتا في لغة العرب، وكذلك ﴿يأتكم﴾ تقوم مقام:" جاءكم " في اللغة العربية. ﴿نبأ﴾ فمعناه: خبر. ﴿الذين كفروا﴾، ومعنى ﴿كفروا﴾ فهو: كذبوا وصدوا، وأنكروا وجحدوا. ﴿من قبل﴾ فهو: من أول

الأمر. ﴿فذاقوا﴾ فمعناها: فوجدوا وعاينوا عقوبة صنعهم، وواقعوا جزاء فعلهم. ومعنى ﴿وبال﴾ فهو: نكال عقوبة أمرهم. و﴿أمرهم﴾ فمعناه: فعلهم، ومعنى فعلهم فهو: ما كان من اجترائهم وكفرهم. ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يقول: في الآخرة عذاب أليم، والعذاب فهو: التعذيب بالنار، والنكال من الله لهم والتنكيل؛ فأخبر سبحانه بقوله:﴿ولهم عذاب أليم﴾: أن الذي ذاقوا، أي: بما عملوا من وبال كان في الدنيا، وأن في الآخرة لهم من العذاب ما هو أنكى، وأشد وأبلى.

ثم أخبر سبحانه بما ذاقوا ذلك كله، من عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة التي تبقى، فقال سبحانه:﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾، معنى ﴿ذلك﴾: نزل ذلك العذاب بهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، ومعنى ﴿بأنه﴾ فهو: لأنه، ومعنى ﴿كانت﴾ فهو: إخبار عن فعل الرسل صلوات الله عليهم، وإتيانها بالنذر إليهم، وإشهادها الله سبحانه عليهم. ﴿تأتيهم﴾ فمعناها: تجيئهم وتصير إليهم. ﴿رسلهم﴾ معناها: الرسل المرسلة إليهم؛ فلما أن كانت مرسلة إليهم، شاهدة عليهم -جاز أن يقال: رسلهم، وإنما هي رسل الله، لا رسلهم؛ فنسبها سبحانه إليهم؛ إذ كانوا مرسلين إليهم، شاهدين عليهم. ﴿بالبينات﴾، ومعنى ﴿بالبينات﴾ فهي: بالآيات القاهرات الظاهرات، والعلامات الظاهرات النيرات، التي كانت الرسل صلوات الله عليهم تأتيهم بها من عند ربهم. ﴿فقالوا أبشر يهدوننا﴾، ومعنى ﴿فقالوا﴾ أي: فنطقوا وتكلموا بالمحال والاستكبار، والجرأة على الله الواحد الجبار. ﴿أبشر يهدوننا﴾، يريدون أي: بشر مثلنا يدعوننا إلى الله، ويأمروننا؛ فلم يطيعوا الله فيما أمرهم، واستكبروا عن طاعة بشر مثلهم، إذ كانوا رسلا لربهم. ومعنى ﴿يهدوننا﴾ فهو: يعلموننا ويأمروننا، ويوقفوننا على سبيل الله ويهدوننا. ﴿فكفروا﴾، معناها: كذبوا

وعصوا، وجحدوا فلم يطيعوا. ومعنى ﴿تولوا﴾ فهو: أعرضوا عن الحق وأبوا، وتركوه وعتوا. ﴿واستغنى الله﴾، فمعنى: ﴿استغنى﴾ فهو: إخبار من الله سبحانه باستغنائه عن الخلق، وقلة حاجته إلى من أعرض عن الحق؛ لأنه إنما دعاهم لحاجتهم ومنفعتهم، لا لمنفعة له في شيء من إجابتهم. ﴿والله غني حميد﴾، فالغني هو: المستغني المكتفي بنفسه في جميع أموره، النافذة إرادته في كل خلقه، والحميد فهو: المحمود على نعمه، المشكور على آلائه.

ثم أخبر سبحانه بقول الكافرين وجحدانهم لوعيد رب العالمين، الذي جاءت به إليهم رسلهم، وأدته إليه أنبياؤهم، من بعثهم وحشرهم، ومجازاتهم على ما كان من فعلهم، فقال سبحانه: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾، معنى ﴿زعم﴾ فهو: قال وذكر، وتكلم وأخبر. ﴿الذين كفروا﴾ فهم: الذين كذبوا بما به أخبروا، وعليه من الله أطلعوا، من البعث والحساب، والثواب والعقاب. ﴿أن لن يبعثوا﴾ معناه: أنهم لن يبعثوا، ومعنى ﴿لن﴾ فهو: لا؛ فأراد سبحانه: زعم الذين كفروا أنهم لا يبعثون، فلما أن طرح " لا "، وأثبت مكانها " لن "، و" لن " حرف ينصب ما بعده -ذهبت النون من: " يبعثون "، علامة للنصب، فبقي:" يبعثوا "، ومعنى ﴿يبعثوا﴾ فهو: يحيوا ويحشروا، ويردوا بعد الموت أحياء وينشروا. ثم أمر سبحانه نبيئه صلى الله عليه وعلى آله بإكذاب قولهم، والرد في زورهم عليهم، فقال: ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾، معنى ﴿قل﴾ هو: أمر من الله بقول ذلك لهم، وإيقاعه في أسماعهم. ﴿بلى وربي﴾ فهو: قسم، أمره أن يقسم بربه على بعثهم: إنه لكائن، ومعنى ﴿بلى﴾ فهو: إيجاب لقوله، وإكذاب لقولهم، وهي: كلمة تستعملها العرب، يوجب بها المتكلم إذا قالها قوله، ويكذب بها قول محاجه، ويدفع بها قول مناظره. ﴿وربي﴾ فهو: خالقي، ومعنى ﴿وربي﴾ فهو: وحق ربي. ﴿لتبعثن﴾

معناها: لتخرجن من قبوركم، ولتحشرن إلى ربكم، ولتبعثن أحياء بعد موتكم. ﴿ثم لتنبؤن﴾، معنى ﴿ثم﴾ فهو: معنى الواو، وينسق بها كما نسق بالواو، يريد: لتبعثن ولتنبؤن، ومعنى ﴿لتنبؤن﴾ فهو: لتخبرن ولتحاسبن، ولتجدن جزاء فعلكم، ولتجازون ﴿بما عملتم﴾، ومعنى الباء التي في: ﴿بما﴾ هو: على؛ لأن الباء من حروف الصفات، و" على " من حروف الصفات، فقامت الباء مقام " على "؛ لأن حروف الصفات يعقب بعضها بعضا، وأراد: لتجازون على ما عملتم، ومعنى قوله: " لتخبرن بما عملتم " فهو في هذا الموضع: لتعرفن جزاء ما عملتم، من كذبكم وكفرانكم، وظلمكم وجحدانكم؛ فأراد الله تبارك وتعالى بقوله:﴿لتنبؤن﴾ في هذا الموضع: لتجازون، ولتعاقبن على فعلكم، ولم يرد: لتخبرن عن فعلكم الذي تقدم منكم؛ لأنهم عالمون بما تقدم من فعلهم، وليس التذكرة لهم بأفعالهم هو المعنى الذي قصده الله في هذا الموضع، وإنما قصد الجزاء، يقول سبحانه: ﴿لتنبؤن﴾ أي: لتعلمن ولتجدن عقوبة كفركم، عندما يكون من بعثكم، في يوم حشركم. ﴿وذلك على الله يسير﴾، معنى ﴿ذلك﴾ يعني: البعث والحساب والجزاء، وقوله:﴿على الله يسير﴾ يقول: على الله سهل هين حقير.

ثم أمرهم سبحانه بالإيمان به وبرسوله والنور الذي أنزل؛ احتجاجا منه عليهم، وتثبيتا لحجته فيهم، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾، معنى ﴿فآمنوا﴾ فهو: أمر من الله لهم بالإيمان، والإيمان فهو: التصديق، يقول: صدقوا بأمر الله وبرسوله، يقول: وصدقوا بالنور الذي أنزلنا؛ والنور فهو: الحق الذي جاء به رسوله إليهم، من أمره ونهيه، وإعذاره وإنذاره، وكلما ذكر لهم من خبره، من بعث أو حساب، أو نشر أو ثواب. ﴿الذي أنزلناه﴾، يقول: أوحينا وجعلنا لكم، وأمرنا الرسل بتبليغه إليكم. ﴿والله بما تعملون خبير﴾، يخبر سبحانه:

[أنه] بكل ما يفعلون عليم؛ فـ﴿خبير﴾ معناها: عليم، أي: لا يسقط عنه من ذلك صغير ولا كبير، يسير كان ولا كثير.

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾، معنى ﴿يوم﴾ فهو: يوم القيامة، ومعنى ﴿يجمعكم﴾ فهو: يحشركم ويبعثكم، ويأتي بكم من آفاق الأرض إلى هذا المقام، الذي جعله لكم محشرا، ولجميعكم موقفا. ﴿ليوم الجمع﴾ لهم، فمعنى ﴿ليوم﴾ فهو: إلى يوم. ﴿الجمع﴾ فهو: الحشر للخلق، والجمع لهم إلى موقف الحق. ﴿ذلك يوم التغابن﴾، معنى ﴿ذلك﴾ فهو: دلالة على ذلك اليوم؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿ذلك يوم التغابن﴾، يخبر سبحانه: أن ذلك اليوم هو يوم التغابن، و التغابن فهو: التفاضل؛ معنى التفاضل فهو: حين يفضل بعض الناس بعضا، ويغبن بعضهم في ذلك اليوم بعضا، بما يستأهله بعض الناس دون بعض، من الثواب العظيم، و العطاء الجسيم؛ جزاء على ما كان من فعلهم، في دار دنياهم وعملهم، يغبن بعضهم في عطاء الله بعضا، بما يستأهله من ثواب ربه، جزاء على فعله؛ فشبه الله سبحانه تفاضلهم في الآخرة في ثواب الله بتفاضلهم فيما يتفاضلون، ويتغابنون به في دنياهم؛ ألا ترى أن من نال حظا في الدنيا، ولم ينله صاحبه، قال:" غبنتني "، أي: فضلتني، واستأثرت به وفيه علي؛ فكل من كان له فضل في شيء فهو غابن للمفضول، والمفضول مغبون، والفاضل غابن؛ فضرب الله مثلا لهم: تفاضل الآخرة وتغابنها بتفاضل الدنيا ومغابنة من فيها؛ حضا لهم على العمل بطاعته، و تحذيرا للتغابن في عظيم عطائه في دار آخرته، في يوم الحسرة والندامة، وطلب الإقالة حين لا إقالة.

ثم قال سبحانه:﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا نكفر عنه سيئاته وندخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾، معنى ﴿من يؤمن بالله﴾ فهو: الذي يؤمن بالله، ومعنى ﴿يؤمن﴾ فهو: يصدق، ويقر بالله سبحانه، وبرسله، وبكل أمره. ﴿ويعمل صالحا﴾، معنى ﴿يعمل﴾ فهو:

يفعل ويصنع، ومعنى ﴿صالحا﴾ فهو: حقا مرضيا. ﴿نكفر عنه سيئاته﴾، معنى ﴿نكفر﴾ هو: نعفو. ﴿عنه﴾ معناها: له. ﴿سيئاته﴾، ومعناها: ذنوبه وخطاياه. و﴿ندخله﴾ معناها: نصيره إلى جنات، والجنات فهي: دار الرضى والخيرات، ودار الثواب والعطيات الجزيلات. ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ فهي: تسيل من تحتها، و ﴿تحتها﴾ فهو: أسفلها. ﴿الأنهار﴾ فهي: أنهار الجنة الجارية، ومياهها العذبة الطيبة، الهنية المرية. ﴿خالدين فيها﴾ معناها: مقيمين فيها. ﴿أبدا﴾ أي: فهو دائم سرمد، لا انقطاع له ولا فناء، ولا غاية لمدته ولا انقضاء. ﴿ذلك الفوز العظيم﴾، معنى ﴿ذلك﴾ هو: ذلك الفعل، الذي فعلناه لمن أدخلناه جنتنا، وأعطيناه ثوابنا وأنلناه. ﴿الفوز العظيم﴾، يقول: ذلك العطاء هو الفوز العظيم، والخير الكثير الجسيم.

ثم أخبر سبحانه بمحل الكافرين، ومصير المكذبين، فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾، معنى ﴿كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ فهو: خالفوا وعصوا، ولم يشكروا ما أولوا وأعطوا، من ارسال المرسلين إليهم، وإثبات حجج الله سبحانه بالتبليغ فيهم. ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ معناها: كذبوا بأمرنا، وجحدوا رسلنا، ولم يقروا بشيء من آياتنا، التي بعثنا بها رسلنا؛ والآيات فهي: المعجزات، وما جاء به الرسول، وأراه الخلق من آيات الله التي لا تكون إلا منه، ولا تأتي إلا عن الله من نوره. ﴿أولئك﴾، معنى ﴿أولئك﴾ فهم: الذين فعلوا ذلك هم ﴿أصحاب النار﴾، ومعنى ﴿أصحاب النار﴾ فهم: سكانها وأهلها. ﴿خالدين فيها﴾ معناها: مقيمين فيها أبدا، لا يخرجون منها إلى غيرها، ولايزالون حالين طول الدهور فيها. ﴿وبئس المصير﴾، معنى ﴿بئس﴾ فهو: شر موئل ومصير، ومكان وقرار؛ والمصير فهو: المكان الذي يصار إليه، ويقام فيه؛ ومعنى " يصار إليه " فهو: يحل فيه، ويرجع إليه.

﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء

عليم﴾، معنى ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ فهو: كل ما أصاب من مصيبة، ومعنى ﴿أصاب﴾ فهو: وقع ونزل، ومعنى ﴿مصيبة﴾ فهو: نازلة، من محنة أو نقمة، أو فعل غير ذلك، من فعل الله سبحانه، أو فعل غيره، من مصائب الدنيا. ﴿إلا بإذن الله﴾، وهذا القول فيخرج على معنيين، ثم يتفرع كل معنى منهما على معنيين:

فأما أحدهما فهو: مما كان من فعل الله، مما يكون الله المتولي له، من المصائب النازلة بالخلق، ويكون ذلك على معنيين: إما مصيبة أصابت من الله على طريق الجزاء والانتقام من أحد أعدائه، ذوي المعصية والاجترام. وإما مصيبة نزلت من الله على طريق المحنة بمن يمتحن من عباده الصالحين، وأوليائه الصائرين؛ فهذا معنى ما كان من الله، وهو يتفرع على هذين المعنيين. ومعنى قوله في هذا المعنى: ﴿إلا بإذن الله﴾ فهو: بحكم الله، وإرادته ومشيئته.

والمعنى الآخر من المصائب فهو: ما ينزل بالخلق بعضهم من بعض، ثم هذا المعنى يتفرع على معنيين، فأحدهما: ما ينزل من المصائب بالمؤمنين من الفاسقين؛ فهذا لم ينزل إلا بعلم الله أنه سيكون، وبتخليته. ومعنى قول الله فيه: ﴿إلا بإذن الله﴾ فهو بتخلية الله وعلمه.

والمعنى الثاني فهو: ما ينزل من المصائب بالفاسقين من المؤمنين، وعلى أيدي عباد الله الصالحين، من إقامة الحدود عليهم، وإظهار الحكم من القتل وما دونه. ومعنى قول الله في هذا المعنى: ﴿إلا بإذن الله﴾ فهو: بأمر الله وحكمه، وإذنه لأوليائه في أعدائه؛ فافهم ما فسرنا من معاني المصائب، وما شرحنا في معانيها كلها، ومخارجها من تفسير قول الله سبحانه: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾؛ فقد ميزنا لك ذلك كله، وشرحناه وفسرناه وأثبتناه، وبينا معانيه، وشرحنا تأويله على أصله وفرعه، بما فيه كفاية ونور، لمن كان ذا معرفة باللغة والعلم.

ثم أمر سبحانه بما فيه النجاة لمن قبله فقال: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾، معنى ﴿أطيعوا الله﴾ فهو: ابتعوا أمر الله في كل ما يأمركم به فافعلوه، وما ينهاكم عنه فاتركوه، ﴿وأطيعوا الرسول﴾ فيما يأمركم به من أمرنا، ويبلغكم من رسائلنا، ويفترض عليكم من فرضنا. ﴿فإن توليتم﴾، يقول: فإن أعرضتم وكذبتم، ولم تقبلوا على الرسول، ولم تأتمروا بما أمركم به من أمرنا. ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾، يقول: فإنما عليه أن يبين البلاغ لكم، ويبلغكم ما به أمركم ربكم، وليس عليه أن يجبر قلوبكم، ويصلح سريرتكم، كما عليه أن يصلح علانيتكم، إنما عليه صلى الله عليه وعلى آله أن يضربكم بالسيف حتى تسلموا لما بلغكم عن الله، وأمركم به من دين الله، وليس عليه صلاح قلوبكم؛ إذ كان غير قادر على ذلك منكم؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولا يطلع على السرائر إلا الله، و﴿البلاغ المبين﴾ فيقول: البلاغ الظاهر النير، الذي لا يخفى منه شيء ولا يستتر.

﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾؛ فأخبر سبحانه: أن المرسل بالبلاغ المبين هو الله، الذي لا إله إلا هو، ومعنى ﴿لا إله إلا هو﴾ فهو: لا إله غيره، ولا خالق سواه، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير. ومعنى قوله: ﴿على الله فليتوكل المؤمنون﴾ فهو: أمر منه سبحانه للمؤمنين أن يكونوا عليه متوكلين، وبه في كل أمرهم واثقين، ومعنى ﴿فليتوكل﴾ هو: فليعتمد وليتكل، ومعنى يتكل فهو: يثق به في كل أمره، ويتكل على كفايته له في كل شأنه. قوله: ﴿المؤمنون﴾ فهم: عباده المنقطعون إليه، والمتوكلون عليه.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾؛ فأخبر سبحانه عباده المؤمنين، بعداوة أهل المخالفة في الدين، من الأزواج والأولاد، والبنات والبنين، وذلك

قوله: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾؛ فأخبر سبحانه: أن من خالف الدين، وتأدب بأدب غير رب العالمين، وكان عند ا لله من الفاسقين -كان عدوا بذلك الفعل لآبائه المؤمنين. وكذلك من كان من زوجات المؤمنين، على غير طريق الحق، ولا متعلقات بعروة الصدق -كن أعداء لأزواجهن المؤمنين. وكذلك فقد يخرج المعنى في العداوة من الرجال الفاسقين للأزواج المؤمنات، فتكون عداوة الفاسق من الأزواج للزوجة المؤمنة على إيمانها وتقواها، كما تكون العداوة من الزوجة المخالفة في الدين لزوجها؛ فالآية قد تحتمل المعنيين، وينتظم جميع الحالين؛ إذ كان لا يمتنع أن تكون الزوجة تقية مؤمنة، ويكون الزوج فاسقا فاجرا، فتكون العداوة منه لها على الدين، كما تكون العداوة من المخالفة من الزوجات للزوج المؤمن في الدين، كما تكون العداوة من الأولاد للوالدين كليهما، وللوالد والوالدة؛ فكلا الزوجين قد تكون منه العداوة، وحيث كان الإيمان والهدى من الزوج والزوجة، فالمخالف لمذهب الحق هو المذموم بالعداوة، المخصوص في كتاب الله باللائمة، والمؤمن فهو المحذر لعداوة الكافر، وليس الكافر بمحذر لعداوة المؤمن؛ لأن المؤمن لا يعادي مؤمنا، ولا يستجيز فيه إثما؛ فافهم ما قلنا به في قوله الله: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم﴾؛ فدل بذكره بعضا دون بعض على أهل الخلاف والمعصية، كائنا من كان من بعض الأزواج، أو بعض الأولاد؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿فاحذروهم﴾، فحذرهم أمرهم، وخوفهم كيدهم، ونبههم على اتقاء شرهم، ولن يحذر ولن ينبه إلا مؤمنا، ولن يحذر المؤمنين إلا من الفاسقين المخالفين، الذين لا يؤمن مكرهم ولا بوائقهم، فافهم رحمك الله ما قلنا، وميز بقلبك -تفهم ما شرحنا، وتقف على جميع ما ذكرنا. ثم قال: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾؛ فحض سبحانه على العفو، والصفح والغفران لهم؛ لما بينهم من وشائج الخلطة، من الولادة والنكاح؛ وأراد بذلك: [أن] يأمر المؤمنين بالتعطف على من ذكر من

الأولاد والأزواج، مالم يخرجوا إلى المباينة، بالمشاقة في العداوة لأوليائه المؤمنين، من أبنائهم وأزواجهم. ثم قال: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾؛ فأخبر أنه غفور لمن استغفره، بعد التوبة النصوح البينة، واسترحمه بعد الرجعة عن المعصية.

ثم قال سبحانه:﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، يقول: إنها تفتن كثيرا من الجهال عن طاعة الله، وتدخله في المعصية لله، ومعنى ﴿فتنة﴾ فهي: محنة امتحنتم بها؛ ليعلم الله أيكم يثبت معها على أصل دينه، وأيكم تفتنه وترده عن حقه. ثم قال: ﴿والله عنده أجر عظيم﴾، يريد أن عنده سبحانه، لمن لم تفتنه الأموال والأولاد، فيخرجه الإعجاب بهما عن الهدى، ويدخله في بحر الهوى -﴿أجر عظيم﴾؛ والأجر العظيم فهو: الثواب الكريم، والعطاء الجسيم.

ثم قال سبحانه:﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾؛ فأمر باتقاء الله، ومعنى: ﴿فاتقوا الله﴾ هو: خافوا الله وراقبوه، في سركم وعلانيتكم، وكونوا له خائفين، ولثوابه متنجزين. قوله: ﴿ما استطعتم﴾ يقول: ما أطقتم، وعليه قويتم؛ لأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها، كما قال جلا جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾، معنى ﴿اسمعوا﴾ فهو: ائتمروا إذا أمرتم، وانتهوا إذا نهيتم. ﴿وأطيعوا﴾ معناها: أطيعوا الله في إقامة فرضه، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من ذلك به. ﴿وأنفقوا خير لأنفسكم﴾، يقول: أنفقوا من أموالكم ما تكسبون به الخير لأنفسكم؛ والخير فهو: الأجر.

﴿ومن يوق شح نفسه﴾، فمعنى ﴿يوق﴾ فهو: يوقى، ومعنى " يوقى " فهو: يصرف عنه ويكفى شح نفسه، ومعنى ﴿شح نفسه﴾ فهو: شر الشح وبلاؤه، ونازلته وشقاؤه، واثمه ولؤمه وأذاه؛ لأن من كان ذا شح ولؤم كان عند الله مدحورا مأثوما، وعند الناس مقبحا ملوما؛ فأخبر سبحانه أن من يوق شح نفسه وشره ﴿فأولئك هم المفلحون﴾، فطرح بلاء وشر نفسه، وهو يريده، والمعنى على ذلك كما قال سبحانه: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ [البقرة:

٩٣]، وإنما المعنى: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، فطرح " حب "، وهو يريده، والعرب تفعل هذا، تطرح ما كان مثل هذا في المعنى وهي تريده، وكذلك قال الله سبحانه: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا منها﴾ [يوسف: ٨٢]، أراد: أهل القرية، وأهل العير؛ وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

ألا إنني أسقيت أسود حالكا ... ألا بجلي من ذا الشراب ألا بجل

وإنما أراد: أني سقيت سم أسود حالك، يعني: سم الحية السوداء، فطرح السم وهو يريده، فعلى ذلك يخرج قول الله سبحانه: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾، يريد: ومن يوق شر شح نفسه ﴿فأولئك هم المفلحون﴾، يقول سبحانه: من وقي شر شحه، وسوء عاقبته، بالتوفيق للسخاء والتسديد، ﴿فأولئك هم المفلحون﴾؛ معنى المفلحين هم: الفائزون الناجون من عواقب أفعالهم، والسالمون من توابع أعمالهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم﴾، معنى ﴿إن تقرضوا الله﴾ فهو: إن تخرجوا لله، وتنفقوا في سبيل الله، شيئا تقصدون به وجه الله، ولا تريدون به شيئا غير الله، ويكون ذلك قرضا حسنا، ومعنى ﴿قرضا حسنا﴾ أي: فعلا جميلا، لا يتبعه من ولا أذى، ﴿يضاعفه لكم﴾، أي: يضاعف لكم أجره، ويبسط لكم عليه رزقه، في الدنيا والآخرة، بالعطاء الجزيل، والثواب الجليل. ﴿ويغفر لكم والله شكور حليم﴾، معنى ﴿يغفر لكم﴾ يقول: يقبل منكم نفقاتكم، فيغفر لكم ذنوبكم، ويقبل توبتكم، ومعنى ﴿شكور﴾ فهو: شاكر الحسنات، ومعنى الشكر من الله فهو: الإيجاب منه للقبول ممن فعل فعلا يريده سبحانه مخلصا. ﴿حليم﴾ فمعناها: المتأني بخلقه، الذي لا يعاجلهم عند زلتهم، ولا يؤاخذهم عند عثرتهم، ليعودوا ويرجعوا، ويتوبوا ويهتدوا، ذو الصفح والأناءة العظيمة، والرحمة والمغفرة الجزيلة الكثيرة.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾، فمعنى ﴿عالم﴾ فهو: خبير بما يكون. ﴿الغيب﴾ فهو: ما غاب من الأشياء فلم يظهر، وأسر مما قد أسره مسر، ومما سيكون ولم يكن، فالله عالم بذلك كله، كعلمه بالظاهر المشاهد؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾؛ فالغيب هو: ما غاب مما ذكرنا، والشهادة: فهو ما أعلن وشهد وعلم فلم يستتر؛ فأخبر سبحانه أن علمه بالغيوب المستجنة، كعلمه بالشهادة الظاهرة. ﴿العزيز الحكيم﴾؛ فالعزيز فهو: القوي القاهر، الغالب الظاهر. ﴿الحكيم﴾ فهو: ذو الحكمة المتقنة، والأفعال المحكمة، التي لا تفاوت في تدبيرها، ولا تفاوت في تقديرها؛ فتبارك الله ذو الحكمة و القدرة، والعزة الظاهرة، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، خالق كل شيء وفاطره، ومدبره ومقدره، رب العرش الكريم، الواحد الفرد العليم.

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق: ١]

قال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام، بعد ذكره للآية:

دل سبحانه عباده على أرشد أمورهم، وأمرهم بأصوب فعالهم، وبما يستدركون به خطأ إن كان منهم، ثم أمرهم بإحصاء العدة، والعدة فهي: الأقراء، وما جعل الله من العدة للنساء، ثم نهاهم عن إخراجهن من بيوتهن، حتى يستوفين ما عليهن من عدتهن. ثم قال سبحانه: ﴿وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾، يقول: حكم الله بأن لا يخرجن من بيوتهن، وحكمه فهو أمره، وأمره فهو: حدوده التي لا ينبغي أن تتعدى، فيخالف الله في إخراجهن ويعصى. ثم قال عز وجل: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾ يريد: لعل الله يحدث للرجل رغبة فيها، بعد ما كان عزم عليه من طلاقها، فيرتجعها، وبعد الطلاق والمخالفة فقد تكون المودة والمؤالفة؛ فينبغي للمطلق إذا أراد أن يطلق طلاقا على طلاق السنة، الذي دله الله عليه واختاره له، وألا يتعداه، فإن تعداه فقد أخطأ حظه، ولزمه في ذلك ما ألزم نفسه، من الطلاق على غير ما أمر به؛ وطلاق السنة: أن يترك امرأته إذا أراد طلاقها، حتى تطهر من

حيضها، وتخرج من طمثها، وتغتسل من قرئها، ثم يقول لها في وجه طهر من غير جماع:" أنت طالق "، أو " اعتدي "، ينوي بذلك الطلاق، ثم يتركها تمضي في عدتها، حتى تحيض ثلاث حيض، فإن بدى له أن يراجعها في الثالثة من حيضها، فهو أولى بها من نفسها ووليها، مادامت في عدتها قبل أن تطهر، فإذا أراد ذلك أشهد شاهدين على أنه قد راجعها ثم قد ملكها، وإن هو أمهلها حتى تخرج من الثلاثة الأقراء، وتغتسل من الثالث بالماء، فهي أملك منه بنفسها، وهو خاطب من خطابها، إن شاءت تزوجته، وإن شاءت تزوجت غيره، فإن أراد ارتجاعها راجعها بتزويج من وليها، وبمهر جديد وشاهدين، وتكون معه بثنتين. فإن عزم على طلاقها مرة أخرى، من بعد ما كان من التطليقة الأولى -طلقها أيضا كما طلقها أولا، في وجه طهر من غير جماع، يقول لها:" أنت طالق "، أو " اعتدي "، ينوي بذلك الطلاق، ثم يتركها في عدة من هذه التطليقة الثانية، فإن بدا له فيها بداء، قبل أن تنقضي عدتها هذه الثلاثة الأقراء -فهو أولى بها من نفسها ومن وليها، فليشهد شاهدين على ارتجاعها، ثم هو قد ملكها، وبقيت معه على تطليقة واحدة، وإن هو أمهلها حتى تخرج من عدة هذه التطليقة الثانية -فهو خاطب أيضا من الخطاب، إن شاءت راجعته، وإن شاءت تركته، فإن راجعته وراجعها بولي وشاهدين، ومهر جديد، ثم هي معه على واحدة، لم يبق له عليها غيرها؛ لأنه قد طلقها تطليقتين، وارتجعها أيضا ارتجاعتين، وهذه فهي الثالثة التي قال الله سبحانه: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾. فإن طلقها الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، ولا ينبغي لها أن تنكح زوجا غيره حتى تحيض ثلاث حيض، وتطهر من الدم الثالث، وإن نكحت في شيء من عدتها كان نكاحها باطلا، لا يتم لها.

وقال عليه السلام في موضع آخر منه:

قال يحيى بن الحسين رضي الله عنه: لا تكون السكنى إلا للتي يكون لزوجها

عليها الرجعة مادامت في عدتها، أو يكون له سبيل إليها قبل نكاح غيره، وإنما قلنا بذلك لأنا وجدنا السكنى إنما جعله الله تبارك وتعالى نظرا منه لعبيده؛ لأن يتدبروا أمورهم، ويرجعوا عن زلل فعلهم، ويراجعوا النساء من بعد طلاقهن إن كانت لهم رغبة فيهن، فيراجع الرجل امرأته، وهي في منزله لم تخرج من بيته، ولم تصر إلى منزل غيره، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾، والأمر فهو: العود والمراجعة، فإذا كان طلاق لا يجوز له ارتجاعها معه -سقط منه الأمر الذي قال الله سبحانه: إنه يحدث؛ لأنه سبحانه قد حرمها في هذه الحال عليه، حتى تنكح زوجا غيره، فزالت عنه بذلك السكنى؛ ألا ترى كيف نهى الله عز وجل من طمع أن يحدث الله له أمرا من مراجعتها، عن إخراجها من منزله، وأمره بإسكانها، فقال: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾، فقرن الله السكنى مع الأمر الذي يحدثه، والأمر فهو: المراجعة، فإذا لم يكن للزوج رجعة -لم يكن ثم طمع بأمر يحدثه الله له؛ لأن الله عز وجل قد حظره عليه إلا من بعد زوج، وإذا لم يكن أمر لم يكن سكنى؛ لأنهما جميعا في ذلك مجموعان، وفي الآية كلاهما مقرونان، يثبت كل واحد منهما بثبات صاحبه، ويعدم كل واحد منهما بعدم صاحبه؛ فإذا عدمت الرجعة، وهي: الأمر الذي ذكر الله أنه يحدثه -عدمت السكنى، فإذا كان ذلك كذلك لم تلزم السكنى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٢، ٣]

قال في كتاب ينابيع النصيحة للأمير الحسين بن بدر الدين عليه السلام:

عن ابن عباس أنه قال: مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوم، بموضع يقال له: قبا المدينة، فمنهم: من يصلي، ومنهم: من يتذاكر العلم، ومنهم: من يتدارس القرآن؛ فوقف عندهم ساعة، ثم قال: ((من أنتم ؟)) قالوا: يا رسول الله، نحن قوم قرأنا القرآن، فمررنا بقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، وتوكلنا على الله؛ فهو حسبنا، ونحن المتوكلون. فقال: ((يا قوم، قوموا، وتفرقوا، واكتسبوا، وابتغوا من فضل ربكم؛ فإن الله لم يأمر بهذا؛ قال الله تعالى في أسفل الآية: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدرا (٣)﴾، يعني: لكل أمة رزقا، وحرفة وكسبا، وأنتم المتآكلون على الناس، إنما المتوكل على الله الذي يصلي الخمس في جماعة، ويبتغي من فضل ربه.)) قال ابن عباس: فما برح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تفرقوا، وصاروا بعد ذلك أصحاب التجارات.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق: ١٢]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألته عن: قول الله: ﴿أحاط بكل شيء علما﴾، قال: ما الإحاطة؟

فقال: الإحاطة بالشيء: العلم به على حقيقة العلم وصدقه، ومن ذلك: قول

الله سبحانه: ﴿بكل شيء محيط﴾ [فصلت:٥٤]، يريد سبحانه: علما وقدرة وملكا، ومثل ذلك في العلم: قوله سبحانه: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ [البقرة:٢٥٥].

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله عز وجل: ﴿ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة﴾، معنى ﴿يا أيها﴾ فهو: نداء من الله سبحانه لنبيه عليه السلام، وأمر ودلالة منه على ما فيه الرشد له وللمؤمنين، ولجميع من معه من أوليائه الصالحين. ومعنى ﴿يا أيها﴾ فهو: أيها، و﴿النبي﴾ فهو: الرسول المنبئ، بما يأتيه من وحي الله العلي. ﴿إذا طلقتم﴾، يقول: إذا فارقتم ﴿النساء﴾، وهن: الأزواج. ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ معناه: فارقوهن لعدتهن، والعدة فمعناها: الطهر من غير جماع، والعدة المذكورة، المجعولة من القروء الثلاثة، أو الثلاثة الأشهر -هي التي جعلت عدة للمطلقات. ﴿وأحصوا العدة﴾، فيقول: عدوا الأيام واحفظوها، والأقراء والعدة فهي: ثلاث حيض للتي تحيض من النساء، وثلاثة أشهر مع التي لا تحيض من صغر أو كبر. ﴿واتقوا الله ربكم﴾، يقول: اتقوه في احصاء ذلك كله، والإحاطة به، لا تعجلوا عن اتمامه، ولا تحبسوهن بعد وفائه، يقول: لا تعجلوا من أجل النفقة، فتخرجوهن من قبل أن يستتمن العدة، ولا تحبسوهن بعد انقضاء عدتهن؛ لتضاروهن بالحبس لهن. ثم قال سبحانه: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾، معنى: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ يقول: لا تخرجوهن من البيوت اللواتي طلقن فيها، وكن مع الأزواج

حالات بها. ﴿ولا يخرجن﴾ معناها: لا يسدى إليهن قبيح يخرجن به، من ضيق ولا عسر، ولا قبيح من الامرأة. ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾، معنى ﴿إلا أن يأتين﴾ فهو: إلا أن يفعلن فاحشة، والفاحشة فهي: المعصية لله في كل شيء من كبائر معاصيه، اللواتي حرم فعلها. وقد قيل: إن الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة. وليس ذلك شيء؛ بل هو أمر مما حرم الله عليهم، من ذلك ومن غيره. معنى ﴿مبينة﴾ فهو: مبينة لنفسها، مظهرة لما جاء من صاحبها. ﴿وتلك حدود الله﴾، ومعنى ﴿تلك﴾ فهو: هاتيك، ومعنى هاتيك فهي: هذه الشروط والمعاني، والأمر والنهي الذي حد لكم من أمر الله، وأوقفكم عليه من فرض الله، من شروط الطلاق وحدوده، ومعاني العدة وأسبابها. ﴿ومن يتعد حدود الله﴾، فمعنى ﴿يتعد﴾ هو: يتجاوزها، ويتخلى عنها ويتركها، ويفعل غير ما أمر به منها. ﴿حدود الله﴾ فهي: فروض الله التي جعلها، وحدوده التي أوقف سبحانه عباده عليها. ﴿فقد ظلم نفسه﴾، يقول: ظلمها بما أدخلها فيه، مما أوجب عليها من عذاب ربها. ﴿لا تدري﴾ يقول: لا تعلم ما يكون. ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾، يقول: لعل الله يأتي بعد الفراق، بأمر من المراجعة والاتفاق، ومعنى ﴿بعد ذلك﴾ فهو: بعد ما كان من الفراق، وما جاء بينهما من الطلاق. ﴿أمرا﴾ يريد: مراجعة وصلحا.

﴿فإذا بلغن أجلهن﴾، يقول: إذا بلغن آخر عدتهن، وقضين ما أوجبنا عليهن من مدتهن. ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾، يقول: راجعوهن بالأمر المعروف عند الله، وعند المسلمين، الذي تجوز به مراجعتهن، ويحل بكينونته الإفضاء إليهن. ﴿أو فارقوهن بمعروف﴾ فمعنى: ﴿فارقوهن﴾ يقول: أتموا لهن ما قد أوقعتم عليهم من طلاقهن، وعزمتم عليه من فراقهن، بالتخلية لهن، والإشهاد بذلك من أمرهن. ومعنى قوله: ﴿بمعروف﴾ فهو: بأمر حسن مفهوم، وأمر من المفارقة معلوم، ومعنى " معلوم " فهو: مشهود عليه؛ ألا تسمع كيف يقول

سبحانه: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾، فمعنى: ﴿ذوي عدل منكم﴾ فهما: صاحبا العدل في فعلهما وقولهما، وما يكون من حكمهما، والعدل فهو: الحق والقسط، يقول: أشهدوا على ما يكون من الفراق، وانقضاء العدة والطلاق عدلين من عدولكم؛ ليكون ذلك أنفع في العاقبة لهن ولكم، وأنجز مما يخاف في ذلك منهن ومنكم، من التعنت والأذى، والادعاء لغير ما كان من الأشياء. ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾، معنى ﴿أقيموا الشهادة﴾: أدوا ما استشهدتم عليه على وجهه، وأتوا به على صدقه؛ والشهادة فهي: ما استودع الخلق من شهاداتهم على ما علموه، مما استرعوه من الأمر واستودعوه. ﴿لله﴾، يقول: أصدقوا بإقامتكم للشهادة، وتأديتكم لما عندكم من الأمانة، لله رب العالمين، الذي افترض ذلك عليكم، وجعل إقامة الشهادة بالحق ديانة فيكم. ﴿ذلكم يوعظ به﴾، معنى ﴿ذلكم﴾ فهو: الأمر الذي جعل فيكم، وافترض بحكم الله عليكم، من إقامة الشهادة. ﴿يوعظ به﴾ الموعوظون من ذلك، ويخوف به ﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾؛ فأخبر: أنما يوعظ به الموعظون من ذلك، ويخوف به المخوفون، ويؤمر به المأمورون -لا ينفع إلا من كان بالله مؤمنا، وباليوم الآخر مصدقا موقنا، ومعنى ﴿يؤمن بالله﴾ فهو: يصدق بالله ويتقيه، في كل ما يفعله ويأتيه. و﴿اليوم الآخر﴾ فمعناه: يوقن باليوم الآخر، ويصدق بما فيه من العقاب والثواب. ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾: ﴿يتق الله﴾ فهو: يؤمن بالله ويخافه، ويتقيه. ﴿يجعل له مخرجا﴾ معناها: يجعل له بقبول التوبة من ذنوبه مخرجا، مع ما يجعل له من المخارج والتوفيق، والتسديد والمعونة والتأييد، الذي من ناله ورزقه اتسع عليه أمره، وتفسح عليه شأنه.

﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، يقول: يسبب له رزقه من حيث شاء سبحانه من الوجوه، التي لم يحتسب العبد التقي ولم يرجها فيما كان يرجو. ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره﴾، معنى ﴿يتوكل﴾ فهو:

يعتمد، ويتوكل على الله في أمره، ويسند إليه بالثقة به مهمات أمره. ﴿فهو حسبه﴾، يقول: هو غايته وكفايته، ومنتهى بغيته، ورأس حاجته، وأقصى إرادته. معنى ﴿بالغ﴾ فهو: قادر، ومعنى ﴿أمره﴾ فهو: إرادته؛ فأخبر سبحانه أنه يبلغ ما أراد وشاء، ولا راد لحكمه، ولا صارف لأمره. ﴿قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾: معنى ﴿قد جعل الله﴾ فهو: قد فعل الله وركب، وميز وعين. ﴿لكل شيء قدرا﴾، يقول: لكل شيء مقدارا ركبه وأوقعه سبحانه بقدرته فيه.

﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن﴾، معنى ﴿واللائي﴾ فهن: اللواتي. ﴿يئسن﴾ فمعناها: أيسن من المحيض، ومعنى ﴿يئسن﴾ فهو: أيقن أنهن لا يحضن؛ لكبر السن، وارتفاع الحيض منهن، فقد أيست كل واحدة منهن أن ترى حيضا من نفسها، بعد مبلغها ما بلغت من سنها. و ﴿المحيض﴾ فهو: الدم والطمث. ﴿من نسائكم﴾ معناها: من أزواجكم. ﴿إن ارتبتم﴾، يقول: إن شككتم: هل في أرحامهن ولد أم لا؟ ﴿فعدتهن ثلاثة أشهر﴾، يقول: يعتددن عند الطلاق، ويستبرئن أرحامهن بوقوف ثلاثة أشهر. ﴿واللائي لم يحضن﴾، يقول: اللواتي لم يحضن، واللواتي لم يحضن فهن: الصبايا الصغار، اللواتي لم يرين حيضا، ولم يعرفن بعد دما. فجعل سبحانه عدة الكبيرة التي قد أيست من الحيض ثلاثة أشهر، وكذلك جعل عدة الصغيرة التي لم تحض أيضا ثلاثة أشهر، إذا مضت هذه الثلاثة الأشهر عن الآيسة الكبيرة، والصبية الصغيرة -فقد انقضت عدتها، وحل للرجال تزويجها. ثم أخبر سبحانه بعدة الحامل وأمرها، وما جعل سبحانه من الأجل لها، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾، معنى ﴿وأولات الأحمال﴾ فهن: صواحبات الأحمال، والأحمال فهو: ما يحملن في بطونهن من أولادهن، الذي جعل الله في أرحامهن، ومعنى ﴿أجلهن﴾ فهو: مداهن الذي يصرن إليه، ويقفن عن

التزويج حتى يبلغنه، وبلوغهن له فهو: ما ذكر الله سبحانه من وضعهن لحملهن؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿أجلهن أن يضعن حملهن﴾، يقول: أن يضعن ما في بطونهن إلى الأرض، ويستبرئن منه، ويفصل عنهن، ويتبرأ هو أيضا منهن بخروجه إلى الأرض، التي جعلت له مهادا ومسكنا، حيا وميتا. ثم رجع سبحانه إلى ذكر المطلقات، وما أمر به فيهن من البينات، فقال سبحانه: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا﴾، يقول: من يتق الله فيما شرط وذكر، وجعل من هذه الآجال وأمر، فيكون له فيها متقيا، ولأمره بالاتقاء والاستيفاء لها مؤتمرا -﴿يجعل له من أمره يسرا﴾، يقول: يصنع له، ويفعل ويهيئ ويجعل له. ﴿من أمره يسرا﴾، يقول: من شأنه كله خيرا وفرجا، وأمرا مستويا حسنا، ويعطيه - ثوابا له على اتقائه لربه -تيسيرا من كل أمر عسير، وتوفيقا وتهوينا لما عسر عليه من أمره، واشتد عليه من أسبابه.

﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾، معنى ﴿ذلك أمر الله﴾ أي: ذلك حكم الله. ﴿أنزله إليكم﴾، أي: أنزله عليكم، وأمره الذي جعله فرضا مؤكدا فيكم، من امساكهن بالمعروف، أو مفارقتهن بالمعروف، وإشهادكم على ذلك، وما جعل من العدة لهن، آيسات كبارا كن أو صبايا صغارا، و حوامل لحملهن، وما جعل في ذلك من الشروط عليكم فيهن، فكل ذلك أمر الله الذي أنزله، وحكمه الذي حكم به في ذلك عليكم وفيكم. ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾، يقول: من يكن لله متقيا خائفا، منتهيا إليه راجعا -﴿يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾، ومعنى ﴿يكفر﴾ فهو: يصفح ويغفر، ويذهب بالقبول والرحمة منه ما تقدم منه من السيئة؛ والسيئات فهي: الذنوب الموبقات، والمعاصي الفاحشات. ﴿ويعظم له أجرا﴾، يقول: ثوابا وأجرا.

ثم رجع فقال سبحانه: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾، يقول: أسكنوهن في وقت اعتدادهن ﴿من حيث سكنتم﴾، معنى ﴿من حيث﴾ فهو:

حيث ﴿سكنتم﴾، يريد: حيث كنتم وحللتم، وأمسيتم وأصبحتم. ﴿من وجدكم﴾ فهو: طاقتكم وجدتكم، من المنازل التي تكون كفاتا لكم؛ فأمرهم سبحانه: أن يسكنوهن من حيث سكنوا، من جيد المنازل أو رديئها، وأن لا يعزلوهن عن مواضعهن، وأن يكن في البيوت التي يكونون فيها، ولا تجعلوهن في موضع سواها، ولا تنقلوهن عنها إلىٰ ما هو أضيق منها وأردىٰ، وأقل في السعة وأبلىٰ؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾، يقول: لا تضاروهن بإخراجهن من منازلهن، التي كن فيها إلىٰ غيرها فتضيقوا بذلك عليهن، متعمدين للتضييق عليهن، مخطئين بذلك في أمرهن. ثم ذكر سبحانه ما جعل لأولات الحمل من النفقة، فقال سبحانه: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتىٰ يضعن حملهن﴾، معنىٰ ﴿وإن كن﴾ فهو: إن كن الزوجات المطلقات ﴿أولات حمل﴾. ومعنىٰ ﴿أولات حمل﴾ فهن: صواحب حمل، أي: في بطونهن حمل، والحمل فهو: الأولاد. ﴿فأنفقوا عليهن﴾، يقول: مونوهن بالنفقة، والكسوة والخدمة، والقيام عليهن بجميع مصالحهن، ﴿حتىٰ يضعن حملهن﴾، يريد: يلدن ويضعن ما في بطونهن، فإذا وضعن ما في بطونهن، وخرجن من عدتهن، فقد انقطعت النفقة عنكم لهن. ثم ذكر سبحانه ما يكون من أمر ارضاع الأولاد بعد مفارقتهم، فقال: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف﴾، ﴿فإن أرضعن لكم﴾ يقول: إن أرضعن الزوجات المفارقات لكم أولادكم، الذين ولدتهم بعد مفارقتكم لهن - ﴿فآتوهن أجورهن﴾، ومعنىٰ ﴿آتوهن﴾ فهو: اعطوهن، وأوفوهن، وأدوا اليهن ﴿أجورهن﴾، فمعنىٰ ﴿أجورهن﴾ فهو: الإجارات، والإجارات فهي: الأجرة والكراء التي يستأجرنها، ويكتري المرضع لصبيه أبو الصبي، فيقول: ادفعوا ذلك إلىٰ أمهات أولادكم إن ارضعن لكم؛ فهن أحق بذلك من غيرهن، وأولىٰ برضاع أولادهن، إن أردن ذلك وشئنه، وطلبنه وبغينه. ومعنىٰ: ﴿ائتمروا

بينكم بمعروف﴾: تشاوروا بينكم، يا هذا الرجل، ويا هذه المرأة في أمر رضاع هذا الصبي؛ والمعروف فهو: الأمر الحسن، يريد: تواصوا بينكم في رضاعه بأمر جميل: لا تشط المرأة على الرجل في ارضاع ولده، فتزداد عليه فوق ما يجب، وتعنته فيما تطلب؛ ولا يعنتها بالإقلال لها، ويشط عليها في رضاع ولدها بالوكس لها بما يجب لمثلها؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه في تصحيح ما ذكرنا، وتفسير ما شرحنا من قوله: ﴿وأتمروا بينكم بمعروف﴾، حيث يقول: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾، يقول: إن تعاسرتم في أمر الشرط الذي يكون لها على ارضاعها لولدها، فلا بد أن ترضع له أخرى، يقول سبحانه: إن طلبت المرأة شططا، فسيرضع الرجل ولده غيرها من النساء، بدون ما طلبت من الأجرة والعطاء، وإن طلب أبو الصبي من أمه رضاعا بوكس من الأجرة، وعسر عليها في الإنفاق، فلا أن يسترضع غيرها إن تركت الولد أمه، فينفق ويخرج، وينفق للمرضع الأخرى فوق ما أراد أن يعطي أم الصبي؛ فأخبر سبحانه: أنه لابد من الحق، وأن من عند منهما عن الحق، فسيوجد للصبي مرضعا، بالحق الذي عند منهما من عند عنه.

﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾، يقول: ذو الجدة من جدته، وذو القدرة من قدرته، على النفقة من نفقته. ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ يقول: من قتر عليه، ولم يوسع ما في يديه، فكان بذلك معسرا، ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾، يقول: مما رزقه الله، على قدره وطاقته؛ فأراد سبحانه بذلك الإخبار عن ذي السعة، وذي الفاقة والحاجة، والأمر لهما بأن ينفقا على قدر ما في أيديهما، ويخرجا من رضاع ولدهما، على قدر انقطاعهما ورزقهما؛ فأمر بما ذكر من ذلك للأب إذا كان ذا سعة، أن يوسع على أم ابنه إذا أرضعت له، وأمر أم الولد أن تقصد وتقبل ميسور أب ابنها إذا قدر عليه رزقه، كما قال سبحانه: ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾، يريد: فلينفق عليها على قدر ما آتاه الله، ومعنى ﴿آتاه الله﴾ فهو: رزقه

وأعطاه؛ ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾، معنى ﴿لا يكلف الله﴾ أي: لا يجعل الله على نفس حكما فوق ما تطيق من النفقة، ولا يحكم عليها من النفقة، إلا على قدر ما رزقها وآتاها. ﴿سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾: سيؤتي الله ذا العسرة بعد عسره تيسيرا، حتى يكون بعد اليوم مؤسرا، كما كان اليوم معسرا؛ فهذه عدة من الله تبارك وتعالى للمتقين باليسر والتيسير، بالرزق الكثير، ورفع المعسور.

ثم رجع سبحانه، وذكر من كان فيمن عند من خلقه عن أمره، وتخويفا لعباده، وإنذارا وإعذارا إلى خلقه، فقال جل جلاله، وتعالى عن كل شأن شأنه: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا﴾، معنى ﴿وكأين من قرية﴾ يقول: وكم من قرية ﴿عتت عن أمر ربها﴾، ومعنى ﴿من قرية﴾ فهو: من أهل قرية، ومعنى ﴿عتت﴾ فهو: قست وتحيرت، وظلمت وتكبرت، ومعنى ﴿عن أمر ربها﴾ فهو: تكبرت عن الطاعة لأمر ربها، ﴿ورسله﴾ أي: بالمخالفة لأمر الله، والمشاقة لرسل الله. ﴿فحاسبناها حسابا شديدا﴾، يقول: جازينا؛ جزاء على فعلها. ﴿حسابا﴾ أي: مثلا بمثل من صنعها، ومعنى " جازيناها " فهو: عاقبناها عقابا شديدا. ﴿وعذبناها عذابا نكرا﴾، يقول: عذبناها بما أنزلنا عليها من العذاب الأليم، والنكال العظيم. و﴿عذابا نكرا﴾، والنكر من العذاب فهو: المنكر، ومعنى المنكر فهو: الأمر الذي لم ير مثله في العذاب، ولم يكن في أحد من الأمم، فأنكر شديد ما رؤي منه، وعوين عند وقوعه بأهله، فكان بذلك نكرا، أي: اشتد أمره، وعظم شأنه، واشتد سبيله، حتى كان نكرا عند أهله، ومن سمع به.

﴿فذاقت وبال أمرها﴾، معنى ﴿فذاقت﴾ هو: وجدت، ومعنى ﴿وبال أمرها﴾ فهو: عاقبة أمرها، ومعنى ﴿أمرها﴾ فهو: فعلها، وما تقدم من فسقها. ﴿وكان عاقبة أمرها خسرا﴾، معنى ﴿عاقبة أمرها﴾ فهو: آخر أمرها، وأمرها

هاهنا فهو: حالها. ﴿خسرا﴾ فهو: خسرانا وبلاء، وعذابا وشقاء.

ثم أخبر سبحانه بما أعد لهم في الآخرة التي تبقى، من بعد ما أنزل بهم في دار الدنيا، فقال سبحانه: ﴿أعد الله لهم عذابا شديدا﴾، يريد: عذاب النار في الآخرة، التي لا تفنى ولا تبيد، ولا تنقضي أبدا. ثم قال سبحانه: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾، فمعنى ﴿فاتقوا الله﴾ يقول: خافوا الله وراقبوه، واحذروا معاصيه. ﴿يا أولي الألباب﴾ فهو: يا أصحاب الألباب، والألباب فهي: العقول. ﴿الذين آمنوا﴾ يقول: يا أهل الألباب من المؤمنين، الذين جعلت لهم ألبابا فانتفعوا بها، فأصابوا بها الرشد عندما استعملوها؛ دلتهم على الإيمان واستدلوا، ووقفتهم على طريق الهدى فاهتدوا، ولم يكابروا ألبابهم فيضلوا، ولم يعندوا عن الله فيهلكوا؛ بل ركبوا سبيل الحق فاهتدوا، وقصدوا ما أمروا فنجوا. ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرا﴾، معنى ﴿أنزل﴾ فهو: أظهر وأرسل إليكم به.

﴿ذكرا (١٠) رسولا﴾ فهو: مذكر يتذكر به من تذكر، ويؤمن به من اعتبر، ويقبل تذكرته في أمره من أبصر. ﴿رسولا﴾، يقول: مبعوثا مرسلا مبينا، أي: مؤديا، يقول: أرسله بالرسالة النيرة، والحجة البالغة التي يتلوها عليكم، ويقيمها بينكم وفيكم؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿يتلو عليكم آيات الله مبينات﴾، يعني ﴿يتلو عليكم﴾ فهو: يقرأ عليكم، ويظهر بينكم ﴿آيات الله﴾، ومعنى ﴿آيات الله﴾ فهو: رسالات الله وفرائضه، وما جعل عليكم وافترض من دينه، وأقام فيكم من حقه ويقينه. ﴿مبينات﴾ فهي: ظاهرات واضحات، مكشوفات نيرات، قد ثبت براهينها أنها من عند ربها، وصح بالمعجزات أنها من الله سبحانه؛ ثبتت ذلك البراهين النيرات، والآيات المعجزات، اللواتي لا تكون إلا من الله سبحانه، لا تأتي إلا عن الله. ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور﴾، معنى ﴿ليخرج﴾ فهو: ليخلص أهل الإيمان والتقوى، بما يأتي به من الدلالات والهدى، التي يستدل بها المستدلون، ويعلم بها العالمون،

صدق ما جاء به الرسول الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، من الهلكة والظلمات، إلى النور والبينات. معنى ﴿الظلمات﴾ فهي: ظلمات الكفر وشركه، وما فيه لأهله من الويل والبلاء. قوله: ﴿إلى النور﴾ فهو: إلى نور الحق وضيائه، وراحته ورجائه. ثم قال سبحانه: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا﴾، معنى ﴿ومن يؤمن بالله﴾ فهو: يصدق بالله، ويوقن بآيات الله، ويوقن بالرسالات التي جاءت من الله على ألسنة أنبيائه، ﴿ويعمل صالحا﴾، يقول: يكون مع إيمانه وتصديقه عاملا بما أمر الله به من فرائضه. ﴿ندخله جنات﴾، يقول: على ذلك من العمل أدخلناه جنات؛ والجنات فهي: دار الكرامات، التي جعلها الله للمتقين، وكرم بها عباده المؤمنين، دار السرور في المآكل والمشارب، والمناكح والملابس، التي لا يفتقر من نال ملكها، ولا يسقم من حلها، ولا يشقى من نالها. ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، يقول: تجري من تحت أشجارها، وبين دورها وقصورها الأنهار؛ والأنهار فهي: التي ذكر الله تبارك وتعالى، حين يقول: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ [محمد: ١٥]. ﴿خالدين فيها﴾، معنى ﴿خالدين فيها﴾: فهم مخلدون، ومعنى مخلدين فهو: مقيمون، لا يبرحون ولا يخرجون، ولا يفقدون كرامة الله التي يعطون، فهم مقيمون، أحياء لا يموتون، مسرورون لا يحزنون، أغنياء لا يفتقرون، قد صدقوا قول الله فصدقهم، وأرضوه فأرضاهم، فصاروا عنده مقربين، وفي ثوابه خالدين أبد الأبد. ﴿فيها أبدا﴾، فمعنى ﴿أبدا﴾ هو: أبد الأبد، والغاية التي لا انقطاع لها ولا مدى. ﴿قد أحسن الله له رزقا﴾، يقول سبحانه: لمن كان كذلك، وصار إلى ما ذكرنا من ذلك. قوله: ﴿رزقا﴾ فهو: ثوابا، وثوابا فهو: عطاء ونائلا وفضلا.

ثم ذكر سبحانه ما جعل من سماواته وأرضه؛ ليكون ذلك حجة له على جميع

خلقه، فقال سبحانه: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾، معنى قول الله: ﴿الذي خلق سبع سموات﴾ فهو: دلالات منه على نفسه، بما فطر من فعله، وأظهر من صنعه، في سماواته وأرضه؛ فدل سبحانه بصنعه على نفسه، وأخبر أنه هو الذي خلق ما ذكر، ومعنى ﴿خلق﴾ فهو: أوجد وفطر، وابتدع وصور، وأوجد وقدر هذه السبع السموات، وأوجد مثلهن أيضا من الأرضين المدحوات، ومعنى ﴿مثلهن﴾ فهو: في العدد سبعا كالسموات، لا أنها مثلها في الخلق والتصوير، والتجسيم والتقدير. ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾، فمعنى ﴿يتنزل﴾ فهو: ينزل ويتردد، ويهبط ويتبدد، والأمر فهو: ما جعل الله سبحانه من الأسباب والمقادير، والأرزاق والتقادير التي قدرها، من هبوط ملائكته إلى أنبيائه بأمره ونهيه، وفرضه وجعله، وما ينزل من السماء من الماء، الذي به حياة الأشياء، وما ينزل من السماء إلى الأرض، من رحمة واسعة، وكرامة شاملة للمؤمنين، ومن عذاب نازل بالفاسقين، واقع بالكافرين؛ فهذا تنزيل ما يتنزل بين السموات والأرضين. ﴿لتعلموا أن الله على كل شيء قدير﴾، معنى ﴿لتعلموا﴾ هو: لتوقنوا إذا رأيتم، وأبصرتم تنزيل هذا الأمر الذي به خبرتم - ﴿أن الله على كل شيء قدير﴾، ومعنى ﴿على كل شيء قدير﴾ فهو: على كل شيء من الأشياء مقتدر، وله منفذ قاهر، لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته شيء، وهو القادر على كل شيء، يفعل ما يشاء، فينفذ في الأشياء فعله، ويظهر عليها في تدبيرها قدرته. ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾: فهذا إخبار من الله سبحانه: أنه قد أحاط علمه بكل شيء، فهو عالم بالأشياء علما واحدا، علمه بها قبل كينونتها كعلمه بها بعد تكوينها. ﴿أحاط﴾ معناها: حفظ كل شيء، فلم يضل عنه شيء، من قعور البحور الزاخرات، ولا أكنان الجبال الشامخات؛ وهو السميع البصير، وبالله نستعين.

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾: ﴿يا أيها﴾ معناها: مناداة من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى المناداة فهو: الأمر والمناجاة. ﴿النبيء﴾ فهو: الرسول، وإنما سمي نبيئا؛ لأنه نبأ بما يأتي به من الله تبارك وتعالى، من الأخبار والأمور التي جعلها الله سبحانه وحيا، وديانة وفرضا، ومعنى ينبئ فهو: يعلم. ﴿لم تحرم﴾، معنى ﴿لم﴾ هو: لأي معنى تحرم. ومعنى ﴿تحرم﴾ فهو: تجعله على نفسك حراما، وتعتزل ما جعل الله لك منه حلالا؛ ألا تسمع كيف يقول: لم تحرم الذي أحل الله لك، معنى ﴿أحل﴾ فهو: جعل وأطلق لك. ﴿تبتغي مرضات أزواجك﴾، معنى ﴿تبتغي﴾: تريد وتطلب، وتأتي وتسبب لمرضاة أزواجك. معنى ﴿مرضات﴾ فهو: محبة أزواجك ومرادهن، ومسارهن ومبتغاهن، والأزواج فهن: الزوجات. ﴿والله غفور رحيم﴾ فهو: قبول للتوبة، مقيل للعثرة، ومعنى ﴿رحيم﴾ فهو: عائد بالفضل، رحيم بمن أحسن، متعطف على التائبين.

وسبب ما ذكر الله تبارك وتعالى مما ذكر، من تحريم نبيئه صلى الله عليه وعلى آله لما أحل له -فهو: أنه صلى الله عليه وآله وقع يوما من الأيام على جاريته

وسريته مارية القبطية في بيت عائشة بنت أبي بكر، فاطلعت عليه، وصاحت وألاحت، وقالت: في منزلي، وعلى فراشي، وفي موضعي. فاغتم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله واحتشم، وداخله في ذلك من الحياء ما داخله معه من الندم، فقال صلى الله عليه وآله لها: ((اسكني يا عائشة؛ فإني لا أعود إليها))، ثم قال عليه السلام: ((والله لا دنوت منها أبدا))؛ حياء منه صلى الله عليه وآله وتكرما، وكراهية للائمتها وتسلما؛ فعاتبه الله عز وجل فيما حرم من جاريته، وأمره بتكفير اليمين التي أقسم بها في غشيان سريته، مع ما عاتبه فيه في تحريمها على نفسه، ومعنى تحريمه لها فهو: قسمه بالله لا يغشاها؛ فسمى الله تبارك وتعالى اعتزاله لها، وقسمه فيها: تحريما من رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه؛ إذ كان بقسمه تحريم ما كان يحب من الدنو منها، الذي جعله الله له حلالا فيها، فأنزل الله سبحانه: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾، فأمره سبحانه بتحليل يمينه.

معنى: ﴿قد فرض الله لكم﴾ فهو: جعل الله لكم، وحكم بتحلة أيمانكم، معنى ﴿تحلة﴾ فهو: كفارة أيمانكم، التي تحل لكم بالكفارة ماكنتم حرمتموه بالقسم على أنفسكم، فمعناها: حلفكم بالله وقسمكم. ﴿والله مولاكم﴾، يقول: والله وليكم، والفاعل لما يشاء بكم وفيكم. ﴿وهو العليم الحكيم﴾ فهو: العالم بسرائر القلوب، المطلع على كل مستترات الغيوب. ﴿الحكيم﴾ فهو: المتقن لكل ما دبر، المحكم لكل ما قدر؛ فأخبر تبارك وتعالى أنه جعل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله كفارة يمينه، وكفارة اليمين بالله تبارك وتعالى فهو: ما ذكر الله سبحانه من إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، أو صيام ثلاثة أيام لمن لم يجد؛ وذلك قوله:﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم

واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾، فكفر صلى الله عليه وعلى أهل بيته عن يمينه، ورجع إلى جاريته، ولم يلتفت الى ما كان من أمر زوجته.

ثم أخبر سبحانه بما كان أسر إلى بعض أزواجه، فهي عائشة، وذلك أنه كان صلى الله عليه وآله قال لها حين صاحت وألاحت، وشنعت وأشاحت: ((اسكتي؛ حتى أسرك بشيء، وأخبرك بأمر))، فكان الذي أخبرها به أن قال لها: ((إن أباك يلي هذا الأمر من بعدي، ثم يليه عمر من بعده))، ثم أمرها بكتمان ذلك عليه، وألا تخبر به أحدا، فيقال: إنها أخبرت به من ساعتها حفصة ابنة عمر، ثم إنهما دعتا أبويهما، فأخبرتاهما بما أخبرهما به رسول الله صلى الله عليه وآله؛ يقال: إنه عند ذلك كان سبب إعراض رسول الله عن ذكره، فلم يبكتها بشيء من أمره، فهو الذي قال الله تبارك وتعالى: ﴿وأعرض عن بعض﴾. معنى: ﴿وإذ أسر النبيء﴾ فهو: أخفى سرا، وألقاه إليها. ﴿إلى بعض أزواجه﴾ فهي: عائشة. ﴿حديثا﴾ فهو: خبرا وسرا. ﴿فلما نبأت به﴾، معنى ﴿فلما [نبأت به]﴾: أظهرته وأخبرت به، ولم تحفظ فيه سره. ﴿وأظهره الله عليه﴾، معنى ﴿أظهره الله عليه﴾ فهو: أطلعه عليه، وأعلمه بما كان من إفشائها له. ﴿عرف بعضه﴾ فهو: عرفها بعض ما أفشت عليه، وبعض ما كان منها فيه. ﴿وأعرض عن بعض﴾، ومعنى ﴿أعرض﴾ هو: ترك ولم يخبر، ولم يبكت ببعض ما كان منهم في ذلك؛ فكان الذي عرفها من فعلها أنه قال لها: ((لم أخبرت أباك بما استكتمت، وأخبرت حفصة وعمر، وقد جعلت ذلك لي عندك سرا))، وأعرض صلى الله عليه وعلى آله عما قيل إنه كان منهم في ذلك، فلم يذكر منه شيئا. ﴿فلما نبأها به﴾، يقول: أعلمها بأنه قد علم بأمرها، واطلع على ما كان من إفشائها سره الذي كان عندها. ﴿قالت من أنبأك هذا﴾، معنى: ﴿من أنبأك﴾: من أعلمك وأخبرك بهذا الذي كان مني، من إفشاء سرك، وإظهار أمرك. ﴿قال نبأني العليم

الخبير﴾، معنى ﴿قال﴾ فهو: تكلم وذكر، وقال وأخبر. ﴿نبأني﴾، يقول: أعلمني وأخبرني. ﴿العليم الخبير﴾ فهو: رب العالمين، الذي أعلمه بذلك منها، وأعلمه بما أفشت من سره عنها. ﴿العليم﴾ فهو: الذي لا يخفى عليه شيء، العالم بالأشياء، الذي لا يسقط عنه منها شيء. ﴿الخبير﴾ فهو: المحيط بسرائر خلقه، الذي يعلم ما يصلحهم ويفسدهم، فليس يسقط عنه من أسبابهم ولا أمورهم قليل ولا كثير، كبير ولا صغير.

ثم قال سبحانه: ﴿إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾، معنى ﴿إن تتوبا﴾ فهو: إن ترجعا وتنيبا إلى الله سبحانه، من فعلكما وتتوبا -﴿فقد صغت قلوبكما﴾، يقول: فقد مالت عن الحق قلوبكما، وركنت قلوبكما إلى الباطل. ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ فهو: إن تعاونا وتكاتفا على رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته وتماليا. ﴿فإن الله هو مولاه﴾، يقول: هو وليه، والدافع عنه، والمعين له. ﴿وجبريل﴾ فجبريل صلى الله عليه فهو: الملك الأمين، الرسول بين الله عز وجل وبين نبيئه المبين. ﴿وصالح المؤمنين﴾ فهم: أهل الطهارة والفضائل من المسلمين، ذو الورع والتقوى، والتجريد في أمر الله والهدى. ﴿والملائكة﴾ فهم: ملائكة الله المقربون، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ معرفة منهم بحق ربهم، وإجلالا بذلك لخالقهم. ﴿بعد ذلك ظهير﴾، ﴿بعد ذلك﴾ فهو: بعد تولي ما ذكرنا من الله سبحانه، وجبريل، وصالح المؤمنين. ﴿ظهير﴾ فهو: معين لصالح المؤمنين، على مناصرة رسول رب العالمين.

﴿عسى ربه إن طلقكن﴾، معنى ﴿عسى﴾ هي: كلمة إيجاب من الله للمؤمنين، يريد سبحانه بها: الإخبار عن فعله بنبيئه صلى الله عليه وعلى آله إن طلق من قد آذاه، وأظهر سره، ولم يستر عليه أمره، فقال سبحانه: ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾، ومعنى ﴿طلقكن﴾ فهو: فارقكن، ومعنى " فارقكن " فهو:

أخرجكن من حباله وترككن. ﴿أن يبدله أزواجا﴾، يريد: أن يجعل بدلكن له أزواجا، ومعنى ﴿أزواجا﴾ فهو: زوجات ونساء. ﴿خيرا منكن﴾، ومعنى ﴿خيرا منكن﴾ فهو: أفضل منكن، يأمن إفشاء[هن] عليه سره من أزواجه، وأظهر عليه أمره من نسائه. ﴿مسلمات﴾ فمعناها: مستسلمات إلى الله، ومعنى مستسلمات فهو: مسلمات أنفسهن إلى الله، ومعنى مسلمات أنفسهن الى الله فهو: مفرغات أنفسهن في طاعة الله، غير مشتغلات بشيء سوى مرضاة الله. ﴿مؤمنات﴾ فمعناها: مؤمنات لأنفسهم، بصالح أعمالهن من عذاب ربهم. ﴿قانتات﴾، فالقانتات فهن: الداعيات المستغفرات، الذاكرات لله، المنيبات لله؛ وأفضل قنوتهن ودعائهن فهو: ما يكون منهن في أدبار صلاة الصبح المفروضة عليهن من القنوت، بما فيه من الدعاء من القرآن، الذي نزل من عند الواحد الرحمن. ﴿تائبات﴾ معناها: راجعات إلى الله، خارجات مما كن عليه من الدين، مصدقات للرسول المبين، مقرات بالتوحيد للمحقين. ﴿عابدات﴾ فهو: المطيعات لله المتقيات، المواضبات على طاعة الله المؤمنات. ﴿سائحات﴾، فالسائحات فهن: المهاجرات الى الله ورسوله، التاركات لأهل الكفر والجحدان، المهاجرات إلى دار السلام والإيمان. ﴿ثيبات﴾ فهن: اللواتي قد تزوجن وعقلن، وفهمن وكمل أدبهن، وباشرن الأشياء، حتى عرفن ما يصلح للأزواج من الخدمة والقيام، والمعاشرة والإكرام؛ فذكر الله سبحانه تبديل نبيه عليه السلام من الأزواج الثيبات؛ لما ذكرنا من فضلهن على الأبكار بالخدمة للأزواج، والاصطبار والمعرفة بحسن العشرة؛ فأراد بذكرهن في هذه الحالة: ما ذكرنا من منافعهن، وإجلالهن لأزواجهن؛ لما هن عليه من التجريد والمعرفة بما لا تعرفه البكر، بحسن القيام للبعل في كل أمر. وأراد بذكر الأبكار، فقال:﴿وأبكارا﴾: ما الأبكار عليه وتشتمله من لذاذة القرب، والحلاوة على القلب؛ لما هي عليه من الغرة والصبا، والاستطراف من الزوج لها في كل معنى.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾، معنى ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهو: مناداة من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر منه لعباده الصالحين. ﴿قوا أنفسكم﴾، فمعنى ﴿قوا أنفسكم﴾ أي: كفوا عن أنفسكم، فادفعوا عنها وعن أهليكم. ﴿نارا﴾، ومعنى دفعهم للنار عن أنفسهم وعن أهليهم فهو: تعليمهم لأهليهم ما فيه نجاتهم، وتوقيفهم على ما أمرهم به ربهم، و تحذيرهم عما نهاهم عنه سيدهم، فإذا فعلوا ذلك بأنفسهم وبأهليهم كانوا بها أخرجوا به أنفسهم وأهليهم من الضلالة الى الهدى، ومن الباطل إلى التقوى -واقين للكل من النار والعذاب، مستوجبين بذلك لما وعد المؤمنون من الثواب. ﴿وقودها الناس والحجارة﴾، فمعنى ﴿وقودها﴾ فهو: حطبها، وما به تأجج في استيقادها. ﴿الناس﴾ فهم: الإنس، ﴿والحجارة﴾ فهي: الحجارة المعروفة من الصخور والجبال، وقد قيل: حجارة الكبريت. وأي ذلك كان فهي حجارة كما ذكر الرحمن وقودا لما جعل الله من النيران. ﴿عليها ملائكة﴾، فمعنى ﴿عليها﴾ أي: خزنة جعلت عليها، وقومة فيها، تصب الحميم على رؤوس أهلها، وتعذب من صار فيها، كما قال سبحانه:﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾ [الدخان: ٤٨]، فهم عليها موكلون، وبتعذيب من فيها من الثقلين مأمورون، وهم صلوات الله عليهم بها قائمون، ومن ألمها وحرها وعذابها سالمون، لا ينالهم فيها حر ولا تعب، ولا يصيبهم فيها غم ولا نصب. ﴿غلاظ شداد﴾، ومعنى ﴿غلاظ﴾ فهم: فظاظ، والفظاظ فهم: الذين لا رحمة في قلوبهم لمن يعذبونه، ولا رقة عندهم على من يصلونه. ﴿شداد﴾ فهم: الأقوياء في أبدانهم، الأشداء في استطاعتهم، المقتدرون على كل أمرهم. ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ معناها: لا يخالفون الله. ﴿ما أمرهم﴾ معناها: فيما أمرهم، ومعنى ﴿أمرهم﴾ فهو: ما يأمرهم به من تعذيب

المعذبين، وإيصال الوعيد إلى الفاسقين. ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾ معناها: يصيرون الى ما جعلوا له، ويمضون ما أقيموا فيه، ولا يعصون آمرهم، ولا يخالفون جاعلهم، ولا يتكلفون أمرا يأتون به من أنفسهم، فهم لأمر الله مسلمون، وبه في كل الأسباب مؤتمرون.

ثم ذكر سبحانه اعتذار الكافرين في يوم الدين، عند وقوع الحسرة والندامة بالفاسقين، فقال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾، معنى ﴿يا أيها الذين كفروا﴾ فهو: نداء من الله وتوقيف، لأهل الكفر من الناس وتعريف، و﴿الذين كفروا﴾ فهم: الذين أساؤوا وظلموا. ﴿لا تعتذروا﴾ ولا تحدثوا توبة، فلن تقبل لكم، ولا تبدوا من القول ما لا ينفعكم. ﴿اليوم﴾ فهو: يوم القيامة. ﴿إنما تجزون ماكنتم تعملون﴾، معنى ﴿تجزون﴾: تعطون وتدانون؛ فأخبر سبحانه: أنهم لن يجازوا إلا بفعلهم، ولن ينالهم عذاب إلا بعملهم، وذلك قوله: ﴿ماكنتم تعملون﴾، يقول: جزاكم ما كنتم تعملون.

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين، وأمرهم بما أمر به من كان قبلهم من المتقين، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾، معنى ﴿يا أيها﴾ فهو: أمر من الله للمؤمنين، يريد: يا أيها الذين. ومعنى ﴿الذين آمنوا﴾ فهم: الذين اتقوا وأحسنوا إلى أنفسهم، حتى أمنوا عقاب ربهم. ﴿توبوا إلى الله﴾، معنى ﴿توبوا﴾ أي: أخلصوا التوبة إلى الله، والعمل الصالح لله. ﴿توبة نصوحا﴾، يقول: أخلصوا لها اخلاصا ﴿نصوحا﴾، ومعنى ﴿نصوحا﴾ فهو: خالصا ثابتا، يقول: أخلصوا له. ﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾، معنى ﴿عسى﴾ فهو: إيجاب من الله لمن تاب توبة نصوحا أن يقبل منه توبته، ويكفر عنه سيئاته، وهي: كلمة تشبه الشك، وهي: كلمة تستعملها العرب في إيجابها للشيء، وتصحيحها له. ﴿أن يكفر﴾، معنى ﴿يكفر﴾ فهو: يغفر ويهب، ويصفح عن سيئاتكم، والسيئات فهي: الخطايا الموبقات. ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها

الأنهار﴾، يقول: إذا كفر عنكم سيئاتكم أدخلكم جنات، والجنات فهي: دار النعيم والكرامات، والحالات القيمات، ذوات الثمار والأنهار. ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، يقول: تجري من تحت الأشجار - أشجارها وثمارها، ودورها وقصورها - الأنهار، فهي فوق الأرض سائلة، ومن تحت ما ذكرنا جارية، والأنهار فهي: الغدر والمياه المتفجرة بعضها من بعض. ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾، واليوم الذي لا يخزي الله فيه النبيء فهو: يوم القيامة، ويوم الحشر للمؤمنين والسلامة، والشقاء للكافرين والندامة. ﴿لا يخزي﴾ فهو: لا يفضح ولا يسوء؛ بل تفلح حجته، وتظهر فيه كرامته. ﴿والذين آمنوا معه﴾، يقول: والذين آمنوا أيضا مع رسولهم لا يخزون، ولا يرون ما يسوؤهم ولا يردون؛ بل يرون السرور في ذلك اليوم من ربهم، ويتنجزون مواعيدهم من خالقهم. ﴿معه﴾ فهو: مع الرسول صلى الله عليه وعلى آله. ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾، معنى ﴿نورهم﴾ فهو: برهانهم، وما جعله الله سبحانه من حجة الإيمان لهم ومعهم، ومعنى ﴿يسعى﴾ فهو: تظهر بين أيديهم ﴿وبأيمانهم﴾؛ فهو: يتبين براهين الدلالات، وكرامات البشارات؛ فهو ظاهر لا يخفى على الناظرين، ولا يتغيب عن المبصرين. ﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾، معنى ﴿يقولون﴾ فهو: يسألون ويطلبون. ﴿ربنا﴾، يعني: يقولون يا إلهنا، وخالقنا ومالكنا، ﴿أتمم لنا نورنا﴾، يريدون بذلك: أتمم لنا ما قد أعطيتنا من هذا النور، وظهور الحجة، وكرامات البشارة، بإيصالنا إلى ما وعدتنا من دار كرامتك، والخلاص من موقف حسابك. ﴿واغفر لنا﴾ هو: ارحمنا، وتجاوز عما كان منا. ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ معناها: إنك على كل ما تريد مقتدر، ومعنى مقتدر فهو: قادر فاعل؛ فكان ذلك من قولهم إقرارا لربهم بالقدرة، وتقديسا منهم واجلالا، وتبجيلا وتعظيما، وهيبة في كل حال.

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وعلى آله: بجهاد من عند عن الله من الكفار

والمنافقين، وبأن يبتدئ الغلظة على جميع الفاسقين، فقال: ﴿ياأيها النبيء جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾، معنى ﴿ياأيها﴾ فهو: أمر من الله لنبيئه صلى الله عليه وآله بما أمره به من جهاد عدوه. معنى ﴿النبيء﴾ فهو: المنبئ عن الله سبحانه بوحيه الرضي. ﴿جاهد الكفار﴾ فهو: نابذ الكفار وقاتلهم، وابسط يدك بالسيف عليهم؛ والكفار فهم: الذين كفروا بالله وأشركوا، وكذبوا بآياته وأنكروا؛ والمنافقون فهم: المدغلون في الدين، الذين يفسدون عليه صلى الله عليه وآله، ويعطونه من ألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويبدون له الإسلام، ويفسدون عليه ضعفة الأنام؛ فأمره سبحانه بالجهاد لمن نابذه من أولئك، وأظهر له ما يخفيه من المعصية والعداوة في ضميره. ﴿واغلظ عليهم﴾، يقول: اشتد عليهم، وكن بهم فظا غير رحيم. ﴿ومأواهم﴾، يريد: مصيرهم ومعادهم ﴿جهنم﴾، وجهنم فهي: النار. ﴿وبئس المصير﴾، يقول: بئس المرجع والقرار، والمصير والدار، ومعنى ﴿بئس﴾ فهو: شر مصير، و" مصير " فمعناها: الموضع والمنزل، والمرجع الذي يرجع إليه، ويصار فيه.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الكافرين، فأخبر بأمرهم وحالهم، وأنه لا يغني عنهم الأولياء الصالحون، من الأزواج والأولاد، والآباء والأبناء، في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، كما لم يغن ذلك عمن كان كذلك في عصر نوح ولوط صلى الله عليهما؛ فضرب في ذلك مثلا لأزواج الرسول صلى الله عليه وآله، الذين ذكر عنهم في أول السورة ما ذكر، يخبرهن أن نكاح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لهن لا يغني عنهن من الله شيئا، إن عدلوا عن الحق، ولم يتبين عما كان من تظاهرهما على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وأنه لا منجاة من ذلك إلا بالتوبة عن تلك المهالك، وأن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لا يغني بنكاحه لهن، ولا مقاربته إياهن، وأنه لا نجاة لهما مما فعلتا، إلا بالتوبة عما كانتا صنعتا، وإلا كانت حالهما كحال غيرهما، من امرأة نوح وامرأة لوط صلى الله

عليهما، فقال سبحانه في ذلك: ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾، فضرب الله هذا المثل لجميع الكافرين، الذين لهم أولياء صالحون، من قريش وغيرهم من الناس أجمعين؛ فأخبر بما ضرب من ذلك: أن الولي الصالح لا ينفع عند الله غدا وليه الطالح، وأن ليس من الله نجاة إلا بالعمل الصالح، وبالتوبة النصوح، وبالرجوع إلى الله في كل فعل أو قول، سرا وعلانية، وأن حال من كان كذلك كحال امرأتي نوح ولوط صلى الله عليهما، لما خانتا نوحا ولوطا صلى الله عليهما، فصارتا بخيانتهما إلى النار، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، معنى: ﴿تحت عبدين﴾ فهو: عند عبدين ﴿من عبادنا﴾، يقول: من عبيدنا. ﴿صالحين﴾ فهما: مؤمنين تقيين، ﴿فخانتاهما﴾ فهو: عصتاهما، وصارتا إلى مضادتهما، ومعاندتهما في ما حرمه الله عليهما، من مخالفتهما فيما عصتا ربهما، بخيانة ولييه استحقتا النار، بعصيانهما الجبار. ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئا﴾، ﴿فلم يغنيا﴾ معناه: فلم ينفعاهما، ولم يدفعا منهما شيئا مما نزل بهما من عذاب ربهما. ﴿وقيل ادخلا النار﴾، معنى ﴿قيل﴾ فهو: حكم عليهما، فأوجب العذاب. ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾، يقول: صيرا إليها، وحلا فيها، وادخلا مع الداخلين، وكونا من سكانهما يوم الدين.

ثم ضرب الله سبحانه مثلا للمؤمنين، الذين يكونون مع الأولياء الفاسقين، فقال: ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (١١) ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين (١٢)﴾، معنى ﴿ضرب الله مثلا﴾ فهو: جعل مثلا ضربه للمؤمنين، الذين هم مع الأولياء الطالحين الفاسقين؛ ليخبرهم أن ضلال أوليائهم ليس بضار لهم، إذا أخلصوا لله نياتهم، وقدموا التوبة إلى ربهم، كما لم يضر امرأة

فرعون ضلال فرعون، فقال: ﴿ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله﴾؛ فمعنى: ﴿قالت رب ابن لي﴾ فهو: دعت وسألت ربها بأن يجعل لها في دار الآخرة عنده منزلا أفضل من منزل فرعون وأكرم. ﴿بيتا في الجنة﴾ فهو: منزلا في الجنة، والجنة فهي: جنة المأوى التي جعلها الله تبارك وتعالى للمؤمنين ثوابا. ﴿ونجني من فرعون﴾، تقول: خلصني من فرعون، ومعنى " خلصني " فهو: أرحني منه، وانقلني منه إليك. ﴿وعمله﴾، تقول: أرحني مما أرى من عمله، الذي لا أقدر أن أغيره عليه. ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾، معنى ﴿نجني﴾ فهو: تخلصني وتنجيني، وتنقذني من قرب القوم الظالمين، والقوم الظالمون فهم: الظالمون لأنفسهم، بعصيانهم لربهم، وهم قوم فرعون وأهل ملته، الساعون في طاعته.

﴿ومريم ابنت عمران﴾؛ فأخبر أيضا أنها ضربت مثلا للمؤمنين، كما ضرب امرأة فرعون، ومريم ابنت عمران فهي: أم المسيح عيسى بن مريم صلى الله عليه. ﴿التي أحصنت فرجها﴾، معنى ﴿التي﴾ فهو: هي، ومعنى ﴿أحصنت﴾ فهو: حفظت وصانت عن معاصي الله فرجها، ولم تصرفه إلى شيء مما يسخط ربها، وفرجها فهو: قبلها. ﴿فنفخنا فيه﴾، يقول: جعلنا فيه، وجعلنا في رحمها، وصورنا. ﴿من روحنا﴾، فمعنى ﴿من روحنا﴾ فهو: الروح الذي خلقنا فيه، هو عيسى بن مريم صلى الله عليه، وإنما نسبه إليه، فقال: ﴿روحنا﴾؛ لأنه خلقه وفعله، مثل قوله: ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾، فقال: عبدنا؛ لأنه من فعله، كما قال: ﴿من روحنا﴾؛ لأنه روح خلقه وصوره، فنسبه إليه؛ إذ هو فعله، كما نسب العبد اليه؛ إذ كان من خلقه وفعله، فقال: ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾، يقول: جعلنا في عبدنا المسيح وخلقناه، وفطرناه وصورناه، من غير ذكر، كما خلقنا غيره في غير مريم عليها السلام من الذكر، فكان ايجادنا في رحم مريم من غير ذكر، كإيجادنا غيره من عبادنا من الذكران، وكان ذلك شيئا سهلا، هينا حقيرا، ﴿وصدقت﴾

فهو: آمنت وأيقنت، وقبلت وأقرت. ﴿بكلمات ربها﴾ فكلمات ربها هي: وحيه الذي أوحى إليها، حين تمثل لها جبريل عليه السلام بشرا سويا، فقالت: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨) قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا (٢٠) قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا (٢١)﴾ [مريم]، فلما أن قال لها جبريل صلى الله عليه ما قال من قوله، وجاءها بما جاءها من أمر الله به، فصدقته في ذلك وأيقنت به، وعلمت أنه من عند الله، ولم تنكر قدرة الله، فسلمت لأمر الله؛ فهذا الذي كان من كلام جبريل عليه السلام -فهو الكلمات الذي صدقت بهن وقبلتهن، ولم تكذب جبريل في شيء منهن، ولم يدخلها شك في أنه رسول من الله ولا ارتياب، وأن الأمر الذي جاء به إليها هو من عند الله؛ فذكر تصديقها بالكلمات التي وجه جبريل بها إليها، فألقاها إليها، واحتج بهن عليها، فصدقته فيهن، وقبلت ما جاءها به منهن. ﴿وكتبه﴾، فالكتب التي صدقت بها فهي: كتب موسى، وصحف ابراهيم صلى الله عليهما؛ فكانت بذلك مصدقة، وبأنبيائه مقرة عارفة، وبشرائعهم متعلقة. ﴿وكانت من القانتين﴾، والقانتون فهم: الداعون إلى الله، المسلمون لأمره، القائمون بحكم الله؛ فكانت كما ذكر الله سبحانه قانتة، وله عز وجل بالنجاة سائلة، فأجاب الله قنوتها، وشكر عملها، وتقبل سعيها، وجعلها مثلا للمؤمنين، خصهم بالاقتداء بها، وأخبرهم أنه لم يرزأها كفر أهل زمانها، وأن كلا مأخوذ بعمله وقوله، ومجازى بسعيه، وأنه ﴿لاتزر وازرة وزر أخرى﴾ ، وأن الله يجزي كلا بالجزاء الأوفى.

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

يخبر تعالى: أن الملك له، لا لغيره، وأنه ولي صنعه وتدبيره، وأنه ممسكه ومالكه كله، كضبط اليد لما تحيط به وتمسكه، وتحويه لإحاطته، وأنه لا يملكه مالك غيره؛ فالقدرة له وحده عليه، وذلك في اللسان العربي مفهوم موجود معقول؛ تقول العرب:" الملك بيد فلان، وقد قبض فلان الملك، وصار الملك في يده "، يريدون: في ملكه وقدرته، لا في كف بنانه، وقبضة كفه، كذلك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما في قبضة الله ويمينه عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(١٠)﴾ [الملك:١٠]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الكافرين في يوم الدين: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير (١٠)﴾؟

فمعنى ذلك من قولهم فهو: لو كنا سمعنا لله ولرسوله وأطعنا، أو كنا عقلنا عن الله ما به أمرنا -ما كنا من المعذبين، ولا كنا من أصحاب السعير؛ بل كنا عند

الله لو فعلنا ذلك من المثابين، وبنعمته وكرامته من الفائزين.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله تبارك وتعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾، معنى ﴿تبارك﴾ هو: تعالى وتقدس، وجل وعظم من كل ما يقول فيه المشركون، وينسب إليه الملحدون. ﴿الذي بيده﴾، معنى ﴿الذي﴾ فهو: من بيده، معنى ﴿الملك﴾، والملك فهو: الخلق كله، ما خلق الله وذرأ وبرأ، من جميع الأشياء، من السموات كلهن، والأرضين بأسرهن، وما فوقهن وما تحتهن، وما خلق الله فيهن وبينهن، فكل ذلك فهو: الملك؛ والملك فهو: عرشه، وعرشه سبحانه: فملكه، وملكه فهو: ما جعل وفطر، وما خلق سبحانه من الأشياء فصور. ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، يقول سبحانه: هو على ما يشاء فعله فهو قادر أن يفعله، لا يمتنع منه شيء فيفوته، كل شيء في قبضته، وكل شيء فهو لاحقه، ما شاء أن يفعل فعل، وما أراد أن يجعل جعل؛ فهو قدير على ذلك مقتدر، قوي على ما شاء أن يدبر.

﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾، معنى ﴿الذي خلق الموت﴾ يقول: فهو الذي جعل الموت وقدره، و الموت فهو: الفناء والذهاب من الإنسان، وخروج النفس كلها من الأبدان، والحياة فهي: حياة البشر، وحياة البشر فهي: جعل الأرواح في أبدانهم، وتقريرها في جميع أعضائهم. ﴿ليبلوكم﴾، يقول: ليختبركم مما جعل في ذلك؛ لتعملوا في حياتكم بما أمركم به، وتقوموا فيها بما افترض عليكم؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾، يقول سبحانه: ابتلاكم بالموت والحياة، فجعل الحياة الأولى وقت

اكتساب وبلوى، والحياة الثانية التي بعد الموت وقت الحساب والجزاء، على ما تقدم من العمل في الحياة الأولى؛ فجعل الحياة الأولى بلوى، ابتلى خلقه فيما أمرهم به من طاعته، ونهاهم عنه من معصيته؛ ليعلم سبحانه أيهم أحسن عملا، ومعنى ﴿أيكم أحسن عملا﴾: أيهم أشد لطاعتنا اتباعا، ومن معاصينا امتناعا. ﴿وهو العزيز الغفور﴾، فأخبر سبحانه: أنه العزيز الغفور؛ فهو المقيل للعثرة بعد التوبة عند الزلة، المتجاوز عن خطايا التائبين، القابل من المحسنين.

﴿الذي خلق سبع سموات طباقا﴾، فدل عز وجل على نفسه، بما أظهر من فعله، وأبان من قدرته لخلقه، يريد بـ ﴿الذي﴾ أي: هو ﴿خلق سبع سموات﴾، يريد: خلق، أي: أوجد وفطر، وابتدع بعد العدم وصور. ﴿سبع سموات﴾، فهن: السموات السبع المجعولات المقدرات. ﴿طباقا﴾، أي: المجعولات بعضهن فوق بعض، ومعنى ﴿طباقا﴾ فهو: طبقة فوق طبقة، ومعنى " طبقة فوق طبقة " فهو: سماء فوق سماء، حتى ينتهى إلى السماء السابعة التي ليس فوقها سماء. ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾، معنى ﴿ما ترى﴾ هو: نفي من الله تبارك وتعالى، من أن يكون في خلقه اختلاف ولا ردى. ﴿في خلق الرحمن﴾ فمعناه: فيما جعل الرحمن. ﴿من تفاوت﴾، والتفاوت فهو: الاختلاف، والاختلاف الذي ذكر الله أنه لا يرى في خلقه فهو: اختلاف الأشياء عما جعلها الله فيه، وقدرها من التركيب سبحانه عليه؛ فأخبر سبحانه: أنه لا يوجد ولا يرى في خلقه اختلاف أبدا، عما جعله عليه وركبه فيه تركيبا؛ فأخبر سبحانه بذلك: أن كل شيء من خلقه ثابت على ما جعل فيه من تركيبه، لا يزيد على ما جعله الله عليه، ولا ينقص عنه، فالكبير كبير على حاله كما جعل، والصغير صغير كما فعل، والبعيد بعيد قاص، والقريب قريب دان، والجميل جميل لا يتغير أبدا، والسمح فعلى ما جعل عليه يكون من الأشياء، ليس من خلق الله خلق يحول عما خلق عليه، ولا يتفاوت فيما ركب فيه؛ فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾.

﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾، معنى ﴿فارجع البصر﴾، يقول: ارجع في النظر، وأدر وأقلب ما جعل لك من النظر، في خلق الله العزيز الأكبر. ﴿هل ترى من فطور﴾، يقول: هل ترى من اختلاف أو تفاوت، مما جعل من الائتلاف؛ فلن تجد أبدا فطورا ولا اختلافا؛ بل ترى كل ما خلقنا على ما جعلناه، من التسوية والائتلاف والتركيب.

﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾، أي: مرتين، يقول: ارجع البصر، وأحد استعمال النظر ﴿كرتين﴾، أي: مرتين؛ ليثبت لك أمرك، ويتبين لك غير ما قصد بصرك، وأنك إن فعلت ذلك، وأجدت التمييز، استعملت في ذلك العقل والفكر -لم تر في شيء مما خلقنا تفاوتا، فيما ركبناه عليه من تقديرنا. ﴿ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾، معنى ﴿ينقلب﴾ يقول: يرجع إليك بعد تثبتك في النظر في مجعولاتنا، وتقليبك لبصرك في مخلوقاتنا – بصرك ﴿خاسئا﴾، والخاسئ فهو: الذليل المتصاغر لنفسه، الموقن بصحة ما نظر إليه، ووقف من جليل أمر الله عليه. ﴿وهو حسير﴾، والحسير: المنقطع الذي قد جهد فلم يفز ، فانحسر عن طرح ما أراد بلوغه، وشاء تناوله ودركه.

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾، قوله:﴿ولقد﴾ فهو: إيجاب منه لذلك، يقول: ﴿لقد زينا﴾ فهو: جعلنا وحسنا ﴿السماء الدنيا﴾، بما جعلنا فيها من المصابيح؛ والسماء الدنيا فهي: السماء القريبة منا، معنى الدنيا فهي: القريبة من الناس؛ لأن العرب تقول:" ذلك الأدنى "، تريد: الأقرب إليها، و" تلك الدار الدنيا "، تريد: الدار التي هي إلى المتكلم أقرب وأدنى؛ فهذا معنى سماء الدنيا، ولذلك سميت: دار الدنيا؛ لأنها أدنى إلى الخلق وأقرب؛ إذ كانوا فيها سكنوا أولا، فسميت: الأولى؛ لأنها أول الدارين المسكونتين من الآخرة والدنيا، وسميت: دنيا؛ لأنها أقرب الى أهلها وأدنى. والمصابيح فهي: النجوم التي تبرق وتلوح، وتضيء وتنير في مواضعها، وتوقد في أفلاكها. ﴿وجعلناها

رجوما للشياطين﴾، معنى ﴿جعلناها﴾ هو: قدرناها وأعددناها. ﴿رجوما﴾ فهي: مراجم يرجمون بها، ومرام يرمون بها؛ والشياطين فهم: الأبالسة من مردة الجن المستجنين. ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾، يقول: أعتدنا لمن كان مرجوما منهم. ﴿عذاب السعير﴾ فهو: عذاب الجحيم، والجحيم فهي: جهنم؛ وبئس المصير.

ثم قال سبحانه: ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾، يقول: ﴿للذين كفروا بربهم﴾: كل كافر من الجن والإنس، و﴿عذاب جهنم﴾ فهو: أغلالها وسعيرها، وسلاسلها وحريقها وبلاؤها، وجهنم فهي: النار. ﴿وبئس المصير﴾ معناها: شر موئل يؤول فيه، ومصير يصار إليه.

﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا﴾، فمعنى ﴿ألقوا فيها﴾ هو: طرحوا فيها، وصيروا إليها. ﴿سمعوا لها شهيقا﴾، يقول: سمعوا لها زفيرا، والزفير فهو: الشهيق، والشهيق فهو: الزفير، والزفير فهو: الحنين والتأجج العظيم الكبير، الذي يهول سامعه ما يسمعه من حنينه، فضلا عن مقاربته ومباشرته. ﴿وهي تفور﴾، معنى ﴿تفور﴾ هي: تغلي بأهلها، وتقلبهم في أعالي لهبها، ترفعهم تارة وتضعهم، وتشويهم تارة وتفسخهم.

﴿تكاد تميز من الغيظ﴾، معنى ﴿تميز﴾: تكاد تتقطع قطعا من الغيظ على من عصى، وتولى عن أمر الله وأبى، ومعنى ﴿الغيظ﴾ فإنما هو: مثل من الله تبارك وتعالى ضربه فيها، يريد جل ذكره: أن فعلها بأهلها، من أكلها لهم وإحراقها، وعظيم ما جعل الله فيها، وركبها عليه من الفوران والاتقاد، وسرعة الإحراق لما يقع فيها -بالمتغيظ المحسر، الغضبان الذي قد داخله من الغيظ أمر؛ فشبه الله سبحانه أمر جهنم وتأججها، وحركتها وحسها، وفعلها بمن طرح فيها -بفعل المغتاظ الغضبان؛ لا أن جهنم تغتاظ ولا ترضى، ولا تميز بين من أطاع ولا بين من عصى، غير أن الله عز وجل قد ركبها، وجعلها نقمة محرقة لمن وقع فيها،

فصار بحكم الله سبحانه إليها.

﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾، معنى ﴿كلما﴾ هو: إذا، ومعنى ﴿ألقي﴾ فهو: طرح فيها، ورمي إليها، والفوج فهو: الجماعة الكثيرة. ﴿سألهم خزنتها﴾ معناه: استخبروهم عن أمرهم، وسألوهم عما كانوا فيه في حياتهم، و﴿خزنتها﴾ فهم: ملائكة الله الذي يخزنونها، ومعنى " يخزنونها " فهو: يحفظون من فيها، ويعذبون أهلها، ويمنعونهم من الخروج منها. ﴿ألم يأتكم نذير﴾، أي فهو: سؤال من الملائكة لهم، على طريق التقريع والتوبيخ منهم لهم، لا على طريق الشك في أن النذير قد جاءهم، فقالت الملائكة صلوات الله عليها: ﴿ألم يأتكم نذير﴾ ينذركم هذا اليوم، ويحذركم هذا العذاب.

﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾، فأقر أهل النار بأن النذير قد جاءهم، في قولهم: ﴿بلى قد جاءنا﴾، ومعنى ﴿بلى﴾ فهو: نعم، ومعنى ﴿جاءنا﴾ فهو: أتانا وكلمنا، وأعذر وأنذر إلينا، ﴿فكذبنا﴾ يقول: صددنا عن ربنا، ولم نصدق رسولنا. ﴿وقلنا ما نزل الله من شيء﴾، معنى ﴿قلنا﴾ أي: تكلمنا وذكرنا، واعتقدنا وأضمرنا: أنه لم ينزل الله مما جاءت به الرسل شيئا، وأن ذلك كان منهم كذبا وعتوا. ﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾، فأخبروا الملائكة خزنة جهنم صلوات الله عليهم بما كانوا يقولون للرسل المرسلين، من قولهم لهم: ﴿إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾، والضلال الكبير فهو: الكذب والخطأ، والعدول عن الحق والهدى، و﴿الكبير﴾ فهو: العظيم الكبير.

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾، فهذا قول من الكافرين، أهل النار المعذبين، ومعنى ﴿لو كنا نسمع﴾ فهو: لو كنا في حياتنا نسمع قول الأنبياء، ومعنى ﴿نسمع﴾ قولهم فهو: نطيع أمرهم، ونصير إلى أمرهم وقولهم. ﴿أو نعقل﴾، معنى ﴿نعقل﴾ أي: لو كنا نعقل ما جاؤوا به، ومعنى ﴿نعقل﴾ فهو: نفهمه، ومعنى " نفهمه " فهو: نصدق به ونقبله؛ ألا

تسمع كيف يقول قائل العرب لمن يكلمه ويخاطبه:" اعلم ما أقول لك "، يريد: افهم ما أكلمك به، واعقله واعرف معانيه وافهمه. ﴿ما كنا في أصحاب السعير﴾، يقولون: لو كنا سمعنا قولهم، وآمنا بما جاؤوا به من ربهم -لم نكن في أصحاب السعير؛ معنى ﴿ما كنا﴾ أي: ما صرنا ﴿في أصحاب السعير﴾، والسعير فهي: جهنم، وأصحابها فهم: أهلها المعذبون الصائرون إليها.

﴿فاعترفوا بذنبهم﴾، معنى ﴿اعترفوا﴾ فهو: أقروا بذنوبهم، أي: لم يجحدوا شيئا من أفعالهم، ومعنى ذنوبهم فهو: سيئاتهم، وما كان من عصيانهم لربهم. ﴿فسحقا لأصحاب السعير﴾، ﴿فسحقا﴾ معناها: فبعدا، ومعنى بعدا فهو: بعدا لهم، ومعنى بعدا لهم فهو: بعدوا من الثواب، والرحمة في كل الأسباب. ﴿لأصحاب السعير﴾، يقول: لأهل النار.

ثم يرجع سبحانه إلى صفة المؤمنين، وذكر من ذكر من أوليائه الصالحين، فقال: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾، معنى ﴿يخشون﴾ فهو: يتقون ويخافون. ﴿ربهم﴾ فهو: خالقهم، وسيدهم ومالكهم، ومقدرهم وجاعلهم. ﴿بالغيب﴾ فمعناها: في الغيب، ومعنى " في الغيب " فهو: في سرهم، وما تغيب من أمرهم، واستتر عن الناس من أفعالهم. ﴿لهم مغفرة﴾، يقول: لهم غفران من الله ورحمة، وعائدة منه سبحانه وكرامة. ﴿وأجر كبير﴾، يقول: ثواب عظيم كثير، كبير خطير.

﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾، ومعنى ﴿أسروا﴾ فهو: اخفوا ﴿قولكم أو اجهروا به﴾، يقول: أو أظهروه. ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾، يريد: عالم بضمير الصدور، وما يستجن فيها وفي كل الجوانح من الأمور؛ فأخبر سبحانه بما ذكر من ذلك: أنه سواء عنده وفي علمه، ما أسره وأظهره أحد من خلقه، وأن علمه بالغيب المكتوم، كعلمه بالظاهر المعلوم؛ وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو

مستخف بالليل وسارب بالنهار (١٠)﴾ [الرعد]، يقول سبحانه: إنه عالم بكل ما يكون من سر أو علانية، وإنه لا يخفى عليه من الأمور خافية.

ثم قال سبحانه: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾، يريد بقوله: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ أي: كيف لا يعلم سبحانه ما قد خلقه، ويطلع على سر من فطره، وهو أعلم به من نفسه، وأعلم بسره وعلانيته؟! ومعنى ﴿يعلم من خلق﴾ فهو: سر من خلق. ﴿وهو اللطيف الخبير﴾، واللطيف فهو: البر بخلقه، المتفضل عليهم برزقه، المان عليهم بمرافقه، والخبير فهو: العليم الخابر بكل أمورهم، العارف بكل أسبابهم، الذي لا يغيب عنه شيء من أفعالهم.

ثم دل سبحانه على نفسه، ونبه الخلق على معرفته؛ لما فطر من فطره، وجعل من جعائله وصنعه، فقال جل ثناؤه: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾، تفسير ﴿الذي﴾ فهو: دلالة عليه سبحانه دون غيره. ﴿جعل لكم الأرض ذلولا﴾، أي: هو سوى لكم، وجعل لكم الأرض، أي: قدرها، ودحاها وسواها ﴿ذلولا﴾، والذلول فهي: المطية السامحة، التي لا تمتنع مما يفعل بها، ولا تدفع شيئا عن نفسها؛ فشبه الله عز وجل الأرض في انبساطها ووطائها، واستوائها بأهلها - بالذلول من الإبل التي لا تمانع ربها، ولا تخالف في شيء مما يراد بها. ﴿فامشوا في مناكبها﴾، يقول: سيروا في جوانبها؛ لأن المناكب هي: الجوانب والأطراف. ﴿وكلوا من رزقه﴾، ومعنى ﴿كلوا﴾ أي: اطعموا وتنعموا ﴿من رزقه﴾، أي فهو: من فضله وعطائه، وما أخرج من ثمرات أرضه. ﴿وإليه النشور﴾، يقول: وإليه معادكم، و إليه نشوركم؛ فإذا أراد سبحانه أن ينشركم نشركم، ومعنى النشر فهو: البعث والحشر.

﴿ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾، معنى ﴿ءأمنتم﴾ هو: إخبار من الله عز وجل عن قدرته، وإخبار منه أنه لا يأمن أعداؤه أخذ نقمته؛ ومعنى ﴿ءأمنتم﴾ فهو: أيستم أن يخسف بكم الأرض؟! ﴿أن يخسف بكم﴾،

يقول: أأمنتم إلهكم أن يخسف بكم الأرض؟! وأيستم من أخذه لكم؟! معنى ﴿من في السماء﴾ فهو: الله الواحد الذي هو في الأرض كما هو في السماء، لا يخلو منه مكان، وهو الله الواحد ذو العزة والسلطان، وقوله ﴿يخسف بكم﴾ أي فهو: تذهب وتميد بكم الأرض، حتى تذهب بكم في بطنها، وتصيركم في قعرها. ﴿فإذا هي تمور﴾، يقول: إذا هي تذهب بكم ذهابا، وتهبط بكم في بطنها هبوطا، ومعنى ﴿تمور﴾ فهي: تنخسف وتغور.

﴿أم أمنتم من في السماء﴾، يقول: ﴿أم أمنتم من في السماء﴾: من هو في كل مكان من السماء وغيرها، وهو الله الخالق لها ولغيرها. ﴿أن يرسل عليكم حاصبا﴾، فمعنى ﴿يرسل﴾ أي فهو: يصيبكم، ويرمي بالحاصب عليكم، و الحاصب فهي: الحجارة، التي تحصبهم كما حصب قوم لوط فرماهم بالحجارة، فيقول سبحانه: أمنتم أن يرميكم بها، كما رمى من كان قبلكم بمثلها؟! ﴿فستعلمون كيف نذير﴾، يقول: ستعرفون كيف كان إنذاري وإعذاري لكم، وتحذيري لما ننزل بكم من بعد نزوله بساحتكم، وحلوله بأهل المعاصي منكم.

﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾، ومعنى ﴿ولقد﴾ فهو: إيجاب لما كان منهم، بتكذيب من قبلهم، فمعنى ﴿كذب﴾ فهو: جحد واستهزأ، ولم يوقن فيصدق بما جاء من الهدى. ﴿الذين من قبلهم﴾ فهم: الأمم الذين كانت قبل هذه الأمة. ﴿فكيف كان نكير﴾، يقول: قد رأيتم وأبصرتم كيف كان نكيري عليهم، ومعنى نكيري فهو: تغييري وعقوبتي، وما أحدثه وما أخذوا به من نقمتي، على ما اجتروا عليه من مخالفتي.

ثم نبه سبحانه على نفسه: بالطير الذي لا تكون إلا منه، ولا يقدر عليها أحد إلا هو؛ احتجاجا بذلك عليهم، وتأكيدا لحجته فيهم، ثم قال سبحانه: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن﴾، فقال سبحانه: ﴿أولم يروا إلى الطير﴾، معنى ﴿أولم يروا﴾ فهو: ألم ينظروا ويبصروا ﴿إلى

الطير﴾ الطيارة، ذوات الأجنحة، التي تطير في الهواء، وتصف فوقهم، فهي في الهواء فوق رؤوسهم، و﴿صافات﴾ فمعناها: صافات أجنحتهن، وصفها لأجنحتهن فهو: نشرها وتسكينها حتى تهدأ وتسكن، حتى تكون كالشيء المنشور في الهواء، لا يتحرك منها أسفل ولا أعلى، فحينئذ يسمى ما فعل ذلك من الطير صافا. ﴿ويقبضن﴾ فهو: يضممن أجنحتهن إلى جنوبهن، ويخفقن بها تحريكا في طيرانهن. ﴿ما يمسكهن﴾، أي: ما يلزمهن في الهواء، ويمنعهن إلا الله العلي الأعلى، ومعنى إمساكه إياهن فهو: بما جعل وقدر لهن، من الريش الذي جعلهن به طائرات، وفي الهواء واقفات صافات، ودبر فيه وبه طيرانهن، وجعله حاملا لأبدانهن، وموقفا في الهواء لأعضائهن؛ فلما كان ذلك منه وبه فيهن ذكر أنه سبحانه هو المسك لهن، و﴿الرحمن﴾ فهو: الرؤوف المتفضل ذو الإحسان. ﴿إنه بكل شيء بصير﴾، معنى ﴿إنه بكل شيء﴾ معناها: لجميع الأشياء، من فعل أو جسم. ﴿بصير﴾ فهو: عليم.

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾، معنى ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾: فهذا تقريع من الله لهم وتوبيخ، وإعلام: أنه لا جند من دونه لهم ينصرونهم منه، والجند فهم: الأعوان، من الأنصار والإخوان. ﴿ينصركم﴾: يمنعكم، ويقوم دونكم ينصركم. ﴿من دون الرحمن﴾، يعني: دون أمر الرحمن، يريد: من هذا الذي ينصركم من دون أمر الرحمن إن نزل بكم؟! ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾، يقول: ما الكافرون إلا في اغترار وباطل، وخديعة من الشيطان لهم، وتماد في باطلهم.

ثم قال سبحانه: ﴿أمن هذا الذي يرزقكم من السماء إن أمسك رزقه﴾، يريد: أمن هذا الذي يرزقكم، ومعنى ﴿يرزقكم﴾ فهو: يسبب لكم رزقكم، ويخرج لكم من الأرض معائشكم. ﴿إن أمسك رزقه﴾، يقول: إن منعكم الله رزقه وأمسكه عنكم، فلم تخرج الأرض نباتها، ولم تسكب السماء منها ماءها،

حتى تموتون جوعا؛ فمن يأتيكم بالرزق إن أمسكه؛ فلن يأتي به أحد بعده. ثم قال سبحانه: ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾، معنى ﴿بل﴾ فهو: قد، والعتو فهو: العنود والتكبر، والإعراض عن الله والتحير، والنفور فهو: الإعراض والصدود، وقلة الإقبال على الحق، والتمادي في الفسق.

﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه﴾، يقول: يمضي على جهل، ومعنى ﴿يمشي مكبا على وجهه﴾ يقول: يمضي على جهل من أمره، ويعمل في غير صواب من عمله. ﴿أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم﴾، ﴿يمشي سويا﴾ معناها: يمضي معتدلا مستويا. ﴿على صراط مستقيم﴾ معناها: على طريق مستقيم، أراد سبحانه: التمييز بين من يمشي مكبا على وجهه، ماضيا على الخطأ من فعله، مجنبا عن سبيل رشده، وبين من كان على هدى من ربه، وسبيل من رشده، لا يخطئ في أمره، ولا يعرج عن سبيل حقه؛ فأخبر بذلك سبحانه: أن من كان من أهل الضلالة والردى -هم كمن يمشي مكبا على وجهه في غير هدى، وأن من كان من أهل التقوى -كالآخر الذي يمشي على الصراط المستقيم والاستواء؛ وهذا مثل ضربه الله العلي الأعلى، يفرق به بين أهل الضلالة والهدى.

ثم أخبر سبحانه بالدلائل عليه، فقال: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾، معنى ﴿قل﴾: أخبر وأنذر، وكلم وبين: أن الله هو الذي أنشأكم، ومعنى ﴿أنشأكم﴾ أي: هو خلقكم وأنبتكم، وفطركم وأوجدكم. ﴿وجعل لكم السمع﴾، معنى ﴿جعل﴾ أي: ركب ربكم ﴿لكم﴾، أي: فيكم، يقول: خلق لكم السمع الذي به تستمعون، وهي الآذان التي بها تسمعون، ﴿والأبصار﴾ فهي: العيون التي بها تبصرون، ﴿والأفئدة﴾ فهي: القلوب التي بها تعقلون. ﴿قليلا ما تشكرون﴾، يقول: قليلا شكركم، على ما أوليناكم من ذلك وأعطيناكم.

﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾، فأمر سبحانه أن يحتج بذلك عليهم؛ إذ

هو فعل فيهم من ربهم، ومعنى ﴿ذرأكم﴾ فهو: أنبتكم وأخرجكم وأوجدكم، وخلقكم وثبتكم، ﴿في الأرض﴾. ﴿وإليه تحشرون﴾، يقول: إليه ترجعون بعد موتكم، في يوم حشركم، وحين وقت بعثكم.

ثم أخبر سبحانه بما يقول الكافرون، ويتداعى به المكذبون، فقال سبحانه: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، معنى ﴿يقولون﴾ هو: يلفظون ويتكلمون، ويمترون ويسألون. ﴿متى هذا الوعد﴾، أي: متى هذا الوعد الذي به توعدوننا، وبأسبابه تخوفوننا؟! إنكارا منهم لوعد الله ووعيده، وقلة إيمان بقوله. ﴿إن كنتم صادقين﴾، أي: تقولون ائتوا به إن كنتم من الصادقين، معنى " إن كنتم من الصادقين " أي: إن كنتم من الوافين بوعدكم، المحقين في قولكم.

ثم أمر نبيئه صلى الله عليه وعلى آله: أن يرد العلم في ذلك إليه، فقال: ﴿قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾، فمعنى ﴿إنما العلم عند الله﴾ أي: علم غيب ما تستعجلون به، وتكذبوننا في ذكره عند الله، إذا شاء أنزله، وإذا شاء أمسكه. ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾، فمعنى ﴿نذير﴾ أي: محذر معذر. ﴿مبين﴾ معناها: بين القول، ظاهر الإعذار، مبين للحق من الله، مبلغ لرسالات الله، لا آتيكم بعذاب، ولا أصرف عنكم عقابا، ولا عن نفسي أصرف ما أرادني به ربي، وإنما أنا رسول من رسله، أبلغ ما أمرني به.

﴿فلما رأوه زلفة﴾، معنى ﴿فلما﴾ أي: فهو حين ﴿رأوه﴾ فهو: أبصره وعاينوه، ﴿زلفة﴾ فهو: معاينة مقاربة، ومداناة مواجهة. ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾، معنى ﴿سيئت﴾ أي: اسودت، ومعنى " اسودت " فهو: نزل بها السوء وحل بها، وعاينت وواجهت ما كانت به مكذبة، ومعنى ﴿وجوه الذين كفروا﴾ هم: الكافرون في أنفسهم، لا أن السوء نزل بالوجوه دون الأبدان؛ بل الوجوه والأبدان، وسائر أعضاء الإنسان؛ وفي ذلك ما تقول العرب في أشعارها:

إني بوجه الله من شر البشر...... أعوذ؛ من لم يـعـذ الله دمر

فقال:" بوجه الله "، وإنما أراد: الله؛ كذلك قوله سبحانه: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي: سيء الذين كفروا، أي: نزل بهم السوء والبلاء، عند معاينتهم للعذاب والشقاء، ومن ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧)﴾ [الرحمن]، أراد بقوله سبحانه: ﴿ويبقى وجه ربك﴾ أي: يبقى ربك؛ فأخبر عز وجل: أن كل شيء هالك إلا ربه تبارك وتعالى؛ فأراد بقوله:﴿إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨]: إلا هو، و﴿الذين كفروا﴾ فهم: الذين كذبوا وأساؤوا، وظلموا وعتوا، واعتدوا وعندوا. ﴿وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾: فهذا قول من ملائكة الله لهم، وتوقيف منهم صلوات الله عليهم للمكذبين على ما كانوا به يكذبون، من وقوع الوعد والوعيد، وما كان في ذلك من أخبار الواحد الحميد، فقالت لهم ملائكة الله المكرمون: ﴿هذا يومكم الذي كنتم به توعدون (١٠٣)﴾ [الأنبياء]، ومعنى ﴿توعدون﴾ فهو: تخبرون وتعلمون، وتخوفون به وترهبون.

ثم أمره الله سبحانه: أن يقول لهم ما يقول، ويحتج عليهم بما ثبت في القول، فقال: ﴿قل أرءيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾، يريد بقوله: ﴿أرأيتم﴾ هو أي: أخبروني وأفهموني، كيف القول عندكم ﴿إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا﴾؛ فله القدرة علينا؟! فماذا عليكم في ذلك أو لكم؟! وما يضركم أو ينفعكم؟! بل هذا ما لا يضركم ولا ينفعكم، أي ذلك كان من عند ربنا فينا؛ ولن يكون منه إلينا غير الرحمة والرأفة، والفضل والإحسان، والمنة والعاطفة؛ ولكن أخبروني ونبؤني: من يجيركم أيها الكافرون من عذاب أليم، إذا واقعتموه في يوم حشركم وعاينتموه؟! فلن تجدوا لأنفسكم مجيرا من الله، ولا ناصرا من دون الله؛ فهذا معنى قوله سبحانه: ﴿قل أرءيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾، ومعنى

﴿يجير الكافرين﴾ فهو: يمنع الكافرين، ويدفع عنهم العذاب في يوم الدين.

ثم أمره صلى الله عليه وآله وسلم: أن يقول لهم ما أمره به، من التسليم والإقرار به، والتوكل عليه، والإخلاص له، فقال سبحانه: ﴿قل هو الرحمن ءامنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾، معنى ﴿قل﴾ هو: كلمهم، وانطق لهم، واحتج عليهم، وبين لهم: أن الذي يجير ولا يجار عليه هو الرحمن، ذو المن والإحسان، وإنا به آمنا، فقال سبحانه: ﴿قل هو الرحمن ءامنا به﴾، يريد: ءامنا بأمانه أنفسنا من عقابه، باتباع طاعته، والإعراض عن معصيته. ﴿وعليه توكلنا﴾، يقول: وعليه اتكلنا، ومعنى " اتكلنا " فهو: عليه اعتمدنا، وبه اكتفينا، لا نريد غيره، ولا نتوكل على سواه. ﴿فستعلمون﴾، أي: ستعرفون وتفهمون، وترون وتوقنون. ﴿من هو في ضلال مبين﴾، يقول: من هو في باطل من أمره، وحسرة من صنعه، وفساد من دينه؟ أنحن أم أنتم؟ والمبين فهو: الظاهر المستبين، الواضح للمتوسمين.

ثم أمره صلى الله عليه وعلى آله: بتوقيفهم على ما هو عليهم حجة، مما تبين له فيه القدرة، فقال: ﴿قل أرءيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين﴾، معنى ﴿قل أرأيتم﴾ هو: قل ما تفعلون إن أصبح ماؤكم غورا؟ يعني: إن غار ماؤكم في الصباح، والصباح فهو: أول النهار، عند إدبار الليل وخروجه، فيقول: إن غار ماؤكم في وقت الصبح، فأصبحتم لا ماء لكم. ومعنى ﴿غورا﴾ أي: غار ذاهبا، مغيبا في الأرض سائحا. ﴿فمن يأتيكم بماء﴾، يقول: فمن يجلب لكم ماء، ويأتيكم به، ويرده في بياركم وأنهاركم. ﴿معين﴾، فالمعين فهو: الظاهر، فيقول سبحانه: إن غار ماؤكم وذهب، فمن يأتيكم بماء غيره، هل تعلمون أحدا يأتيكم به غير الله؟ وساقيا يسقيكم الماء غيره سبحانه؟ الذي ينزله من السماء إلى الأرض، فيسكنه فيها؛ رزقا لكم، وحياة لكم ولأنعامكم؛ أفلا تعقلون وتفهمون ما به يحتج الله عليكم، وتسمعون مما ترونه بأعينكم، وتوقنون

به بقلوبكم، وتفهمونه بعقولكم، من الدلائل في كل ما ذكر ودل عليه؛ تبارك وتعالى رب العالمين، وتقدس أحكم الحاكمين.

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم: ٤]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن محمد عليه السلام:

أي: على حال عظيم، وصفة عظيمة، وهي: استمرارك على ما أمرناك به، ونهيناك عنه.

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ(٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ(٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩)﴾ [القلم: من: (٢٣)، إلى: (٢٩)]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام:

﴿فانطلقوا وهم يتخافتون (٢٣)﴾

قال الإمام الأعظم أبو الحسين زيد بن علي عليهما الصلاة والسلام: بلغنا والله أعلم: أنهم كانوا ثلاثة إخوة بأرض اليمن، ﴿فلما رأوها﴾ - يعني: جنتهم التي احترقت - ﴿قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧) قال

أوسطهم﴾، يعني: أعدلهم قولا. ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون (٢٨)﴾. وقال الإمام أبو الحسين زيد بن علي عليهما الصلاة والسلام: يعني: هلا استثنيتم. ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين (٢٩)﴾؛ فكان تسبيحهم: استثناءهم.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢)﴾: هذا قسم من الله سبحانه بالنون والقلم وما يسطرون، على أن رسول الله غير مجنون، كما يقول الفاسقون، ونسب إليه المكذبون؛ فأقسم الله بالنون، والنون فهو: الحوت، وما أحسب – والله أعلم –: أن الله أقسم في هذا الموضوع بنون غير نون يونس النبي صلى الله عليه، الذي التقمه، ولبث في بطنه، حتى أراد الله تخليصه فخلصه؛ فأقسم الله به سبحانه تنبيها على عجيب ما جعل فيه وركبه، وقدر له وسبب، من التقامه ليونس رسول الله صلى الله عليه، ومكثه في بطنه حيا سويا، طول ما مكث في جوفه مستجنا، فنبه سبحانه على عجيب ما كان من قذفه له عند إرادة الله لقذفه، فلما أن كان من تدبير الله عز وجل لذلك كله في يونس صلى الله عليه، وأمره بالحوت وسببه- أقسم الله سبحانه في هذا الموضع؛ تنبيها على عجائب ما كان فيه من قدرته.

وكذلك أقسم بالقلم؛ تنبيها منه لجميع الأمم على ما فعل فيه وركب، وهدى الخلق إليه وسبب، من قطع القلم وبريه، وشقه وقطعه، ومحكم ما هداهم إليه من تدبيره، وفطنهم سبحانه من تقديره، حتى قدروه بقدرة الله تقديرا، ودبروا أحكامه بهداية الله لهم تدبيرا، حتى صلح بعد التقدير، و التأم بعد الإحكام والتدبير، فصار سببا لما يسطر ويكتب، ويبين في الصحف من كل ما سبب؛ فنبه

الله سبحانه جميع العالم على عظيم ما ألهمهم له من تدبير القلم، وعلى عجيب ما ألهم الخلق من أمره، وهداهم إليه من تدبيره، حتى صلح لما جعل له؛ لأن آيات القلم، وفعل الله فيه، وما هدى ودل الخلق عليه -فعل عجيب أمره، ولطف ظاهر نوره؛ ألا ترى كيف يسطر به ما لا يستغنى عنه من العلامات والدلالات، والأسرار الخفيات، والأخبار الكافيات، حتى يبلغ بها الحاجات، ويعلم بها الإرادات، ويثبت بالقلم في الصحف كل حاجة بعدت أو قربت، تبلغ بعيد البلاد وقريبها، وقاصيها ودانيها، مع ما ينال بالقلم من غير ذلك، من تنفيذ حساب العالمين، وما يحفظ به من التداين بين المتداينين، وما يسطر به من كتاب رب العالمين، ويثبت به من أحكام أحكم الحاكمين، ويكون به أثبت علم المتعلمين والعالمين؛ وبسببه وما ذكرنا من ألوانه وأسبابه، وحكمه وآياته – ما مثل الله للعباد: حفظه لأفعال عباده، صغيرها وكبيرها -بما يكتبونه بالقلم في صحفهم، ويثبتونه بالقلم عندهم في كتبهم، فيكون عندهم مذكورا لا ينسى، وثابتا صحيحا أبدا أبدا، فقال سبحانه: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢)﴾ [القمر]، وقال:﴿وأما من أوتي كتابه بيمينه (٧)﴾ [الانشقاق]، وقال فيما حكى من محاورة موسى وفرعون، حين قال فرعون: ﴿فما بال القرون الأولى (٥١)﴾ [طه]، فأجابه في ذلك موسى صلى الله عليه عن العلي الأعلى، فقال: ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى (٥٢)﴾ [طه]، فمثل له حفظ الله سبحانه لأمرها، وعلمه بصورة شأنها، وما تقدم من فعالها -بما يكون في الكتاب الذي لا ينسى، الذي هو غاية الحفظ عندهم، وأكثر ما به يحفظون أسبابهم؛ فهذا كله من عجائب تدبير الله في القلم، وما هداهم إليه فيه من جميع الأمم؛ فلذلك أقسم به الرحمن؛ تنبيها منه لجميع الإنسان، على ما كان منه فيه من المن والإحسان.

قوله: ﴿وما يسطرون﴾، فأقسم سبحانه: بما يسطرون من القرآن العظيم،

الذي يكتبون ويقرأون، وقد يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿وما يسطرون﴾: تنبيها لهم على النعمة، وجليل أثر القدرة، فيما دبره من حروف الهجاء، من الألف واللام والواو والياء، وغير ذلك من الأشياء، وغير ذلك من التسعة والعشرين حرفا، التي جعلت للكتاب كله حكما ومعنى، فنبههم سبحانه على ما هداهم إليه منها، وعلمهم إياه من تدبيرها، وتقطيع ما تقطع منها، وتوصيلها ما يوصل فيها، حتى تجتمع الأحرف في الاسم الواحد المسمى، ويفترق في غيره من الأسماء، فيأتي كل شيء على معناه، ويستوي كل حرف على أصله ومستواه، ففي هذا - لعمر من عقل واهتدى - دليل على من إليه هدى، ومبين لقدرة من قدره، وشاهد على حكمة من دبره. فإن يكن أراد سبحانه بقوله: ﴿وما يسطرون﴾ أي: ما يقولون، ويجعلون من تلفيق حروف الكتاب ويؤلفون -ففي أقل من هذا ما أقسم الله به ودل عليه، ونبه أهل الجهل به على معانيه؛ احتجاجا من المقسم به على الشاك في قدرته، الضال الفهم عن حكمته. وإن يكن سبحانه أراد بقوله: ﴿وما يسطرون﴾: كتابه الذي يقرأون، الذي ذكره وأقسم به في أول سورة ﴿والطور (١)﴾، حين يقول سبحانه: ﴿والطور (١) وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣)﴾، فهو الكتاب الذي يسطرون، وهو القرآن الحكيم الذي يقرأون. وكلا الأمرين يخرج في المعنى، ويصح في قلب من كان ذا هدى؛ وقد أتوهم - والله أعلم -: أن الذي أقسم به سبحانه؛ لجليل أمره، وعظيم خطره، وما جعل الله من برهانه وأمره، وحججه على خلقه، وحلاله وحرامه، وما تعبد به سبحانه جميع خلقه وعباده؛ فأقسم سبحانه: بالنون، والقلم، وما يسطرون من كتاب الله العظيم الذي يكتبونه، وما نبيئه صلى الله عليه وعلى آله بنعمة ربه بمجنون، ومعنى قوله: ﴿ما أنت﴾ أي: ما أنت يا محمد ﴿بنعمة ربك﴾، يريد: بكرامة ربك، ومدافعته لكل سوء عنك؛ وربك فهو: خالقك ومالكك. ﴿بمجنون﴾، يقول: ما أنت بزائغ العقل ولا مأفون، ولا بمخلط مجنون.

﴿وإن لك لأجرا غير ممنون﴾، يقول: لك عند ربك أجرا، والأجر فهو: الثواب والعطاء، على ما صبر عليه من المحن والبلاء. ﴿غير ممنون﴾، فالممنون هو يقول: غير مستكثر لك، ولا ممنون عليك، يعني: بالذكر له في يوم الدين، والاستكثار له؛ بل هو قليل لك عندنا، وإن كثر في عينك وعين غيرك -صغير ما أعطيناك عندنا، وإن كان عظيما عندك؛ هذا معنى ﴿غير ممنون﴾.

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ فهو: ما جعله الله عليه من الطبع الكريم، والقلب البر الرحيم، والأخلاق الحسنة، والطبائع الكريمة، من الصبر والتجمل، والعفو والتحمل، وغير ذلك من الأخلاق التي جعلت فيه، وامتن الله سبحانه بها عليه، التي يعجز عن يسيرها غيره، ولا يحمل القليل منها إلا مثله؛ والخلق فهو: ما يتخلق به العباد بينهم، وتخلقهم فهو: فعلهم، وفعل الله في خلق نبيئه صلى الله عليه وعلى آله فهو: عونه وتوفيقه وتسديده، لكل جميل من الأخلاق، فلما أن كان العون في ذلك من الواحد الخلاق -جاز أن ينسب إليه على طريق مجاز الكلام في قول القائلين، لا أن شيئا من أفعال رسول الله عليه السلام فعل لرب العالمين، وقوله: ﴿خلق عظيم﴾ فهو: خلق جليل، لا يقدر عليه غيرك، ولا يفعله سواك.

﴿فستبصر ويبصرون﴾، معنى ﴿فستبصر﴾ يقول: سوف ترى ويرون، صدق ما تخبر به ويخبرون، ونذكر لك ونعدك ونعدهم، ونخوفك ونخوفهم، ونشرح لك من أمر القيامة ونشرح لهم، من العذاب والثواب؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿فستبصر ويبصرون (٥) بأيكم المفتون (٦)﴾ يقول: فستعلم ويعلمون. ﴿بأيكم المفتون﴾ فهو: المعذب المغبون، ومعنى ﴿ستبصر ويبصرون﴾ هو: تعلم ويعلمون، والعرب تجعل " تبصر " في معنى" تعلم "، و" تعلم " في معنى " تبصر "؛ تقول العرب:" فلان بصير بالحلال والحرام "، تريد: عالم بهما، فهم بأسبابهما، وتقول:" بصير بالشعر، بصير بالنحو "، تريد بقولها:" بصير بها " أي:

عالم بأمرهما، واقف على حدودهما؛ فأخبر الله سبحانه نبيئه صلى الله عليه وعلى آله: أنه سيعلم، وأنهم سيعلمون في يوم الدين من يكون من المعذبين.

ثم قال سبحانه: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾، فأراد سبحانه، وجل جلاله: أنه أعلم بمن ضل عن سبيله، ومعنى ﴿ضل﴾ فهو: عدل وترك، و﴿سبيله﴾ فهو: طريقه ودينه التي جعلها لخلقه دينا، وسبيلا ومتعبدا، يعبدونه ويثبتون عليه، لا يعدلون عن قصده، ولا يميلون عن محجته. ثم أخبر أنه ﴿أعلم بالمهتدين﴾، والمهتدون فهم: الثابتون على سبيله الذي ارتضاه لخلقه.

ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عن المخافة في ذاته لوعيد المكذبين، فسمى المخافة لهم: طاعة لمن خافهم، فقال سبحانه: ﴿فلا تطع المكذبين (٨) ودوا لو تدهن فيدهنون (٩)﴾، معنى:" لا تطع " هاهنا في هذا المكان، بأوضح الحق والبيان -فهو: لا تخف وعيدهم إياك، فتترك شيئا مما أمرنا لك به من الجهر بدعوتك، والإظهار لشرائع دينك، والإعلان بعبادة ربك؛ متاقاة لهم، ومخافة من شرهم، والمكذبون الذي نهى الله عن خوفهم فهم: أهل التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله، الذي جاء به عن الله خاصة.

﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾، يقول سبحانه: ودوا لو تدهن لهم في الاتقاء؛ لمخافتهم: إما رهبة، وإما مصانعة، فتترك شيئا مما أمرت بإظهاره فتخفيه، مخافة لهم ومحاذرة أن تبديه، فيدهنوا هم بأكثر من ذلك وأوفر، يقول: ودوا لو تصانعهم في شيء فيصانعونك في أكثر منه، وتداريهم في يسير فيداروك بأعظم من مداراتك لهم؛ ليوقفوك بذلك عن مباينتهم، ويحجروك بالمداراة والمداهنة على مكاشفتهم؛ فأخبر الله سبحانه: أنهم يودون بأجمعهم لو تركت شيئا من مباينتهم.

ثم أمره: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾، والطاعة هاهنا، التي نهى الله عنها

لكل حلاف مهين -فهو أيضا: ما ذكرنا من المخافة من الحلاف المهين، في شيء من وعيده وإبراقه وإرعاده عليه، وحلفه وأيمانه فيه؛ فنهاه صلى الله عليه وآله من مخافته، أو ترك شيء من إظهار أمر الله لمراقبته، وسمى تركه لشيء من ذلك؛ لخوف شيء من وعيده: طاعة منه له؛ والحلاف فهو: الكثير الأيمان بالله، الذي لا يفي بشيء منها، ولا يقوم بحد من حدودها؛ والمهين فهو: الذليل الحقير.

﴿هماز مشاء بنميم﴾، فالهماز هو: الذي يهمز الإنسان من خلقه، ومعنى " يهمزه " أي: يؤذيه بلسانه ويتناوله، ويقع فيه من ورائه وينتقصه. ﴿مشاء بنميم﴾، معنى ﴿مشاء﴾ أي: مشاء بين الناس. ﴿بنميم﴾: بالنمائم، والمشي بها فهو: المجيء إلى ذا بالخبر عن ذا، والمجيء من ذا إلى ذا بالخبر؛ ليوقع بينهم الوحشة والبلاء، والعداوة والأذى، ومعنى ﴿بنميم﴾ فهو: ببلاغه وخبره؛ والنميمة فلا تكون – خاصة – إلا في كل خبر قبيح، يوحش بعض الناس من بعض، ويفسد المودة بينهم، ويوقع الوحشة في قلوبهم؛ فما كان من الأخبار المنقولة بفعل هذا فهو: نميمة، وناقلها يدعى: نماما، ومالم يكن من الأخبار يوقع الوحشة، ويوجب الفرقة، ويحدث الهجرة والبغضة- فلا ينتظمه اسم النميمة، ولا يدعى حامله وناقله: نماما.

﴿مناع للخير﴾، يقول: فهو الممتنع من كل خير، الداخل في كل ضير. ﴿معتد أثيم﴾، فالمعتدي هو: الظالم الغوي، ﴿أثيم﴾ فهو: الآثم الردي.

﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾، العتل فهو: الفدم من الرجال، في الخلق والفعال، الذي لا فهم له بما يقول أو يفعل، ولا معرفة له بما يأتي وما يعمل، الذي لا يميز بين الأمور في معانيها، ولا يعرف حسناها من مساويها، ولا يفعل شيئا بتمييز أصلا، ولا يأتي من الخير إلا ما عتل عليه عتلا؛ لفدامة خلقه، وقلة تمييزه لنفسه. ﴿بعد ذلك زنيم﴾، يقول: بعد هذه الخصال التي فيه كلها هو زنيم أيضا، والزنيم فهو: الذي له في خلقه زنمتان، يبين بهما من غيره للمبصرين، يكونان في

حلقه متدليتين، يعرف بهما، ويستدل على معرفته بذكرهما، كزنمتي الشاة التي يكونان في حلقها، تذكر وتوصف بهما.

﴿أن كان ذا مال وبنين﴾، معنى ﴿أن كان﴾ فهو: إذ كان ﴿ذا مال وبنين﴾؛ فمعنى ﴿ذا﴾ فهو: صاحب مال وبنين، والبنون فهم: الذكران من الأولاد.

﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾، يقول: إذا قرئت عليه آياتنا، وذكرت عنده -﴿قال أساطير الأولين﴾، وأساطير الأولين فهي: أحاديث الأولين، وأحاديث الأولين فهي: أقاويل المكذبين، وأسمار المتحدثين؛ فنسب هذا الزنيم آيات الرحمن الرحيم، ووحي العلي الحكيم، وما جاء به من النور، على لسان نبيه البشير النذير، إلى الأسمار والباطل، والقول القديم الحائل؛ فأخبر الله تبارك وتعالى: أن من كان ذا مال وبنين -كان الواجب عليه الحمد والشكر لله رب العالمين، دون ما يأتي به الوليد بن المغيرة اللعين، من الكفر بآيات الرحمن، والجحدان لمفصل القرآن، فجعل الشكر على ما أولي، والمجازاة على ما أعطي: تكذيبا وكفرا، وعنودا عن الله وشرا.

﴿سنسمه على الخرطوم﴾، فوسم الله على خرطومه هو: ما وسمه الله به، من ذكره في القرآن وذمه، بما تسمع في هذه الآيات من ذكره؛ فجعل الله سبحانه ما شرح من أخباره في هذه الآيات، وفسره من صفته وحاله في هذه المحكمات: وسما ودلالات، يعرف بها الذكر والوصف في كل الأسباب، كما يعرف بالوسم كل موسوم من الدواب. وإنما ذكر الله الخرطوم دون غيره؛ لأنه شيء لا يستتر بثوب، ولا يستتر عن المتوسمين؛ لأن الوجه بارز أبدا للناظرين. والخرطوم فهو: الأنف وما والاه، وما كان منه وداناه.

ثم ذكر سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، ذكر من سار إلى بدر من قريش لقتال النبي صلى الله عليه وآله، وما طمعوا به من الأمر العظيم فيه، فصرف الله

عنه كيدهم، وأمكنه منهم وأذلهم، ثم ذكر ما فتنهم به وبلاهم، من ستر أمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله عنهم، وما كان من إيجابه من النصر له عليهم، فلم يعلموا بشيء من أمره، ولم يحسبوا ما نزل بهم من ربه، فكانوا مقتدرين في أنفسهم على أخذه، وأخذ من كان معه، لما رأوا قلتهم، فدخل في قلوبهم الطمع فيه وفي أصحابه؛ اقتدارا وكفرا وطمعا فيما لن ينالوه، ولن يطيقوه ولن يبلغوه، فقال أبو جهل بن هشام اللعين، لمن معه من أوباش الكفرة الملاعين: لا تقتلوهم، وخذوهم فأوثقوهم واربطوهم، فتكون تلك فضيحة على محمد - صلى الله عليه وعلى آله – وعليهم، فيدخلون به مكة أسيرا. فذلك أفضح لهم وأبلى؛ فلم ينالوا ما أرادوا، ولم يبلغوا ما أملوا، وقضى الله أمرا كان مفعولا؛ فأنفذ وعده لنبيه صلى الله عليه وعلى آله إنفاذا، وحباه ونصره عليهم، فقتل من خيارهم سبعين، وأسر من أعداء الله سبعين، وغنمه الله غنائمهم، وفل حدهم؛ فولت فضلتهم خائبة حاسرة، منهزمة هاربة طائرة. فمثل الله سبحانه ما كان من اقتدارهم، وبغيهم على نبيئه - صلى الله عليه وعلى آله - وأصحابه -باقتدار أصحاب الجنة، الذي أقسموا ليصرمنها مصبحين؛ وهذه الجنة: فجنة من جنان الدنيا، كانت باليمن على اثني عشر ميلا من صنعاء، صارت بواد يقال له: احرثي، فلما دنا حصادها، وأينعت ثمارها، وحسنت حالها -أقسم أهلها ليصرمنها في غدهم مصبحين؛ اقتدارا على صرمها من الصارمين، فلم يستثنوا في قسمهم، فكان ما ذكر الله من أمرهم، من ذهاب جنتهم، حين طاف عليها طائف من ربهم، فهلك ما فيها من ثمرها، فأصبحت خواء من كل ما كان فيها؛ فذكر الله سبحانه: أن أبا جهل وأصحابه نزل بهم في اقتدارهم، على ما كان من جنتهم ومن ثمارهم، فنزل بكفرة قريش الفسقة المقتدرين، ما نزل بالاقتدار بأهل الجنة المقسمين؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨)﴾؛ معنى

﴿بلوناهم﴾ أي: اختبرناهم بابتلائهم؛ لنعلم هل يرجعون عن اقتدارهم، فلم يرجعوا، فأخذهم بأسنا بما عصوا؛ وهؤلاء المبتلون فهم: قريش الكافرون. قوله: ﴿كما﴾ فمعناها: مثل، وقوله: ﴿بلونا﴾ أي: اختبرنا، ﴿أصحاب الجنة﴾ فهم: أصحاب صاد، وهي: الجنة التي أقسم أهلها ليصرمنها. ﴿إذ أقسموا﴾، يقول: إذ حلفوا. ﴿ليصرمنها﴾، يقول: ليقطعن ثمرها. ﴿مصبحين﴾ فهو: صباحا منورين. ﴿ولا يستثنون﴾، يقول: لم يقولوا: إن شاء الله، فيثبتوا بذلك القدرة لله؛ فلما أن لم يستثنوا في قسمهم، وبغو في ذلك وطغوا -طاف عليها ما ذكر الله من أمره، حين يقول سبحانه: ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾، معنى ﴿فطاف عليها﴾ أي: واقعها ونزل بها ﴿طائف من ربك﴾، والطائف فهو: الأمر الذي نزل بها وعمها، وطاف فيها حتى أبادها وأفناها، وتركها كأن لم يكن فيها ثمر ولا خير. ﴿وهم نائمون﴾ فمعناها: وهم راقدون، أي: في الليل.

﴿فأصبحت كالصريم﴾، يقول: أصبحت في ذهاب ما فيها، وبواد ثمرها؛ لما نزل بها من طائف ربها -﴿كالصريم﴾، والصريم فهو: كالشيء الذي قد صرم فذهب من أرضه، وخلت الأرض من بعده.

﴿فتنادوا مصبحين﴾، معنى ﴿ـتنادوا مصبحين﴾ أي: تصايحوا وتداعوا، عندما أصبحوا وجاء وقتهم الذي فيه اتعدوا. ﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾، فتصايحوا وتداعوا بهذا اللفظ: ﴿اغدوا﴾، أي: انهضوا في غداتكم، واذهبوا إلى حرثكم فاصرموا؛ والحرث فهو: الموضع الذي يكون فيه الزرع. ﴿إن كنتم صارمين﴾ أي: إن كنتم لزرعكم قاطعين.

﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾، يقول معناها: ﴿فانطلقوا﴾ أي: مضوا وذهبوا، وساروا ونهضوا ﴿وهم يتخافتون﴾، يقول: وهم يتشاورون، ويغبون كلامهم ويتناجون، ويخفون عن غيرهم ما يقولون. ﴿ألا يدخلنها اليوم عليكم

مسكين﴾، يقول: ويتناهون عن إطعام المسكين: لا يقربنهم؛ ظنا منهم بما في جنتهم من ثمرهم، قوله: ﴿ألا يدخلنها﴾، يقول: لا يقربنها ولا يدخلن عليكم فيها مسكين، والمسكين فهو: السائل لهم، الطالب ما عندهم.

﴿وغدوا على حرد قادرين﴾، معنى ﴿غدوا﴾ أي: خرجوا وبكروا. ﴿على حرد﴾، فالحرد هو: القطع، يقول: على قطع الثمر. ﴿قادرين﴾ معناها: مقتدرين.

﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧)﴾، معنى ﴿رأوها﴾ أي: عاينوها وأبصروها، وصاروا فيها وأتوها. ﴿قالوا إنا لضالون﴾ أي: لمخطون، ليس هذه ضيعتنا، ولا هي بجنتنا؛ هذه جنة قد هلكت، وذهب ما فيها فصرمت، وجنتنا غير هذه الجنة، وليس هذه الجنة بتلك الجنة. ثم تعرفوا حدودها، وفهموا معالمها، فأيقنوا أنها جنتهم، و علموا أنها ضيعتهم، فقالوا من بعد ذلك: ﴿بل نحن محرومون (٢٧)﴾: بل هي ضيعتنا؛ ولكنا محرومون لثمرها، ممنوعون مما كان فيها؛ قد نزل بها أمر الله فأهلكها، ولم ينزل ذلك من الله إلا عن جرم كان منا، وخطأ كان من فعلنا، فحرمنا ما كان قد أعطاناه، وصرف عنا ما كان قد رزقناه، فصرنا لذلك محرومين، ومنه بالخطيئة ممنوعين.

﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾، فأخبر أنه قد كان قال لهم، عند وقت ما أقسموا: سبحوا ربكم واذكروا، وأثبتوا القدرة له واستثنوا. فلم يفعلوا في ذلك الوقت ما أمرهم أوسطهم، ولم يحسبوا أنه ينزل بهم، ما نزل بهم من عقوبة ربهم، عند ظلمهم وبغيهم، فرجعوا باللوم على أنفسهم، وأبدوا ما كانوا يخفون من تسبيحهم؛ خوفا من أن ينزل بهم في أنفسهم، ما هو أشد مما نزل بهم في جنتهم.

﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾، معنى ﴿سبحان ربنا﴾ أي: تعالى ربنا، وتنزه خالقنا، وجل سيدنا عن فعلنا. ﴿إنا كنا ظالمين﴾، يقولون: نحن كنا

ظالمين لأنفسنا فيما فعلنا. فأقروا بذنبهم، وشهدوا على أنفسهم بظلمهم، ثم أقبلوا يتلاومون، ويختصمون ويتعاذلون، فيما كان من تفريطهم في أمرهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾، معنى ﴿فأقبل بعضهم على بعض﴾: قصد بعضهم بعضا بالتلاوم والعذل، فيما كان من خاطئ الفعل. ﴿يتلاومون﴾: فهم يتعاذلون، ويقبحون أفعالهم، ويعجزون آراءهم.

﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾، معنى ﴿قالوا﴾ أي: هم تكلموا به وأظهروا، معنى ﴿يا ويلنا﴾ فهو: يا ويحنا من هذا الأمر، الذي أدخل الويل علينا، والويل فهو: الغم، والطويل من الهم. ﴿إنا كنا طاغين﴾، يقولون: المعنى الذي أدخل الويل علينا هو ما كان من طغياننا؛ والطاغون فهم: العتاة الباغون، الذين لم يستسلموا في يد الله، ولم يلقوا بأمرهم كلهم إلى الله، فأقروا بطغيانهم، وعلموا أنه كان سبب هلاكهم.

ثم رجعوا إلى الواجب، والحق المصيب الراتب، ﴿فقالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا الى ربنا راغبون﴾، معنى ﴿عسى﴾ أي: لعل. ﴿ربنا أن يبدلنا﴾ معناها: أن يخلف علينا، ويبدلنا بدلا من الذي ذهب منا من جنتنا ﴿خيرا منها﴾، معنى ﴿خيرا منها﴾ فهو: أفضل منها. ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ معناها: راجعون طالبون، قاصدون سائلون، ومعنى ﴿إلى ربنا﴾ فهو: من ربنا، أي: إنا من ربنا للبدل والعوض سائلون.

ثم أخبر سبحانه: أن ذلك منه عذاب لهم، ونقمة أنزلها بهم، على ما كان من عتوهم، فقال: ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾، معنى ﴿كذلك العذاب﴾ يقول: كذلك نعذب بالانتقام، من أردنا عذابه من الأنام، في الدنيا بذهاب ما نذهبه من أموالهم، وانتقاص ما ننقصه من أنفسهم وثمارهم، فجعل ما ينزل بهم من ذلك في الدنيا الفانية، عذابا أدنى دون عذاب الآخرة

الباقية؛ وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون (٢١)﴾ [السجدة].

ثم أخبر سبحانه: أن عذاب الآخرة لمن عتى عن أمره، أشد وأعظم عليه مما ينزل به في حياته ونفسه، فقال: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾، يقول: أجل وأعظم وأخطر، والآخرة فهي: الدار التي أول أيامها يوم القيامة. ﴿لو كانوا يعلمون﴾، يقول: لو كانوا يفقهون ويعقلون.

ثم أخبر سبحانه: بما أعد للمتقين، وجعل سبحانه عنده لعباده المؤمنين: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾، والمتقون فهم: المتقون لمعاصي الله الخائفون، ومعنى " متقين لمعاصي الله " فهم: التاركون لها، والخائفون من الله العقوبة في ارتكابها؛ تقول العرب:" اتق فلانا "، أي: احذر منه وخفه، وتقول العرب:" اتقوا السلطان "، أي: خافوه، ولا تفعلوا شيئا يجب عليكم فيه العقوبة. ﴿عند ربهم﴾، فمعناها: عند معادهم إلى ربهم. ﴿جنات النعيم﴾ فهي: جنات الخير المقيم من الشهوات، والمطاعم والمناكح والمشارب والبشارات.

ثم أخبر سبحانه: أنه لن يجعل مسلما كمجرم، في الحال والحكم، فقال: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾، معنى: ﴿أفنجعل﴾ يقول: أنسوي ونعدل في الحكم والفعل بين من كان مسلما، ومن كان مجرما؟! هذا ما لا يكون أبدا، ولا يعرف من فعلنا وعدلنا؛ بل لكل دار وجزاء وقرار، والمسلمون فهم: المؤمنون بالله، المسلمون لأمر الله، والمجرمون فهم: المعتدون الظالمون لأنفسهم، المجترون على الله ربهم، الذين أجرموا في فعلهم، وعصوا في صنعهم.

﴿ما لكم كيف تحكمون﴾، معنى ﴿ما لكم﴾ أي: ما بالكم. ﴿كيف تحكمون﴾، يقول: كيف حكمكم بهذا؟ وكيف القول فيه عندكم؟ أفمن فعله فعل المحسن كالمسيء، والضال كالمهتدي؟! إن كان هذا صوابا ماضيا، وحكما

بالحق عندكم جاريا -فلن تروا هذا حقا أبدا، ولن تسموه حكما ولا عدلا، إن أتى وكان من أحد؛ فكيف تسمونه أو تتوهمون أنه يكون عند ربكم؟!

﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾، يقول: كتاب منا إليكم، وعليكم فيه ما زعمتم، من أن المجرم كالمسلم، عند الله في الحكم، فأنتم فيه تدرسون، ومعنى ﴿فيه تدرسون﴾ فهو: فيه يقرأون هذا الحكم، وهذا الأمر الذي تفكرونه، وتجعلونه وتشرحونه وتسطرونه.

﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾، يقول: إن لكم في هذا الكتاب – إن كان عندكم بحق وصدق – لما تخيرون، ومعنى " تخيرون " فهو: تحبون وتريدون، وتبغون وتشاؤون.

﴿أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة﴾، معنى ﴿أيمان﴾ فهي: عهود، يقول: أم لكم علينا، ومعنى ﴿بالغة﴾ فهي: لازمة واجبة إلى يوم القيامة، يقول: ثابتة علينا لكم، ومعنى ﴿يوم القيامة﴾ فهو: في يوم القيامة، فقامت " إلى " مقام " في "، يريد: أم لكم أيمان علينا ثابتة في يوم القيامة بالوفاء لكم بهذا الذي ذكرتم، من أنكم غير معذبين، وأن المجرمين منكم في الحكم عندنا كالمسلمين، وأنهم سواء في الجزاء يوم الدين.

﴿إن لكم لما تحكمون﴾، يقول: إن كان الأمر منا عندكم كذلك، وكان لكم علينا عهد في ذلك فالحكم حكمكم، والقول قولكم، ولكم ذلك علينا ما أردتم، مما تشاؤون وبه تحكمون، مما تريدون وتحبون.

ثم قال سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله؛ إنكارا عليهم في فعلهم، وتكذيبا لهم في قولهم: ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾، يريد بقوله: ﴿سلهم﴾ أي: ناظرهم، وافتش أمرهم، واستخبرهم أيهم بهذا القول والخبر زعيم، معنى ﴿زعيم﴾: كفيل ضامن، يضمنه لهم حتى يأتيهم من قبله ما أحبوا، وتكون

كفالته به أتته على ما طمعوا؛ فلن يكون ذلك أبدا، ولن يتزعم به منهم صغير ولا كبير أصلا.

﴿أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾، معنى ﴿أم لهم﴾ هو: هل فيهم؟! و" هل " هي معنى " أم "، وقامت " لهم " مقام " فيهم "؛ لأنها من حروف الصفات؛ أراد سبحانه: هل فيهم لنا شركاء شاركونا في خلقهم، وأعانونا على رزقهم، فنازعونا في أمرهم، فضمنوا لهم غير ما ضمنا، ووعدوهم غير ما أوعدنا، فكان لهم حكم سوى حكمنا، وأمر فيهم ماض كأمرنا. ﴿فليأتوا بشركائهم﴾، يقول سبحانه: فليأتوا بهؤلاء الشركاء لنا فيهم، المنازعين لنا في أمرهم، الحاكمين بغير حكمنا في شأنهم، إذ حكمنا بأن المسلم عندنا خلاف المجرم، وحكم ما أدعوا من الشركاء فيهم بأن المجرم كالمسلم؛ فليأتوا بهم حتى ينفذوا الحكم، ويمضوا الذي ادعوا منهم ﴿إن كانوا صادقين﴾، فمعنى ﴿كانوا صادقين﴾ هو: إن كانوا قائلين حقا، أو متبعين في ذلك صدقا، والذي قال الله فيهم: ﴿إن كانوا صادقين﴾ فإنما عنى: المشركين من قريش وألفافها، وأهل مقالتها وأديانها، ممن ادعى هذا الحكم الفاسد الباطل، وقال بهذا القول الجائر العادل.

ثم أخبر سبحانه: بما يكون في يوم الدين، من شدة الأمر على المكذبين، فقال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾، معنى ﴿يكشف عن ساق﴾ فهو: يكشف في ذلك اليوم عن أمر شديد هائل لأهله، نازل شره بمستأهله ومستحقه، والعرب تسمي الأمر الشديد: ساقا، تقول العرب:" قامت الحرب على ساقها "، تريد: أنها قامت على أمر شديد أمره، وصارت إلى حال شديد ذكره، فيقول:" يكشف للخلق في يوم الدين، عن أمر شديد هائل للعالمين. قوله: ﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾، معنى ﴿يدعون إلى السجود﴾ فهو: يدعون إلى إثبات حجة

ظاهرة نيرة بأنهم كانوا من أهل السجود والإيمان، والطاعة لله والعرفان. ﴿فلا يستطيعون﴾، يقول: لا يستطيعون أن يثبتوا بباطل حجة، ولا أن يقيموا بأنهم كانوا من المطيعين لله بينة؛ فهذا أحسن ما يقال به في قول الله سبحانه: ﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾.

وقد قال بعض من يتعاطى تفسير القرآن: معنى هذا الذي ذكر الله من السجود في الفرقان –هو دعاء من الله لهم في يوم الدين، إلى أن يسجدوا لرب العالمين، وأنه يمنعهم في ذلك اليوم بقسو ويبس يجعله في ظهورهم من السجود، حتى لا يستطيعون سجودا.

وهذا فيفسد عند من عقل من معنيين:

أما أحدهما: فإن هذا لعب وعبث وسبب، من معنى التفكه و الطرب، أن يأمر آمر مأمورا بفعل شيء قد منعه من فعله، أو يصنع شيئا قد حال بينه وبين صنعه بمانع، لا يقدر معه عليه، ولا ينال معه الدخول فيه، فيقول له:" افعله "، وهو يعلم أنه لا يقدر على فعله؛ فهذا استهزاء وجور، وتعبث بالمأمور، والله سبحانه فبريء من ذلك كله، متعال عن كل شيء منه؛ تبارك وتعالى عما يقول الجاهلون، وينسب إليه الضالون.

والمعنى الثاني الذي يفسد قولهم منه: أن يوم القيامة ليس هو يوم عمل ولا ابتلاء، وإنما هو يوم حساب وجزاء.

فافهموا ما قلنا من تفسير هذه الآية المحكمة؛ فإنه معنى يضل جميع هذه الأمة عنه، إلا من هداه الله إليه، ودله بلطائف صنعه عليه.

﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾، يقول: تعلوهم الذلة وتغشاهم؛ فالخاشعة من الأبصار هي: المكتئبة المرعوبة الفزعة، التي قد دخلها من الإيقان بهلاكها ما أذهل نفوسها، وأبلسها في كل أمورها، فخشعت للضعف والدمار

منها الأجفان والأبصار. ﴿ترهقهم ذلة﴾، يقول: تعلوهم الذلة وتغشاهم، فهم أذلاء في يوم الدين أخزياء، هالكون أردياء. ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾، فمعنى ﴿يدعون﴾ هاهنا: خلاف ﴿يدعون﴾ ثم؛ لأن معنى ﴿يدعون﴾ الأولة هو: يدعون بالحجة، ويسألون إثباتها، و﴿يدعون﴾ هاهنا: أخرى، فهو: إخبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يدعوهم إليه، من السجود والإيمان به، والإيقان بأمره، والتسليم لحكمه في دار دنياهم، وفي حال صحتهم ورخائهم، إذ هم سالمون، ومعنى ﴿سالمون﴾ فهم: سالمون القوى والاستطاعة، قادرون بذلك لله على الطاعة، لم ترهقهم في ذلك الوقت من دنياهم، الذلة التي ترهقهم في دار جزائهم، فكانوا عند دعاء رسول الله عليه السلام لهم إلى ذلك مستكبرين، وعن السجود لله صادين، ولوعده ووعيده مكذبين؛ فهذا معنى ما ذكر الله من أنهم كانوا سالمين.

﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾، معنى ﴿ـــذرني﴾ أي: خلني ودعني، وأوحدني لعقوبته وأفردني. ﴿ومن يكذب بهذا الحديث﴾، فالتكذيب فهو: الإبطال والجحدان، والمكابرة للحق في كل بيان. ﴿بهذا الحديث﴾ فهو: بهذا القول الذي أنزلناه عليك، من الوعد والوعيد في الفرقان، وجعلناه إعذارا وإنذارا وحجة لكل إنسان.

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، معنى ﴿سنستدرجهم﴾ فهو: سنأتيهم ونأخذهم. ﴿من حيث لا يعلمون﴾ فهو: من حيث لا يظنون أنا نأتيهم منه ولا يدرون، حتى يواقعهم أمرنا وتغشاهم نقمتنا وهم آمنون، فيعانون من ذلك ما كانوا به يكذبون.

﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾، معنى ﴿أملي لهم﴾ فهو: أؤخرهم ولا أعاجلهم، وأتركهم وقتا ولا أغافصهم، ثم إلي مرجعهم. ﴿إن كيدي متين﴾، فالكيد هو: الأخذ لهم، والبطش بهم، والانتقام منهم. ﴿متين﴾ فهو: قوي رصين.

﴿أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾، معنى ﴿أم﴾ فهي: هل ﴿تسألهم﴾، وهي: أن تطلب منهم. ﴿أجرا﴾ فهو: جعلا وعطاء، على ما جئتهم به من الهدى، وما تدعوهم إليه من التقى. ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾، يقول: فهم من الغرم الذي سألتهم إياه مثقلون؛ والغرم فهو: العطاء والأجعال، التي يسألون إخراجها من الأموال. ﴿مثقلون﴾ فمعناها: مكلفون ما لا يطيقون، من الأجعال الذي يسألون، وأراد سبحانه بقوله: ﴿أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون﴾: توقيفهم على أنهم لم يسألوا، على ما أعطوا وأوتوا، من الأمر الذي به خلاصهم من العذاب، وفكاك رقابهم من العقاب، جعلا، ولا عطاء ولا مالا، وأن ذلك من الله نعمة وابتداء، وعائدة وعطاء.

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾، معنى ﴿أم﴾ يقول: هل عندهم؟ ﴿الغيب﴾ هو: علم الغيب. ﴿فهم يكتبون﴾ أي: فهم يحصون ويعرفون، ما يرجعون إليه ويعودون، فيعلمون بعلمهم الغيب ما يقولون، فيكونوا على بينة مما يصنعون، ويكونوا قد أحاطوا بعاقبة أمرهم، وفهم ما يلقونه في يوم حشرهم؛ فإن كان ذلك كذلك فهم على بينة من ذلك، وإن كانوا لا يعلمون الغيب -فإنما يتكلمون بالكذب، والريب والمحال، في القول والفعال؛ فأخبر بذلك سبحانه: أنهم غير عالمين بشيء من غيبه، ولا مطلعين على شيء من أمره، وأنهم فسقة كاذبون، فجرة معذبون.

ثم أمر نبيئه بالصبر له وفيه، فقال سبحانه: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾، معنى ﴿ـــاصبر﴾ فهو: احتمل ولا تجزع، وألزم نفسك عند الغضب والغم ولا تهلع. ﴿لحكم ربك﴾ يقول: لأمر ربك، الذي حكم به عليك، من الصبر عليهم، والتبليغ لرسالته إليهم، وإثبات الحجة بذلك عليهم. ﴿ولا تكن﴾، يقول: ولا تفعل كفعل ﴿صاحب الحوت﴾، وصاحب الحوت فهو: يونس صلى الله عليه، الذي التقمه الحوت، فكان في بطنه إلى ما شاء الله أن يكون.

﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾، معنى ﴿إذ﴾ فهو: حين. ﴿نادى﴾ فهو: سأل وناجى، ﴿وهو مكظوم﴾ يقول: وهو مكروب؛ فأخبر سبحانه بمناجاة يونس صلى الله عليه، وسؤاله لربه، وهو في حال شدته وكربه؛ إذ هو في جوف الحوت مكظوم، وشدة الحال التي هو فيها مغموم مهموم، فنادى ربه وذكره، وسأله النجاة واستغفره، فنجاه من كربه، واستخرجه من موضعه، فأعاده إلى ما كان فيه من أمره.

﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾، يقول سبحانه: لولا أن تداركه نعمة من ربه، بالإجابة له في دعائه، والرحمة له عند تسبيحه - ﴿لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾، يقول: لما خرج من بطن الحوت، حتى ينبذ بالعراء يوم القيامة، ومعنى " ينبذ " فهو: يخرج من البحر إلى وجه الأرض ويحشر، ويرد إلى ما كان عليه في ذلك اليوم من الخلق وينشر؛ فأراد الله بما ذكر من العراء: عراء الأرض في يوم الدين، وعند حشر جميع المربوبين؛ فلم يرد عراء الأرض في الدنيا؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢) فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤)﴾ [الصافات]؛ فدل سبحانه بقوله: ﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤)﴾ على: أنه لولا أن تداركه نعمة الله -لكان لابثا في بطنه حتى ينبذ بالعراء في يوم الدين، والعراء في يوم الدين هو: عراء أرض الآخرة، لا عراء الدنيا، فقال: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه﴾، يقول: تداركته النعمة، فخلصته من بطنه -لكان مقيما في جوفه، حتى ينبذ بالعراء في يوم حشره، وإحيائه ونشره. ﴿وهو مذموم﴾، يقول: مأثوم عند الله غير سليم.

﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾، معنى ﴿ـــاجتباه﴾ أي: رفعه وأدناه، وقربه واصطفاه. ﴿فجعله من الصالحين﴾، والصالحون فهم: المصلحون، والمصلحون فهم: الذين أصلحوا ما بينهم وبين الله، حتى صلحت لهم عنده أمورهم، واتصلت بأسبابه أسبابهم، فعادوا له أولياء مطيعين، مختارين محسنين.

﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾، معنى ﴿وإن﴾ فهو: قد، ومعنى ﴿يكاد﴾ فهو: يريد، و﴿الذين كفروا﴾ فهم: الذين أشركوا وكذبوا. ﴿ليزلقونك﴾ فمعناها: لينفذونك ويهلكونك، ويستفزونك ويقتلونك. ﴿بأبصارهم﴾ أي: بأعيانهم؛ لشدة النظر إليك؛ للغيظ الذي يداخلهم عليك، إذا قرأت الذكر فسمعوه، يريد سبحانه: قد يريد الذين كفروا أن يهلكوك بأبصارهم، ويحبون ذلك - لو ينالوا - أن يفعلوه بأبصارهم دون أيديهم، إذ لم يقدروا أن يبطشوا بأيديهم إليك؛ فأعينهم لشدة غيظهم، وما في قلوبهم -تكاد أن تزلقك لو قدرت، وتهلكك لو استطاعت، إذا سمع اللاحظون لك بها ما تتلوه من الذكر الحكيم؛ والذكر فهو: القرآن العظيم. ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾، فهذا قول من الكافرين - عليهم اللعنة إلى يوم الدين - يقولون، تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتي به عن الله من الذكر المذكور، والقرآن المنير المسطور -مجنون، ينسبون في ذلك إليه الجنون؛ كذبا على الله واجتراء، وعداوة للحق وافتراء؛ فأخبر سبحانه: أنهم كاذبون في قولهم، مترددون في ربهم، وأنه صلى الله عليه وعلى آله خلاف ما قالوا، مما نسبوا إليه وافتروا، فقال عز وجل: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾، فأخبر سبحانه: أنه ليس بمجنون كما يقولون، وأنه لرسول منه مبين. ﴿ذكر للعالمين﴾، ومعنى ﴿ذكر﴾ فهو: نور وهدى، وداع إلى الله بالحسنى. ﴿للعالمين﴾ فمعناها: للمخلوقين أجمعين، من الإنس والجان.

والحمد لله ذي الجلال والإكرام والسلطان، والجبروت والبرهان، والمن والإحسان، على الخلائق بالغفران، بعد الضلال منهم والعصيان، حمدا يقرب من الرحمن، ويبعد من الشيطان، ويقصي من النيران، ويفتح أبواب الجنان.

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾ [الحاقة: ١٢]

قال في شرح الرسالة الناصحة للإخوان للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام في سياق كلام:

وعلي بالإجماع أعلم النفر، وكيف لا يكون كذلك، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول لما أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية(١٢)﴾، قال: ((سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي)) ، وقال: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها)).

قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)﴾ [الحاقة: ١٧]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

قد يمكن أن يكون ثمانية أصناف، أو ثمانية آلاف، أو ثمانية معان، ليس مما يدرك بعيان، وأن لا يكون كما ظنوا ملائكة، وأن أقل ما في ذلك – إذ لم يأتهم فيه عن الله فيه بيان -: أن تكون قلوبهم فيه ممترية شاكة؛ لأن ذلك قد يخرج في اللسان، ويتوجه في فهم أهله بإمكان، وإن في ذلك لعلما عند أهله مخزونا، وإن فيه لله لغيبا مكنونا، يدل على عجائب خفية، ويتجلى إذا كشف عنه تجلية مضيئة، وليس معنى: ﴿فوقهم﴾: ما يذهب إليه الجهلة من الرقاب، ولا ما يتوهمون فيه من تشبيه رب الأرباب. والثمانية فقد يمكن فيها، غير ما قال به الجهلة عليها.

وقال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

المراد به - والله أعلم -: ويتولى ملك ربك يوم القيامة ثمانية أصناف من الملائكة.

وقال في كتاب الأساس للإمام القاسم بن محمد عليه السلام:

معناه: ويتحمل أمر ملكه تعالى من الحساب وغيره ثمانية أصناف من الملائكة.

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١)﴾ [الحاقة: ٢١]

قال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿في عيشه راضية﴾، فقلت: كيف تكون العيشة راضية، وكان ينبغي أن تكون مرضية؟

قال أحمد بن يحيى عليهما السلام: هذا جائز في لغة العرب، مثل قولهم للناقة:" راحلة "، وهي مرحولة، ومثل قولهم:" رجال حالقة رؤوسها "؛ قال الشاعر:

تفلق عند ذي الورد منهم ... رؤوسا بين حالقة ووفر

يريد: محلوقة ووافرة. وقالت أم ناشر تخطأ رأيه في قتل رجل قتله من العرب، بعد إحسانه إليها:

قتلت رئيس الناس بعد أخي الندى ... كليب ولم تشكر وإني لشاكرة

لقد عيل الأيتام طعنة ناشر ... أناشر لا زالت يمينك آشرة

تعني: مأشورة بالمنشار، وهذا كثير موجود في كلام العرب؛ فاعلم ذلك إن شاء الله.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله تبارك وتعالى: ﴿الحاقة (١) ما الحاقة (٢)﴾، معنى ﴿الحاقة﴾ فهي: النازلة العظيمة التي تحق بأهلها وتصيبهم، وتواقعهم ولا تخطئهم؛ لأن العرب تقول للشيء إذا أصابه السهم:" حقه، وأصاب حاق وسطه "، تريد: لم يخطئه ولم يعدل عنه؛ بل أصاب الذي طلب وقصد منه. معنى قوله: ﴿ما الحاقة (٢)﴾ فهو: تعظيم منه سبحانه لها، وإخبار بجليل ما يحق بأهلها.

﴿وما أدراك ما الحاقة﴾، يقول: ماأعلمك ما هذه الحاقة؟ يريد: أنك لا تعلم منها إلا ما أعلمناك، ولاتطلع من شدتها إلا على مأاطلعناك؛ لأن الله سبحانه تبارك وتعالى لا يقول لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله في شيء: ما أدراك ما هو، إلا وهو أعظم مايكون من الداهية، وأشد ما يكون من النازلة الصائبة.

﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾، فأخبر سبحانه: بتكذيب ثمود وعاد بالقارعة، والقارعة فهي: النازلة التي تقرع الشيء وتصيبه، وتنزل به وتهلكه؛ وثمود وعاد فهما: قبيلتان من أولاد نوح صلى الله عليه، عتتا وطغتا، وكذبتا بما أنذرتا به من القارعة التي قرعتهما، وحلت بهما عند تماديهما فأهلكتهما.

ثم أخبر سبحانه: بما أهلكهما به على عصيانهما، فقال عز وجل: ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾، معنى الطاغية فهو: ما كان من طغيانهم بعصيان ربهم، وقيل: إن معنى الطاغية التي أهلكوا بها هي: الصيحة التي أخذتهم فأهلكتهم، ومعنى " طاغية عليهم " فهو: مهلكة لهم، غالبة على أنفسهم؛ وهذا فأحسن المعنيين، وأصوبهما عندي؛ والله أعلم وأحكم.

﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾، فأخبر سبحانه: بما أهلكت به

عاد، كما أخبر بما أهلكت به ثمود، فقال عز وجل: ﴿بريح صرصر عاتية﴾، والصرصر فهي: الشديدة المدمدمة، المدمرة لما أتت عليهم المخربة، والعاتية فهي: الغالبة الهائلة، التي لا تذر شيئا إلا أتت عليه، و" عتت " فمعناه: صعبت، واشتدت به وغلبت، فلم يستر منها ستر، ولم يكن منها – أي: من شرها – كن، فهي تذهب بما أتت عليه، وتهلك ما ارتمت فيه.

﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾، فمعنى ﴿سخرها﴾ أي هو:جعلها وأذن لها، وسلطها وأنزلها، ومعنى: ﴿سبع ليال وثمانية أيام﴾: يخبر عز وجل أنه بعثها عليهم باكرا، فأقامت عليهم ثمانية أيام، إلى آخر اليوم الثامن، فكان لهذه الثمانية الأيام سبع ليال: ليلة اليوم الثاني، وليلة اليوم الثالث، وليلة اليوم الرابع، وليلة اليوم الخامس، وليلة اليوم السادس، وليلة اليوم السابع، وليلة اليوم الثامن؛ فكان ذلك سبع ليال، وثماينة أيام؛ لأنها واقعتهم في أول نهار اليوم الأول، وفرغت منهم في آخر نهار اليوم الثامن؛ فكان ذلك سبع ليال وثماينة أيام. ثم قال ذو الجلال والإكرام: ﴿حسوما﴾، فمعناها: دائمة متوالية، لا راحة فيها، ولا فترة لساعة منها، وما كان كذلك في الدوام والإستواء، وقلة الغفلة والونى –سمي: حسوما، من الليالي والأيام.

﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾، فأخبر سبحانه: بحالهم وصفاتهم بعد ما نزل بهم من إهلاكه لهم ما نزل، فمثلهم في ذلك الحال بأعجاز نخل خاوية، وأعجاز النخل الخاوية فهي: أسافلها وما غلظ منها، ومعنى ﴿خاوية﴾ فهي: خاوية من الحياة، أي: ليس فيها شيء من الحياة، فمثلهم بأعجاز النخل الميتة الخاوية؛ لأن النخل إذا ماتت وخويت كانت أضعف ما يكون من الأشياء وأوهاه، وأسمجه في الصورة وأرداه، فمثل سبحانه أجسامهم المهلكة الملقاة بأعجاز النخل الخاوية.

ثم قال سبحانه: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾، يريد بقوله: ﴿هل ترى لهم﴾

أي: هل تحس منهم، فقامت " لهم " مقام" منه "؛ لأنهما من حروف الصفات، ومعنى ﴿من باقية﴾ فهو: من أحد صغير أو كبير؛ إخبارا منه بذهاب الكل ودماره، وانقضائه واستئصاله، حتى لم يبق منهم باق، ولم ينج منهم من عذاب الله ناج.

﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾، ومعنى ﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ فهو: أتى، وفعل واجترأ، هو ومن كان قبله من المؤتفكات. والمؤتفكات فهي: الأمم الكاذبات، على الله المجتريات الآفكات؛ وإنما سميت مؤتفكات: لما أتت به من الإفك، والإفك فهو: العجز عن لحوق الحق، والتمادي في طرق الفسق، فسمي من كان كذلك مؤتفكات؛ مما كان منها من الكذب والإفك على الله في الحالات. ﴿بالخاطئة﴾ فهي: الأفاعيل المخطئة العاصية، والخاطئة التي جاء بها فرعون ومن قبله؛ والمؤتفكات فهي: الأمم المخطئات للصواب المذنبة؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فعصوا رسول ربهم﴾، فأخبر: أن الخطيئات التي أتوا بها هي معصية ربهم في معصية رسوله عليه السلام، وما كان منهم من التكذيب برسالاته. ﴿فأخذهم أخذة رابية﴾، يقول: أخذهم على معصيتهم لرسوله، واجترائهم على التكذيب بآياته، ومعنى ﴿أخذهم﴾ فهو: أنزل بهم من العذاب الذي لا راد له، ومعنى ﴿رابية﴾ فهي: شديدة، مبالغة بينة.

ثم أخبر سبحانه: بما كان منه من النعمة، في حملهم في الفلك الجارية، فقال: ﴿إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية﴾، ومعنى ﴿إنا﴾: إخبار عن فعله بهم، ومعناها: نحن، ومعنى ﴿لما﴾ فهو: إذ ﴿طغا الماء﴾، فمعنى ﴿طغا﴾ فهو: علا وكثر، وأتى وطمى، والماء فهو: الماء المعروف، الذي يستغني بمعرفة الخلق له عن شرحه وتفسيره، وذكره وتأويله. معنى ﴿حملناكم﴾ أي: دللناكم على الركوب، وهديناكم إلى عملها، حتى عرفتم ما جهلتم من بنائها، واستدللتم

بدلالتنا على تقديرها، فقدرتموها بقدرتنا، وثبتموها بإرادتنا، فصارت فلكا حاملة لكم، سفنا في الماء جارية بكم؛ فهذا معنى ﴿حملناكم في الجارية﴾، والجارية فهي: السفن المسمرة، المؤلفة المبينة المقدرة، التي تجري في البحار بأهلها، وتطفو بقدرة الله على الماء بما فيها، فلما كان الله سبحانه الهادي لخلقه إلى ذلك -جاز أن يقول: ﴿حملناكم﴾.

﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾، معنى ﴿لنجعلها لكم﴾ هو: لنصيرها لكم تذكرة، ومعنى ﴿تذكرة﴾ فهو: ذكر لكم، وحجة عليكم؛ لتعلموا أنا أولياء نعمتها، والمنعمون عليكم بها، لتذكروا نعمتنا فيها فتشكروا، وتتفكروا فيما هديناكم إليه من أمرها فتؤمنوا، ومعنى ﴿وتعيها أذن واعية﴾ فهو: تفهمها وتعلمها، وتوقن بها وتعرفها، وهذه التي قال الله سبحانه: ﴿وتعيها أذن﴾ فهي: التذكرة والحجة، والأذن الواعية فهي: الأذن المؤمنة، المصدقة بكتب ربها ورسله، وآياته ونذره، المستدلة بظاهر آيات الله وصنعه، وما أظهر في تدبير العالم من قدرته، على عجائب ما حجب من علمه، وأرسل به على ألسنة رسله، من ذكر الحشر والحساب، وما أخبر به سبحانه من الثواب والعقاب، الذي يكذب به المكذبون، وينكره الكفرة المنكرون.

ثم أخبر سبحانه: باليوم الذي يميز فيه العالمون، ويحشر فيه المبطلون، فقال تبارك وتعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة (١٣) وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة (١٤)﴾، فمعنى ﴿نفخ في الصور﴾ أي فهو: جعل فيها، ورد ما يكون به حياتها من أرواحها، التي يردها الله عند بعثها في أبدانها. ﴿نفخة﴾ فمعناها: ردت الأرواح إلى الأبدان. ﴿نفخة واحدة﴾ أي: ردة واحدة، أي: سريعة واجزة، فترجع الأرواح بقدرة الله إلى الأبدان التي كانت أولا فيها.

﴿وحملت الأرض والجبال﴾، فمعنى حملهما فهو: أخذهما، ومعنى أخذهما فهو: نفاذ أمر الله فيهما، وإنفاذ إرادته في دكهما، ودكهما فهو: إذهابهما، ومواقعة

الفناء بهما، وزوال أمرهما، وانحلال تجسمهما، وردهما إلى ما كانتا عليه أولا من قبل خلقهما.

قوله: ﴿دكة واحدة﴾ فهو: إخبار من الله عز وجل عن سرعة مضي إرادة الله فيهما، ونفاذ مشيئته في إذهابهما، وإنما معنى قوله: ﴿واحدة﴾ فهو: إخبار منه سبحانه عن نفاذ قدرته، وسرعة كينونة مراده، فمثل سرعة انقضاء ذلك كله بضرب الإنسان بالشيء الذي يكون في يده على الأرض واحدة، ودكه بالشيء الذي يدكه دكة واحدة؛ فأخبر سبحانه: أن إذهابه للأرضين والسموات، ونفخه في جميع صور الآدميين، ورده لأرواحهم في أبدانهم، في السرعة -مثل ضربة الضارب بالشيء الذي يكون في يده على الأرض ضربة واحدة، ليس معها لبث ولا ضربة ثانية؛ وذلك اليوم الذي يكون فيه ما ذكر الله فهو: يوم الحشر والحساب، وملاقاة الثواب والعقاب؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾، ومعنى ﴿يومئذ﴾ فهو: يوم يكون ما ذكرنا من النفخ في الصور، ودك الأرض والجبال، ومعنى ﴿وقعت﴾ فهو: نزلت وحلت، وكانت وأتت؛ فالواقعة هي: الساعة الواقعة بالناس، والساعة فهي: القيامة التي يواقع الخلق أمرها، ويلقى كلهم فيها عمله، ويقع به جزاء فعله، وبوقوع الجزاء فيها وقع اسم الواقعة عليها.

﴿وانشقت السماء﴾ فمعنى انشقاقها فهو: انفطارها، وانفطارها فهو: تقطعها؛ لما يريد الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم من فواتها وتبديلها. ﴿فهي يومئذ واهية﴾، والواهية فهي: المتمزقة المتقطعة، التي قد صارت أبوابها فرجا، كما قال الله سبحانه: ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابا (١٩)﴾ [النبأ].

﴿والملك على أرجائها﴾، فمعنى ﴿الملك﴾ فهو: الملائكة، فخرج اللفظ كأنه لملك واحد، وهو لجميع الملائكة، كما قال الله سبحانه: ﴿ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦)﴾ [الانفطار]، فخرج الاسم كأنه لواحد، وهو لجميع الناس،

وأرجاؤها فهو: نواحيها وأطرافها وجوانبها، يريد سبحانه: أن الملائكة عند تقطع السماء يكونون واقفين على أرجائها، منتظرين لأمر الله فيها وفي غيرها.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾، معنى: ﴿يحمل عرش ربك﴾ هو: يقوم به، ويأمر فيه، وينهى بنهي الله تبارك وتعالى، والعرش فهو: الملك، و الملك فهو: جميع ما خلق الله وبرأ، في الآخرة والدنيا، ومعنى: ﴿فوقهم﴾ فهو: منهم، فقد خلفت " فوق "" من "؛ لأنها من حروف الصفات، يخلف بعضها بعضا، ومعنى: ﴿يومئذ﴾ فهو: يوم القيامة، عند وقوع الواقعة، وانشقاق السماء، وكينونة الحساب والجزاء، ومعنى ﴿ثمانية﴾ فقد يمكن - والله أعلم - أن يكونوا: ثمانية آلاف، أوثمانية أصناف من الملائكة المقربين، ينفذون أمر رب العالمين في ذلك اليوم، الذي تحمل الملائكة عرشه فيه، وتكون قائمة به فيه وعليه؛ فأراد الله سبحانه بقوله: ﴿يحمل عرش ربك﴾: إخبارا منه: أن له سبحانه ثمانية أصناف من الملائكة، أو آلاف يحملون في ذلك اليوم عرشه، وعرشه فهو: ملكه، وحملهم لملكه في ذلك اليوم العظيم فهو: قيامهم فيه بأمر الرحمن الرحيم، وإنفاذهم لحكمه، ومجازاتهم بأمره لخلقه، وإيصال أهل الثواب إلى الثواب، وعتل أهل العقاب، وإنفاذهم لحكمه إلى العقاب، ومحاسبة المحاسبين، وتوقيف الموقوفين، على ما كان من أعمالهم، في مبتدأ ما كان من حياتهم؛ فهذا من أفعال الثمانية وشبهه، وما يكون من غير ذلك ومثله فهو: حمل منهم لملكه الذي هو عرشه؛ فهذا معنى حملها له لا غيره. وقد تقول العرب في ذلك، وما كان من الحال كذلك، لوزير الملك العظيم الشأن، ذي القوة والمقدرة والأعوان:" حمل وزير فلان عنه الأمر "، تريد: كفاه إياه وقام به، وأنفذ فيه كل أمره، واحتذى فيه كله مراده وحذوه، وتقول العرب:" لا تحمل على نفسك ما لا تطيق "، تريد بذلك أي: لا تعمل بما لا تطيق، لا أنه شيء يحمله على ظهره، ولا وزر يقله على متنه، وكذلك تقول العرب:: حمل فلان رعيته ما لا يطيقون "،

ليس تريد بذلك: أنه وضع على ظهورهم حملا منه يعجزون، وإنما تريد: كلفهم وأمرهم بأمر لا يطيقونه، وألزمهم شيئا لا يستطيعونه، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

حملت أمرا جليلا فاضطلعت به ... وقمت فيه بأمر الله يا رجل

فقال:" حملت " يريد: كلفت يا رجل، ولم يرد: حملت على ظهرك ثقلا به يثقلك، ولا وزرا يفدحك، وإنما أراد: كلفت أمرا جسيما فاضطلعت به، أي: قمت به، وقويت عليه، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾، فقال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم﴾، أي: ليحملوا ثقل الوزر، وثقل الوزر فهو: الإثم، ويتقلدون وزرهم، ووزر غيرهم، بالأمر الذي يأتونه من معاصي ربهم، وما هم يتقلبون فيه من الجرأة على خالقهم، ولم يرد: أنه وزر محمول، ولا شيء ثقيل يوضع على الظهر معمول؛ فعلى هذا ومثله، وما كان من اللغة على شكله -يخرج حمل الملائكة لعرش ربهم، لا على ما يقول أهل الجهل بربهم، من أنه عرش تحمله الملائكة مدبر معمول، مربع فوق أكتافها محمول، وأن الله سبحانه فوق العرش؛ تعالى عن ذلك الواحد العلي الكريم، وتقدس أن يكون كذلك العزيز العظيم.

ثم قال سبحانه: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾، معنى: ﴿يومئذ﴾ فهو: يوم قيام الملائكة بعرش ربها، وما يكون فيه من قبضها بأمره وبسطها. ﴿تعرضون﴾ فمعناها: يبرزون ويحاسبون، وتعرض عليكم أعمالكم، وتبين لكم أفعالكم، وتوقفون عليها، وتعاينون ما يجب عليكم ولكم فيها. ﴿لا تخفى منكم خافية﴾، يقول: لا يخفى من أعمالكم شيء، ولا يغيب منكم في ذلك اليوم أحد، ومعنى قوله: ﴿خافية﴾ يقول: فهي مستترة وغائبة، فيقول: إنه لا يخفى من أعمالكم صغير ولا كبير، وأن ما كان يخفى من صغير وكبير -ظاهر عليكم في ذلك اليوم كبيرا كان أو صغيرا.

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾، فالكتاب فهو: الحساب، وما أحصاه عليه ملكاه من جميع الأسباب، فقوله: ﴿أوتي﴾ فهو: وقف وبين له أمره، وأظهر عليه فيه سره، حتى يعلمه علما حقا، ويعلم أنه لم يحص عليه كاتباه إلا صدقا، ومعنى ﴿بيمينه﴾ فهو: اليمن والبركة، وما يلقى به الملائكة أهل الدين والتطهرة، من البشارة من ربهم، والتبشير والتطمين لهم عند توقيفهم ومحاسبتهم؛ فهذا معنى قوله: ﴿بيمينه﴾، وكذلك قال ذو العزة والجلال في أصحاب الميمنة حين يقول: ﴿وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة (٨)﴾ [الواقعة]، فأراد بقوله ﴿الميمنة﴾: باليمن والبركة، والفضل والمغفرة، لا أن ثم ميمنة قصدها الله ولا ميسرة.

﴿فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه﴾، ومعنى يقول أي: هو قول من المؤمن المحاسب، عند تبشير الملائكة بالرحمة، والرضى من الله والمغفرة، فيقول عند ذلك لمن يحاسبه من الملائكة: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾، ومعنى ﴿هاؤم﴾ فهي: هاكم، فهو: حض على أن يقرأوا، وهي تخرج على معنى: هلموا اقرأوا كتابيه، ومعنى: ﴿اقرءوا كتابيه﴾ فهو: فسروا حسابيه، واشرحوا عمليه، وبينوا فعليه؛ استبشارا منه بجزاء عمله، وثقة منه بعدل ربه.

﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾، فمعنى ﴿ظننت﴾ أي: أيقنت في الدنيا أني ملاق حسابيه في هذا اليوم، فأخذت له أهبته، وعملت له عمله في دار الدنيا، فلقيت السرور في الآخرة التي تبقى، ومعنى ﴿ملاق﴾ فهو: معاين، مواقع مدان، ﴿حسابيه﴾ فهو: مناقشتي على فعلي، ومحاسبتي على ما تقدم مني، صغيرا قدمته، أو كبيرا عظيما فعلته.

ثم أخبر سبحانه بمكان من كان كذلك، ممن أخذ أهبته لذلك، فعمل على حذر من أمره، وتيقظ في دار دنياه لنفسه، فقال في من كان كذلك من المؤمنين، المستعدين في الدنيا لمحاسبة يوم الدين: ﴿فهو في عيشة راضية (٢١) في جنة

عالية (٢٢) قطوفها دانية (٢٣)﴾، معنى قوله: ﴿فهو﴾ يريد أي: من أوتي كتابه بيمينه فهو في عيشة راضية، والعيشة فهي: المعيشة، والمعيشة فهي: الحياة الرضية، والحياة الرضية فهي: الحياة الهنية، وهي: المعيشة الرضية. ﴿في جنة عالية﴾، والجنة فهي: دار الثواب، والعالية فهي: العظيمة الأمر، الرفيعة القدر، الجليلة الخطر. ﴿قطوفها دانية﴾، فالقطوف فهي: الثمار، من فواكه الأشجار، التي جعلها الله سبحانه معيشة للمؤمنين، ومتفكها للمثابين، ومعنى ﴿دانية﴾ فهي: قريبة من المتناول لها، متهيئة على أحسن حالاتها.

﴿كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية (٢٤)﴾، هذا أمر من الله سبحانه لهم، بأكل ما رزقهم، وشرب ما سقاهم، إباحة منه لهم ما تفضل به عليهم. ﴿هنيئا﴾، فمعناها: سليما من كل آفة، لا أذى فيه، ولا مخافة في أكله على آكله، لا تخالف طباع آكله، ولا تخالف إرادة متناوله. ﴿بما أسلفتم﴾، يقول: هو جزاء لكم على ما قدمتم من العمل في الدنيا، فاستوجبتم هذا أجرا لكم في الآخرة التي تبقى؛ والأيام الخالية فهي: الأيام الفانية، أيام الدنيا التي انقضت، وفنيت فمضت.

ثم رجع سبحانه إلى صفة أهل الشمال، فقال: ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه (٢٥) ولم أدر ما حسابيه (٢٦)﴾، فمعنى ﴿أوتي كتابه﴾ فهو: حوسب ووقف على ما أحصي عليه من فعله، وعرف من عمله، ومعنى ﴿بشماله﴾ فهو: مثل من الله عز وجل مثله لعباده، ضربه لهم بالشمال، العسر والشدة في كل حال، يقول سبحانه: حوسب حسابا شديدا، ووقف توقيفا عنيفا. ﴿فيقول ياليتني لم أوت كتابيه (٢٥)﴾: هذا قول من استحق الوعيد من ربه، عند معاينة جزاء فعله وسعيه، فحينئذ يقول: ﴿ياليتني لم أوت كتابيه﴾، ومعنى ﴿ياليتني﴾ هو: وددت أني لم أوت كتابيه، ومعنى ﴿أوت كتابيه﴾ فهو: ألقى سيئ عملي، وأعرف ما أحصي علي من فعلي. ﴿ولم أدر ما

حسابيه (٢٦)﴾، يقول: ياليتني كنت ميتا على حالتي، وباليا في الأرض فانيا، لا أدري ما الحساب، ولا أرى ما كنت أوعده من العقاب، وأكون ترابا في القبر، ولم أعاين ما عاينت من شدة الأمر؛ ألا ترى كيف يقول: ﴿ياليتها كانت القاضية (٢٧)﴾، والقاضية التي تمناها الفاسق في ذلك اليوم فهي: القاضية التي عرف في الدنيا عند موته، فقضت عليه فأماتته، وإلى القبر صيرته، فيتمنى أن قاضية الموت تنزل به في يوم الدين، فتريحه من العذاب المهين، فيكون في الآخرة التي تبقى ميتا فانيا، كما كان في الدنيا.

ثم قال - خزي وردي، وقد أخزي لعمري إذ غوي -: ﴿ما أغنى عني ماليه﴾، يقول: لم يغن عني ما كنت أجمع من المال، ومعنى ﴿أغنى عني﴾ فهو: يدفع عني شيئا مما نالني؛ فأقر في يوم الدين، بأن الذي كان فيه في الدنيا غرور وتزيين، وأنه اليوم قد صار إلى الحق اليقين.

﴿هلك عني سلطانيه﴾، يقول: ضل عني تجبري في الدنيا وتسلطني، ومعنى " ضل عني " أي: ذهب فلم ينفعني، وبقيت اليوم خاليا فردا وحدي، ومن سلطان الحجة فردا، يقول: ضلت حجتي؛ إذ لم تكن لي حجة، ولا قول يقبل مني في الآخرة؛ وقد روي وقيل: إن ذلك أبو جهل بن هشام لعنه الله.

ثم أخبر سبحانه: بما يكون من أمره لحملة عرشه فيه، وفي إيصال الوعيد إليه، فقال: ﴿خذوه فغلوه (٣٠) ثم الجحيم صلوه (٣١) ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه (٣٢)﴾، معنى ﴿خذوه﴾ فهو: أمر من الله للزبانية بأخذه، والأخذ له فهو: البطش به، والقبض عليه، ﴿فغلوه﴾ معناها: أوثقوا يده إلى رقبته. ﴿ثم الجحيم صلوه﴾، فالجحيم هي: النار، و﴿صلوه﴾ فمعناها: أصلوه، ومعنى " أصلوه " فهو: حرقوه وأنضجوه، وعذبوه وأحرقوه. ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾، والسلسلة فهي: سلسلة من حديد، ﴿ذرعها﴾ يعني: طولها، ﴿سبعون ذراعا﴾ فهو: الذراع المعروف، بالطول

الموصوف. ﴿فاسلكوه﴾ معناها: في السلسلة فاجعلوه، ومعنى جعله في السلسلة فهو: معنى جعل السلسلة في رقبته، وقد قيل: إنها تنفذ من ظهورهم إلى صدورهم، حتى ينظموا فيها نظما نظما؛ وقد قيل بغير ذلك، وأصح ذلك عندنا: جعلها في أعناقهم؛ لأن الله سبحانه قد ذكر ذلك، فقال: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١)﴾ [غافر].

قوله: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم (٣٣)﴾، يقول: إنه كان لا يصدق بأمر الله، ولا يقر بوحدانية الله، ولايتعبد الله بما أمره. ﴿العظيم﴾ فهو: الجليل النافذ الإرادة، ماضي المشيئة، الذي ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١١)﴾ [الشورى].

وقوله: ﴿ولا يحض على طعام المسكين (٣٤)﴾، يقول: لا يأمر بإطعام المستطعمين من المساكين؛ بل كان ينهى عن ذلك جميع المطعمين؛ وقد يخرج معنى ذلك على: أنه لم يكن يحض على أداء الزكاة التي جعلها الله عونا للمساكين، وتقوية على إقامة الدين، فلم يكن يؤديها، ولا يحض - لعنه الله - عليها.

ثم قال سبحانه: ﴿فليس له اليوم هاهنا حميم (٣٥)﴾، يريد: أنه ليس له في يوم الدين حميم، ومعناها أي: عندنا في دار آخرتنا حميم، والحميم فهو: ماكان يغتر به من البنين، والعصبة والأقربين؛ فأخبر الله سبحانه: أنه كان انقطع عنه في ذلك اليوم الذي كان يغتر به في الدنيا من عشائره وأقربيه، وأهل طاعته وبنيه، ففارقه أصحابه وأعوانه، وضل عنه في ذلك اليوم سلطانه. ﴿ولا طعام إلا من غسلين (٣٦) لا يأكله إلا الخاطئون (٣٧)﴾، فأخبر: أنه لا طعام له في ذلك اليوم، ولا معيشة ولا حياة ﴿إلا من غسلين﴾، والطعام فهو: المأكول، والغسلين فهو: صنف من طعام أهل النار يدعى الغسلين، وهو شيء يزيد آكله بلاء، وجوعا وشقاء، لا يهنأ آكله، ولا ينتفع صاحبه، جعله الله عذابا

لأهل معصيته؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾، فأخبر سبحانه: أن أهل الخطاء على أنفسهم، بالمعصية لربهم -يأكلون الغسلين، ويعذبون بأكله في يوم الدين.

ثم أقسم سبحانه عن صدق قول رسوله صلى الله عليه وعلى آله، بما جاء به من الرسالة عن ربه، فقال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم﴾، معنى ﴿فلا﴾ هو: أفلا أقسم، ومعنى ﴿بما تبصرون﴾ يريد: بما تبصرون من الأشياء، مما فيه أثر قدرتنا، وعجائب تدبيرنا، من لطيف صنعنا، الشاهد بالربوبية لنا، الناطق بصدق رسولنا، من الآيات الباهرات، التي جاء بها النيرات، اللواتي هن دلالات وعلامات، على أنه من المرسلين، بما جاء به من الأمر المبين. ﴿وما لا تبصرون﴾ يقول: وبما لا ترون مما قد علمناه، فأقسمنا به وذكرناه، من عجائب خلقنا، ودلائل فطرتنا، في الجن والملائكة، وغير ذلك من الأشياء المغيبة، التي لا ترونها بأعينكم، ولاتفهمونها لعجزكم، وقلة استطاعتكم، واستدراك ما غاب عنكم. ﴿إنه لقول رسول كريم﴾، يقول: إن هذا الذي ذكره لكم رسولنا مما بعثناه به، وأيدناه بذكره، والإعذار فيه والإنذار، لأحق ما يكون من القصص والأخبار، من ذكر الحاقة والواقعة، وشقق السماء إذ هي واهية، ووقوف الملك على أرجائها، عند وقت تغييرنا لها وتبديلها، وظهور خافيات صدوركم، حين تعرضون على ربكم، واستبشار من أوتي كتابه بيمينه، وحلوله فيما وعدناه من جنتنا، وتمني من أوتي كتابه بشماله، عند وقت معاينته، لما كان يوعد به في حياته، القاضية المفنية، و الجائحة المهلكة، وإقراره بقلة غناء ماله عنه، وهلاك سلطانه منه، وما ذكر صلى الله عليه وآله لهم مما أمر بذكره، ووصفه لما أمر بوصفه، وشرحه لما أمر بشرحه، من الجحيم وإصلائها لأهلها، والسلسلة وذرعها، وغل أهلها في يوم الدين بها، وما أمر بذكره فذكره، والتحذير له

فحذره، من أكل الغسلين، الذي جعل طعاما للخاطئين؛ فأقسم سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: أن لهذا القول كله من قول رسوله لأحق من بعثه به إلى خلقه، وأمره بشرحه لجميع بريته، وإنه لقول رسول كريم، وما هو كما يقولون، ولا كما يذكرون في كذبهم وما يسطرون، فيزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله شاعر، ومرة كاهن، ومرة ساحر، ومرة مجنون؛ فأخبر سبحانه: أنه لقول رسول كريم، وهو صادق عليم.

ثم أقسم ما هذا القول [بقول شاعر]: ﴿وما هو بقول شاعر﴾، [ثم] قال سبحانه: ﴿قليلا ما تؤمنون (٤١)﴾، يريد: أن إيمانكم وتصديقكم بالحق الذي جاء به رسولنا من عندنا، على ما ترون من البراهين التي لا تكون إلا منا -قليل لكفركم وعنادكم، وتكذيبكم وحسدكم.

ثم رد على القسم بالواو، فقال: ﴿ولا بقول كاهن﴾، فنفى سبحانه: أن يكون هذا القول قول الكاهن، ثم قال: ﴿قليلا ما تذكرون (٤٢)﴾، فأخبر: أن تذكرهم قليل، ومعنى: ﴿تذكرون﴾ فهو: تتدبرون الأمور وتتفكرون فيها؛ فأعلمهم سبحانه: أن تذكرهم وتدبرهم قليل، وأنهم لو تذكروا أو تدبروا، وتفهموا وأنصفوا -لعلموا أن هذا قول رسول كريم، وأنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن رحيم.

ثم أخبر تبارك وتعالى: أن كلما أتى به صلى الله عليه وعلى آله من ذلك فهو: من الله حقا، وقولا صدقا، فقال سبحانه: ﴿تنزيل من رب العالمين (٤٣)﴾، فأخبر: أن محمدا صلى الله عليه وآله لم يبلغهم إلا ما أمر به إليهم، وأنه لم يزد ولم ينقص في شيء تلاه عليهم.

ثم قال: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤)﴾ يقول: لو كان في شيء مما يقولون، حتى تقول علينا باطلا كما تذكرون، في بعض أقاويله، أو في شيء من

أخباره وأحاديثه. ﴿لأخذنا منه باليمين (٤٥)﴾، معنى اليمين فهو: الأمر القوي المتين، وفي ذلك ما يقول شاعر من العرب:

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

ومعنى ﴿أخذنا منه﴾ فهو: انتقمنا منه انتقاما شديدا؛ فهذا معنى ﴿لأخذنا منه باليمين (٤٥)﴾ ﴿ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦)﴾، يقول: لأنزلنا عليه نقمة تقطع وتينه، والوتين فهو: نياط القلب وعلائقه، التي تكون بقطعها مفارقته للحياة، ومصيره إلى الوفاة.

﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)﴾، يخبر سبحانه: أنه لو أراده بسبب، ما كان له عنه حاجز منهم، ولا عنه له مدافع فيهم، فصحح سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله أداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، بما ذكر من قوله: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧)﴾؛ لأنه لما أن قال: لو تقول علينا لفعلنا به ما ذكرنا، ثم لم يكن منه سبحانه فيه شيء مما ذكر أنه يفعله به لو تقول علينا باطلا -صح له صلى الله عليه وآله بأحق حقائق التحقيق، أداء الأمانة، وتبليغ حقيقة الرسالة، بصحة نصيحة وصدق، وثبتت له الحجة بذلك على الخلق، والحاجز فهو: المانع، والمانع فهو: القائم دونه والمدافع.

ثم أخبر جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: أن هذا القول الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وآله، من الإعذار والإنذار، والتحذير والإخبار، تذكرة للمتقين، فقال: ﴿وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩)﴾، فمعنى ﴿إنه﴾ يقول: إن هذا القرآن والقول ﴿لتذكرة للمتقين (٤٨)﴾، والتذكرة فهي: التنبيه والزجر، والتحذير للمتقين، والمتقون فهم: المؤمنون المتقون لربهم، و التقي فهو: الخائف لذنبه، المشفق من عذاب ربه؛ فأخبر سبحانه: أن هذا كله لا

ينتفع به، ولا يكون تذكرة إلا لأهل الدين والتبصرة، والذين يتفكرون فيه ويذكرونه. ثم قال: ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩)﴾، فأخبر سبحانه: أنه يعلم ممن نزل عليه هذا القرآن مكذبا به، غير مؤمن بغيبه، معاندا للرسول عليه السلام في قوله، مخالفا له سبحانه في حكمه.

﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾، يقول سبحانه: حسرة في يوم الدين على الكافرين، متحسرون عليه ألا يكونوا قبلوه، وألا يكونوا آمنوا به واتبعوه، والحسرة فهي: الندامة والحرقة، والتأسف على فوات ما فاتهم؛ إذ كان ممكنا لهم في حياتهم، فتركوه في وقت إمكانه، فتحسروا عليه بعد فواته؛ والكافرون فهم: العاصون المكذبون.

ثم قال سبحانه: ﴿وإنه لحق اليقين﴾، يريد بقوله: ﴿وإنه﴾ يقول: إن هذا القول الذي قلنا، والذكر الذي ذكرنا، والشرح الذي شرحنا -لحق يقين، صادق القول مبين، وآت كائن قريب من أهله، واقع بهم، نازل عن قليل عليهم.

﴿فسبح باسم ربك العظيم (٥٢)﴾، معنى ﴿فسبح﴾ أي: كبر وقدر وقدس، ونزه ربك إذا ذكرته بشيء من أساميه، ونسبت إليه في شيء مما يرضيه. ﴿ربك﴾ معناها: خالقك ومالكك. ﴿العظيم﴾ فهو: الواحد الجليل، الفعال لما يريد، الغالب غير مغلوب، الذي ما شاء من الأشياء أن يكون كان، بلا كلفة ولا أعوان، النافذ المشيئة، العظيم القدرة، الذي ﴿لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفؤا أحد (٤)﴾، الذي ﴿لم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا (١١١)﴾ [الإسراء].

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج: ٤]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

خبر عما له من القدرة في تعجيل القضاء، والحكم إذا فصله، ولا يفعله غيره في خمسين ألف سنة من ذلك لو فعله، وهو يقدر - ولا شريك له - على أن يفعله في يوم واحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)﴾ [المعارج: من (١٩)، إلى: (٢٣)]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام، وقد ذكر الآية في سياق رده على ابن الحنفية:

يقول: جعل على بنية لا تطيق الأمر الشديد، فهو يهلع، ومن كل فادح يجزع. ثم قال: ﴿إلا المصلين﴾، فأخبر: أن من كان لله مطيعا من المؤمنين أصبر عند المحنة من الفاسقين، وأن المحنة لا يطيقها، ولا يقوم من الناس لها، إلا ذووا الاصطبار من عباده الصالحين... (إلى آخر كلامه عليه السلام)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)﴾ [المعارج: ٢٣]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾؟

فقال: دائمون هو: متعاهدون مدائمون، لا يصلون بعضا، ويتركون بعضا، وقد قدم الله ذلك فرضا، وجعل الصلاة كتابا موقوتا، عددا وسجودا، وقياما وقعودا، فمن لم يداوم على ذلك كله، ويضع كل شيء من ذلك موضعه، فليس على صلاته بدائم، ولا بفرض فيها بقائم.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله عز وجل: ﴿سال سائل﴾ فمعنى: ﴿سال سائل﴾ فهو: إخبار من الله بما سال من العذاب، ومعنى " يسيل " فهو: يأتي وينهال، ويكر في كل الأحوال، والسائل هاهنا فهو: الآتي من أمر الله وحكمه بالعذاب على أعدائه، يريد بـ﴿سال سائل﴾ أي: أتى آت نازل من عذاب الله الواقع بالكافرين، ومعنى ﴿واقع (١) للكافرين﴾ فهو: واقع بالكافرين، فقامت اللام مقام الباء؛ لأنهما من حروف الصفات، وحروف الصفات يخلف بعضها بعضا. ﴿ليس له دافع (٢)﴾ يريد: ليس لهذا العذاب النازل بالكافرين دافع، ومعنى ﴿دافع﴾ أي: مانع، ولا حاجز له عنهم ولا صارف عن الوقوع.

ثم أخبر سبحانه: أنه من الله، فقال: ﴿من الله ذي المعارج (٣)﴾، يريد: أن هذا العذاب الواقع بالكافرين فهو من الله ذي المعارج، والمعارج فهي: المصاعد، والمصاعد فهي: المسالك، و المسالك هي: الطرق التي تسلكها الملائكة من السماء إلى الأرض، ومن السموات بعضهن إلى بعض.

﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٤)﴾، ومعنى ﴿تعرج﴾ فهو: تسلك وتمضي، وتذهب وتأتي؛ والملائكة فهم: ملائكة

الله المطهرون؛ والروح فهو: جبريل الأمين، عليه صلوات رب العالمين، ومعنى ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٤)﴾، يقول: الملائكة تعرج في يوم واحد، وتسير وتقطع بقدرة الله -ما لو كان غيرها من الناس لم تسر ما سارته الملائكة في يوم واحد: في خمسين ألف سنة؛ فأخبر سبحانه: بعظيم قدرته في ذلك، وجليل فعله فيما جعل، من سرعة سير الملائكة وقطعها، بعروجها لما تقطع من معارجها، وتقضيه في سيرها في مسالكها؛ دلالة منه بذلك لخلقه عليه، ودعاء منه لهم بما أظهر في ذلك إليه.

ثم قال سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وآله: ﴿فاصبر صبرا جميلا (٥) إنهم يرونه بعيدا (٦) ونراه قريبا (٧)﴾، معنى ﴿ـــاصبر﴾ أي: انتظر، ولا تجزع واحتمل. ﴿صبرا جميلا (٥)﴾، يقول: احتمالا جميلا، ومعنى " جميلا " أي: دائما، وثيقا جيدا، لا يدخله إفك ولا هلع، ولا خور ولا جزع. ﴿إنهم يرونه بعيدا (٦)﴾، معنى ﴿يرونه بعيدا﴾ أي: يرونه باطلا، ولا يوقنون به إيقانا، فلما لم يوقنوا به ولم يؤمنوا -جاز أن يقول ﴿يرونه بعيدا﴾؛ لأن كل مالم يوقن به الموقن فقد يراه بعيدا؛ وذلك أن العرب تقول لما لم يصح عندها، وكان غير آت ولا ممكن في عقولها:" هذا أمر بعيد منا "، من ذلك ما تقول العرب:" زعم فلان أنه يقتل فلانا، وهذا أمر بعيد منه "، تريد: أن هذا شيء لا يقدر عليه، ولا يكون منه أبدا إليه؛ فعلى هذا المعنى يخرج قول الله تبارك وتعالى: ﴿إنهم يرونه بعيدا (٦)﴾، يقول سبحانه: يرون ما يعدهم، من وقوع هذا العذاب بهم -محالا لا يصح في عقولهم عندهم، ولا يقع أبدا بهم. ﴿ونراه قريبا (٦)﴾، يقول عز وجل: نعلم أنه حق آت، والعرب تسمي كلما أيقنت بمجيئه: قريبا؛ تقول:" ما أقرب الموت "، وتقول: ما أقرب فرج الله "؛ إيقانا بمجيئه، فقرنته بإيقانها بكينونته، وتقول العرب:" ما أقرب الليل "، فقرنته حين علمت أنه آت لا محالة.

ثم ذكر سبحانه الوقت الذي يكون فيه العذاب للكافرين، وتنكيل أهل

الوعيد من المكذبين، فقال: ﴿يوم تكون السماء كالمهل (٨) وتكون الجبال كالعهن (٩) ولا يسأل حميم حميما (١٠)﴾، فأخبر سبحانه: أنه إذا كان ما ذكر من أمر السماء والجبال -كان وقوع العذاب بالكافرين، ومعنى: ﴿تكون السماء كالمهل (٨)﴾ فهي: تذوب بعد تجسمها، وتنحل بعد عظمها، حتى تعود إلى ما كانت عليه أولا، من الدخان الذي خلقت منه في الابتداء؛ فشبهها سبحانه عند كينونتها دخانا: بالمهل الجاري، و المهل فهو: صفو القطران؛ فأخبر سبحانه: أنها تكون في الفناء والذهاب والانحلال، كالمهل حذو المثال بالمثال. ﴿وتكون الجبال كالعهن (٩)﴾، فشبهها أيضا بانحلالها، وذهابها وتمزقها: بالعهن، والعهن فهو: ضرب من خالص الصوف؛ فأخبر سبحانه: أنها تعود من بعد تجسمها ويبسها، وصلابتها وثباتها، كالعهن إذا نفش فاضمحل، ولم يستر بعد نفشه ما يكون خلفه، ولا فوقه ولا تحته؛ لضعف أمره بعد نفشه؛ فأخبر أن الجبال بعد ما هي عليه اليوم، من كثافتها وصلابتها، وجليل أمرها -تعود إلى الكينونة كالعهن المنفوش. ﴿ولا يسأل حميم حميما (١٠)﴾، يقول: لا يسأل نسيب نسيبا، ومعنى ﴿لا يسأل﴾ فهو: يستخبر ولا يكلم، ولا يقبل عليه ولا يسلم.

﴿يبصرونهم﴾ معناها: يرونهم ويعرفونهم، حتى يعرف القريب قريبه، والنسيب نسيبه، فيشغله هول ما هو فيه من أمره عن مسائلة قريبه، والسلام على حميمه. ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ﴾، معنى ﴿يود﴾ فهو: يحب ويتمنى، ويريد ويشاء. ﴿المجرم﴾ فهو: المسيء الظالم. ﴿لو يفتدي﴾، يقول: لو يفدي نفسه، ومعنى " يفديها ": أن يجعل بدلها في العذاب ويفديها بمن ذكر الله، وسمى من أقربائها. ﴿من عذاب يومئذ﴾، يريد: من عذاب يوم الدين، و﴿يومئذ﴾ فهو: يوم القيامة.

﴿ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤويه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤)﴾، يقول سبحانه: يود لو أنه أمكنه أن يفدي نفسه

من عذاب يوم الدين بهؤلاء المذكورين، و﴿بنيه﴾ فهم: ولده الذكور، ﴿وصاحبته﴾ فهي: زوجته الحبيبة إليه، التي كان يحبها ويفديها في الدنيا بنفسه، ويحامي دونها بماله ومهجته. ﴿وأخيه﴾ فهو: ابن أمه وأبيه. ﴿وفصيلته التي تؤويه (١٣)﴾ فهي: والدته ورابته التي تربيه، وتطعمه وتسقيه لبنها في صغره، حتى فصلته عن ثديها عند كبره. ﴿وتؤويه﴾ فمعناها: تحضنه وتربيه. ﴿ومن في الأرض جميعا﴾، يقول: أهل الأرض كلهم لو كانوا له وفي يده عبيدا وخولا، وأقرباء ونسبا. ﴿ثم ينجيه﴾، يقول: يود أنه فدى بكل ما ذكرنا، وجميع ما فسرنا، نفسه من العذاب المهين، ونجا، وجعله مكانه في يوم الدين، فداء يفدي بهم نفسه، ووقاء يقي بهم من العذاب بدنه. ﴿ثم ينجيه﴾، يقول: ثم يقبل منه الله ذلك ويخليه؛ فأخبر الله سبحانه: أن المجرم يود أنه نجا، وسلم وافتدى، بكل ما ذكر الله وسمى.

ثم قال سبحانه: ﴿كلا إنها لظى (١٥) نزاعة للشوى (١٦)﴾، معنى ﴿كلا﴾ فهو: نفي أن يكون يقبل من المجرم فداء، أو يكون له يوم القيامة من العذاب نجا، يقول: لا نجاة له ولو افتدى. وقوله: ﴿لظى﴾ فهي: جهنم، وإنما سميت لظى لتلظيها، والتلظي فهو: التلهب والتقلب، وأكل ما يقع فيها بأسرع سرعة. ﴿نزاعة للشوى﴾، يقول: أكالة للشوى، محرقة له ولغيره من بدن صاحبه، والشوى فهو: الجلد، وقد قيل: غير الجلد؛ وأحسن ما سمعناه فيه: أنه الجلد. ﴿تدعوا من أدبر وتولى (١٧)﴾، يريد بـ﴿تدعوا﴾ أي: تأخذ من أدبر عن الله سبحانه؛ وإنما مثل الله أخذها بالدعاء منها لمن نأخذ؛ لأن كل من حاز شيئا فقد استدعاه إليه، ومن استدعى شيئا إليه فقد دعاه وآواه، وصار منه وإليه، فقال: ﴿تدعوا من أدبر وتولى (١٧)﴾: تؤويه، وتحرقه وتخزيه، والمدبر فهو: المدبر عن الله وعن حقه، المتعلق بما هو فيه من باطله وفسقه. ﴿وتولى (١٧)﴾ فهو: عدل عن الحق وأبى.

﴿وجمع فأوعى (١٨)﴾، يقول: جمع الذنوب فأوعاها، ومعنى " أوعاها " فهو: جمعها كلها فأحصاها.﴿إن الإنسان خلق هلوعا (١٩)﴾، الإنسان فهو: الناس كلهم. ﴿خلق هلوعا﴾، يقول: طبع وفطر على الضعف، وضعف البنية، والجزع مما يعظم عليه، ويشد أمره لديه.

﴿إذا مسه الشر جزوعا (٢٠)﴾، فالشر هو: كل أمر يشتد عليه، من النوازل النازلات، والأمور الفادحات، والمصائب الحالات، و﴿جزوعا﴾ فهو: فزعا هلوعا، يقول: إذا أصابه ذلك جزع منه، وضعف لضعف بنيته عنه.

﴿وإذا مسه الخير منوعا (٢١)﴾، يعني ﴿مسه﴾ فهو: أصابه وواقعه، و﴿الخير﴾ فهو: الرخاء والنعمة، والسرور والغبطة، و﴿منوعا﴾ يقول: فهو مانع لخيره، بخيل بما عنده، قليل الإنفاق في مرضاة ربه، في ما يقرب من خالقه.

ثم استثنى سبحانه من الناس الذين نسب إليهم هذا الخير: أهل الإيمان والتقوى، والدين والهدى، فقال: ﴿إلا المصلين (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣)﴾، إلى قوله: ﴿في جنات مكرمون (٣٥)﴾.

معنى ﴿على صلاتهم دائمون (٢٣)﴾ فهو: لصلاتهم لازمون، لا يتركون منها شيئا، ولا يفرطون في المثابرة عليها، واللزوم لها.

﴿والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤)﴾، يقول: يؤدون من أموالهم الحق الذي جعله الله من الزكاة عليهم، المعلوم فهو: المعروف بكيله ووزنه.

﴿للسائل والمحروم (٢٥)﴾، والسائل هو: الطالب المواجه بالطلب والسؤال، والمحروم فهو: المتعفف اللازم لمنزله، الذي يتوهم الناس أنه مستغن لتعففه، وقلة طلبه، فيحرمونه لذلك ما يعطون غيره، ممن يمد يده للسؤال ويطلب.

﴿والذين يصدقون بيوم الدين (٢٦)﴾، فيوم الدين هو: يوم القيامة، فهو:

الجزاء بما تقدم من أعمال العباد، و﴿يصدقون﴾ معناها: يوقنون به ويؤمنون.

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون (٢٧)﴾ هو: خائفون وجلون.

﴿إن عذاب ربهم غير مأمون (٢٨)﴾، ومعنى ﴿مأمون﴾ فهو: غير مندفع ولا منصرف عن أهله؛ بل هو يقينا مواقع لهم، لا يطمعون في انصرافه عنهم، ولا يشكون في هجومه عليهم.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩)﴾، والفروج فهي: المذاكير التي جعلها الله سبحانه لهم؛ لينالوا بها لذة الجماع؛ فأخبر سبحانه عز وجل: أنهم لها حافظون، وحفظهم لها فهو: ألا يجعلوها إلا في المواضع التي أحلها الله لهم من النساء؛ ألا تسمع كيف يقول عز وجل: ﴿إلا على أزواجهم﴾، يقول سبحانه: إلا على نسائهم. ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾، فملك اليمين فهو: السراري من الإماء. ﴿فإنهم غير ملومين (٣٠)﴾، يقول: غير معاقبين في مداناة النساء وملك الإماء؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أطلق لهم ذلك فيما تسمع من القرآن.

ثم قال سبحانه: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣١)﴾، يقول: من ابتغى لفرجه موضعا غير نسائه، أو ملك يمينه من إمائه -فهم عادون، والعادون فهم: المعتدون لما جعل الله لهم، إلى ما حرم عليهم.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٣٢)﴾، والأمانات فهو: صنوف؛ فمنها: أمانة الله عندهم فيما استرعاهم من حقه، وقلدهم من فرضه، ومنها: ما استأمنهم الله عليه من أداء ما جعل في قلوب العلماء من علمه، إلى من هو دونهم من خلقه، ومنها: ما استأمنهم عليه من أمواله، التي قسمها بين من سمى في كتابه، فواجب على من استؤمن على شيء من أموال الله أن يؤديه إلى غاية الأمانة، ويوفره على غاية الوفارة، ومنها: ما يستأمن الناس عليه بعضهم بعضا من ودائعهم وأموالهم، فيجب عليهم في ذلك دفعها إلى أربابها، وتسليمها إلى

أصحابها، ومن ذلك أمانة السر الذي يسره المؤمن إلى المؤمن؛ فواجب عليه أن يحفظ عليه سره، ولا يفشي عنه إلى غيره. وقوله: ﴿وعهدهم راعون (٣٢)﴾، وعهودهم فهي: ما أخذ الله على الخلق من الميثاق، والعهد بالتصديق، بأنبيائه وكتبه، وما أخذ عليهم من العهود في القيام مع أوليائه، والنصر لمن نصره، وما أخذ عليهم من العهود في التعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان، الذي أنزل إليهم علمهما في القرآن، حين قال سبحانه: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ [المائدة: ٢]، ومعنى: ﴿راعون﴾ فهو: حافظون مؤدون.

﴿والذين هم بشهادتهم قائمون (٣٣)﴾، والشهادة فهو: كل حق علمه إنسان، من حق يجب لله على الخلق التكلم به والقول، أو حق لمسلم يعلمه مسلم من شهادة أشهده عليها، أو أمور احتاج إلى أن نطق له بالحق فيها، ومعنى ﴿قائمون﴾ فهم: ثابتون على الشهادة التي يعلمونها، لا يزولون عنها ولا يكتمونها، ولا ينقصون منها، ولا يزيدون فيها.

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤)﴾، ومعنى ﴿يحافظون﴾ فهم: عليها يداومون، ويحفظون أوقاتها التي جعلها الله لها، فهم على ذلك يحافظون، وله غير تاركين، ولا في شيء منه مفرطين.

ثم أخبر سبحانه: بما أعد لمن كان على هذه الحالات، وكان من أهل هذه الصفات، فقال: ﴿أولئك في جنات مكرمون (٣٥)﴾، والجنات فهي: الجنان المذكورات عند الله سبحانه، المعدودات لأهل الطاعات، و﴿مكرمون﴾ فمعناه: مكرمون، ومعنى " مكرمون " فهو: مقربون، مدنون معظمون، مثابون منعمون.

ثم أخبر سبحانه: بحال الكافرين، وما هم عليه من الإعراض عن الله

ورسوله، فقال: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين (٣٦)﴾، يريد بقوله: ﴿فمال﴾ أي: فما بال. ﴿قبلك﴾: عندك. ﴿مهطعين﴾، والمهطع فهو: المطأطئ الرأس، يقول: ما بالهم عندك مطأطئين رؤوسهم، لا ينظرون إليك ، ولا يستمعون منك، ولا يقبلون بوجوههم عليك.

﴿عن اليمين وعن الشمال عزين (٣٧)﴾، يريد: عن يمينك، وعن شمالك ﴿عزين﴾، أي: جماعات قليلات، عن يمينك جماعات، وعن يسارك جماعات، كل مهطع برأسه، معرض بوجهه، لا يستمع إليك، ولا يقبل عليك.

ثم قال سبحانه: ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم (٣٨)﴾، يريد بقوله: ﴿أيطمع﴾ أي: أيرجو ويأمل ﴿كل امرئ منهم﴾، والمرء فهو: الإنسان. ﴿أن يدخل جنة نعيم﴾، وجنة النعيم فهي: جنة الفردوس، يقول سبحانه: إعراضهم عن الحق، واستغناؤهم عن الصدق -اعتراض من قد أمن العذاب، وأيقن بالثواب، وصح عنده أنه يدخل جنة نعيم، فهو واثق بذلك، طامع أن يكون كذلك، فهو معرض عما يدعى إليه؛ لإيقانه بما يصير من الخير إليه.

ثم قال سبحانه: ﴿كلا﴾، يريد بـ﴿كلا﴾ أي: لا تدخلونها أبدا، ولا يرونها بأعيانهم أصلا، إلا أن يتوبوا وينيبوا، ويصدقوك ويطيعوك فيؤمنوا. ثم أخبر سبحانه: بما خلقهم منه؛ احتجاجا منه بذلك عليهم، وتقريرا منه على الحق به لهم، فقال: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون (٣٩)﴾، يريد بقوله: ﴿مما يعلمون﴾ أي: من الطين الذين خلقنا منه آدم عليه السلام، ومن الماء المهين الذي خلقنا منه بني آدم أجمعين.

ثم أقسم سبحانه بنفسه: إنه لقادر على أن يبدل خيرا منهم، فقال عز وجل: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون (٤٠) على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين (٤١)﴾، قوله: ﴿فلا أقسم﴾ يريد: أفلا أقسم، فطرح

الألف وهو يريدها؛ ورب المشارق فهو: الله رب العالمين، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع العليم، والمشارق فهو: مشارق الفلك المحيط بالأرض، وكذلك المغارب فهي: مغارب الفلك المحيط بالأرض. ﴿إنا لقادرون (٤٠)﴾، يقول: إنا لمقتدرون مستطيعون، على أن نذهب هؤلاء الذين يكذبون، ونأتي بخلق خيرا منهم يصدقون بقولنا، ويؤمنون بغيبنا؛ فهذا معنى قوله: ﴿نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين (٤١)﴾، يخبر سبحانه: أنه لا يسبق، ومعنى " يسبق ": فهو يفات، وعنه يهرب حتى يسبق بهربه الهارب الذي يهرب؛ فأخبر سبحانه: أنه ليس منه مهرب، ولا للخلق كلهم عنه مذهب، وأنهم كلهم في قبضته؛ فأخبر سبحانه: أن أحدا لن يسبقه، يريد " يسبقه " أي: يفوته ويذهب عنه، حتى يعجزه، فلا يناله أمره، ولا يدركه حكمه؛ وحاش لله أن يكون كذلك، أو على شيء من ذلك؛ بل خلقه كلهم في يده، لا يفوته منهم فائت، ولا يسبقه منهم سابق، وهو سبحانه لكلهم مدرك لاحق.

ثم قال سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٤٢)﴾، معنى ﴿ـذرهم﴾ أي: دعهم وأمهلهم، ومعنى ﴿يخوضوا﴾ فهو: يكذبوا ويتحيروا، ويترددوا في الضلال، بما يصفون من الخوض مع الجهال. ﴿ويلعبوا﴾ أي فهو: ليغتروا ويلهوا؛ فشبه الله تبارك وتعالى ما هم فيه من الباطل الذي لا أصل له: باللعب الذي لا ثبات له، واللعب فهو: ما لم يكن على حقيقة، ولم يأت منه شيء على وثيقة. ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٤٢)﴾ فهو: يوم القيامة الذي فيه يجازون؛ ألا تسمع كيف بينه سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، فقال: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا﴾، والأجداث فهي: القبور. ﴿سراعا﴾ فهو: سراعا مبتدرين، غير مبطئين ولا متلبثين. ﴿كأنهم إلى نصب يوفضون (٤٣)﴾، والنصب فهو: شيء من الشعر تقوله العرب، تطرب فيه أصواتها، وترفع به كلامها، وتمد حروفه،

ويطرب قوله، فإذا سمع السامع من قائله أقبل نحوه يستمعه موفضا، والموفض فهو: المسرع؛ فضرب الله سرعة خروجهم من قبورهم، ونشرهم إلى موضع حشرهم، عند وقت نفخ الله في صورهم -بما يعرفون من سرعة الموفضين إلى النصب إذا سمعوه من ناصبه، واستطرفوه من قائله.

﴿خاشعة أبصارهم﴾، معنى ﴿خاشعة﴾ أي: منكسرة، غير مسرورة ولا منفتحة، قد خشعت أبصارهم؛ لهول ما رأت عيونهم، وخشوع البصر فهو: شيء ينزل بالبصر، عند انحلال القوى، وضعف النفس وذهاب القوة، والإيقان بالبلية؛ فأخبر الله سبحانه: أن أبصارهم لإيقانهم بالعذاب منكسرة خاشعة، هالكة دامرة. ﴿ترهقهم ذلة﴾، معنى ﴿ترهقهم﴾ فهو: تغشاهم، والذلة فهي: الخزي والمذلة، والمذلة فهي تغشى وترهق من أيقن بالنكال من الخلق. ثم قال سبحانه: ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون (٤٤)﴾، فأخبر جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: أن هذه الأشياء، من خروجهم من الأجداث، وخشوع أبصارهم، ووقوع الذلة عليهم -يكون في اليوم الذي كانوا يوعدون، وهو: يوم القيامة الذي كانوا به يكذبون، ولم يكونوا بشيء مما يذكر لهم فيه يصدقون.

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾ [نوح: ٤]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الأئمة التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤)﴾؟

وأجل الله لهم هاهنا فهو: الأجل الذي أجله للعالمين، وجعله مدة لآجالهم وعمرا لها، وهو المؤقت فإذا جاء الوقت الذي جعل الله إليه حياتهم، وبحلوله حلول وفاتهم -لم يؤخروا بعده، ولم يتأخر الأجل بعد حلوله طرفة، وكذلك قوله: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [النحل: ٦١]، وكذلك معنى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ [نوح: ١٦]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، في سياق كلام:

وقال: ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾، بمعنى: معهن.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وإن سأل فقال: خبرونا عن قول الله سبحانه: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٦)﴾، فقال: ما معنى قوله: ترون، ونحن لم نر؟

قيل له: إن القرآن عربي، وإنما خاطب الله العرب بلغاتها، وهذا عند العرب أحسن لغاتها، وأتم قالاتها، تقيم:" ترى " مقام:" أخبرك "، ومقام:" أعلم "، يقول العربي لصاحبه إذا أراد أن يعلمه شيئا:" أما رأيت إلى فلان عمل كذا وكذا".

فإن قال: كيف يكون القمر والشمس في السموات، وإنما هو دون الأولى منهن، وقد ترون إلى تميز كل سماء، وتميز التي فوقها: مثل ما بين الأرض وسماء الدنيا؛ فكيف يكون فيهن، أو ينالهن كلهن، وأنتم لو سترتم دونه ثوبا لم تروه، ولو دخلتم بيننا لم تعاينوه؟

قيل له: هذا أحسن ما تكلم به العرب، مثل ذلك وأوضحه، وأبينه وأوجزه؛ ألا ترى أن العرب تقول للجماعة إذا كان فيها عالم، أو لأهل البيت الكبير:" في بني فلان علم وخير، وعدد بني فلان كثير "، ولذلك تقول العرب" بالعراق فسق كثير، وبالحجاز جور شديد "، وليس الفجور في جميع كله، سهله ولا جبله؛ ولعل ذلك إنما هو جانب من قراها، أو في قرية واحدة منه، فنسب ذلك إذ كانت القرية فيه، فعلى ذلك نسب الله القمر إلى السماوات، وإن كانت واحدة؛ لأنها منها، وفي ذلك ما تقول العرب:" إن في بني فلان لجمالا بارعا "، وليس في كلهم جمال، وإنما هو في بعضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾[نوح: ٢٧]

قال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

فالمراد به: أن عاقبتهم إذا سلموا أن يكونوا مثل آبائهم فجارا كفارا.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحا﴾ أي: نحن أرسلنا نوحا، وهو إخبار من الله عز وجل بأنه أرسل نوحا ﴿إلى قومه﴾، وقومه فهم: عشيرته وأهل بلده.

﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١)﴾، معنى ﴿أن أنذر قومك﴾ فهو: إخبار من الله أيضا عما أمر به نبيئه صلى الله عليه وآله من إنذار قومه، والإنذار فهو: التحذير والإخبار، والتخويف بوعيد الله والإنذار. ﴿من قبل أن يأتيهم﴾، يقول: أنذرهم وقوع العذاب قبل إتيانه لهم، وهجومه عليهم؛ فأخبرهم أنهم إن تابوا صرف عنهم، وإن أقاموا على المعاصي واقعهم؛ والأليم فهو: الشديد الذي نزل بهم من الغرق، وشدة العذاب والرهق.

﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين (٢)﴾: فهذا قول نوح صلى الله عليه لقومه؛ فأخبر الله سبحانه بتبليغ نوح عليه السلام ما أمر به من الرسالة، من الإعذار إليهم والإنذار، والنذير فهو: المبلغ المحذر لأمر قبل أن يقع، فكان نوح صلى الله عليه نذيرا من الله لقومه، محذرا لهم ما واقع من كان قبلهم من القرون الماضين، من عذاب الله المهين، وقوله: ﴿مبين﴾ فهو: المظهر لأمره، المنير القول، المبين لهم حقيقة ما أنذرهم، الصادق في قوله: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون (٣)﴾، معنى ﴿أن اعبدوا الله﴾ أي: جئتكم نذيرا مبينا؛ لأن تعبدوا الله، فطرح

اللام، فبقيت ﴿أن اعبدوا الله﴾، والعرب تستعمل ذلك؛ تقول:" جئنا أن ترفدنا "، تريد: لأن ترفدنا، تطرح اللام وهي تريدها، فخرج الكلام كأنه خبر وهو إيجاب. ومعنى ﴿اعبدوا الله﴾ هو: أطيعوا الله، وأقيموا ما افترض عليكم من فروضه، وأمركم به من أموره. ﴿واتقوه﴾ معناها: خافوه ولا تعصوه، وصدقوا وعيده ولا تكذبوه. ﴿وأطيعون﴾ يقول: وأطيعوني ﴿يغفر لكم﴾، فطرح الياء، فقامت الياء التي في ﴿يغفر﴾ مقامها، ومعنى أطيعوني فهو: اقبلوا قولي، واستنصحوا أمري، ولا تستغشوني وتعصوني، فيما آمركم من طاعة ربي، فتمادوا في معاصيه، والفعل بما لا يرضيه، فتهلكوا بذلك وتدمروا.

ثم قال صلى الله عليه: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ يقول: إن أطعتموني فاتبعتم رضى الله، وتركتم معصيته -غفر لكم بذلك من ذنوبكم، ومعنى قوله: ﴿من ذنوبكم﴾ هو: يغفر لكم من ذنوبكم ما كان مهلكا من كبائرها، ومحققا عليكم الوعيد منها. ﴿ويؤخركم﴾ يقول: يدفع عنكم العذاب الذي نزل بكم عند معاصيكم، حتى تبلغوا الأجل الذي سماه لكم، وجعله سبحانه غاية على السلام لحياتكم؛ لأن الله تبارك وتعالى جعل للعباد أجلا على الطاعة، ثم هو سبحانه المتولي في ذلك للعقوبة، فإن شاء عاجلهم بالعقوبة، فقطع آجالهم بالمعصية التي كانت منهم، فلم يبلغوا ما أجل الله لهم من الأجل على الطاعة؛ إذ لم يكن منهم الطاعة، فنزل بهم العقاب، فقطع مدتهم عما وقت لهم من الآجال على الطاعة لهم، وقوله: ﴿مسمى﴾ فمعناه أي: معروف مجعول.

﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٣)﴾، معنى قوله: ﴿إن أجل الله﴾ يريد صلى الله عليه: أن عقوبة الله التي تقطع آجالكم إذا نزلت بكم لا تؤخر عنكم إلى الغاية التي جعلت لكم على الطاعة. ﴿لوكنتم تعلمون (٣)﴾ يقول: لو كنتم تعقلون وتفهمون ذلك، وتدرونه على حقيقة المعرفة؛ فأخبرهم

بذلك: أن الأجل عند الله أجل أجله لهم على التوبة، والإنابة ولزوم الطاعة؛ فأخبرهم: أنهم إن كانوا كذلك استوفوه، وإن عندوا عن الطاعة، وارتكبوا المعصية -نزل بهم العذاب القاطع لهم عن بلوغ ذلك الأجل المؤجل لهم، الذي ذكرنا على الطاعة منهم؛ وهذا الأمر الذي ذكرناه أنه ينزل من الله تبارك وتعالى بأعدائه فيهلكهم، عند نسيانهم له وإيسافهم، وإقدامهم على معاصيه، واقترابهم من العذاب المهلك المستأصل -فهو قول نوح صلى الله عليه: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤)﴾، أراد صلى الله عليه: أن عقوبته التي تقطع آجالكم إذا حقت عليكم بفعلكم لم تؤخر عنكم، ولم يرد أجل السلامة الذي جعله أمدا لمن سلم من عقوبته؛ وهذا من فعل الله سبحانه، وقتله بعذابه لمن قتل من أعدائه المستحقين لعقوبته -كقتل بعض الناس بعضا؛ فكأن الله عز وجل بما أنزل من الفاسقين من العقوبة والتهلكة -قاطعا لآجالهم التي أجلها على السلامة؛ لأن الله تبارك وتعالى قد جعل في الخلق استطاعة يقدرون بها على المعصية والطاعة، وينالون بها قتل المقتولين، وغير ذلك من ظلم المظلومين، والإحسان إلى من أحبوا الإحسان إليه؛ ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم (٤٢)﴾ [الأنفال].

ثم أخبر سبحانه بقول نوح عليه السلام، من بعد الإعذار والإنذار إلى قومه، وما كان من الصد منهم عن تذكيره، وقلة الالتفات إلى شيء مما جاء به من ربه، فقال: ﴿إني دعوت قومي ليلا ونهارا (٥)﴾، ومعنى ﴿إني دعوت قومي﴾ هو: أني ناديت قومي إلى ربي، ودعوتهم إلى طاعة خالقي. ﴿ليلا ونهارا﴾، يقول: دعوتهم في الليل والنهار إليك.

﴿فلم يزدهم دعائي إلا فرارا (٦)﴾، يقول: لم يزدادوا بدعائي ربي وإنذاري، ودعائي واحتجاجي عليهم. ﴿إلا فرارا﴾، يقول: إعراضا وصدودا، واجتراء علي، واستهزاء بي.

ثم قال صلى الله عليه: ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في ءاذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا (٧)﴾، يريد بقوله: كلما دعوتهم ليعملوا عملا صالحا تغفر به ذنوبهم، وتتجاوز عن سيئاتهم. ﴿جعلوا أصابعهم في ءاذانهم﴾ يقول: سدوها بأصابعهم، فأدخلوها في آذانهم؛ لكيلا يسمعوا قولي ودعائي؛ إعراضا منهم عنك، وكفرا منهم سبحانك بك، وبغضا لما أدعوهم إليه، واستثقالا لما أناديهم به. ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ يريد: غطوا رؤوسهم بثيابهم، وولوا مدبرين، وهذا فعال يفعله كل من استثقل شيئا وكرهه، ولم يحب أن يسمعه ولا يعاينه، فكانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم؛ لئلا يعرفهم، فيدعوهم إلى ما كان يدعوهم إليه، ويحضهم من طاعة الله على ما كان يحضهم عليه. ﴿وأصروا﴾ يريد: أضمروا المعصية، وأقاموا على التكذيب، والإصرار على الشيء فهو: الإقامة عليه. ﴿واستكبروا استكبارا (٧)﴾ معناها: تجبروا تجبرا، وخالفوا وعتوا تكبرا.

﴿ثم إني دعوتهم جهارا (٨)﴾، يريد صلى الله عليه: دعوتهم مباينة مكاشفة، وناديتهم بالدعوة مناداة ظاهرة، لا أسترها على أحد منهم، ولا أخفيها عنهم؛ فهذا معنى ﴿جهارا﴾.

﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا (٩)﴾، يريد بقوله: ﴿أعلنت لهم﴾ أي: أخبرتهم بما ينزل عليهم من العذاب إن عصوا، أو داموا على ما هم عليه وعتوا. ﴿وأسررت لهم﴾، يريد: كلمتهم في السر بذلك والعلانية؛ لأن الإسرار هو: الإخفاء، فيقول: أخفيت دعائي وإعذاري وإنذاري، وأعلنت به وأتيت من تأكيد الحجة عليهم في ذلك على كل معنى، وأتيت من إكمال الحجة عليهم على الأقصى.

ثم ابتدأ بعدما أخبر به من اجتهاده في الدعاء لهم سرا وعلانية -الخبر عن قوله لهم قوله: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾، معنى ﴿فقلت﴾ فهو:

أمرت، ومعنى ﴿استغفروا﴾ أي: توبوا وارجعوا، يقول: أمرتهم بالتوبة إلى ربهم، والرجوع إلى خالقهم. ﴿إنه كان غفارا﴾ يقول: إنه كان للتائبين غفارا، و﴿غفارا﴾ فهو: غفور، والغفور فهو: العافي عما تقدم، تقول العرب:" غفرت لك ذنبك "، أي: صفحت عنه، وتركته ولم أعاقبك عليه، ولم آخذك بالجزاء فيه.

﴿يرسل السماء عليكم مدرارا (١١)﴾ أي: أنكم إن تبتم ورجعتم إلى الله سبحانه وأخلصتم أرسل السماء عليكم مدرارا، وإرسال السماء فهو: إرسال ما فيها من المطر، لا إرسالها في نفسها، والسماء هاهنا فهي: السحاب الذي يكون في المطر، لا السماء الخضراء التي هي السماء العليا، والعرب تسمي السحاب: سماء؛ تقول:" كانت على بلد كذا وكذا سماء حسنة "، تريد: سحابا حسنا، فقال سبحانه: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ [يوسف: ٨٢]، فقال: القرية والعير، وإنما أراد: أهل القرية وأهل العير، ولا القرية بعينها، ولا العير، وكذلك تقول العرب كلهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ [البقرة: ٩٣]، فقال: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾، والعجل لا تشربه القلوب، وإنما أراد: شربوا في قلوبهم حب العجل، فطرح " حب "، وأقام " العجل " مقامه، والعرب تفعل هذا بالشيء الذي من جنس الشيء المنسوب إليه، المعروف الكائن منه وفيه، وفي ذلك ما قال شاعر من العرب:

ألا إنني أسقيت أسود حالكا ... ألا بجلي من ذا الشراب ألا بجل

يريد: سقيت سما أسود حالكا، والأسود فهو: الحية، فقال: سقيت أسود، وليس الأسود يسقاه الناس، وإنما يسقون سمه، فأقام الأسود مقام السم؛ لأنه منه وإليه يعرف به، ويستدل به عليه، ومعنى قوله: ﴿مدرارا﴾ أي: كثيرا دارا، والدار فهو: التابع المتوالي، الذي لا ينقطع بعضه من بعض.

﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ فمعنى ﴿يمددكم﴾ أي: يعطيكم، ويزيدكم

ويقويكم، والأموال فهي: ما كان من الذهب والفضة، والحرث والأشجار والأنهار، وكل شيء يجلب به المال، والبنون فهم: الذكران من الأولاد.

﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (١٢)﴾، معنى ﴿يجعل﴾ فهو: يرزق ويفعل، والجنات فهي: البساتين ذوات الأنهار، والأشجار والثمار، والأنهار فهي: المياه الجارية المتفجرة، الكثيرة الحاملة الغزيرة.

﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا (١٣)﴾، ومعنى ﴿ترجون﴾ فهو: تفعلون، ومعنى تفعلون فهو: تصنعون، ومعنى ﴿وقارا﴾ فهو: إعزازا وإكبارا، وإجلالا وإعظاما، يريد عليه السلام: ما لكم لا توقرون الله وتجلونه، وتقدسونه وتنزهونه، عما تقولون فيه، وتنسبون من الكذب إليه.

﴿وقد خلقكم أطوارا (١٤)﴾، والأطوار فهي: الحالات المختلفة، أو الأصناف المفترقة، والشعوب المؤتلفة وغير المؤتلفة، في الألوان والألسنة، والخلق والهيئة، وقد يمكن أن تكون الأطوار هي: تنقيل الله لمن يخلقه في الرحم من حال إلى حال، من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ومن المضغة إلى العظام، ثم من حال إلى حال، حتى يكمل ما أراد ممن خلقه، ويظهر ما شاء من فطرته؛ والمعنى الأول -فأحسنهما عندي، وكلاهما فيجوز ولا يمتنع في المعنى.

ثم احتج عليهم صلى الله عليه بما فيه الشواهد لله على قدرته، و تصديق ما بعث به نبيه عليه السلام من وعيده ووعده: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا (١٥)﴾، يقول: ألم تبصروا وتعاينوا أثر قدرته فيما خلق من سمواته السبع الطباق، فتستدلوا بذلك على أنه الله الواحد الخلاق، والطباق فهي: الطبقات، طبقة مجعولة فوقها مركبة، بين كل سماء وسماء، ما شاء الله سبحانه من البعد والهواء.

وقوله: ﴿وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٦)﴾، فمعنى:

﴿جعل القمر﴾ أي: خلقه وصوره، وجعله فيهن نورا وقدره، فلما كان القمر في بعضهن، وهي السماء الدنيا -جاز أن يقال:" فيهن "؛ إذ كان في بعضهن، وكذلك يقول القائل من العرب:" نزلت في العراق " وإنما نزل في بعضه، ولم ينزل في كله، ويقول:" خضت البحر " وإنما خاض طرفه وبعضه، فقال:" خضت البحر "، ولم يخض منه إلا اليسير، وقد بقي منه الكثير، وكذلك يقول القائل:" رميت في عسكرهم بسهم "، وإنما في جانب منه، ولم يرم في كله، فعلى هذا المعنى يخرج قول الله سبحانه: ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾، وإنما هو: في واحدة. معنى قوله: ﴿وجعل الشمس سراجا﴾، والسراج فهو: النور المتوقد الذي يضيء به ما بين السماء والأرض، فلما أن أضاء بالشمس ما بينهما -كانت كما قال الله: ﴿سراجا﴾ فيهما.

﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧)﴾، فمعنى ﴿أنبتكم﴾ فهو: خلقكم، والمخلوق من الأرض فهو: أبو الخلق آدم عليه السلام، فلما أن كان خلقه من التراب وابتداؤه، وجعله واقتضاؤه -جاز أن يقول لمن كان منه: أنبتكم من التراب؛ إذ أصلهم منه كان، وعنه بقدرة الله بان. و﴿نباتا﴾ فهو: خلقا من التراب وتصويرا، وجعلا منه وتقديرا.

﴿ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨)﴾، فمعنى ﴿يعيدكم﴾ أي: يردكم فيها من بعد موتكم، ومعنى ﴿يخرجكم إخراجا﴾ فهو: يحييكم بعد الموت، ويخرجكم من الأرض بعد الفناء والبلى، والمصير إلى الرفات في الثرى، في يوم الدين، وحشر العالمين. ﴿إخراجا﴾ فهو: خروجا حقا، وقولا صدقا، لا يخامره باطل ولا محال، ولا فساد في قول ولا فعال.

﴿والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩)﴾، فمعنى ﴿جعل﴾ أي: فعل وسوى، وبسط ودحا، و﴿بساطا﴾ فهو: فراشا مبسوطا يرقد عليه، ويوافى في كل الحالات إليه؛ فشبه الأرض في انبساطها للخلق -بالبساط المبسوط لهم،

الذي يجلسون عليه؛ إذ كانت لهم مضجعا ومفترشا، ومأوى ومبسطا؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿لتسلكوا منها سبلا فجاجا (٢٠)﴾، يقول سبحانه: جعلناها لكم بساطا منبسطا، طويلا عريضا، ذا بعد ومدى. ﴿لتسلكوا منها﴾: لتسيروا فيها. ﴿سبلا فجاجا﴾، والسبل فهي: الطرق، و﴿فجاجا﴾ فهو: جوانبا وشعابا؛ لأن الفج هو: الشعب العظيم من الأرض، والجانب الواسع الذي يكون بين الجبال؛ فسمى ذلك: فجاجا.

﴿قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١)﴾، معنى ﴿عصوني﴾ أي: خالفوني ولم يطيعوني، وجنبوا عن أمري، واستخفوا بدعوتي. ﴿واتبعوا﴾ فهو: أطاعوا، وأحبوا وأرادوا. ﴿من لم يزده ماله وولده إلا خسارا﴾، يقول: لم يزده ما رزقته من المال والولد إلا خسارا، أي: كفرانا وعصيانا، حتى خسر بماله وولده ما ربح المؤمن بهما، من الشكر لربه سبحانه عليهما، فصار لنعم الله خاسرا؛ إذ كان له في ذلك غير شاكر، وبما أعطاه منه غير ذاكر.

﴿ومكروا مكرا كبارا (٢٢)﴾، يعني نوح صلى الله عليه: قومه، ومعنى ﴿مكروا﴾ فهو: تخبثوا وتحيلوا علي، وأداروا دوائر السوء في؛ و﴿كبارا﴾ فهو: مكرا كبيرا، عظيما كثيرا، والمكر فهو: ما ذكرنا من البغي والخدائع.

﴿وقالوا لا تذرن ءالهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا﴾: وهذا قول من قوم نوح صلى الله عليه، حين دعاهم إلى الله، وأمرهم بترك ما يعبدون من دون الله، فقالوا: ﴿لا تذرن ءالهتكم﴾، وهو قول من بعض لبعض، وآلهتهم فهي: الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، ومعنى ﴿لا تذرن﴾ فهو: لا تتركن ولا تخلن، ولا تفارقوا ولا تدعن.

﴿ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣) وقد أضلوا كثيرا﴾، فهؤلاء

الأصنام كلها: أصنام كانت تعبد من دون الله؛ فأما سواع ويغوث ويعوق ونسر -فكانت باليمن، وأما ود فكان بدومة الجندل، وأما سواع فكان بجوف همدان، وأما يعوق فكان بخيوان، وأما يغوث فكان في حمير، وأما نسر فكان في مراد مذحج، وكان قوم نوح يجلونها ويعظمونها وإن لم تكن عندهم، فتعلقوا بعبادتها، وتآمروا بأن لا يخلوا عنها ولا يتركوها، وأن يثبتوا عليها، ويخالفوا نوحا صلى الله عليه وما يدعو إليه.

ثم قال عليه السلام: ﴿وقد أضلوا كثيرا﴾، ومعنى ﴿وقد أضلوا كثيرا﴾ يخرج على معنيين:

فأما أحدهما: فعلى مجاز الكلام؛ فيكون عنى صلى الله عليه: الأصنام، فجاز أن يقال: أضلوا؛ لما أن كان الضلال عن غيرها بأسبابها -جاز أن يقال: أضلوا.

والمعنى الآخر: أن يكون عنى بالإضلال: من يدعو إلى عبادة الأصنام من الناس، من قومهم وغيرهم؛ وهذا عندي أشبه المعنيين وأحسنهما.

﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (٢٤)﴾ فهي: دعوة من نوح عليه السلام على الظالمين، أن لا يزيدهم الله إلا ضلالا، والضلال فهو: الخذلان؛ فسأل الله سبحانه نوح صلى الله عليه أن يزيد من عصاه خذلانا وشقاء، حتى يكون ذلك مستوجبا للعذاب والبلاء.

ثم أخبر سبحانه بما نزل عليهم من العذاب الذي حل بهم، فأغرق كل من كان منهم، فقال: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾، فمعنى ﴿مما خطيئاتهم﴾ فهو: بخطيئاتهم أغرقوا، ومعنى " من " معنى الباء، أراد: بخطيئاتهم أغرقوا، فأقام " من " مقام الباء؛ لأنها من حروف الصفات، يخلف بعضها بعضا؛ وقد تقدم شرحنا في ذلك، وذهبت النون من " من "؛ لأنها أدغمت في الميم، فبقي ﴿مما خطيئاتهم﴾، و" ما " هاهنا فهي: صلة، المعنى فيها: من خطيئاتهم، ومعنى " من

خطيئاتهم فهو: بخطيئاتهم، فقامت " من " مقام الباء، أراد: بخطيئاتهم أغرقوا، فأدخلوا نارا من بعد الإغراق، وخطيئاتهم فهي: ذنوبهم، وعصيانهم لربهم، الذي به هلكوا، وبسببه أغرقوا.

﴿فأدخلوا نارا﴾ أي: صيروا إلى النار، وجعلت لهم موضعا وقرارا. ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا (٢٥)﴾، يقول: لم يكن لهم مدافع لله عنهم، ولا ناصر منه لهم، يدفع عنهم ما نزل بهم من عذابه، ولا يحجز عنهم ما حكم به، من إغراقهم، على ما كان من عصيانهم. و﴿أنصارا﴾، والأنصار فهم: المدافعون عنهم من الأعوان.

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦)﴾، فهذا دعاء من نوح صلى الله عليه على الكافرين، ومعنى ﴿لا تذر﴾ أي: لا تترك ولا تدع، ومعنى ﴿على الأرض﴾ فهو: في الأرض، والكافرون فهم: العاصون، الفجرة المكذبون. ﴿ديارا﴾ فهو: أحد يدور؛ لأن " ديارا " مشتقة من " يدور "، ومعنى " يدور " فهو: يجول في الأرض ويجوب، وسواء قيل: ديارا أو دوارا؛ لأن العرب تقيم الياء مقام الواو، والواو مقام الياء، في كلامها وأشعارها.

قوله: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا (٢٧)﴾ هذا قول من نوح عليه السلام، يقول: إنك يا رب إن تذرهم ولا تأخذهم -يضلوا عبادك الذين يقدرون عليهم، وينالون إضلالهم؛ ومعنى ﴿يضلوا﴾ أي: يهلكوا ويغووا، ويفسدوا ويكفروا من قدروا عليه، من جهلة العباد، حتى يفسدوا بذلك البلاد. ﴿ولا يلدوا﴾، يقول: لا يخرج من أصلابهم إلا ولد يتبعهم في كفرهم، ويساعفهم في تكذيبهم، ويتبعهم في دينهم، فيكون بفعله ذلك فاجرا كفارا، فاسقا غادرا.

ثم دعى صلى الله عليه لنفسه ولوالديه، ولمن دخل بيته مؤمنا، وللمؤمنين

والمؤمنات، فقال: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات﴾، ومعنى ﴿دخل بيتي﴾ فهو: دخل إلى بيتي، ودخل في ديني مؤمنا مصححا، فكان بذلك مني ومن أهل ملتي؛ ألا تسمع كيف يقول ﴿مؤمنا﴾، يريد أي: دخل إلي بقلب مؤمن، ونية صادقة؛ والمؤمنون فهم: المطيعون الذين قد أمنوا أنفسهم بطاعة ربهم، من وقوع عذابه عليهم، وكذلك معنى المؤمنات.

ثم قال صلى الله عليه تكريرا للدعاء على الفاسقين، وتقربا بذلك إلى رب العالمين، فقال: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تبارا (٢٨)﴾، والظالمون فمعناها: الذين ظلموا أنفسهم، بإدخالها في معاصي ربهم، حتى استوجبوا منه بذلك الفعل ما استوجبوا من العقاب، ومن ظلمهم لأنفسهم، وظلمهم لعباد ربهم، وغير ذلك من سائر أفعالهم المحرمة في دين الله عليهم. قوله: ﴿إلا تبارا﴾، فمعنى التبار فهو: البوار، ومعنى البوار فهو: الذهاب والفناء، والنقصان في كل الأسباب.

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿قل أوحي إلي﴾: معنى ﴿قل﴾ أي: خبر واذكر ﴿أوحي إلي﴾ أي: أنزل علي وأخبرت ﴿أنه استمع﴾ أي: حضر واستمع قولي وقراءتي. ﴿نفر من الجن﴾ فهي: جماعة من الجن، والجن فهم الشياطين. ﴿فقالوا إنا سمعنا قرءانا عجبا (١)﴾، معنى ﴿فقالوا﴾ أي: ذكروا وأخبروا، ومعنى ﴿إنا﴾ هو: إخبار عما كانوا معهم، ومعنى ﴿سمعنا﴾ أي: وقع في آذاننا كلام وسمعناه. ﴿قرءانا﴾ فهو: كتاب الله الذي سمعت الجن من رسول الله. ﴿عجبا﴾ أي: جيدا، محكما بين الهدى.

﴿يهدي إلى الرشد﴾، يقول: يدل بها على الرشد ويوضحه، ويبينه ويشرحه. ﴿فآمنا به﴾، يقول: صدقنا به أنه من عند ربنا، وأن الذي جاء به –نبينا. ﴿ولن نشرك بربنا أحدا (٢)﴾، أي: لا نكفر بربنا، ولا نشركه معه في طاعته، ولا العمل إلا له خالصا، ومعنى ﴿أحدا﴾ أي يقول: خلقا صغيرا ولا كبيرا.

﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾، فمعنى ﴿تعالى﴾ هو: تقدس وعلا، وعظم عن مشابهة شيء من الأشياء، ومعنى ﴿جد ربنا﴾ أي: أمر ربنا وفعله، يقول: تعالى أمره، وعظم شأنه، ومعنى ﴿ربنا﴾ هو: مالكنا وخالقنا. ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدا (٣)﴾ فهو: إقرار من الجن بتوحيد الله سبحانه، وشهادة منهم أنه لم يتخذ

صاحبة ولا ولدا، ومعنى ﴿اتخذ﴾ فهو: جعل وأعد، ومعنى ﴿صاحبة﴾ فهو: الزوجة التي يسكن الزوج إليها، وينتفع في كل الحالات بها، والولد فهو: الذي يخرج من الأب ومن الزوجة معا؛ فأخبر الله سبحانه عن مؤمني الجن بما شهدوا به من شهادة الحق، وما قالوا به في الله من قول الصدق، ومن أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا؛ وكيف يتخذ - جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله، وتعالى عن قول المبطلين شأنه - صاحبة أو ولدا، وإنما يحتاج إلى الصاحبة المجعول المؤلف، المتولد الذي كان من الصاحبة والوالد؛ فأما من لم يكن من صاحبة ولا والد فلن يكون له صاحبة ولا ولد؟!! بل هو الواحد الدائم الأحد، الفرد القدوس القديم الصمد، الذي لا يشبهه أحد، ولا يغيره الأبد؛ فذلك الله الواحد الفرد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد.

وهذا القول كان من الجن لما أن سمعوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يقرأ القرآن، في صلاة الصبح يوما من الأيام؛ وذلك: أن الله سبحانه صرف إليه نفرا من الجن استمعوا ما يتلو، فيؤدوه إلى جميع الجن، ليكون ذلك دعوة منه لهم، واحتجاجا منه عليهم؛ وذلك قوله سبحانه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن (٢٩)﴾ [الأحقاف]، فأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فلما أن سمعوا ما يتلو من كتاب الله قالوا ما ذكر الله من هذا القول، والإيمان به، والتصديق له، والإقرار برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقبلوا ذلك بأحسن قبول يكون من القابلين، ثم تولوا إلى قومهم منذرين.

ثم كان من إقرارهم على سفهائهم الجاحدين به، بحجج نبيئهم بالكفران، والشطط والعصيان، وذلك قولهم: ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا (٤)﴾، ومعنى ﴿كان يقول﴾ أي: لم يزل يقول ﴿سفيهنا﴾ أي: كافرنا. ﴿على الله شططا﴾ فهو: كذبا وزورا وباطلا، وأمرا جسيما جليلا؛ لأن الشطط في كل معنى هو: الأمر الصعب العظيم.

﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا (٥)﴾، ومعنى ﴿ظننا﴾: أيقنا، ومعنى ﴿أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا (٥)﴾ أي: أن شرار الإنس والجن يقولون على الله الكذب، و" لن " هاهنا حشو وتزيين للكلام.

﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا (٦)﴾: فهذا إخبار من الله عز وجل عمن كان من الإنس يعوذون بالجن، ومعنى ﴿يعوذون﴾ فهو: يلوذون ويستجيرون. ﴿فزادوهم رهقا (٦)﴾ أي: فزادوهم إثما وبلاء، ولم ينفعوهم في شيء من الأشياء، التي طلبوا منفعتهم فيها، ليزدادوا بفعلهم رهقا؛ والرهق فهو: ما ذكرنا من الإثم عند الله والضرر، وذلك: أن العرب في الجاهلية كانوا إذا نزلوا واديا، أو فضاء من الأرض في مجمعة أو سفر -قالوا عند وقت نزولهم، وحطهم لرحالهم:" إنا نعوذ بكبراء أهل هذا الوادي وسكانه من الجن من شر شرارهم "، فكانوا كذلك، فيعوذون بالجن، ويتركون التعوذ بالله؛ فأخبر الله سبحانه: أن ذلك يزيدهم إثما، وبلاء وجرما، ولا يرون به منفعة ولا رخاء، ومعنى ﴿فزادوهم رهقا﴾ أي: زادوهم بتعوذهم إثما وبلاء.

﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا (٧)﴾، معنى ﴿وأنهم ظنوا﴾ فهم: سفهاء الجن، كانوا يظنون كما يظن أهل الجاهلية من الإنس. ﴿أن لن يبعث الله أحدا﴾ أي: أن لن يبعث الله رسولا إليهم، فكانوا في الإنكار للرسل هم وسفهة الإنس سواء، حتى جاءهم من الله البيان، ووضح لهم الحق بأوضح البرهان، ومعنى ﴿يبعث﴾ فهو: يرسل رسولا، يحتج بحجته، ويدعو الثقلين إلى طاعته.

﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا (٨)﴾، فمعنى ﴿لمسنا السماء﴾ أي: حسسناها، واستخبرنا خبرها وجاورناها؛ لنعلم خبر أمرها: ما هذا الذي حدث فيها؟ ﴿فوجدناها﴾ أي: وجدنا من أمرها وخبرها أنها ﴿ملئت حرسا﴾، ومعنى ﴿ملئت﴾ أي: جعل فيها كلها حتى أحصيت،

والحرس فهم: الملائكة صلوات الله عليهم الذين يحرسون مقاعد السماء وأقطارها، من مردة الجن وشياطينهم؛ لكي لا يأخذوا شيئا من أخبارها، ومعنى ﴿شديدا﴾ فهو: قويا حافظا. ﴿شهبا﴾ فمعناها: نجوما متوقدة، جعلت لهم رجوما، وإنما سميت شهبا لتوقدها وتلهبها؛ فشبهت بالنار في توقدها.

وهذه النجوم فلم يكن يرمى بها من قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وتنبأ، ونزل عليه من الله الوحي -حرست السماء ممن كان يقعد من مردة الشياطين في مقاعدها، وتسمع أخبار ملائكتها، فتنزل به إلى إخوانهم من كهنة الأرض؛ فأراد الله تبارك وتعالى: أن يبطل أخبار الكهنة، حتى لا يعلم أحد من أهل الأرض شيئا من أخبار السماء، فمنع سبحانه الشياطين من استراق السمع بهذه الشهب التي تقذفهم الملائكة بها، التي حرسها سبحانه عليهم، وأمرها بهم، كرامة منه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله، وحياطة لوحيه؛ لئلا ينزل إلى الأرض من علم السماء شيء، إلا على لسان نبيئه صلى الله عليه وعلى آله، وقد كانت الشياطين تسترق من أخبار الملائكة، وتخابرها بينها بما يأتيها من الله ربها، من أمره لها بما يكون من سقي البلاد، وغيره من أخبار ما يأمر الله به ملائكته، تتخابر به الملائكة بينها في السماء الدنيا، فتسترقه مردة الشياطين، وتنزل به إلى كهنة الأرض؛ فلم يزالوا كذلك، حتى بعث الله نبيئه صلى الله عليه وعلى آله، فحجبت الشياطين عما كانت عليه، بهذه النجوم التي تقذفها بها عند طلبها ما كانت عليه من استماعها؛ ألا تسمع كيف قالت الجن عند ذلك: ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا (٩)﴾، فأخبر: أنها كانت تقعد من السماء مقاعد، والمقاعد فهي: المواضع التي يصعد فيها من يقعد فيها للاستماع. ثم قال: ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا (٩)﴾، يريد فمن يقعد الآن للاستماع يجد له شهابا رصدا، يقول: يجد له نجما منها. ﴿رصدا﴾، أي: مستعدا، فيقذف به عندما

يكون من مداناته.

ثم قالوا عندما عاينوا من تلك الشهب المستعدة لهم، الراصدة لمن طمع بالاستماع بعد مبعث محمد صلى الله عليه وعلى آله منهم، فقالوا: ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا (١٠)﴾، يقولون: لا ندري أهذا الذي حدث من أمر الله: ألشر يريد أن يجعله في الأرض، يهلك به أهلها، أم لرشد ينزله فيها، فيتفضل به على سكانها؟ والشر فهو: العذاب والبلاء، والرشد فهو: الخير والرحمة والهدى. ولعمري: لقد جعل الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض كل هدى، وكل خير ورخاء.

ثم رجع الخبر إلى قول النفر الذين صرفوا من الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فاستمعوا منه، وذهبوا إلى قومهم منذرين، فحكى قولهم، وهو قوله: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا (١١)﴾، فأخبروا: أن منهم " الصالحون "، والصالحون فهم: المؤمنون، وأن منهم دون ذلك، بقول:" دون المؤمنين "، ومن كان دون المؤمنين فهو: من الكافرين. ثم أخبر سبحانه عن أنفسهم: أنهم في الاختلاف ﴿طرائق قددا﴾، والطرائق فهي: الألوان المختلفة، والأشياء التي هي غير مؤتلفة؛ فأخبروا: أنهم مختلفون في المعرفة بالله والطاعة له، فمنهم المؤمن التقي، ومنهم المنافق الردي، ومنهم الكافر الغوي، و﴿قددا﴾ فمعناها: بددا، ومعنى بددا أي: شعوبا فرقا.

﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله﴾، فمعنى ﴿ظننا﴾ أي: أيقنا. ﴿أن لن نعجز﴾: ثبتت هاهنا " لن "، ولم تثبت في قوله: ﴿أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا (٥)﴾، أرادوا: أنهم موقنون أنهم لن يعجزوا الله في الأرض إن استتروا بها، وكانوا تحتها، وفي أكنافها، وأنهم لن يعجزوه هربا إن ذهبوا في الأرض هاربين، ومن مخافته طائرين، فأقروا بقولهم ما قالوا من ذلك -بقدرة الله عليهم، وأنه لا مهرب منه إلا إليه، وأنه لن يعجز الله أحد ممن في الأرض، ولا ممن في السماء، لا

من مقيم ولا ممن ذهب على وجهه هربا.

ثم أخبر بما كان منهم من القبول للهدى، فقال: ﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به﴾، والهدى الذي أخبروا أنهم سمعوه فهو: كتاب الله الذي قبلوه، ومعنى ﴿آمنا به﴾ فهو: صدقنا به. ﴿فمن يؤمن بربه﴾، يقول: يصدق بقول ربه، ووعده ووعيده، فقد آمن به حق إيمانه. ﴿فلا يخاف بخسا ولا رهقا (١٣)﴾ يقول: لا يخاف مع إيمانه بخسا، والبخس فهو: نقصان الثواب، ونقص ما جعل الله للمحسنين على إحسانهم، وقوله: ﴿ولا رهقا﴾ يريد: ولا يخاف من الله إرهاقا بعذاب، ولا حكما عليه بإثم في شيء من الأسباب.

ثم قال: ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾، فأخبر مؤمنو الجن: أن منهم " المسلمون " في دينهم، ومنهم " القاسطون " في فعلهم، فأما المسلمون فهم: المستسلمون لأمر الله، القابلون له، وأما القاسطون فمعناها: العادلون بالله غيره، والعادلون فمعناها: العابدون معه سواه، والمطيعون غيره، والعاصون له؛ ومن العادلين: المشبهون له، ومن العادلين: المجورون له، الذين عدلوه بغيره، ومعنى " عدلوه " أي: شبهوه ومثلوه بخلقه. ثم أخبر مؤمنو الجن بما أخبرهم الله؛ تصديقا لوعده ووعيده، فقال: ﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا (١٤)﴾، يريد أي: فعلوا صوابا، وقبلوا هدى.

﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا (١٥)﴾، يقول: صاروا بفعلهم وقودا لجهنم، وحطبا لها، أي: تحرقهم وتوقد بهم، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿نارا وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم: ٦].

ثم انقضى قول مؤمني الجن، ورجع القول والخبر إلى الله ذي القدرة والطول، ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (١٦)﴾، يعني بالاستقامة: بني آدم، يقول سبحانه: لو

استقاموا على الطاعة لنا، والطريقة هي: الأمر الذي افترضه الله عليهم، والطريق التي عليها أوقفهم من طاعته وعبادته. ﴿لأسقيناهم﴾ يقول: أنزلنا عليهم من السماء ﴿ماء غدقا﴾، والغدق فهو: الكثير.

ثم قال: ﴿لنفتنهم فيه﴾ وبه؛ فننظر شكرهم لنا عليه، أو كفرهم لنعمنا فيه؛ فأخبر: أنهم لو كانوا على الحق ولزموه لرأوا من نعم الله ما لن يحصوه، وأنزل عليهم من الماء ما يحيي به بلادهم، وتكثر به ثمارهم، ويزيد في أموالهم، ويوسع عليهم نعمهم، ويشبع بطونهم، كما قال سبحانه في غير هذه السورة: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦)﴾ [الأعراف]؛ فأخبر سبحانه: أنه ليس بين عباده وبين كراماته، إلا ما هم عليه من معاصيه، والأثرة لما لا يرضيه.

ثم قال: ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابا صعدا (١٧)﴾، ومعنى ﴿يعرض عن ذكر ربه﴾ هو: يترك ذكر ربه، ومعنى ﴿ذكر ربه﴾ فهو: خوف ربه وطاعته. ﴿نسلكه عذابا﴾ أي: ندخله فيه، وكذلك تقول العرب:" اسلك موضع كذا وكذا " أي: ادخل فيه وأمضه، وتقول:" اسلك الخيط في الإبرة "، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء (٣٢)﴾ [القصص]، يريد: أدخلها جيبك ثم أخرجها. ومعنى ﴿صعدا﴾ فهو: التعب الشديد؛ فشبه الله سبحانه هذا العذاب مع غيره من العذاب: بالصعد مع السهل على من سلكهما، والصعد فهو: التصعيد في الجبل الشامخ، الصعب المنتصب.

ثم قال سبحانه: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١٨)﴾، فأخبر عز وجل: أن بيوت الله ومساجده -لله تبنى، وعلى طاعته تبتدأ، ثم نهاهم أن يدعوا فيها غيره، ومعنى ﴿تدعوا﴾ فهو: تذكر وتعبد؛ فأمره الله بتوحيده، وإخلاص العبادة له؛ وأمره له صلى الله عليه وآله فهو: أمر لجميع الأمة، أمرهم

الله أن يكونوا له في العبادة كذلك، وأن لا يفعلوا كما يفعل أهل الكفر والمهالك، من اليهود والنصارى، الذين يشركون مع الله غيره، عند اجتماعهم في كنائسهم وبيعهم، وأعيادهم وعبادتهم بزعمهم - لعنهم الله - لربهم، ويدخلون في تلك الكنائس والبيع عبادة غير الله، وذكرهم المسيح والعزير، وغير ذلك مما يأتون به، ويذكرونه في مواضعهم هذه من كفرهم.

ثم ذكر ما يكون من الكفرة الفاسقين، المحاربين لله ولرسوله عليه السلام المعاندين، عند قيام رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الله، يدعو الله ويوحده، وينفي عنه كل ظلم وينزهه، من الإجماع عليه بالقبيح من فعلهم، وما كادوه به من كيدهم، حتى صرف الله ذلك عنه، وسلمه برحمته صلى الله عليه وآله منه، فقال عز وجل مخبرا بمنته على عبده، فقال: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (١٩)﴾، يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لما قام يدعو الله ويوحده -كاد مشركو قريش أن يكونوا عليه لبدا، ومعنى ﴿كادوا﴾ فهو: أرادوا وهموا، ولم يفعلوا إذ لم يقدروا. و﴿يكونون عليه لبدا﴾ أي: فهم يغشونه جميعا معا، حتى يقعوا بأنفسهم عليه، ويبلغوا ما أملوا فيه، من الهلكة التي صرف الله سبحانه عن نبيئه تلفها، ومنعهم بعزته بلوغها؛ وذلك من قريش وغيرهم ممن تبعهم: كفرا بالله، وحسدا لرسول الله، صلى الله عليه وآله؛ فأرادوا: أن يرموه بأنفسهم معا؛ لأن يجتثوه من الأرض اجتثاثا، فيستأصلوا شأفته - صلى الله عليه وعلى آله – استئصالا، غضبا عليه في طاعة الله، ومشاقة وكفرا منهم بالله.

وقد قال غيرنا: إن الذين كادوا يكونون عليه لبدا هم: مؤمنو الجن الذين استمعوا القرآن، فكادوا يغشونه ويطؤونه؛ محبة منهم له.

وليس ذلك يصح في البيان، وليس هم إلا من ذكرنا من مشركي الإنسان؛ ألا تسمع كيف قال لهم؛ إنكارا منه لفعلهم، الذي كادوا أن يكونوا منهم: ﴿قل إنما

أدعوا ربي ولا أشرك به أحدا (٢٠) قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا (٢١) قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا (٢٢) إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا (٢٣)﴾، فدل هذا من قوله على أنه جواب واحتجاج على كل منكر عليه في فعله، زار عليه في دعاء ربه؛ فاحتج عليهم بما تسمع، وليس هذا جواب يصلح أن يكون لمن صدقه، وآمن به واتبعه؛ وهذا فلا يغبى عند قراءة الآية على ذي معرفة وعقل، وتبصرة وتمييز بين الأمور، ووقوف على الخير والشرور.

وقوله: ﴿أدعوا ربي﴾ أي: أسأله، وأخلص الديانة له، وقوله: ﴿ولا أشرك به أحدا (٢٠)﴾ يريد: لا أشرك معه في دعائي وتعبدي له أحدا.

﴿لا أملك﴾ معناها: لا أقدر لكم أيها المنكرون علي في عبادة ربي ﴿ضرا ولا رشدا (٢١)﴾، يقول: لو كنت أملك لكم ضرا لضررتكم؛ ولكن الضار المرشد -الذي هو ربكم وربي.

ثم قال: ﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد﴾، يقول: لو عندت عن دينه، وأطعت غيره -لم أجد من دونه من يجيرني منه؛ فكيف أعدل عنه كما عدلتم؟! إذا لهلكت كما هلكتم. ﴿ولن أجد من دونه ملتحدا (٢٢)﴾، يقول: إذا لم أكن أجد من دونه ملجأ ولا مفرا، ولا ملتحدا ألتحد فيه، ومعنى ﴿ملتحدا﴾ فهو: موضعا ومستندا، ومكانا يلجأ إليه من عند؛ من ذلك ما تقول العرب:" ألحد اللحد للميت "، أي: اجعل له موضعا يلجأ إليه، وينحجز عن متراكم التراب فيه، أي: ينحاز عن التراب إليه، ويهرب منه فيه، ويتحجر به عنه؛ وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (١٠٣)﴾ [النحل]، فقال: ﴿يلحدون إليه﴾، يريد: يسندون إليه، ويزعمون أن محمدا مسند إليه، متعلم منه، ملتجئ إليه في أمره.

ثم قال سبحانه: ﴿إلا بلاغا من الله ورسالاته﴾، يريد سبحانه: أنك لا تجد ملتحدا ولا ملجأ من الله، ولا مخلصا يخلصك من عذابه. ﴿إلا بلاغا من الله ورسالاته﴾، يريد بقوله: ﴿بلاغا﴾: إلا تبليغك عن الله رسالاته، وصبرا على أمره، ومضيا على طاعته، واصطبارا على حكمه؛ فإن هذه الأشياء هي البلاغ من الله، إذا فعلته فهو المجير لك من عذاب الله، والملتحد: الذي يلتحد إليه، ويلجأ من أمر الله، وينجي من عذابه، ولن ينجيك غير طاعة الله من عذابه؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا (٢٣)﴾، فأخبر سبحانه: أن من يعص الله ورسوله، فإن الله قد جعل مأواه جهنم، ومعنى ﴿له نار جهنم﴾ أي: أنها له قرار ومنزل، ومعنى: ﴿خالدين فيها أبدا﴾ أي: فهم مقيمون فيها أبدا، ومعنى ﴿أبدا﴾ فهو: دائم سرمد، لا غاية له ولا أمد.

﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾، يقول: حتى إذا عاينوا وأبصروا ما كانوا يوعدون، من الوعيد الذي كانوا به يكذبون، وهو العقاب والحساب الذي به يجزون. ثم قال: ﴿فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا (٢٤)﴾، يقول سبحانه: ﴿فسيعلمون﴾ أي: فسيرون ويبصرون، ويوقنون ويعرفون ﴿من أضعف ناصرا﴾: أهم أم محمد صلى الله عليه وعلى آله؟ لأن ناصرهم الشيطان، وناصر محمد الرحمن؛ فهذا تقريع من الله لهم، وتبكيت بضعفهم، وضعف ناصرهم، وإعلام منه أنهم لما يعبدوا من ينفعهم، ويطيعوا من يضرهم إن أراد ضررهم، وأنهم إنما يعبدون من هو أضعف منهم، ممن يعبدون من دون ربهم. ﴿وأقل عددا﴾، يقول: أقل عاضدا له، وقائما معه، وكارها لما كره، وساخطا لما سخط: أمحمد صلى الله عليه وعلى آله أقل مواليا أم أنتم؟ ومحمد صلى الله عليه وآله فالموالون له الملائكة المقربون، وجميع المؤمنين من الثقلين. وقد يحتمل أن يكون معنى الآية: مثلا ضربه الله لهم، يخبرهم فيه: أنه تبارك وتعالى أقوى على

نصر أوليائه -منهم على نصر أوليائهم، وقوله: ﴿أقل عددا﴾ يريد: أقل جندا وأولياء، وطاعة وخدما، وأنفذ أمرا، في كل ما أراد وشاء تبارك وتعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا (٢٥)﴾، فأمره سبحانه: أن يقول لهم: إنه لا يدري متى يوم القيامة، ولا كم بقي من الدهر إليها، ولا متى يكون ذلك اليوم الذي يوعدون فيه ما يوعدون، من العذاب الأليم، والخلود في الهوان المقيم، أراد بذلك: إعلامهم أن العلم لله وعنده، وأنه لا يعرف أمد ذلك اليوم ولا وقته، ومعنى قوله: ﴿إن أدري﴾ أي: أعلم، ومعنى ﴿أقريب﴾ أي: أدان ما توعدون. ﴿أم يجعل له ربي أمدا﴾ يقول: أم يطول ربي أمده، ويبعد كينونته ومجيئه؛ علم ذلك كله عند الله، لا يعلمه سواه، ومعنى ﴿أمدا﴾ فهو: طولا وإنساء، وتأخيرا إلى أي الأوقات شاء.

﴿عالم الغيب﴾، والغيب هو: ما غاب واستتر، واستجن فلم يظهر. ﴿فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦)﴾، يقول: لا يطلع على ما عنده من العلم أحدا.

﴿إلا من ارتضى من رسول﴾، يقول: إلا من اختار لوعده وغيبه، وتبليغ رسالاته، فإنه يطلع ذلك الذي يختاره، على ما يشاء من علم غيبه، وما يعلمه من أسباب خلقه. ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (٢٧)﴾، يقول سبحانه: يجعل من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظون أمره، وهم الذين قال الله سبحانه: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧)﴾ [ق]، فليس رسول مرسل، ولا عامل يعمل، إلا وعن يمينه وعن يساره من يحفظ عليه من بين يديه ومن خلفه ما عمل، ويحصي عليه ما فعل؛ وكذلك أخبر الله سبحانه: أنه يجعل من بين يدي من ارتضى من خلقه حفظة يحفظون عليه، ويشهدون له بالفلاح والنجاح، والأداء والنصيحة، ومعنى ﴿رصدا﴾ أي: فهم يحفظون حفظا، وينتظرون ما يكون من فعله، ويترقبون ما يأتي منه من التبليغ والصبر والاجتهاد؛ ليشهدوا له بذلك في يوم المعاد. وقد يمكن ويكون - والله أعلم وأحكم -: أن يكون معنى

قوله: ﴿يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (٢٧)﴾ فهو: جعل من الله مع من ارتضى، من التوفيق والتسديد، والمعونة والتأييد –ما يحفظه الله به من الزلل والخطأ، وغير ذلك من الأعداء؛ فيكون شبه ما جعل معهم من التوفيق والتسديد –بالراصد لمن يرصد، من حفظة العبيد؛ بل يكون ذلك من الله حفظا هو أحوط من الراصد المتحفظ، وضرب لهم هذا مثلا بينا؛ ليعلموا ما حفظ الله لمن اختار من خلقه وتنبأ.

﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾، يقول سبحانه: ليكون منهم في التبليغ أمر وصبر، وحزم وفعل، يعلم الله أنهم قد فعلوا وصبروا عليه، وصمموا فيه، من تبليغ رسالات ربهم إلى خلقه، فيقع علمه بأنهم قد فعلوا، ويكون فعلهم نافذا بما أمروا؛ فهذا معنى: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾. ﴿وأحاط بما لديهم﴾ فإخبار منه سبحانه: أنه محيط بما لديهم، ومعنى ﴿أحاط﴾ فهو: علم وأحصى، ومعنى ﴿لديهم﴾ فهو: عندهم. ﴿وأحصى كل شيء﴾، فمعنى ﴿أحصى﴾ هو: أحاط وحفظ كل شيء يكون من الأشياء، التي لا يؤوده حفظها، ومعنى ﴿عددا﴾ فهو: أحصى لكل شيء، وأحاط به على وجهه، حتى يكون كل شيء مثبتا عنده حرفا حرفا، كما ثبت العدد في يد العاد تثبيتا، ويعقده بيده واحدا واحدا؛ فأخبر سبحانه: أنه محيط بما عند رسله عالم به، وعند غير رسله، وأنه محص لكل شيء يدركه من الأشياء، وإحاطته بها كما يكون إحاطة من حسب شيئا لما يحسبه ويبينه ويعقده في يده ويعرفه؛ فمثل لهم سبحانه حفظه بعدد الأشياء ومعانيها –بما يعرفون من حفظ ما عقد باليد وحسب؛ لأن احفظ ما يحفظون، وأبين ما به يعرفون حساب كل شيء ومبلغه –هو: بالعدد والإحصاء، والحساب والاستقصاء.

سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ [المزمل: ١]

قال في كتاب المنتخب للإمام الهادي عليه السلام بعد ذكره للآية:

فكان ذلك من الله توقيتا لما فرض من الصلاة في الليل، من المغرب والعتمة فرضا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾ [المزمل: ٢٠]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾، إلى قوله: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾، فقلت: إن بعض الناس زعم: أن هذا فرض من الله، وقال بعضهم: نافلة؟

واعلم - رحمك الله - أن الله عز وجل لم يعن بما ذكر من الصلاة في أول هذه السورة وآخرها، إلا صلاة العتمة المفروضة؛ فجعل هذه الأوقات لمن كان كذلك وقتا؛ ألا تسمع كيف قال سبحانه: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا﴾؛ فأوجب على كل مريض، وعلى كل مسافر، وعلى كل مجاهد فعل ذلك، وإقامة الصلاة في هذه الأحوال كلها، ولا يجب ما أوجب الله من ذلك، على من كان من الخلق كذلك، إلا وهو فرض مؤكد، وأمر مشدد. ولا يعرف لله في الليل فرض صلاة مفروضة، إلا ما ذكرنا من العتمة والعشاء، وقد شرحنا ذلك وفسرناه، واستقصيناه فيما شرحنا من تفسيره في سورة المزمل.

وقال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام، بعد ذكره للآية ما لفظه:

فأمرهم بالقراءة لما تيسر من القرآن في قيامهم وصلاتهم؛ فدل بما افترض عليهم من القراءة في أي هذه الأوقات كان قيامهم فيه - على فرض العتمة التي بينها الرسول عليه السلام، وهي العشاء التي سماها الله في قوله: ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾، والعشاء فهي: التي يدعوها الناس العتمة.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، في تفسير السورة، في سياق بيان أوقات الصلاة:

فدل سبحانه فيما نزل من هذه الآيات، على: ما قلنا به من الأوقات، فيما فرض في الليل من الصلوات، ودل على: ما يجب في الصلاة، من: الذكر والتسبيح والقراءة؛ فلا يكون أبدا المزمل إلا مضطجعا أو نائما، ولا يصلح أن يكون أبدا قاعدا ولا قائما.

والتزمل هو: الاستغشاء والتدثر، والاضطجاع والنوم، وقد يكون في أحدهما المتدثر الذي يتزمل ويتدثر، ولا يكون أبدا إلا أول الليل وآخره؛ فجعل ذلك سبحانه كله وقتا لقيامه، ولتأخره فيه بصلاته واستيفائه، إلا الأقل، وهو: ما اشتبه منه، فلم يتبينه من يريد أن يتبينه، فندري: أفي الفجر هو أو في الليل؟ فليس لأحد أن يؤخر صلاة ليله إلى مثل ذلك الوقت من التأخير؛ لأنه ليس له أن يصلي إلا في وقت بيقين، وهو: ما وضع الله في الوقت من التبيين، وليس يوجد أبدا - وإن جهد - وقت صلاة الليل ويبين، حتى يدركه العلم البت واليقين، إلا سواد الليل وظلمته؛ ولذلك ما جعله الله وقتا لهما برحمته.

وقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله:" قمه كله، إلا أقله "؛ فنهاه عن القيام في قليله، وهو ما قلنا فيه بتفصيله عندنا، مما الله به أعلم، وما فهمنا فيه الفهم، لا يفهم فيه غيره، ولا نجد تفسيرا إلا تفسيره.

ثم فصل ذلك سبحانه بأمره، فيما قلنا به من مفسره، بقوله: ﴿نصفه أو انقص منه قليلا (٣)﴾، يريد سبحانه: قبله، ﴿أو زد عليه﴾، يريد سبحانه: بعده؛ فبين سبحانه بقوله: ﴿الليل﴾: ما بين نصفه إلى أوله، وبقوله " بعده ": ما بين نصفه إلى أقله.

وتأويل: ﴿قم الليل﴾ إنما هو: في أي الليل شئت، فإنك لم تنه عن الصلاة، إلا في أقله كما نهيت، كما يقول القائل:" قم ظهرا "، وإنما يريد: عند الظهر، " وقم لحاجتنا فجرا "، وإنما يريد: عند الفجر؛ ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه﴾، يقول سبحانه: ﴿نصفه أو انقص منه﴾، وهو: ما قبل النصف، ﴿أو زد عليه﴾، وهو: ما بعد النصف؛ فبين هذا: الأوقات كلها.

وكذلك قال في تبيينها لرسوله، صلى الله عليه وآله: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم

أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ [المزمل: ٢٠]، وإنما أدنى من ثلثي الليل: عند نصفه وعند ثلثه، كما [لو] قال قائل – سوى الله لا شريك له – لمن يريد أن يأمره ويستعمله:" قم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه " –كان إنما يريد: قم عند ما أمرتك بالقيام عنده في وقته، ولا يريد: أن يقوم ثلثه قائما على رجليه. وكما [لو] يقول قائل العامل من العمال، أو أمره في نهاره بعمل من الأعمال:" اعمل كذا وكذا نهارا "، فعمل ذلك في أي وقت شاء من نهاره – لكان قد أدى إلى من أمره ما يجب عليه من ائتماره، غير مقصر فيما [أمر] به من العمل ولا مفرط، ولا مستوجب في تقديم ولا تأخير فيما أمر به لسخط؛ بل هو مؤتمر بما أمر وألزم، محافظ فيما أمر به على ما قيل وأعلم؛ فهذا عندنا وجه التأويل، وفيما فهمنا عن الكتاب في التنزيل، لا ما يقول به – والحمد لله – من لم يفهم فيه ما فهمنا عن الله من الاختلاف، الكثيرة فأنتبه القليلة – والله المستعان بنوره وتبيينه –، من: أن رب العالمين فرض مثل الصلاة الخمس على المؤمنين، أن يصلوا الليل كله، إلا – زعموا – أقله؛ فمنهم من زعم: أنه إنما فرض عليهم ثلثه، ومنهم من قال: نصفه، ومنهم من قال: ثلثيه؛ جهلا بحق الله، ومخالفة للعلم، وادعاء عليه.

و﴿ناشئة الليل﴾ فهي: الليل كله، وهي: آخر الليل وأوله؛ فكان هذا على ما قلنا أيضا دليلا؛ لقول الله سبحانه: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا (٦)﴾.

ودل أن صلاة الليل قراءة مجهور بها، يقول: ﴿ورتل القرءان ترتيلا (٤)﴾، والترتيل فهو: الجهر والتنفيل، فأما هذ القرآن فيها ونثره، فإنا لا نأمر به ولا نستحسنه؛ لما ذكرنا من قول الله سبحانه، وقول رسوله صلى الله عليه وعلى آله: ((لا تنثروا القراءة نثر الدقل))، فنحن لا نأمره بذلك في فريضة ولا تنفل.

والدليل على ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من: أن هذه

الصلوات في الليل فرض لا نافلة، وأنها فريضة من الله واجبة لازمة -قوله سبحانه: ﴿والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾؛ فدل قوله سبحانه: ﴿أقيموا الصلاة﴾، وتوكيده فيها جل ثناؤه القراءة -على أن ذلك فرض لا نافلة، وأن ما أمر الله فيها فريضة لازمة؛ إذ لم يذكرها عن رسوله تنفلا، ولا منه صلوات الله عليه تطوعا، ولا زيادة على ما يجب ويحق فرضا من الصلاة عليه، كما ذكر النافلة وما جعل له بها وفيها من القربة إليه، فقال سبحانه: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ [الإسراء: ٧٩]؛ فجعل تبارك وتعالى بين أمره بالفريضة والنافلة والإباحة فصولا بينة وحدودا.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قال الله سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿يا أيها المزمل (١)﴾، والمزمل فهو: الملتحف بلحافه، المتدثر في مضجعه؛ والمزمل معناها ومعنى المدثر سواء، وهذا أمر من الله سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وآله؛ هو الذي كان مزملا.

ثم قال سبحانه: ﴿قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه﴾، ومعنى ﴿قم الليل﴾ أي: قم لصلواتك المفروضة عليك في الليل، ومعنى ﴿إلا قليلا﴾ فهو: دليل على وقت الصلاة، يقول سبحانه: صل - إن كنت في أمر يعوقك عن صلاة العتمة إلى أن تدخل في الثلث الآخر - صلاة فرضك؛ فإن ذلك وقت لها، مع ما يكون من شاغل شغلك، الذي يعوقك عن

صلواتك.

ثم قال: ﴿نصفه أو انقص منه قليلا (٣)﴾، يقول: أو دون النصف في أول الليل.

ثم قال: ﴿أو زد عليه﴾، يقول: أو زد على النصف: إن لم يمكنك أن تصلي قبل انتصاف الليل -فصلها بعد انتصافه؛ وهذا فرحمة من الله سبحانه لعباده، ورخصة لمن شغله شاغل، لا يجد منه بدا، ولا مخلصا ولا مندفعا؛ فأخبر سبحانه: أن آخر الليل وبعد نصفه، وقبل نصفه وقت لما افترض من صلاة أوله، إذا كان المؤخر لها عن أول الليل أخرها لعذر بين صحيح، من مرض فادح، أو عرض شاغل، أو خوف أو هرب، أو مصافة عدو، ولا يقدر على الصلاة مع مقارنته، وخشية فتكه وغائلته؛ فأخبر سبحانه: أن هذه الأوقات من الليل كلها وقت لصلاة الليل المفروضة فيه؛ وسيأتي ذكر من رخص له في ذلك في آخر هذه السورة إن شاء الله. ثم قال: ﴿ورتل القرءان ترتيلا (٤)﴾، يقول: تبينه تبيينا.

﴿إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥)﴾، معنى ﴿إنا﴾ فهو: نحن، ومعنى ﴿سنلقي عليك﴾ أي: نصير إليك، ونفرض عليك، ومعنى ﴿قولا ثقيلا﴾ هو: وحيا ثقيلا، والوحي فهو: القرآن، ومعنى ﴿ثقيلا﴾ أي: ثقيل الحكم، ومعنى " ثقيل الحكم " أي: صعب المفترض؛ وكيف لا يكون فرضه صعبا، وحكمه على من حكم به مستصعبا، وفيه ترك الشهوات، ومفارقة اللذات، والصبر على النازلات، مع ما فيه من ثقل الصلاة والصيام على أهله، ومشقة الحج على قاصده، ومفارقة كفرة الأجداد والآباء، الجاهلية الجهلاء، وغير ذلك من مثقلات الأشياء، المحكوم بهن في هذا القول، الذي نزله الواحد ذو الطول، على خاتم النبيئين، صلى الله عليه وعلى آله، ثم أمره سبحانه أن يفرض ذلك كله على جميع المخلوقين؟!!

ثم أخبره أن أداء فريضة الليل في أوله فهي: أول أوقاته: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا (٦)﴾، ومعنى ﴿أشد وطئا وأقوم قيلا (٦)﴾ فهو: أشد تمكنا لك عند ربك وأجرا، ومعنى ﴿أقوم قيلا﴾ فهي: أعدل طريقا، وأفضل فضلا؛ فحضه سبحانه على إقامة فرض صلاة الليل في أول وقتها، وجعل له العذر بما ذكر من سائر الأوقات التي فسرنا، إن عاقه أمر لم يجد عنه مدفعا كما شرحنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إن لك في النهار سبحا طويلا (٧)﴾، يريد بذلك سبحانه بقوله: ﴿سبحا طويلا﴾ أي: فراغا كبيرا، ووقتا يصلح لما تريد أن تشتغل به عن فرض صلاة ليلك في أوله، حتى لا تؤخرها إلى آخره؛ فنهاه صلى الله عليه وعلى آله بذلك عن: تخليف صلاة العتمة إلى آخر الليل لشغل من أشغاله، أو أمر من حوائجه، التي يمكنه أن يفعلهن في النهار، ولا يشتغل بهن عن الصلاة في أول الليل؛ فلم يجعل له عذرا في تأخير العشاء والعتمة عن ناشئة الليل – وهي: أوله –؛ بشيء من أشغال الدنيا، وأجاز له ذلك إذا كان: مريضا، أو مصافا للعدو أو مسافرا، أو غير واجد للماء، وجعل سبحانه لمن نزل به شيء من ذلك: ما ذكر وحدد، من تبعيض الليل، وقسمه وتمييزه –وقتا، فوجب على المؤمنين أن يميزوا بين الحالين، ويقفوا على كلتا المنزلتين، فيعملوا بهما في أوقاتهما، ولا يجعلوا الحالتين حالة واحدة سواء؛ فإن الله سبحانه قد ميزهما، ودل عليهما أهل علمه، وفهمهما أهل المعرفة؛ ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم (٤٢)﴾ [الأنفال].

ثم أمره بذكر ربه، فقال: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا (٨)﴾، ومعنى ﴿واذكر اسم ربك﴾ فهو: اذكر ربك، ومعنى " اذكر ربك " فهو: قدس وكبر وعظم، ومعنى ﴿تبتل﴾ فهو: تفرغ له وانقطع إليه، واستسلم بكليتك في يديه، وتفرغ لعبادته ونفاذ أمره، وفي ذلك ما تقول العرب:" فلان متبتل لله "، تريد أي:

متفرغ لعبادة الله، لا يشرك في خدمته مع الله أحدا، لا نفسا ولا والدا ولا ولدا. ﴿تبتيلا﴾ فمعناها: انقطع إليه بكليتك انقطاعا باتا ثابتا.

﴿رب المشرق والمغرب﴾ فهو: مالك المشرق ومدبره، ومالك المغرب ومقدره، ومصرف آياته ومغيره. ﴿لا إله إلا هو﴾، يخبر سبحانه: أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه الواحد الذي ليس كمثله شيء، وأنه الخالق لكل شيء، وأن كل شيء مما يعبد من دونه العابدون -فباطل لا ثبات له، وأنه المعبود لا غيره. ﴿فاتخذه وكيلا (٩)﴾، يقول: اجعله كافيا؛ لأن الوكيل في لسان العرب هو: الكافي، فقال سبحانه: اجعل ربك لك كافيا، واتكل عليه معينا وعاضدا.

﴿واصبر على ما يقولون﴾، معنى ﴿اصبر﴾ هو: احتمل ولا تجزع، واثبت عند الأذى ولا تهلع. ﴿على ما يقولون﴾ معناها: على ما يفترون ويكذبون، ويقذفون ويصنعون. ﴿واهجرهم هجرا جميلا (١٠)﴾، يقول: اعتزلهم اعتزالا حسنا، أي: لا تقل كما يقولون، ولا تفحش كما يفحشون، واعتزلهم وما يعبدون؛ فامض لما أنت فيه من حكم ربك، وأعرض عن الجاهلين.

ثم قال سبحانه: ﴿وذرني والمكذبين﴾، ومعنى ﴿ذرني﴾ أي: دعني وإياهم، وخلني وعقوبتهم، وأفردني والانتقام من المكذبين؛ والمكذبون فهم: المعطلون الكافرون، المنكرون لكل ما جاء من رب العالمين. ﴿أولي النعمة﴾ فمعنى ﴿أولي﴾ أي: هم أصحاب النعمة، والنعمة فهي: الملك والراحة، والكفاية والتفكه، يقول: هي النعمة التي أظهرتها عليهم، وجعلتها حجة لي فيهم. ثم قال: ﴿ومهلهم قليلا (١١)﴾، يقول سبحانه: أنظرهم قليلا، حتى ثبتت لك الحجة عليهم، بما أريتك من الحجج البواهر فيهم، وأريتهم من آياتي، ثم من بعد ذلك آذن لك في السيف المسلول، وأؤيدك من عبادي بأهل المعرفة والطول، فتضع على المكذبين سيفك بأمرنا، وتقتل من خالفك بتأييد ذكرنا؛ وكذلك فعل سبحانه به وبهم في عاجل الدنيا.

ثم أخبر عز وجل بما أعد لهم من بعد ذلك في الآخرة التي تبقى، فقال: ﴿إن لدينا أنكالا وجحيما (١٢)﴾، ومعنى ﴿لدينا﴾ فهو: عندنا، ومعنى ﴿أنكالا﴾ فهو: التنكيل، بالأغلال والعذاب الوبيل، ﴿وجحيما﴾ فهي: النار، ومعنى " جحيم " فهي: المجحمة لمن قاربها، ومعنى " مجحمة " فهي: الغالبة المهلكة؛ من ذلك ما تقول العرب:" أجحم فلان من فلان "، أي: هرب منه، وعجز عنه، وتقول العرب:" أجحم فلانا " إذا غلبه وقهره؛ فسمى الله سبحانه النار: جحيما، يلقى أهلها منها من الإجحام لهم، والأمر العظيم النازل بهم.

﴿وطعاما ذا غصة﴾ فهو: الزقوم، الذي ذكر الله أمره، والغصة فهي: الواقفة في الحلق، يقول: لا ينزل ولا يخرج؛ بل يغص به صاحبه، ويقف في حلق آكله، وهو أشد ما يكون على الآكلين، إذا وقف طعامهم في حلوقهم، فلا ينحدر مستسفلا نازلا، ولا يرتفع صعدا خارجا، بل يكون غصة في الحلق ثابتة، وبلية فيه نابتة. ﴿وعذابا أليما (١٣)﴾ يقول: عذابا شديدا، دائما عتيدا.

ثم قال سبحانه: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾، وذلك اليوم فهو: يوم القيامة، فأخبر سبحانه: أن هذا الطعام والعذاب يكون بأهله في يوم ترجف الأرض والجبال، وذلك اليوم فهو: يوم القيامة، وحين الحسرة والندامة، ورجوف الأرض والجبال فهو: زعزعتها وحركتها؛ لما يريد الله سبحانه من إهلاكهما بذهابهما. ﴿وكانت الجبال كثيبا مهيلا (١٤)﴾، يقول: صارت الجبال بعد ما هي عليه من انعقادها، ويبس صخرها وحجارتها -كثيبا مهيلا، والكثيب فهو: الرمل، والمهيل فهو: المنهال الذي لا يمسك بعضه بعضا؛ فذكر سبحانه: أن الجبال تصير بعد ما هي عليه منهالا رملا، ثم تصير من بعد ذلك كالعهن المنفوش فناء وذهابا.

ثم احتج على هؤلاء المكذبين، أصحاب القصة والعذاب الأليم -بما أرسل إليهم من الرسل المكرمين، فقال: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا (١٥)﴾، يريد سبحانه: أنا أرسلنا إليكم رسولا؛ لتؤمنوا

به وتتبعوه، فكفرتم ولم تسلموا، فكان شاهدا عليكم بفعله، قائلا بالحق غدا عليكم بحجته. ثم أخبر أنه صلى الله عليه وعلى آله في التبليغ إليهم والأداء: كموسى صلى الله عليه الذي هم به مقرون، أنه كان رسولا إلى فرعون؛ فأخبره: أن سبيله عليه السلام كسبيل موسى عليه السلام في فرعون، أنه ينزل بهم من العذاب؛ على العصيان لمحمد صلى الله عليه وآله -ما نزل بفرعون في عصيانه لموسى عليه السلام؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا (١٦)﴾، يقول: عذبناه عذابا وبيلا، والوبيل فهو: الشديد الثقيل.

ثم قال سبحانه: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا (١٧)﴾، يقول سبحانه: ﴿فكيف تتقون﴾، أي: كيف تعتذرون وتخافون وتتقون ربكم غدا في هذا اليوم الذي يشيب فيه الولدان - فهو: يوم القيامة - إن كفرتم اليوم في دنياكم التي هي دار عمل وبلاء، والآخرة دار ثواب وجزاء؟! يريد سبحانه بهذا القول: أن من كفر في هذه الدنيا لم يكن ليؤمن في الآخرة، ولا يجد إلى ذلك سبيلا؛ فدلهم جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله -على أن العمل في الدنيا، دون الآخرة، وأن الآخرة دار الجزاء دون الدنيا؛ فإنه لا عمل إلا في الدنيا، وأنه من كفر في الدنيا لم يؤمن ويتق في الآخرة، وهو اليوم الذي يجعل الولدان شيبا، ومعنى ﴿يجعل الولدان شيبا﴾: لما ينزل بهم من هوله، وعظيم ما يعاينون من أمره، فتشيب رؤوسهم من فزعه، وتشتمط من مدلهمات عجائبه.

﴿السماء منفطر به﴾، يقول سبحانه: إن السماء تنفطر فيه؛ فقامت ﴿به﴾ مقام " فيه "؛ لأنها من حروف الصفات، وبعضها يخلف بعضا؛ فأراد سبحانه: أن السماء منفطر في ذلك اليوم الذي جعل الولدان شيبا، وهو: يوم القيامة؛ وانفطارها فهو: ذهابها، وتقطعها وانقضاؤها. وقوله ﴿منفطر به﴾ فهي: لغة لبعض العرب، تطرح الهاء من المؤنث فخرج الاسم مذكرا، تدعو كل مؤنث مذكرا، وهي في طي خاصة، ثم لغيرهم عامة؛ ألا تسمع كيف يقول: ﴿كان وعده مفعولا (١٨)﴾، يريد: أن كل وعد وعد الله أو وعيد -كفلق الصبح،

وكائن غير مخلف، من انفطار السماء وعذاب المعذبين.

ثم قال: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (١٩)﴾، يريد: أن هذه الأقاويل التي نقولها، والوعد والوعيد الذي نشرحه -هو تذكرة للعالمين، وتنبيه لجميع المخلوقين؛ ﴿فمن شاء﴾ قبل ذلك وخافه، فـــ ﴿اتخذ إلى ربه﴾ قبل وقوعه، أي: قبل وقوع ذلك اليوم ﴿سبيلا﴾ - والسبيل فهي: الوسيلة والطريق -، بما يكون منه من طاعة لربه، في أيام حياته، وقبل مواقعة وفاته.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر أوقات الصلاة المذكورة، التي ذكرها في أول السورة، فقال: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾، فأخبر سبحانه: أنه يعلم أوقات قيامه عند وقت ضرورته، وعندما يكون منه ومن المؤمنين من الأمور التي تمنعهم من أداء الفرض في أول الليل؛ من ذلك: ما ذكر عنه صلى الله عليه وآله، من صلاة العشاء والعتمة بمكة، وقد غربت الشمس بسرف من بر الظهران ، وذلك لما فيه من شغل السفر. ومعنى ﴿طائفة﴾ فهي: جماعة ﴿ممن معك﴾، وقوله: ﴿طائفة﴾ فهي تدل على ما قلنا به من: أوقات الصلاة لأهل العلات ؛ لأنه قال: ﴿طائفة﴾ ولم يقل: كل من معك؛ فدل على: أن من كان ذا مرض أو خوف، أو ذا سفر أو حرب -معذور في تأخير صلاة أول الليل إلى بعضه.

ثم قال: ﴿والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾، يريد ﴿تحصوه﴾: تثبتوه على وقت واحد، وتحيطوا به دون سائر الأوقات؛ فعلم سبحانه: أنهم كلهم لن يقدروا على أداء الفرض في وقت واحد، مع ما فيهم من العلات التي ذكرنا ووصفنا، فمنهم عليل، ومنهم مسافر، ومنهم خائف، ومنهم آمن؛ فالآمن يصلي في أول الليل، وطالب الماء يصلي إذا وجد الماء في أي أجزاء الليل وحده، وخائف يصلي عند انقضاء خوفه في نصف الليل أو آخره، ومريض يؤدي ما فرض الله عليه في وقت إفاقته في آخر ليله، وفي نصفه أو في أوله أو في ثلثه؛ فهذا معنى قوله: ﴿أن لن تحصوه﴾، يقول سبحانه: علم أنكم كلكم لن

تقدروا على إحصاء وقت واحد، والثبوت عليه؛ لما فيكم من هذه الأسباب العارضة لكم فيه. ثم قال سبحانه: ﴿فتاب عليكم﴾، يقول: هون عليكم، ورخص لكم، ولم يجعل في ذلك عليكم حرجا، ولم يلجئكم فيه إلى شدة من الملجأ، فيكلفكم فوق طاقتكم، في أن يجعل الوقت واحدا لصلاتكم، فيكون في ذلك شدة واستقصاء على من كان في حالة واحدة مما ذكرنا، من الشدة والبلاء.

ثم أمرهم سبحانه: أن يقرأوا في صلاتهم ما تيسر من القرآن، من قليل أو كثير، على قدر طاقتهم، وتصرف أحوالهم، فجعل قليل القرآن مجزيا، لمن كان لصلاته مؤديا، ولم يشدد عليهم في شيء من أمورهم، ولم يحرجهم في حدود منه.

ألا تسمع كيف يقول سبحانه، فيما ذكرنا من حالات المصلين وألوان عللهم، حين يقول سبحانه: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾، فذكر ما ذكرنا من المرضى، ثم قال: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾؛ فذكر الذين شرحنا من المسافرين، والضاربين في أرض الله المتوجهين، ثم قال: ﴿وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾، فذكر الذين ذكرناهم، ووصف بالقتال الذين وصفناهم: بالمصافة لعدو الرحمن، والمحاربة لمن حارب الدين والقرآن؛ فدل بذلك على: أنه سبحانه لم يحمل أهل هذه الصفات على وقت واحد، ولم يضيق عليهم في ذلك الواحد الماجد؛ لما علم من عجزهم مع ما هم فيهش من شغلهم، عن مثابرتهم عن وقت واحد دون غيره من أوقات الليل الموقتات، اللواتي في هذه السورة مذكورات موصوفات.

وإنما موضع ذكر ما ذكر الله من قوله: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وءاخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وءاخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ -مقدم، غير أنه أخره إلى هاهنا، وموضعه في أول السورة، معناه: ﴿يا أيها المزمل (١) قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه ورتل القرءان ترتيلا﴾؛ ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وءاخرون يضربون في

الأرض يبتغون من فضل الله وءاخرون يقاتلون في سبيل الله﴾، فهاهنا موضع ذكر الأحرف؛ لأنه سبحانه جعل ما جعل من الرخصة في هذه الأوقات لصلاة فريضة الليل من العشاء والعتمة، فسمى هذه الأوقات من الليل: لمن كان من المرضى والمسافر والمجاهدين، وكذلك من لم يجد ماء إلى بعض هذه الأوقات، وكذلك المغمى عليه، والخائف والمشغول بأمر عظيم من أمر الله، يخشى من تركه بعض الفساد على الإسلام، ويرجو تنفيذه وأثرته نجاحا في صلاح الإسلام. ولا ينبغي لصحيح سالم مما ذكرنا: أن يخلف صلاة العشاء والعتمة عن ناشئة الليل التي ذكر الله فضلها، وجعلها وقتا لصلاة أهل السلامة من هذه الأشياء.

ثم رجع إلى ذكر التيسير عليهم، وترك التعسير في شيء من فروضهم، فقال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة﴾، فأمرهم بأن يقرأوا ما تيسر من القرآن لهم، وأن يقيموا ما افترض من صلاتهم عليهم، ومعنى ﴿أقيموا الصلاة﴾ فهو: أقيموا حدودها وأوقاتها، وأتموا ركوعها وسجودها، وما أمر الله سبحانه فيها، من قراءة القرآن، وذكر الرحمن، من تسبيح وتكبير، وتهليل وتوقير؛ فمن أدى هذه الشروط في الصلوات فقد أقام ما أمر الله به من حدودها المفروضات، ومعنى ﴿وءاتوا الزكاة﴾ فهو: أدوا الزكاة، وادفعوها إلى أهلها وسلموها، ومعنى الزكاة فهو: ما جعل الله من أداء عفو أموالهم، فسمى الله ذلك وإخراجه منهم: تزكية وتطهرة لهم، فجعل من أدى ذلك زاكيا، وسماه لماله مزكيا، وإنما سمي ذلك زكاة؛ لأنه يزكي الأبدان، وتزكية الأبدان فهو: تطهرتها من الغلول والعصيان، وما نهى الله من حبسها جميع كل إنسان، فكان تسليمها لله طاعة، وكانت طاعة الله في ذلك تزكية لمن فعله، وتطهرة.

ثم قال سبحانه: ﴿وأقرضوا الله قرضا حسنا﴾، ومعنى قوله: ﴿وأقرضوا

الله﴾ فهو: أسلفوا الله، أي: افعلوا لله ما تثابون عليه، وتعطون من الثواب الجزيل فيه؛ وإنما سماه الله قرضا وسلفا: لما أن كان سبحانه لمن فعل ذلك مجازيا؛ فجاز أن يسميه سلفا وقرضا؛ إذ كان منه الجزاء لفاعله حكما وفرضا، فشبهه بالسلف الذي لا بد من قضائه، وتسليم مثله إلى صاحبه وإعطائه، فعلى هذا جاز أن يسمى ما تقرب به إليه سلفا؛ إذ كان بالمجازاة لهم عليه مرصدا ومضاعفا، وكان حكمه بالمكافأة لهم في ذلك ماضيا؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾، يقول سبحانه: ما تعطوا وتخرجوا، وتنفقوا في سبيل الله وتسلفوا -تجدوا عند الله ثوابه والمكافأة عليه، والمجازاة منه سبحانه فيه؛ ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿لأنفسكم﴾، فأخبر عز وجل: أن جزاء ذلك أن لا يكون لغيرهم، وأن منفعة ما ينفقون في أمر الله لا يكون إلا لهم، وأنهم سيجدون ثواب ذلك وأجره عند الله موفرا لهم.

والخير الذي قال الله: ﴿هو خيرا وأعظم أجرا﴾، يعني بقوله: ﴿خيرا﴾ أي: تقدمته لأنفسكم إلى الله خير من إمساكه عن الإنفاق في طاعة الله. ﴿وأعظم أجرا﴾، يقول: أحسن ثوابا في عاقبته لكم، وأجزل حظا فيما ترجون من عائدته عليكم.

ثم قال سبحانه: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾، فأمر الخلق بالاستغفار لله، ومعنى ﴿استغفروا﴾ فهو: توبوا وارجعوا، وهو أمر من الله الغفار بإخلاص التوبة إلى ذي الجلال والإكرام، بالقول والعمل، لا بالقول دون العمل؛ فبين لهم سبحانه: أن الاستغفار لا يكون بالقول المقول دون العمل المعمول، وأنه بالعمل والقول. ﴿إن الله غفور رحيم﴾، يقول: إن الله تواب على من تاب، غفور لمن أناب، رحيم لمن راجع وأجاب، ثم رجع، وعن المعاصي لله سبحانه نزع، وأمره سبحانه في كل حال اتبع، كما قال سبحانه: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (٨٢)﴾ [طه].

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر: ٣٨]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة (٣٨)﴾؟

فمعنى قول الله سبحانه: ﴿رهينة﴾ أي: مرتهنة، ومعنى مرتهنة: مأخوذة، ومعنى مأخوذة هو: مجازاة بعملها، مكافأة بفعلها؛ فأخبر سبحانه: أن كل نفس بكسبها مأخوذة، وكسبها فهو: عملها، وأخذه لها سبحانه بعملها فهو: إنفاذ وعده ووعيده لها، ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون (٨٩) ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون (٩٠)﴾ [النمل] ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون (١٦٠)﴾ [الأنعام].

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قال الله عز وجل: ﴿يا أيها المدثر (١)﴾، المنادى هاهنا والمناجى: محمد صلى الله عليه وعلى آله، والمناجاة فهي: النداء، والمدثر فهو: الملتحف، والالتحاف فهو: طرح الثياب على الإنسان عند اضطجاعه.

﴿قم فأنذر (٢)﴾، فالمأمور بالقيام فهو: رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، ومعنى ﴿فــأنذر﴾ أي: بلغ وأخبر، وتقدم إليهم وأد الحجة التي أمرت بأدائها.

وسبب تدثر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: أن الوليد بن المغيرة المخزومي - لعنه الله - جمع قريشا إلى دار الندوة، ثم قال: يا معشر قريش، إن هذا الإنسان قد أدعى ما ادعى، والعرب تفد عليكم، وتأتي بلدكم، فلا يزال السائل يسأل عنه بعضكم، فيقول شيئا، ويسأل آخر، فيقول له شيئا آخر، فاشتوروا واجمعوا له أمركم وكلمتكم، حتى يكون قولكم فيه قولا واحدا؛ فما تقولون إنه؟ فقال بعضهم: مجنون. فعبس في وجهه، ثم قال: ليس هذا بقول، وليس هو – وأبيكم – بمجنون. فقال بعضهم: شاعر. فقطب في وجهه أيضا، وقال: ليس هذا بشاعر، قد صغنا الشعر وقلناه، فليس هذا على مجراه. فقالوا: ولا بكاهن؛ ليس يغبى على العرب الكاهن. فقال بعضهم: ساحر. فقال لهم: وما الساحر؟ وما يعمل؟ فقالوا: يفعل فعلا يفرق به بين المرء وزوجته، ويحبب المبغض، ويبغض الحبيب، فقال: هذا إذا؛ قد – والله - يفعل محمد ذلك، فاجمعوا كلمتكم على أنه ساحر.

فخرجت قريش من دار الندوة، فلم يلق أحد منهم رسول الله عليه السلام إلا قال: يا ساحر؛ فاشتد ذلك عليه صلى الله عليه وعلى آله، فخرج حتى أتى منزله، فطرح نفسه، وتدثر بلحافه من شدة الغم، وما نزل به لقولهم من الهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢) وربك فكبر (٣) وثيابك فطهر (٤)﴾.

معنى ﴿ربك﴾ أي: إلهك، وخالقك ومالكك، الذي لا خالق لك غيره، ولا مالك لك سواه، ومعنى ﴿فــكبر﴾ فهو: عظم بالطاعة، وأجل وقدس، وقل ما هو أهله، وما هو يستحقه سبحانه ويستأهله. ﴿وثيابك﴾ فهي: هذه الثياب الملبوسة، المعروفة باسمها، المفهومة بذكرها، ومعنى تطهيرها فهو: غسلها من

رجس المشركين ولمسهم ومداناتهم.

﴿والرجز فاهجر (٥)﴾، والرجز هو: كل نجس معلوم، من وثن أو صنم أو شيء محرم مفهوم، ومما كانوا يستجيزون، ويأتون ويفعلون، من أكل الميتة وغيرها، التي هي في التحريم مثلها. ومعنى ﴿فاهجر﴾ أي: اعتزل، ولا تقرب ولا تتبع.

﴿ولا تمنن تستكثر﴾، معناه: لا تمنن بشيء تفعله، ولا بجميل تصنعه إلى أحد من العالمين، لا من المسلمين، ولا من المشركين، ومعنى ﴿تستكثر﴾ فهو: تكثر قول ذلك وذكره، وتعريفهم به وقوله؛ هذا فأدب من الله لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله، وهداية منه له إلى أعظم الأمور وأجسمها، وأشرفها في الأحدوثة وأفخرها، من ترك المن لما يولي، والإعراض عن ذكر ما يعطي.

ثم قال سبحانه: ﴿ولربك فاصبر﴾، يقول: فاصبر على ما تلقى في الله من البلاء، وتقاسي من الكفرة من الأذى، فاصبر عليهم، واجعل صبرك لله في مقاساتك منهم بحكمه، واعترافا له سبحانه بأمره.

﴿فإذا نقر في الناقور﴾، فالناقور فهو: علامة من الله، يجعلها في يوم الدين، تكون ظاهرة في موضع حشر العالمين، تظهر علامتها، وتسطع عالية آياتها، يستدل الخلق أجمعون بها على الموضع الذي يقصدون، من موضع الحشر الذي إليه يساقون، فيكون قصدهم إلى تلك العلامة التي جعلت لهم.

وقد يمكن أن تكون هذه العلامة التي سماها الله الناقور -نورا يسطع في ذلك الموضع ويلمع، فيكون ذلك علامة لموضع الجمع.

ويمكن أن تكون تلك العلامة أصواتا من دعاة من الملائكة، يدعون الناس إلى ذلك المكان، فينتقر الناس موضع الحشر بذلك الدعاء، فيقصدونه معا.

ويمكن أن يكون علامة بالتهليل والتكبير، والتقديس لله والتوقير، يسمعه

الخلق أجمعون، فيؤمونه كلهم أكتعون.

فأما قول من يقول: إن الناقور بوق أو شبه البوق، وينفخ فيه ليجتمع الناس كلهم إليه -فليس ذلك عندنا بشيء تصححه عقولنا، وليس الناقور - والله أعلم وأحكم - إلا: علامة عظيمة، يجعلها الله العلي الأعظم في ذلك اليوم، ولن تكون هذه العلامة إلا بأمر عظيم، من صنف مما ذكرنا من بعض ما شرحنا، من النور الساطع، العظيم اللامع، أو الصوت بالدعاء والتكبير، والتهليل والتحميد، والتقديس والتمجيد، الذي يسمعه كل سامع.

ثم ذكر سبحانه ذلك اليوم الذي ينقر فيه الناقور - ومعنى " ينقر" فهو: ينتقر، ومعنى "ينتقر" فهو: يستدل عليه ويخبر؛ ألا تسمع كيف تقول العرب لمن استدل على شيء وعرفه، ووقع عليه وعلمه:" انتقر فلان كذا وكذا "، أي: عرفه واهتدى إليه، ووقع بالفطنة منه عليه -، فقال سبحانه: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير (٩)﴾، ومعنى ﴿ذلك﴾ فهو: كذلك، ومعنى ﴿يومئذ﴾ فهو: اليوم الذي يكون فيه الناقور، ومعنى ﴿يوم عسير﴾ فالعسير هو: الشديد الذي لا فرح فيه، ولا راحة لديه.

﴿على الكافرين غير يسير (١٠)﴾، والكافرون هم: الكافرون بنعم الله المكذبون، ومعنى كفرهم لنعم الله فهو: قلة شكرهم لله على ما أعطاهم، من بعثة البشير النذير إليهم، وهم: أهل المعاصي لله، من المشركين الذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومن الثقلين، ومعنى ﴿غير يسير﴾: فمعنى ﴿غير﴾ هو: ليس، ومعنى ﴿يسير﴾ أي: ليس بسهل ولا صغير؛ فأخبر سبحانه: أن ذلك اليوم يوم شديد عسير، على أعدائه ليس بسهل ولا صغير.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا (١١) وجعلت له مالا ممدودا (١٢) وبنين شهودا (١٣)﴾، معنى ﴿ذرني﴾ أي: دعني

وأخبرني، واعلم أني في ذلك كاف مغن. ﴿ومن خلقت﴾ أي: أوجدت وفطرت، ﴿وحيدا﴾ فهو: فردا فريدا، وقد قيل: إنه اسم للوليد بن المغيرة، وكان يعرف به؛ فقال الله سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله: ذرني وهذا الذي اجترأ علي، فكذب بي، فسأذيقه على ذلك أشد عذابي.

ثم أخبر سبحانه بما جعل له من المال الممدود - و الممدود فهو: الكثير الواسع -، وما جعل له من البنين - والبنون فهم: الذكران المعروفون. و ﴿شهودا﴾ فمعنى ﴿شهودا﴾ أي: حاضرين معه، شاهدين غير مفارقين لجماعته؛ بل هم شهود معه، والشهود فهم: الحضور الذين لم تنأى بهم دار، ولا تبعد منهم الأخبار، فهم سكان معه في الدار.

﴿ومهدت له تمهيدا (١٤)﴾، فمعنى ﴿مهدت﴾ هو: وطأت وجعلت له بالنعمة التي أعطيته إياها -مهدا يمهد عليها، ويتقلب بفضلي عليه فيها، ومعنى ﴿تمهيدا﴾ فهو: عطاء منا له جزيلا.

ثم قال سبحانه: ﴿ثم يطمع أن أزيد (١٥)﴾، يقول: أيطمع بعدما أعطيته - أن أزيده على ما أوليته، وهو مقيم على كفر نعمتي، معتصم بالشرك بي.

﴿كلا إنه كان لآياتنا عنيدا (١٦)﴾، يريد بـ﴿كلا﴾ أي: إني لا أفعل ذلك أبدا، ولا أزيده في النعيم شيئا. ﴿إنه كان﴾، معنى ﴿إنه كان﴾، معناها: أنه لم يزل لآياتنا عنيدا، يقول: لأحكامنا، وما يظهر من غائب آياتنا، وبواهر دلائلنا. ﴿عنيدا﴾، والعنيد فهو: المعاند، والمعاند فهو: المضاد المكابر، المعارض بباطله ما يظهر من حق خالقه.

ثم أوعده على ذلك بما ذكر من العذاب، فقال سبحانه: ﴿سأرهقة صعودا (١٧)﴾، ومعنى ﴿سأرهقه﴾، أي: سأوقع به وأنزل، وأحل به وأجعل، ومعنى ﴿صعودا﴾ أي: أمرا شديدا، وعذابا مهلكا متعبا؛ فشبه سبحانه ما ينزل به من

العذاب الشديد لشدته – وهو: ما أعد له من نقمته - بالصعود؛ لأن أشق ما يعرف الإنسان في مسالكه، ومذاهبه وطرقه –ما كان مصعدا فيه، من الجبال الشامخة، التي تكون الطرق فيها متعلقة مرتفعة؛ فذلك أشد مسالك الناس، وأصعب ما يسلكونه من سبلهم؛ فأخبر الله: أن عذاب هذا الذي يدعى بالوحيد مع عذاب غيره كالصعود مع السهل، وأن عذابه له فضل في النار على كل عذاب، كما للصعود في الشدة والتعب على السهل.

ثم قال: ﴿إنه فكر وقدر (١٨)﴾، يريد بـ﴿فكر﴾ أي: تفكر، ﴿وقدر﴾ فهو: لما كان من فكرته فيما يجعل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من الكذب، ﴿وقدر﴾ فهو: ما كان يقدر عليه ويهيئ، له ويحتال به عليه ويسوي، حتى جعل عليه ما جعل من الأمر، ولطخه بما لطخه به من ذكر السحر، الذي قد برأه الله وطهره، ورفعه عنه سبحانه وكبره.

ثم قال: ﴿فقتل كيف قدر (١٩)﴾، ومعنى ﴿قتل﴾ فهو لعن، ثم قال: ﴿كيف قدر﴾، يريد: على ما قدر، و﴿قدر﴾ فهو: ما ذكرنا من تفكيره وتقديره.

ثم كرر اللعن، فقال: ﴿ثم قتل كيف قدر (٢٠)﴾، يريد: لعن على ما كان قدر.

ثم قال سبحانه، مخبرا بما كان من فعله في دار الندوة، وعبوسه في وجوه من كان يقول: مجنون وشاعر وكاهن، وبسوره لهم، فقال: ﴿ثم عبس وبسر (٢٢)﴾، يريد بـ﴿عبس﴾ أي: قطب بين عينيه، وأنكر قول من قال بالجنون عليه، ﴿وبسر﴾ فمعناه: دفعه وأقصاه، عن القول بما قال به عليه ورماه، من قوله:" ليس هو بشاعر ولا مجنون؛ ولكنه ساحر "، وحاشى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله من ذلك، وقد نزهه الله أن يكون كذلك.

ثم قال: ﴿ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقال إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا

إلا قول البشر (٢٥)﴾، معنى ﴿أدبر﴾ أي: تولى عن الحق، وتعلق بالكذب والفسق، ومعنى ﴿استكبر﴾ أي: تجبر وتكبر، ثم قال لعنه الله: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤﴾ أي: يتلى ويذكر، يقول: ما يأتي به محمد صلى الله عليه وعلى آله ويذكره، إلا سحر رواه وتعلمه. ﴿إن هذا إلا قول البشر (٢٥)﴾: ما هذا الذي مع محمد من قول الله، وما هو إلا قول البشر، والبشر فهم: الناس.

ثم قال سبحانه: ﴿سأصليه سقر (٢٦)﴾، فمعنى قوله: ﴿سأصليه﴾ يريد: سأدنيه منها، وأولجه فيها؛ حتى يصلى بدنه حرها، ويقع به حريقها وأكلها، ويباشره بحمومها وحرها، فلا يكون له فيها ستر يستره، ولا حجاب يحجزه؛ و﴿سقر﴾ فهي: بعيدة القعر، العظيمة الأمر، البعيدة المهوى، الكثيرة الأذى والبلاء، وهو: اسم من أسماء جهنم؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وما أدراك ما سقر (٢٧)﴾، يقول سبحانه: وما أعلمك ما سقر، وكيف هي؟ وما أمرها؟ وما هي على حقيقة العلم؟

ثم بين سبحانه بعض صفاتها، وما هي عليه من حالاتها، فقال: ﴿لا تبقي ولا تذر (٢٨)﴾، معنى ﴿لا تبقي﴾ أي: لا تبقي في عذاب من صار إليها، ولا تنكيل من ولج فيها، ﴿ولا تذر﴾ معناه: لا تذر أحدا من أهل الوعيد إلا ضمته وصيرته فيها، وأحرقته وحققت وعيد الله له فأهلكته.

﴿لواحة للبشر (٢٩)﴾، واللواحة فهي: المحرقة المغيرة، التي قد غيرت أبدانهم ببلائها، وغيرت خلقهم بإحراقها، ولوحتهم بعذابها، وقوله: ﴿للبشر﴾ فهم: من كان فيها من الفاسقين، وصار إليها من الفاجرين.

ثم ذكر سبحانه خزنتها وعددهم، ووصف بعض حالهم وأمرهم، فقال سبحانه: ﴿عليها تسعة عشر (٣٠)﴾، فقد يمكن - والله أعلم - من أن يكون هؤلاء التسعة العشر هم: الخزنة المأمورون بحفظها، وحفظ من فيها، الآمرون

والناهون في أمرها؛ ويمكن أن يكون تسعة عشر ألفا، أو تسعة عشر صنفا، من الملائكة المقربين، المؤتمرين بأمر الله المكرمين؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾، فأخبر سبحانه: أن هذه التسعة عشر ملائكة، وأن خزنتها من الملائكة المؤتمنين، البررة المكرمين. ثم قال سبحانه: ﴿وما جعلنا عدتهم﴾، يعني: عددهم ﴿إلا فتنة للذين كفروا﴾، والفتنة هاهنا فهي: الاختبار والبلوى، بما يكون منهم من الجحدان في ذلك والافتراء؛ لأنهم كانوا بما آتاهم به رسول الله صلى الله عليه وآله من خبر النار وأهلها وخزنتها - مكذبين، وبه صلى الله عليه وعلى آله في ذلك كله غير مصدقين، وكانوا يجحدون أمرها، ويكذبون خبرها، فلما جحدوا أمرها -كانوا أشد جحدا لخزانها وعددهم، وأشد ملادة فيما ذكر الله عز وجل من أمرهم. ثم قال سبحانه: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾، والذين أوتوا الكتاب هاهنا فهم: الذين أسلموا من أهل الكتاب، والكتاب فهو: التوراة؛ فأخبر: أن من آمن بالله من أهل الكتاب، وصدق برسول الله صلى الله عليه وعلى آله، وآمن بآياته -فهو مستيقن بذلك، والاستيقان منهم فهو: تحقيق العلم، والإقرار بما جاء من ذكر الخزنة وعددهم، ومعنى " يستيقنوا " فهو: يؤمنوا ويوقنوا. ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾، معنى ﴿يزداد﴾ فهو: ازديادهم في الإيمان، بتصديقهم لما ذكر الله من عدد خزان النار لهم، فلما أن كانوا بكل ما ذكر الله وأخبر مصدقين، وبما قال غير مكذبين، كانوا في كل ما صدقوا به من أمر حادث من الله في الإيمان مزدادين، بتصديقهم بخبر الله وإقرارهم، ومعرفتهم بصدقه وإيقانهم؛ فهذا معنى ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾. ثم رجع في ذكر مؤمني أهل الكتاب، ومؤمني العرب، فقال: ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾، يقول سبحانه: إنا إنما ذكرنا من عدة أهل النار التي شرحنا لكم - ليستيقن مؤمنوا أهل الكتاب من الإسرائيليين، ومؤمنوا العرب -أنه الحق،

فيكون ذلك فضيلة لهم من ربهم، وجزاء على ما كان من إيقانهم، مما ذكر الله في الكتاب المبين، من عدة خزان النار من الملائكة المقربين. ﴿ولا يرتاب﴾، يقول: لا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في صدق قولنا، وكينونة وعدنا ووعيدنا. ثم ذكر قول المنافقين في ذلك، الذين في قلوبهم مرض من دينهم، والمرض فهو: الشك والارتياب، وقلة الإخلاص لرب الأرباب، وكذلك حكى عز وجل في القول عن الكافرين، فقال سبحانه: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾، ومعنى قولهم " ما " أي فهو: الذي؛ لأن " الذي " يقوم مقام " ما "، و " ما " يقوم مقام " الذي "، فأرادوا - عليهم لعنة الله - بقولهم هذا: أن الذي أراد الله بذكر ما ذكر من عدة هذه الخزنة، وما شرع من أمرهم -مثل مضروب، وأنه ليس بحق كائن، ولا أمر مجعول باين، يقول: إن الله تبارك وتعالى إن كان حقا ما يقول محمد من أنه أوحى إليه بذلك وحيا، ونزله عليك من عنده تنزيلا فهو مثل، وليس بحق واقع. ثم قال سبحانه: ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾، يريد بقوله: ﴿كذلك﴾ أي: بذلك، ومعنى "بذلك" أي: بذلك القول منهم الذي قالوا -استوجبوا من الله الإضلال، والإضلال فهو: الخذلان؛ فلما أن قالوا ما قالوا من الباطل والمحال، والكذب في كل قول أو فعال، على ذي الجلال والطول -استوجبوا منه الخذلان فخذلهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾، فمعنى ﴿يشاء﴾ هو: يريد، والذي شاء الله أن يضله فهو: من عند عن دينه، وطعن على رسوله، والذي شاء أن يهديه فهو: من آمن به وصدق رسله، بما جاؤوا به عنه، ومن عنده سبحانه وبحمده. ثم رجع سبحانه إلى ذكر خزنة النار - صلوات الله عليهم -، فقال: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾، يريد: ما يفهم عددهم - وهم الملائكة، وهم جند الله - إلا ربهم الذي خلقهم، من خزنة النار، ومن غيرهم، من الملائكة المقربين، صلوات الله عليهم أجمعين. ثم قال سبحانه: ﴿وما هي إلا

ذكرى للبشر (٣١)﴾ يريد: سقر، يقول: ما ذكرنا الذي ذكرنا منها إلا تذكرة للبشر، والبشر فهم: الخلق، ومعنى "تذكرة" فهو: تنبيها وتحذيرا، وإهابة وتخويفا.

ثم قال: ﴿كلا والقمر (٣٢) والليل إذا أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤)﴾، فأقسم سبحانه بالقمر، والليل في إدباره. وأما إقسام الله سبحانه بإدبار الليل فهو: لما فيه من عجيب تدبيره، من تجلي ظلامه، وتصوب نجومه، ولطائف عظمته؛ في ذلك من أثر صنعه -ما يطول شرحها، ويكثر لو ذكرناه ذكرها، ومعنى ﴿أدبر﴾ فهو: تولى، وتوليه فهو: ذهاب أكثره، ودنو انفجار فجره. وكذلك أقسم الله بالصبح إذا أسفر، والصبح فهو: الصباح، وقوله: ﴿أسفر﴾ فهو: أضاء وانتشر، وفي سطوع الصبح وفجره -غاية الدليل على صانعه وربه؛ لما فيه من ظهور ضوئه، في حندس الليل وظلمته، حتى ينكشف منه مدلهم الظلام، ويزيل عن الأرض منه ما كان عليها من الادلهام.

فوقع القسم من الله - جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله - على تحقيق ما أنكروا من سقر وخزانها، وعجيب ما ذكر الله سبحانه من أخبارها، فقال: ﴿إنها لإحدى الكبر (٣٥) نذيرا للبشر (٣٦)﴾، يقول سبحانه: إنها لإحدى عظائم ما فعلنا، وجليل ما أحدثنا، مما جعلناه عبرة وتبيانا، ونعمة وترغيبا، ونكالا وترهيبا، والكبر فهي: الأمور الكبار، التي جعلها الله سبحانه وفطرها، ولعمري ما من شيء أكبر هولا، ولا أعظم أمرا، ولا أشد على الخلق خطرا من سقر، التي لا تبقي ولا تذر. معنى ﴿نذيرا للبشر (٣٦)﴾ يقول: منبها ومخوفا، وقوله: ﴿للبشر﴾: والبشر هم: الناس أجمعون.

ثم قال سبحانه: ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر (٣٧)﴾، يريد بقوله: ﴿لمن شاء منكم﴾ أي: لمن أراد منكم، ومعنى ﴿يتقدم﴾ أي: أن يتقدم في أهبة أمره، والتخلص من عذاب ربه، والتنحي من هذه التي هي إحدى الكبر، التي

هي بلا شك سقر. ﴿أو يتأخر﴾، يقول: يتأخر عن العمل بما ينجيه منها، ويسوف التوبة التي هي سبب النجاة من عذابها، حتى يأتيه أجله، فينقضي عمله، فيكون بتأخره عن التوبة من الهالكين، كما كان من تقدم بالتوبة والعمل الصالح من الناجين.

ثم قال سبحانه: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة (٣٨)﴾، فأخبر عز وجل: أن المتقدم والمتأخر مأخوذ بعمله، مجازى بفعله، وأن كل نفس رهينة بكسبها، وكسبها فهو: عملها، وبما قدمته في حياتها من برها ورشدها، أو غيها وفسقها وكفرها. قوله: ﴿رهينة (٣٨)﴾ فمعنى ﴿رهينة﴾ أي: مأخوذة مرتهنة، ومعنى مرتهنة أي: محبوسة محاسبة.

﴿إلا أصحاب اليمين (٣٩)﴾، فذكر سبحانه: أن كل مسيء وظالم عاص متعد، مأخوذ بفعله، معاقب على صنعه، ثم ميز بينهم وبين عدوهم من أهل الإيمان، فقال: ﴿إلا أصحاب اليمين (٣٩)﴾، فذكر: أن أصحاب اليمين ناجون، ومن عذاب الله سالمون، وأصحاب اليمين فهم: أصحاب الدين، والمعرفة واليقين، ومعنى اليمين فهو: اليمن والبركة، في التقديس من الله والنعمة، لا أن ثم يمينا وشمالا.

ثم قال: ﴿في جنات يتساءلون (٤٠) عن المجرمين (٤١)﴾، فالجنات فهي: ما ذكرنا من مواضع النعمات والسرور، والغبطة والملك والحبور. ﴿يتساءلون (٤٠) عن المجرمين (٤١)﴾، فأخبر: أن المتقين أصحاب اليمين والخير؛ إذ صاروا إلى دار النعيم، ومحل المؤمنين، يتساءلون فيما بينهم عما كانوا يعرفونه من المجرمين، وتساؤلهم فهو: تذاكرهم لهم، ولما كان في الدنيا من تجبرهم وكفرهم؛ إيقانا منهم بما صاروا إليه من عذاب النار، وانقلبوا إليه من سوء الدار.

ثم رجع سبحانه، فذكر مساءلة خزان النار لأهل النار، وتقريعهم لهم؛ لما

كان من فسقهم وكفرهم، وإعراضهم عن ذكر ربهم، فقال: ﴿ما سلككم في سقر (٤٢)﴾، حكى قول الخزنة من الملائكة البررة، للفاسقين المعذبين، ومعنى ﴿ما سلككم في سقر (٤٢)﴾، أي: ما أولجكم وأدخلكم في سقر؛ وهذا من الملائكة صلوات الله عليهم تقريع لأهل النار، وتبكيت للفجرة الكفار؛ لا أنهم جهلوا ما الذي سلكهم فيها، وصيرهم من حكم الله إليها؛ وكيف يجهلون ذلك، وهم بحكم الله عارفون، وبعدله واثقون، وبما سلك عباده في جهنم عالمون؟!!

ثم ذكر سبحانه ما يكون من جواب أهل النار لهم، فيما عنه سألوهم، فقال: ﴿قالوا لم نك من المصلين (٤٣) ولم نك نطعم المسكين (٤٤)﴾، أي: ندفع الزكاة، فأقروا على أنفسهم بأنهم لم يكونوا يؤدون فرض الصلاة الواجبة، وأنهم لم يكونوا يطعمون المسكين، ومعنى ﴿نطعم المسكين﴾ أي: ندفع فرض الزكاة الواجبة، التي جعلها الله للعالمين نجاة.

ثم قالوا: ﴿وكنا نخوض مع الخائضين (٤٥)﴾، ومعنى ﴿وكنا﴾ فهو أي: لم نزل، ومعنى ﴿نخوض﴾ فهو: ندخل فيما دخلوا فيه، ولم نزل على ما كانوا عليه؛ والخائضون فهم: العاصون، الداخلون في معاصي الله، الخائضون فيما لا يرضى الله، من قول أو فعل.

﴿وكنا نكذب بيوم الدين (٤٦)﴾، فأقروا بما كانوا فيه في الدنيا، من التكذيب بيوم الدين، ومعنى ﴿نكذب﴾ فهو: نبطل ونجحد، ولا نصدق ﴿بيوم الدين﴾، والدين فهو: الجزاء على ما كان من أفعالهم، تقول العرب:" فلان يدان بفعله "، أي: يجزى بفعله، وكذلك روي أنه مكتوب في التوراة: ((يا ابن آدم، كما تدين تدان))، أي: كما تعطي تعطى، ويوم الدين فهو: وقت الدين، وهو اليوم الذي يجازى فيه العالمون، ويحشر فيه المربوبون.

﴿حتىٰ أتانا اليقين (٤٧)﴾، واليقين هاهنا فهو: الموت الذي وعدوا به، ومعنىٰ ﴿أتانا﴾ فهو: واقعنا ونزل بنا.

ثم قال سبحانه: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين (٤٨)﴾، يقول جل جلاله: إنهم لو شفع فيهم لم تكن الشفاعة تنفعهم. ﴿شفاعة الشافعين (٤٨)﴾: وإنما هذا تمثيل من الله، وإعلام لعباده بكفرهم، وعظيم جرمهم؛ وذلك: أن الشفاعة تنفع في موضع الأمر اليسير، ولا تنفع في الموضع الذي فيه حكم من الله عليهم بالعقوبة؛ لا أن أحدا من الأنبياء المرسلين، ولا الملائكة المقربين صلوات الله عليهم يشفع لأحد من أهل الوعيد؛ حاش لله أن يكونوا كذلك، أو يفعلوا شيئا من ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين (٤٩)﴾، يريد سبحانه: فما لهم كانوا في الدنيا عن التذكرة معرضين؛ ومعنىٰ ﴿ما لهم﴾ فهو: ما بالهم، ومعنىٰ "ما بالهم" فهو: أي شيء كانوا عن التذكرة معرضين؛ والتذكرة فهي: ما ذكر الله لهم، وقص عليهم، وأخبرهم به علىٰ لسان نبيئه عليه السلام، مما يعاينونه في الحشر، ويوم النشر، مما كانوا به مكذبين، وعنه للعبهم معرضين؛ ومعرضون فـــ: هم صادون تاركون.

ثم شبههم سبحانه بإعراضهم، ونفرهم عن الحق الذي كان يتلىٰ عليهم - بالحمر المستنفرة، فقال: ﴿كأنهم حمر مستنفرة (٥٠) فرت من قسورة (٥١)﴾، والحمر فهي: هذه الحمر المعروفة، والمستنفرة فهي: الفزعة المرعوبة، ومعنىٰ ﴿فرت﴾ فهو: هربت، ومعنىٰ ﴿قسورة﴾ فهو: الأسد؛ فذكر الله سبحانه: أن فرارهم عن الحق، ونفورهم عن الصدق -كنفور هذه الحمير من الأسد.

ثم قال سبحانه: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتىٰ صحفا منشرة (٥٢)﴾، ومعنىٰ ﴿بل﴾ فهو: قد، و﴿يريد﴾ فهو: يحب ﴿كل امرئ﴾ فالمرء هو: الرجل،

يقول سبحانه: يريد كل رجل منهم ﴿أن يؤتى صحفا منشرة﴾، و ﴿يؤتى﴾ فهو: ينزل عليه ويعطى، والصحف فهي: الكتب المنشرة، والكتب المنشرة فهي: المثبتة المبينة، التي تنشر وتقرأ، ويعرف ما فيها ويتلى؛ فأخبر سبحانه: أن جميع الفاسقين المكذبين إنما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله حسدا منهم له على ما آتاه ربه، فكلهم يطلب ويتمنى أن يكون نبيا مرسلا؛ وليس ذلك لهم، ولا كرامة؛ بل لله الأمر والقدرة، والعظمة والعزة، يعطي من يشاء نعمته، ويؤتيه كرامته؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿كلا بل لا يخافون الآخرة (٥٣)﴾، يريد بـ﴿كلا﴾: ليس تخافون؛ فأخبر سبحانه: أنهم لم يكونوا يخافون في الدنيا معادا ولا آخرة؛ والآخرة هاهنا فهو: عذابها ونكالها.

ثم قال: ﴿كلا إنه تذكرة (٥٤)﴾، يقول: ليس هو بباطل؛ ولكنه حق تذكرة، فالتذكرة هي: التنبيه والتبصرة.

ثم قال: ﴿فمن شاء ذكره (٥٥)﴾، يريد ﴿من شاء﴾ أي: من أراد، ومعنى ﴿ذكره﴾ يقول: تذكره فخافه، وخشيه فحذره.

﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾، يقول سبحانه: إنكم لم تكونوا تقدرون على التذكرة والتفكرة، والتمييز بين الحق والباطل -لو أن الله لم يشأ أن يجعل فيكم استطاعة تنالون بها الفكرة والتمييز، وعقولا تصلون بها إلى التذكرة؛ ولكنه شاء ذلك لكم، فركبه وجعله بمنه فيكم. ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة (٥٤)﴾ معنى ﴿أهل﴾ أي: هو صاحب التقوى، ومعنى صاحب التقوى فهو: وليها، والحقيق بها، والمستحق لها، والتقوى فهي: المخافة من الخلق والاتقاء، و ﴿المغفرة﴾ فهي: العيادة منه، والرحمة على عباده، بالعفو بعد الغضب؛ وذلك ربنا الرحمن، أهل البر والتقوى، والمغفرة والإحسان.

سورة القيامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾، يقول: مشرقة حسنة، ﴿إلى ربها ناظره﴾، يقول: منتظرة ثوابه، وكرامته ورحمته، وما يأتيهم من خيره وفوائده؛ وهكذا ذلك في لغات العرب، وبلغاتها ولسانها نزل القرآن، يقولون إذا جاء الخصب بعد الجدب:" قد نظر الله جل ثناؤه إلى خلقه، ونظر لعباده "، يريدون: أنه أتاهم بالفرج والرخاء؛ ليس يعنون أنه كان لا يراهم، ثم صار يراهم .

وقال عليه السلام في موضع آخر في سياق رده على من زعم أن الله تدركه الأبصار:

وأما قول الله عز وجل:﴿وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (٢٣)﴾ فقد روى الناس عن سلفنا أنهم قالوا: هو النظر إلى ما يأتيهم من أمر الله. وقال بعضهم: هو الانتظار لثواب الله، ولا يرى الله أحد. وكلا القولين جائز.

ولسنا ننكر أن يكون أولياء الله في الجنة يرون ربهم لا بتحديد ولا إدراك إحاطة، وكذلك كان معنى قول مجاهد في أن لا يرى الله أحد، أي: لا يراه أحد بتحديد ولا إحاطة؛ ولكن يراه أولياؤه وينظرون إليه، نظر مخلوقين إلى خالق، ينتظرون ثوابه، ويرون تدبيره، لا كنظر مخلوقين إلى مخلوق؛ لأنه ليس

كالمخلوقين. ويجوز أن يقال: نظر إلىٰ من ليس كالمخلوق كما ينظر إلىٰ المخلوق، وفي الخلق: ما لا يرىٰ، وهو الروح والعقل، وما أشبههما، فلا يقال: إن شيئا من ذلك يرىٰ كما ترىٰ الأشخاص؛ فكيف يقال: إنه يرىٰ الله كما يرىٰ الشخص؟!

وإذا ابتعث الله أولياءه من الأجداث أرسل إليهم ملائكته، ليبشرهم بالجنة وينادونهم: ﴿أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ [الأعراف: ٤٣]، وذلك قبل أن يدخلوها، وهم ينظرون إلىٰ أن ينيلهم ما وعدهم، وما به بشرهم، فوجوههم يومئذ ناضرة بهجة، مشرقة حسنة ناعمة، تنظر إلىٰ ربها بالحب له والرضىٰ عنه، والرغبة إليه، ينظرون ما يأتيهم منه ما بشرهم به الملائكة، وإن الله عز وجل ينظر إليهم نظر الخالق إلىٰ المخلوق المطيع الحبيب، وينظرون إليه بالرغبة فيما لديه نظر مخلوقين محبين إلىٰ خالقهم المحبوب عندهم المنعم عليهم، نظر معرفة، لا نظر تحديد وإحاطة، والله ينظر إليهم، وقد كان يراهم في الدنيا، إلا أن نظره هذا نظر ثواب ورحمة، ووفاء بما وعدهم، والمزيد لهم من كل كرامة؛ إذ أدخلهم الجنة، فلا يزالون ينظرون إليه في جنته بالرضىٰ عنه، والاستزادة مما عنده من فوائد النعم، وتحف الكرامات، مع ما قال لهم عز وجل: ﴿ولدينا مزيد﴾ [ق: ٣٥]، أي: مزيد من ربهم، لا تنقطع التحف والخيرات الحسان من ربهم أبدا عنهم، وينظرون إلىٰ ربهم في الجنة بمقعدهم، وما هم فيه من الازدياد من نعيمهم، والإحسان إليهم، وإنما يوصف الله سبحانه بنظر أوليائه إليه، بهذه المعاني التي ذكرنا، ولا ينظر إلىٰ الله أحد من أعدائه يوم القيامة بمعنىٰ ما ينظر أولياؤه.

ويقال في اللغة: إنما ينظر العبد إلىٰ سيده، وإنما ينظر إلىٰ الله ثم إليك، يريدون بذلك ما يأتي من المنظور، وعلىٰ هذا المعنىٰ قول الناس.

وقال الله تبارك وتعالىٰ يخبر عن أعدائه، أنه لا ينظر إليهم، ولا يكلمهم فيها، وفي الحالة التي لا ينظر إليهم الله يراهم، وقوله: ﴿لا يكلمهم الله﴾، أي: لا يسألهم، وقد كلمهم بما فيه حزنهم، وإن العالمين بالرب علم اليقين عاينوا

بيقينهم القيامة، وأبصروا وجوها مسودة، وقد علاها القتر والعبوس؛ جزاء بما كانوا يصنعون، فراعهم ما أبصروا بيقينهم من تلك المفضعات، فحذروا أن يكونوا من الذين قال الله: ﴿وجوههم مسودة﴾ [الزمر: ٦٠]، و: ﴿عليها قترة﴾، فلم يكذبوا على ربهم؛ إذ سمعوه عز وجل يقول: ﴿لا تدركه الأبصار﴾، وهذه مدحة لله، وحسن ثناء عليه، وتعظيم له؛ فاستيقنوا أن الثناء والمدح عن الله غير حائل في الدنيا ولا في الآخرة، وأبصروا بيقينهم في القيامة إلى وجوه ابيضت، فهي ناضرة مستبشرة، ضاحكة مسفرة، إلى ربها ناظرة، في روح وجنات عالية، يخبرون فيها بصدقهم عن الله في القول والعمل له، والموافقة له في الأيام الخالية، فلذلك وضع القوم كلامهم من ربهم حيث وضع الرب، ولم يقولوا بغير ما قال الله لهم، وقالوا كما قال لهم ربهم: إلى ثواب ربها ناظرة، ولم يقولوا: لربها مجاهرة.

وإنما الشيء إذا جوهر نظر إليه بالعيان لا بالوجه؛ لأن الوجه غير العين، ولو كان ما قالوا على ما ادعوا -لقال الله في كتابه: أعين إلى ربها ناظرة؛ لأن الوجه لا يرى ولا يبصر، وإنما البصر للرؤية والعينين اللتين في الوجه؛ فهذه معان لطيفة مفصلات في النظر.

وقد قال إبراهيم الخليل، لابنه إسماعيل، صلى الله عليهما: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ [الصافات: ١٠٢]، وليس ذلك رؤية حس، ثم قال: ﴿انظر ما ذا ترى﴾، ولم يرد: إدراك العين، ولا إحاطة البصر، في قوله: ﴿ما ذا ترى﴾ في الذبيح أن يسلم لربه نفسه، ويجود له بها، فرأى موافقة أبيه في طاعة ربه بما أمره؛ فأمكنه من ذبحه، واستسلم لربه، وليس ذلك النظر بالعين ورؤيتها... (إلى آخر كلامه عليه السلام في هذا الموضوع، وهو كلام مفيد، من أراد الاطلاع عليه فهو في كتاب المسترشد في الجزء الأول (ص ٤٨٣))

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام، في سياق بحث حول الآية ما لفظه:

وإنما أراد سبحانه بالوجوه الناضرة: الوجوه النضيرة، البهية المشرقة، وأراد تبارك وتعالى بقوله: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي: وجوه المؤمنين ناضرة منتظرة لثواب الله عز وجل إياها، وما وعدهم به من صدق وعده في النعيم والرحمة والكرامة، وهذا في لغة العرب معروف غير منكر، يفهمه منهم من يعرف اللسان العربي إذا فكر... (إلى آخر كلامه عليه السلام)

وقال في كتاب التبصرة للإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني عليه السلام:

إن النظر بالعين ليست حقيقة الرؤية؛ بل حقيقة الرؤية: تقليب الحدقة في جهة المرئي طلبا لرؤيته، وإذا كان هذا هكذا، فظاهر الآية لا تدل على إثبات الرؤية، وتأويلها: ما روي عن المفسرين، وهو: أنه إنما أراد به انتظار الثواب؛ عند أهل اللغة يجوز أن تقول:" ناظرة إلى الله "، بمعنى: ناظرة إلى ثوابه، على ضرب من التوسع، وأراد: انتظاره الثواب، والنظر إليه؛ لأن النظر بمعنى الانتظار مشهور عند أهل اللغة. ويجوز أن يقال:" ناظر إلى الله "، بمعنى: ناظر إلى ثوابه، على ضرب من التوسع، كما قال الله تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ [الصافات:٩٩]، أي: إلى حيث أمر ربي.

وقال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

وأما معنى قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (٢٣)﴾، فهو أن يكون النظر إلى الله بالعقل، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ [الفرقان:٤٥]، وقوله: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١)﴾؛ وفي آخر الآية ما يدل على هذا التأويل، وهو قوله: ﴿ووجوه يومئذ

باسرة (٢٤) تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥)﴾، فعلق ذكر الظن بالوجوه، والظن لا يتعلق بالوجوه، فوجب أن يكون المراد بها العقل. ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي: منتظرة؛ قال الله تعالى: ﴿فنظرة إلى ميسرة﴾ [البقرة:٢٨٠]، والمعنى: فانتظار إلى ميسرة، وقال تعالى حاكيا قول بلقيس: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ [النمل:٣٥]، أي: منتظرة، ومثل ذلك موجود في لغة العرب، قال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات ... إلى الرحمن يأتي بالخلاص

وقال غيره:

وكنا ناظريك بكل فج ... كما للغيث ينتظر الغمام

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي: إلى رحمة ربها ناظرة، كما قال الله حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ [الصافات:٩٩]، أراد: إني ذاهب إلى حيث أمرني ربي؛ وقد روي هذا التفسير عن أمير المؤمنين عليه السلام، وعن ابن عباس وغيرهما.

وأيضا: فإن النظر غير الرؤية، والنظر هو: تقليب الحدقة وفتحها إلى جهة المرئي؛ ويدل على ذلك أن من ينظر الهلال، يقال:" نظر إلى الهلال "، وإن لم يره.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، في سياق بحث في الرؤية:

وأما ما ذكره من الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (٢٣)﴾: فإن معنى ذلك عند آل محمد صلوات الله عليه وعليهم: أن " إلى " واحد " آلاء " يقول: آلاء وإلى، كما يقول: أمعاء ومعى؛ فمعنى ﴿إلى ربها ناظرة﴾: نعمة ربها ناظرة؛ فهي تنظر إلى نعم ربها عز وجل تلذذا وتفكها، مع ما يصلها من النعيم المقيم، والخير الجسيم، وقد قيل: إن ذلك من المجاز، وأن قوله: ﴿إلى ربها

ناظرة﴾، يريد: إلى ثواب ربها، فحذف الثواب، كما قال تعالى: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ [يوسف:٨٢]، يريد: أهل القرية وأهل العير، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، وذلك جائز في اللسان العربي؛ فلا وجه لإنكاره؛ لأن الوجوه لو نظرت الباري تعالى لكان في جهة أو حالا فيما هو في جهة، ولو كان كذلك لكان جسما أو لونا، والأجسام والألوان محدثة، وهو تعالى قديم، فلا يجوز ذلك عليه تعالى في دنيا ولا آخرة، وقد قال تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣)﴾ [الأنعام]؛ فتمدح بنفي إدراك الأبصار- وهو: رؤيتها - تمدحا راجعا إلى ذاته، فلا يجوز إثبات ما تمدح الله تعالى بنفيه عن نفسه: أما أنه تعالى تمدح بذلك فهو ظاهر، وأما أن التمدح راجع إلى ذاته فكذلك، وأما أنه لا يجوز إثبات ما تمدح بنفيه عن نفسه فلأن ذلك يكون نقصا في حقه، وإلحاق النقص به لا يجوز.

وفي ينابيع النصيحة بحث حول معنى هذه الآية؛ فليراجع.

وقال في كتاب الأساس للإمام القاسم بن محمد عليه السلام:

معنى قوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي: منتظرة رحمته، كقوله تعالى: ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾، أي: منتظرة، وقوله تعالى حاكيا عن الأشقياء: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾، أي: انتظرونا، وقوله تعالى: ﴿وقولوا انظرنا﴾، أي: انتظرنا، وقال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات ... إلى الرحمن يأتي بالخلاص

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

قول الله عز وجل: ﴿لا أقسم بيوم القيامة (١)﴾ معناها: ألا أقسم بيوم القيامة، فطرح الألف وهو يريدها، فخرج معنى نفي، وإنما معناه معنى إيجاب

قسم، وقد تقدم شرحنا لطرح الألف وإثباتها في تفسير أول " عم يتساءلون ". معنى ﴿أقسم﴾ أي: أحلف وأذكر. يوم القيامة فهو: يوم الحشر للعالمين، والمناقشة للمربوبين، وإنما سمي قيامة: لما يقوم فيه من الأمر العظيم، الهائل الجسيم، ومعنى " يقوم " فهو: يقع فيه، أي: يكون فيه.

﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة (٢)﴾ فهو أيضا: قسم طرحت منه الألف، كان معناها أولا: أقسم بالنفس اللوامة، والنفس اللوامة فهو: نفوس الثقلين، اللوامة فهي: النادمة المتحسرة التي تلوم صاحبها؛ ذلك أنه ليس من مؤمن ولا كافر إلا وسيلوم نفسه في يوم القيامة، فأما نفس المؤمن فتلومه أن لا يكون ازداد إيمانا وعملا؛ إذ رأت ما جعل لها على إيمانها من الجزاء والنعيم، والفوز الكريم، والملك العظيم، وأما نفس الكافر فتلومه على ما قدم من المعاصي والردى، عند معاينتها لما نزل بها من العذاب الأليم والبلى.

وإنما أقسم الله سبحانه بيوم القيامة: لما فيه من عجيب الأمور، والفصل والقضاء بالحق والاستواء، ولما فيه من عظيم الثواب لأهله، وجليل العقاب لمستحقه، وإنه يوم عظيم الأمر، جليل الخطر؛ لما فيه من العدل والحق، والفصل بين جميع الخلق؛ فأراد سبحانه بالقسم به: التنبيه على جليل ما فيه من آياته، وأخبر به من صفاته.

وكذلك أقسم باللوامة؛ تنبيها على جليل ما قدر النفس عليه، وفطرها من الفطرة فيه، فجعلها بتقديره ساكنة في معامد الإنسان ومقاتله، يجري منها نفسه، وتثبت بها حياته، ويكون بها طرأة جسمه، ولين مفاصله، واستقامة جوارحه؛ فنبه الله عز وجل على هذا العجب من فعله، العظيم من صنعه في النفس -بما أقسم به منها، وإنما يقسم الله تبارك وتعالى من الأشياء بكل أمر فيه تدبير، أو أثر صنع حسن أو تقدير، يكون ظاهر الشهادة بالحكمة لجاعله، قاطعا بالقدرة لفاعله، يقسم الله به تنبيها لعباده على التفكر والتذكر لما فيه من أثر صنعه،

والشواهد له سبحانه بربوبيته.

وقد قال بعض من يتعاطى التفسير: إن معنى قسم الله بهذه الأشياء هو: قسم بجاعلها، يزعمون أنه سبحانه أراد: لا أقسم برب يوم القيامة، وكذلك لا أقسم برب النفس اللوامة.

وهذا عندنا ليس بشيء، وليس يقول بهذا القول من الخلق إلا أعمى، جاهل لما يريد الله بقسمه لما يقسم به من الأشياء.

ثم قال سبحانه: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه (٣)﴾، يقول: أيظن الإنسان – أي يتوهم – أنا لن نجمع عظامه، معنى ﴿نجمع عظامه﴾ أي: نردها بعد تمزقها وبلائها، ونحييها بعد ذهابها وفنائها؛ والإنسان هاهنا فهو: جميع الناس الذين شكوا في ذلك من فعل الله، وأنكروه من قول الله، ممن عند عن دين الله، ولم يؤمن برسول الله، من الجاهلية الجهلاء، من قريش ومن شاركهم من العرب وغيرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه (٤)﴾، يقول: بلى، نحن على خلاف ما قالوا، ونحن قادرون على تسوية بنانه، والبنان فهو: الخلق والأسر، والتأليف في الأعضاء والجعل. و ﴿نسوي﴾ فهو: نجعل ونحيي، ونرد إلى القوة كل ما قد بلي، من عظم أو لحم، حتى نرد بنانه إلى الاستواء، بعد ما كان عليه من الخراب والفناء.

ثم قال: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه (٥)﴾، الإنسان هو: الناس، والإرادة فيهم هي: المشيئة. ﴿ليفجر﴾ أي: ليعصي ربه، ويتبع شهوة نفسه، ويسعى في لذة قلبه، ومعنى ﴿أمامه﴾ فهو: ما بقي من عمره وحياته، يريد: أن الفاسق يريد أن يجعل باقي حياته كلها فجورا وفسقا، وعصيانا لله سبحانه وعتيا.

﴿يسأل أيان يوم القيامة (٦)﴾، معنى ﴿أيان﴾ أي: متى يوم القيامة؟

فأخبر سبحانه بأول أشراط يوم القيامة، فقال: ﴿فإذا برق البصر (٧) وخسف القمر (٨) وجمع الشمس والقمر (٩)﴾، فأخبر أن القيامة إذا كانت هذه الشروط وعوينت فهو: يوم القيامة.

ومعنى ﴿برق البصر (٧)﴾ فهو: شخص وحار؛ لما يرى من هول ذلك اليوم.

﴿وخسف القمر (٨)﴾ فهو: سقط وذهب، وانحل وانقضى.

ومعنى ﴿جمع الشمس والقمر (٩)﴾ فهو: جمعا في نفاذ الإرادة فيهما، وإمضاء المشيئة في فنائهما وانقضائهما، فيقول: جمعا جميعا في حكم الذهاب والفناء، وزوالهما عن مراتبهما، وجمعا في المنع لهما عن الجولان والدوران في أفلاكهما، وصارا ممنوعين مما كانا عليه، منقولين مما كانا فيه، مجتمعين في الفناء، وفي التقطع والانقضاء، فقد انتضمهما ذلك جميعا، ونزل بهما أمر الله معا؛ فهذا معنى ﴿وجمع الشمس والقمر (٩)﴾.

﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر (١٠)﴾، يريد: أين المذهب عندما يرى من البلاء، ووقوع الوعيد عليه والجزاء؛ والإنسان الذي يقول ما ذكر الله من قول الإنسان -فهم: أهل الكبائر والعصيان.

﴿كلا لا وزر (١١)﴾، يريد بـ﴿كلا﴾: إنكارا عليه لطمعه في المفر، ومعناها: لا يكون وزر، والوزر فهو: الملجأ والمفر.

﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾، معنى ﴿المستقر﴾ فهو: المصير والمقر.

﴿ينبأ الإنسان﴾، أي: يعلم الإنسان ويخبر، ويوقف على فعله، ويذكر بما كان قد قدم وأخر. الإنسان فهو: الناس كلهم. ﴿يومئذ﴾ فهو: يوم القيامة. ﴿بما قدم وأخر (١٣)﴾، فمعنى ﴿قدم﴾ أي: ما سلف منه من العمل، ومعنى ﴿أخر﴾

فهو: أخر النظر في عاقبته، يقول: قدم عملا فعمله، وأخر عن نفسه النظر والمخافة في عاقبته، ومعنى ﴿أخر﴾ فهو: ترك ورفض الفكرة والخوف لمثل ما وقع فيه في يوم الدين، من العذاب المهين، على جزاء فعله المقدم؛ هذا معنى ﴿قدم وأخر﴾، ولا يخرج أبدا على غير هذا المعنى؛ لأن كل عمل عمله الإنسان قبل وفاته فهو: متقدم لوفاته، وللقاء ربه؛ ولا يجوز أن يقال لشيء فعله في حياته، من فعله الماضي وصنعه، الذي وجب عليه الوعيد به: إنه متأخر ولا إنه أخره؛ كيف يكون مؤخرا بعد وفاته، وقد وجب عليه الوعيد بفعله؟! وليس الذي ترك وأخر إلا: ما ذكرنا من ترك المخافة للوعيد، والفكرة فيه، والنظر في عاقبته، وترك الاستعداد له.

ثم قال سبحانه: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة (١٤)﴾، يريد: بل هو على نفسه حجة، وشاهد عليها بما كان من فعلها، وكذلك قوله سبحانه: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (٦٥)﴾ [يس]، يقول سبحانه: هو عالم في حياته بما يكون منه، وهو أعلم الخلق بما هو عليه من ضميره وعلانيته، فهو أبصر وأعلم بما هو عليه في حياته لربه، وهو في الآخرة شاهد على نفسه بفعله في حياته، حجة لنا عليها، وقائل بالحق يوم الدين فيها.

﴿ولو ألقى معاذيره (١٥)﴾، والإلقاء هو: الطرح والكلام للاعتذار، والمعاذير فهي: الكلام الذي لا يثبت ولا يصح لقائله صدق، فيقول سبحانه: هو عارف بنفسه، عالم بغامض أمره، وسر ضميره.

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به (١٦)﴾، يقول: لا تذكرن منه شيئا حتى تفهمه، ولا تعجل بإلقاء شيء منه إلى الناس، حتى تحكمه، وتثبت تنزيله ومعناه في قلبك، فتذكره من بعد ذلك؛ فإنك إن عجلت بذكر تنزيل قبل فهم تأويل -لم تأمن أن تسأل عن التأويل، فلا تعلم ما أردنا به، فاثبت وتأن حتى نعلمك

المعنيين كليهما؛ فإنك لا تعلم الغيب، ولا تعلم إلا ما علمناك، ولا تفهم إلا ما فهمناك.

ثم قال سبحانه: ﴿إن علينا جمعه وقرءانه (١٧) فإذا قرأناه فاتبع قرءانه (١٨)﴾، يريد: جمع سوره في قلبه، وتمكين القرآن كله في صدره، والإيحاء به كله إليه، وتنزيله شيئا شيئا عليه، حتى يكمل القرآن كله في صدره مجتمعا، وتضمه جوانحه بالحفظ له كله معا، حتى يكون بحفظه وتأويله فهما، وبتنزيله ومعانيه عالما، فقد جمع الله ذلك كله، وثبت به سبحانه فؤاده. ومن الجمع: جمع كل آية إلى سورتها، حتى تكمل السورة على حقيقتها، فتجتمع الآيات كلها إلى مواضعها، وذلك: أن القرآن نزل عليه صلى الله عليه وعلى آله خمسا خمسا. فذكر الله سبحانه: أنه سيجمعه له، ومعنى جمعه فهو: تأليفه؛ فذكر سبحانه: أن عليه تأليف الآيات بعضها إلى بعض، حتى تكمل السورة سورة سورة، فهذا معنى ﴿جمعه وقرءانه﴾؛ فمعنى ﴿قرءانه﴾: تنزيله إليك، وتلاوته لديك، وقراءة جبريل له عليك حرفا حرفا، ويحفظك إياه شيئا شيئا؛ فهذا معنى ﴿قرءانه﴾.

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرءانه (١٨)﴾، يقول: إذا قرأه عليك جبريل يحفظك إياه فاتبع قراءة جبريل وتعليمه إياك، ومعنى ﴿ـــاتبع﴾ أي: اتبعه فيه، وقل كما يقول، واقرأ كما يقرأ، وخذ ما يعطيك، وتعلم ما يعلمك من القرآن الذي أمرناه بتعليمك إياه.

﴿ثم إن علينا بيانه (١٩)﴾، يقول سبحانه: إن علينا تبيين ما نزلناه إليك حرفا حرفا، وتفسير ما فرضنا عليك فيه شيئا شيئا، فاحفظ تنزيل ما أوحينا إليك تحفظا جيدا، فإذا حفظت التنزيل علمناك التأويل، وفهمناك تبيان ما فيه من الأمر الجليل؛ فأراد الله سبحانه: يثبت قلبه بتعليمه القرآن شيئا فشيئا، فعلمه التنزيل شيئا فشيئا، وعلمه التأويل شيئا فشيئا؛ فأراد سبحانه بقوله: ﴿إن علينا بيانه (١٩)﴾ أي: الإخبار له بأن عليه بيان كل شيء أنزله عليه من حرام

وحلال، وتبيينه حتى يعلم بعد حفظ التنزيل، وعلمه غوامض علم التأويل كله، فلا يضل عنه منه حرف واحد صغير، ولا يذهب منه قليل ولا كثير.

ثم قال سبحانه: ﴿كلا بل تحبون العاجلة (٢٠)﴾، فأخبر: أن من لا دين له من الخلق يحبون العاجلة، والعاجلة: ما تعجل له ودنى، وحضر وقرب من كل الأشياء.

﴿وتذرون الآخرة (٢١)﴾، معنى ﴿تذرون الآخرة (٢١)﴾ هو: تتركون العمل لها، وترفضون العمل الذي تنالون به خيرها؛ فلما أن رفضوا العمل الذي ينالون به الآخرة -كانوا للآخرة تاركين، وللعاجلة التي عملوا لها مؤثرين، والعاجلة فهي: الدنيا الفانية، والآخرة فهي: المتأخرة الباقية.

﴿وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (٢٣)﴾، فـ﴿يومئذ﴾ هو: يوم القيامة، والناضرة هي: المسرورة البهجة، المطمئنة الفرحة، التي عليها لقلة الخوف النضرة. ﴿إلى ربها ناظرة (٢٣)﴾، يريد: إلى ما يكون منه ناظرة، ولثوابه ووعده منتظرة، ومعنى ﴿ناظرة﴾ أي: راجية، ولثوابه منتظرة؛ كذلك تقول العرب:" ما أنظر إلا إلى الله وإليك "، وليست تريد بذلك: النظر بالعين إليه، وإنما تريد: فضله وعطاءه، وكذلك يقول القائل من العرب لمن يطلب رفده وبره: " عيني مفتوحة إليك، وأنا ناظر إليك "، ليس تريد: أن يفتح عينيه لينظر بها إلى جسمه، فإنما تريد: إن عيني مفتوحة إلى ما أرجو النظر إليه من عطائك، ومواهبك وفعالك.

﴿ووجوه يومئذ باسرة (٢٤)﴾، فهو: وجوه الكفار، ومعنى ﴿باسرة﴾ أي: باسرة لأنفسها عن رحمة الله، بما كان من عصيانها لله؛ فلما أن عصت الله تلك الوجوه والأبدان -بسرت أنفسها عما أعده الله من الثواب والإحسان، لمن أطاعه من جميع الإنسان؛ فسماها: باسرة؛ إذ كانت قد بسرت أنفسها عن رحمة الله وثوابه في الآخرة، بما قدمته من معصيته في العاجلة، ومعنى " بسرت " أي:

منعت ودفعت وحرمت.

﴿تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥)﴾، ومعنى الظن هاهنا: اليقين، يقول: توقن أنه سيفعل بها فاقرة، و ﴿يفعل﴾ أي: يعمل بها ويصنع، والفاقرة هي: الداهية النازلة، القاتلة المهلكة، وإنما سميت فاقرة ؛ لأنها تفقر الظهر، وتفقير الظهر: قطعه، تقول العرب: " فقر ظهره "، أي: دقه وقطعه، وحفره ونقبه؛ من ذلك ما تقول العرب:" أفقروا في الشيء فقرا " أي: احفروا فيه حفرا. ومن ذلك ما سمي عدم الدينار والدرهم: فقرا؛ لأن عدمهما يثقب القلب، ويفقر الظهر، فلما أن كان يعمل ذلك بصاحبه -قيل: نزل به الفقر، أي: نزل به ما يثقل به الحال في كل الأمر.

﴿كلا إذا بلغت التراقي (٢٦)﴾، فالبالغة للتراقي هي: النفس عند خروجها من الجسم، وبلوغها تراقي صاحبها، والتراقي فهما: ترقوتا الإنسان المعروفتان، وهما: العظمان اللذان تحت اللحيين إلى أسفل الرقبة وفوق الصدر؛ يريد بقوله: ﴿كلا﴾ أي: لا ترجع النفس موضعها بعد بلوغ التراقي أبدا.

﴿وقيل من راق (٢٧)﴾، أراد بذلك: الدليل على جهل الخلق بأمر الله، وقلة علمهم بانقضاء أجل صاحبهم، فهم يطلبون له من يرقيه، ويتوهمون أن به داء غير الموت الذي يفنيه، فهم يقولون: من يرقي؟ والراقي هو: الذي يعوذ ويرقي.

ثم قال: ﴿وظن أنه الفراق (٢٨)﴾، يريد بقوله: ﴿ظن﴾ أي: أيقن صاحب النفس التي بلغت التراقي -أن الذي هو به الموت الذي يفرق بينه وبين حياته، وهو موقن بالموت؛ لما قد رأى وعاين ووجد، وأهله وإخوانه لا يوقنون بما أيقن، فهم يطلبون له الرقاء والدواء، وقد عاين الداهية الدهياء، وأيقن بالفراق والفناء.

﴿والتفت الساق بالساق (٢٩)﴾، والتفاف الساق بالساق فهو: صفهما لخروج الروح منهما، فإحداهما على الأخرى ساقطة، إن وضعت فوقها لم تنقلع عنها أبدا إلا أن تقلع، ولم تماز منها إلا أن تنزع، إن تركت فوقها لم تزل ملتفة أبدا

بها، وإن نزعت عنها لم ترجع إليها إلا أن يردها غير صاحبها.

﴿إلى ربك يومئذ المساق (٣٠)﴾ فهذا اليوم الذي قال الله: ﴿يومئذ﴾ - فليس هو: باليوم الذي قال الله سبحانه: ﴿وجوه يومئذ باسرة (٢٤)﴾؛ هذا اليوم هو: يوم وفاة الخلق، وعند معاينتهم لنزول الحق، ومواقعة ما وعدهم الواحد الخلاق، من الموت اللاف للساق بالساق؛ فهذا اليوم الذي ذكر الله فيه: أن فيه إليه المساق، وذلك اليوم فهو: يوم البعث والحق. ﴿المساق﴾، يقول: المضي به، والتصيير له إليه سبحانه. ومعنى ﴿إلى ربك﴾ أي: إلى الموضع الذي جعله الله مقرا للأرواح إلى يوم مماتها. ويوم ممات الأرواح فهو: ممات الملائكة والجن، وهو: يوم القيامة عند النفخة الأولة، التي ذكر الله: أنه يصعق بها من في السموات ومن في الأرض، ومعنى " يصعق " فهو: يموت ويذهب. ومعنى هذه النفخة الأولة التي ذكر الله، فقال: ﴿ونفخ في الصور﴾ [الزمر: ٦٨] - فهو: صور الخلق وأبدانهم، ومعنى " نفخ فيها " فهو: وقع فيها وواقعها من أمر الله ما أفناها، وحل بها من قضائه ما أزالها وأمضاها، فعند وقوع هذه النفخة تموت أرواح الخلق والجن والملائكة، ثم ينفخ فيها النفخة الثانية بالحياة، كما قال الله: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (٦٨)﴾ [الزمر]، يقول عز وجل: نفخ في الصور بالحياة مرة أخرى، كما نفخ فيه بالموت أولا، ومعنى ﴿نفخ﴾: جعل، كما قال الله سبحانه: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩)﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، يقول: جعلت فيه الروح؛ فنفخ الله تبارك وتعالى في الصور هو: الحياة، كنفخته في صورة آدم بالحياة، وجعل الروح فيهم كما جعله في صورة أبيهم.

﴿فلا صدق ولا صلى (٣١)﴾، فطرح الألف، وهذا موضعها وهو يريدها، وقد تقدم شرح هذا المعنى منا في غير هذا المكان، يريد بهذا اللفظ سبحانه: فلو كان في حياته من المصدقين بما جاء من رب العالمين، على لسان النبي الأمين،

وكان من المصلين -لكان بذلك عند الله من الفائزين؛ ولكن لم يكن كذلك، فكان من الهالكين.

ثم قال سبحانه: ﴿ولكن كذب وتولى (٣٢)﴾، معنى ﴿ولكن﴾ هو: بلى، يقول: بل كذب وتولى، أي: كذب بالحق، أي: جحد ولم يقر ولم يصدق. ﴿وتولى﴾، يقول: التوى عن الحق، وانصرف عن الصدق.

﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣)﴾، يقول: رجع من عند الرسول صلى الله عليه وعلى آله إلى أهله مكذبا يتمطى، والتمطي: شيء يفعله الزاهد فيما يلقى إليه، ويؤمر به ويتلى عليه، وهو: أمر يدل من فاعله على الانكسار عما يتلى عليه، والملالة لما يؤمر به، فإذا مل وضجر من ذلك العمل كائنا ما كان -داخله الزهد فيه، والضجر منه؛ يتمطى لما يداخله من الملالة له. والتمطي فهو: مد اليدين والتلوي، و التلفت بالمنكبين والتثني؛ ولا يقع هذا إلا بالمال؛ لما هو فيه من الضجر منه. فأخبر الله سبحانه عن المعرضين عن الله وعن رسوله، الزاهدين فيما يتلى عليهم من كتابه: أنهم بضجرهم وملالتهم، وكراهتهم لما يلقي صلى الله عليه وعلى آله في آذانهم -ينقلبون إلى أهلهم يتمطون؛ من استثقال ما سمعوا منه من تلاوته كتاب الله، وبغضهم له؛ فدل تمطيهم على ضجرهم وملالتهم، وكراهيتهم لذلك من فعله.

ثم قال سبحانه: ﴿أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥)﴾، يقول: كيد لك يا ضجرا تتمطى، ويا زاهدا في الهدى كيد لك، ومعنى ﴿أولى﴾ هو: كيد لك ، ومعنى " كيد لك " أي: كاد أخذ ربك أن ينزل بك عند فعلك، وكادت نقمته أن تحل بك عند تعنتك، وكادت بطشة ربك أن تنالك عند تمطيك، وحين إدبارك عن الحق وتوليك؛ وكذلك تقول العرب إذا رمت أغراضها، فقاربت سهامها الغرض -قالت: كادت به، أي: قاربته وقصدته، ودانته ولم تصبه بعد، وكذلك إذا طعن الفارس شيئا فداناه ولم يصبه -قالت

العرب: كادت به، أي: قاربه وداناه.

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦)﴾، يقول سبحانه: يتوهم الإنسان. ومعنى ﴿يترك﴾ أي: يخلى ﴿سدى﴾، أي: مهملا، والمهمل فهو: الذي لا يرعى ولا يحفظ منه مقبل ولا مدبر، ولا مذهب ولا مأتى، ولا يحصى عليه شيء من الأشياء؛ من ذلك ما تقول العرب لمن ضيع إبله وخلاها، أو غنمه أو دابته: " خلى فلان دابته في الأرض هملا "، أي: خلاها بلا راع ولا حافظ، ولا متعاهد ولا عارف لأمرها؛ فهذا معنى الهمل، والسدى فمعناه: هملا.

﴿ألم يك نطفة من مني تمنى (٣٧)﴾، يقول: أليس قد كان نطفة في ظهر أبيه؛ والمني فهو: الماء الذي ينزل من الظهر عند الجماع، ومعنى ﴿تمنى﴾ فهو: تخرج وتلقى، وكل شيء أمني فقد أخرج وأظهر وألقي.

﴿ثم كان علقة﴾، يخبر سبحانه: أنه صار في الرحم بعد أن كان نطفة علقة، والعلقة فهي: الشيء الجامد من الدم؛ فأخبر الله سبحانه: أن النطفة البيضاء تنقلب بقدرته في الرحم علقة حمراء، ثم تنقلب العلقة الحمراء مضغة، ثم يخلقها الله سبحانه ما يشاء، ويسوي منها ما أحب. ثم قال سبحانه من بعد أن ذكر العلقة: ﴿فخلق فسوى (٣٨)﴾، يريد عز وجل: خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاما، ثم كسا العظام لحما، ثم قال من بعد خلق الله فيه ما شاء، من خلق الذكر أو خلق الأنثى؛ فهذا معنى قوله: ﴿فخلق فسوى (٣٨)﴾، يقول: خلق شيئا بعد شيء، حتى سواه من هذا الماء ما شاء من ذكر أو أنثى؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩)﴾.

يعني بقوله: ﴿جعل﴾ أي: خلق فصور، وفطر فقدر، ومعنى ﴿منه﴾ أي: من ذلك المني الذي أمناه الزوجان، وهما الصنفان اللذان يتزاوجان، وهو: الذكر والأنثى؛ فأراد سبحانه بذكر ما ذكر، من فعله في الآدميين، وتنقيل خلق

المخلوقين: أن يعلمهم أنه لم يفعل ذلك بهم لأن يخلقهم سدى، وإنما فعل ذلك بهم -لأعظم ما يكون من المعنى، وهو: ما أراد بهم من الامتحان والاختبار، والابتلاء بالعمل في دار الدنيا، والإيجاب عليهم في يوم الدين، لما أوجب من الجزاء؛ فأعلمهم: أن من كانت هذه إرادته من خلقه -فقد بعد منه أن يجعلهم سدى، وبانت له بذلك الفعل القدرة فيهم وفي غيرهم على ما يشاء؛ ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى (٤٠)﴾.

معنى ﴿أليس ذلك﴾ هو: أما ذلك؟! فيقول: أما الذي فعل ما فعل، ودبر من تقليب تدبير خلقكم ما دبر، حتى صار من الماء بتدبيره وقدرته إنسانا قويا ثابتا -﴿بقادر على أن يحيي الموتى (٤٠)﴾؟! معنى ﴿قادر﴾ أي: مستطيع لذلك، قوي عليه، نافذ أمره فيه، ومعنى ﴿يحيي الموتى﴾ هو: يردهم بعد الممات أحياء؛ فأخبر سبحانه بذلك: أن إحياءه لرميمهم أجساما كابتدائه لخلق أجسامهم أولا من الماء؛ فأخبرهم: أن من ابتدأ شيئا من لا شيء - أي: جعل شيئا من غير شيء - فهو على إزالته قادر، وأنه على رده إلى الهيئة الأولى التي قد فرغ من خلقها، وأحكم تدبيرها -أقدر منه على ابتدائها، وأهون عليه في جعلها، كما قال سبحانه: ﴿وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه (٢٧)﴾ [الروم]، فضرب عز وجل ذلك لهم مثلا، كما مثلنا نحن به أيضا. وليس قوله: ﴿أهون عليه﴾، ولا هو على ردها أقدر -يقتضي أن له سبحانه حالا تفاوت حالا، ولا أن شيئا يمتنع عليه جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله؛ بل كل ما شاء أن يكون -كان، على ما يشاء ذو الجلال والإكرام والسلطان، ولا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يؤده حفظهما شيء، وهو السميع العليم.

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)﴾ [الإنسان: ٨]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

أخبر أنهم إنما أطعموا لوجهه خالصا؛ وذلك لكثرة معرفتهم بثواب ربهم، وإيثارهم لمحبته وطاعته، وبما يعلمون من واجب حقه على عظيم نعمته، فقال تبارك وتعالى: ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا﴾، وقال: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾، ونحو هذا في القرآن كثير؛ لما كثرت معرفتهم بواجب حق الله، وعظم ثوابه -أخلصوا له العمل، فأورثهم إخلاص العمل دوام الطاعة، والتلذذ بها.

وقال في شرح الرسالة الناصحة للإخوان للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، في سياق كلام عن زهد أمير المؤمنين علي عليه السلام وسخائه ما لفظه:

وأما السخاء فغايته الإيثار على النفس والأهل والولد، وكانت هذه حالة علي عليه السلام، حتى ذكر الله ذلك في محكم كتابه، في قوله عز وجل: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (٨)﴾، وصرح بإخلاص نيته عليه السلام وأهل بيته تصريحا، بقوله: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا(٩)﴾، وأخبر بخوفهم له في قوله: ﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا

قمطريرا(١٠)﴾، ودل على عصمتهم عليهم السلام، وأنهم يلقونه على عهده، ولا يقع منهم تفريط، ولا تبديل لحكمه، بقوله: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا(١١)وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا(١٢)﴾، إلى آخر الآيات المقدسات، فذكر حب الطعام في أول القصة، وذكر الصبر في آخرها أكبر برهان لأهل الأذهان على أن الضر قد كان بلغ فيهم نهايته، فآثر عليه السلام على نفسه، إيثارا لم يعلم من غيره، وهذا غاية السخاء؛...

(إلى أن قال:)

ولا نعلم خلافا بين أهل البيت عليهم السلام وأعيان أهل العلم: أن المراد بالآيات علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنها نزلت في شأنه، وقد دلت على الكرم، وزادت العصمة، والقطع على المغيب، وذلك لم يقع لغيره، فلو لم ينظر بعد ذلك في شيء من أمره -لكان ذلك كافيا في وجوب إمامته، وتقديم زعامته.

قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾[الإنسان: ١٣]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام عبد لله بن حمزة عليه السلام:

المسألة الخامسة عشر عن: قوله تعالى: ﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا﴾: ما يرون بعد ذلك؟

الجواب عن ذلك: أن الشمس تزول والقمر، وهو: الزمهرير، كما قال الراجز:

وليلة ظلامها قد اعتكر .... سريتها والزمهرير ما زهر

وأما ما يرون بعد ذلك فأهل الجنة في نور يتلألأ، وأهل النار في ظلمة طخياء؛ نعوذ بالله منها؛ فاعلم ذلك.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾[الإنسان: ٢٨]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)﴾؟

فهذا إخبار من الله سبحانه: أنه خلق خلقه بلا عون من أحد في ذلك له، وأنه هو المتفرد بخلقهم وإيجادهم؛ وشد أسرهم فهو: تقوية أسرهم، وأسرهم فهو: ثباتهم وعقدهم، وتركيبهم على ما جعلهم عليه وقدرهم.

ومعنى قوله: ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)﴾، المعنى فيه: إذا شئنا أهلكناهم وأبدناهم، وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم. ﴿تبديلا﴾ فهو: جعلناه جعلا، وأتينا بمثلهم بدلا منهم؛ اقتدارا ونفاذ إرادة؛ فهذا معنى ﴿تبديلا﴾: تأكيد لما ذكر من تبديل المبدل، وإحداث ما يحدث بدلا من الذاهب. وهي كلمة للعرب تؤكد بها المعنى الذي تريده وتذكره، تقول العرب:" كلمناه تكليما " تؤكد الكلام، وتقول:" ضربناه ضربا " تؤكد بها الضرب، " وأخرجناه إخراجا " تؤكد الإخراج بقولها:" إخراجا "، وكذلك:" أدخلناه إدخالا " تؤكد الإدخال بقولها:" إدخالا "، وتقول:" بدلناه تبديلا " تؤكد معنى التبديل بقولها:" تبديلا "؛ فعلى هذا يخرج ما عنه سألت من قول الله سبحانه: ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾؟

فمعنى ذلك: إخبار من الله أنكم لم تكونوا تقدرون تشاءون شيئا، ولا تكرهوا شيئا دون شيء، لولا أن الله شاء أن يجعل فيكم استطاعة على ذلك ومقدرة عليه، بما ركب فيكم من هذه العقول، التي بها تميزون الشيء عن ضده، وتفرقون بها المخبوب من غيره؛ فبهذه العقول المميزة، التي شاء الله تركيبها فيكم -تستبين شيئا دون ضده، وتركتم شيئا دون غيره، ولولا مشيئته لتركيب ما نلتم به ذلك فيكم -ما كنتم لتقدروا على المشيئة ولا الترك أبدا؛ فهذا معنى ما عنه سألت من هذه الأشياء.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾، فمعنى ﴿هل أتى﴾ أي: قد أتى، ومعنى ﴿حين﴾ فهو: الكثير الطويل من الدهر. ﴿لم يكن شيئا مذكورا (١)﴾، يقول: لم يكن شيئا يذكر في هذا الدهر الذي غبر، حتى خلقناه، من بعد طول الدهور وكوناه؛ والمعني بذلك فهو: جميع الناس الذين خلقوا من بعد أن لم يكونوا؛ فأراد الله تبارك وتعالى بذكر ذلك: الإخبار لهم بأنه قد كون أولهم من بعد العدم؛ إذ لا شيء من الأشياء، ثم صور آخرهم فيما قدر من الماء المهين، فكل كان ووجد وخلق وقدر بعد العدم الطويل.

ثم قال: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة﴾، ومعنى ﴿إنا﴾ هو: نحن، ومعنى ﴿خلقنا﴾ هو: أوجدنا وصورنا، وجعلنا وقدرنا الإنسان من نطفة، والنطفة

فهو: المني، والمني: الماء الذي يخرج من الرجل عند جماعه، فيقع في الرحم، ويخلقه الله ما يشاء، من الذكر والأنثى. ﴿أمشاج نبتليه﴾، والأمشاج فهي: الأوصال الموصلة، والأعضاء المفصلة، والقطع المتلائمة، المضموم بعضها إلى بعض، والمعلق كل شيء منها في شيء، تدبيرا من الرحمن، في تأليف ما ألف من الإنسان. قوله: ﴿نبتليه﴾ أي: نختبره ونمتحنه، بما يرى من أثر تأليفنا وتقديرنا لخلقه؛ لننظر كيف يكون شكره على ذلك، لمن فطره وجعله كذلك. ﴿فجعلناه سميعا بصيرا (٢)﴾، يقول: خلقناه ذا سمع يسمع به، وذا بصر يبصر به؛ ليكون أعظم في النعمة، وأكثر في الابتلاء، وأثبت للحجة.

﴿إنا هديناه السبيل﴾، معنى ﴿هديناه﴾ أي: إنا عرفناه وبصرناه وبينا له؛ والسبيل فهو: سبيل الله الذي هدى إليه عباده، وسبيل الله فهو: دين الله، ومراده من خلقه الذي أراده أن يعبدوه به. ﴿إما شاكرا وإما كفورا (٣)﴾، يقول: فلا بد أن يكون شاكرا لذلك من جعلنا، أو كافرا لما أوليناه في ذلك من نعمنا، والشاكر فهو: العارف بفضل ما أولى الذاكر له بلسانه وقلبه، والكفور فهو: المعرض عن حمد من أولاه الجميل، الذي ليس بشاكر لذلك ولا ذاكر.

ثم أخبر سبحانه بما أعد لمن كفر نعمه، فقال: ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا (٤)﴾، والسلاسل فهي: سلاسل من حديد يقرنون فيها، منها السلسلة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه (٣٢)﴾ [الحاقة]، والأغلال فهي: الأغلال المفهومة من الحديد في الدنيا، التي يغل بها المغلولون، وهي: عمد حديد تربط في الأيدي إلى الرقاب، طول كل عمود: شبرا أو أقل؛ كذلك يغل الله أعداءه في النار؛ ليكون ذلك أنكى في العذاب، وأضيق للصدور، وأشد للبلاء. والسعير فهو: لهب النار، واستعارها فهو: توقدها وتلهبها.

ثم رجع سبحانه إلى ذكر الأبرار الشاكرين، فقال: ﴿إن الأبرار يشربون من

كأس كان مزاجها كافورا (٥)﴾، والأبرار فهم: الذين برأوا أنفسهم بالصيانة لها عن النار، أو إخراجها من العقاب، وإدخالها في النعيم والثواب، فصاروا بذلك من فعلهم أتقياء، وسموا به بررة أولياء؛ والكأس التي يشربون منها فهي: المشارب والآنية التي يشربون بها ما يشرب من أنواع الأشربة والماء. ومعنى ﴿كان مزاجها كافورا﴾ فهو: إخبار من الله أن طعم ما يشرب من تلك المياه يوجد كالمخلوط بالكافور، وهو أطيب ما يكون طعما ورائحة.

ثم قال: ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا (٦)﴾، والعين من الماء: السائح على وجه الأرض، الكثير الجاري، ومعنى ﴿يشرب بها﴾ أي: يشرب منها، ﴿يفجرونها تفجيرا﴾ أي: يصرفونها حيث ما شاءوا، ويسيلونها أين ما أحبوا تسييلا.

﴿يوفون بالنذر﴾، فمعنى ﴿يوفون﴾: يتمون، ويوفون ويؤدون ما عليهم من ذلك، والنذر فمعناه: الواجب من كل شيء، وكل ما وجب على الإنسان من شيء فهو: نذر عليه، من ذلك: أن يوجب على نفسه لله شيئا وينذره. ومعنى " ينذره " أي: يوجبه على نفسه، من صيام أو صلاة، أو عتق أو صدقة، أو في شيء من أفعال البر. ومن النذر: أداء واجب الزكاة، ومن النذر: الصيام والصلاة، وغيرهما من الفرائض الواجبات؛ وكل ما أوجب الله على العباد من فرائضه، أو أوجبوه على أنفسهم له -فهو نذر عليهم؛ لأن العرب تسمي كل واجب نذرا، وتدعوه بذلك؛ من ذلك ما تقول العرب لمن تثق به وتعدله في تقدير جراحها:" نذر جراح فلان "، تريد: أوجب فيه من الدية والغرم والواجب ما يجب في مثلها، وتقول:" نذر هذا الجرح كذا وكذا "، تريد: الواجب فيه. فمدح الله سبحانه كل موف بنذره، ومؤديا للواجب عليه في كل أمره. و ﴿يخافون﴾ فهو: يتقون ويحاذرون. ﴿يوما كان شره﴾ فهو: يوم القيامة، وشره فهو: بلاؤه، وعذابه وحسراته وشقاؤه. ﴿مستطيرا (٧)﴾، أي: ظاهرا عاليا، مكشوفا مبينا.

﴿ويطعمون الطعام﴾ فإطعامهم: إعطاؤه والجود به والبذل، والطعام فهو: المعيشة من كل ما جعله الله غذاء للبشر، وعيشا وقواما. ﴿على حبه﴾ يقول: على الحاجة إليه، والرغبة فيه، في ساعة العسرة، والضيق والشدة. ﴿مسكينا﴾ فهو: الفقير المحتاج إلى الطعام. ﴿ويتيما﴾ فهو: الطفل الذي لا والد له، الذي قد ثكل والديه أو أحدهما، وعدم حسن نظرهما وقيامهما، وعنايتهما وكفايتهما. ﴿وأسيرا﴾، والأسير: كل مأسور قد أوثق أسره، واشتد بالأسر عليه حاله وأمره، ممن لا يقدر على ماله وأهله، من الأسارى الذي أسرهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، من الكفرة الفاجرين، وكذلك من أسرته الأئمة الهادون، من متأول فاجر، أو جاحد كافر. فواجب على من أسر أسيرا من الفاسقين والكافرين، إن لم يكن له مال، ولا سبيل إلى سعة حال، بوجه من الوجوه -أن ينفق عليه من بيت مال المسلمين بالمعروف، وإن كان له مال، أو كان في قرب أهله ومن يبلغه منافعه -وجب عليه أن يأمره بالاستنفاق من ماله، ولم ينبغي لنا: أن ننفق عليه أموال المسلمين إذا كان بالإنفاق على نفسه من الواجدين، وفقراء المسلمين أولى بتلك الفضلة، وبتلك التوسعة؛ فهذا يجب النظر فيه وتمييزه على الإمام؛ ومن أطعم غير هؤلاء الثلاثة من سائر أهل الإسلام -فهو مأجور أيضا على ذلك محمود.

وقد ذكر أن هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعال، فأثنى الله سبحانه عليهم -هم: الخمسة، محمد صلى الله عليه وآله، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين رحمة الله عليهم؛ فعلوا ذلك في وقت عسرة وضيق شديد، وحاجة إلى المعاش، فأثنى الله سبحانه كذلك عليهم، وذكر ما سيأتي ذكره، مما أعد الله لهم من الثواب، وكان في قولهم في ذلك لمن أطعموه فشكرهم الله -ما ذكر الله من قولهم: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٩)﴾، معنى ﴿نطعمكم لوجه الله﴾ هو: نطعمكم لله، تقربا إليه. ﴿لا نريد منكم جزاء﴾ أي: لا نريد

منكم عطاء على ذلك ولا شكورا، أي: لا حمدا ولا ثناء. ﴿ولا شكورا (٩)﴾: إنا إنما فعلنا ذلك لأنفسنا، ولم نفعله لكم.

﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا (١٠)﴾، معنى ﴿إنا﴾ أي: نحن ﴿نخاف﴾ أي: نتقي ﴿يوما عبوسا﴾، والعبوس فهو: الشديد المعبس لوجوه الناس لشدته، والقمطرير فهو: المتضاعف الشدة، الصعب الأمر، الذي ليس بعد شدته شدة، المتراكبة شدته شيئا فوق شيء.

فأخبر الله: أنه قد وقاهم شر ما يخافون من ذلك اليوم، فقال: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾، ومعنى ﴿فوقاهم﴾ فهو: صرف عنهم هوله، وكفاهم شره، والشر فهو: بلاؤه وعذابه، و﴿ذلك اليوم﴾ فهو: يوم الفصل والحشر. ﴿ولقاهم﴾ أي: أعطاهم وأنالهم ﴿نضرة﴾، ومعنى إعطائه إياهم لها فهو: إلقاؤها عليهم، وجعلها في وجوههم، والنضرة فهي: البهجة، وحسن الحال في الرؤية، وظهور النعمة ﴿وسرورا (١١)﴾ فهو: بالبشارة التي يلقيها إليهم، والسرور الذي ينعم به سبحانه عليهم، حتى يتمكن السرور بذلك في صدورهم، كما يمكن النضرة في وجوههم، بما يأمنون من عقابه، وما يرجون من ثوابه.

﴿وجزاهم بما صبروا﴾، يقول سبحانه: أعطاهم ثوابا على صبرهم على محن ربهم، وما نالهم فيه من البلاء من أعدائه. ﴿جنة وحريرا (١٢)﴾، والجنة في مساكن الآخرة التي أعدها الله للمتقين، فيها لذة أنفسهم، وشهوات قلوبهم، و ﴿حريرا﴾ فهو: الحرير الملبوس المعروف، غير أن لحرير الآخرة فضلا.

﴿متكئين فيها على الأرائك﴾، والاتكاء فهو: ضرب من الاضطجاع، وهو: ما كان من الاتكاء على جانب، والاتكاء فهو: الميلان يمينا ويسارا، ومعنى ﴿فيها﴾ فهو: في الجنة التي ذكر الله. ﴿على الأرائك﴾، والأرائك فهي: الأرائك

المعروفة التي تضرب في صدور البيوت، يرقد فيها، ويتكأ عليها، ويرخى جوانبها على ما فيها من أهلها، وتدال جوانبها وأغشيتها، وهي تكون كلها من الحرير. ومعنى ﴿على الأرائك﴾ فهو: في الأرائك، غير أنها حروف الصفات، يقوم بعضها مقام بعض، وهي الثمانية والأربعون حرفا؛ قال الله سبحانه فيما حكى عن فرعون اللعين: ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ [طه: ٧١]، فأراد: على جذوع النخل، فأقام "في" مقام "على"، وكذلك قال هاهنا: ﴿على الأرائك﴾، فأقام "على" مقام "في"، قال الشاعر:

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... لدى لجج خضر لهن نئيج

فقال: ترفعت لدى لجج، يريد: على لجج، فأقام "لدى" مقام "على"؛ لأنها من حروف الصفات، وكذلك تقول العرب: "رضي الله عليك"، تريد: "رضي الله عنك"، وأكثر من يستعمل ذلك -فأهل اليمن.

وقد قال غيرنا: إن الأرائك هي الأسرة. وليس بمعروف في اللغة، ولله الحمد.

ثم قال سبحانه: ﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣)﴾، يعني سبحانه: في الجنة، ومعنى ﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣)﴾ أي: لا يجدون فيها وهج شمس ولا حرها، والزمهرير فهو: البرد الشديد الذي ينتفض منه الإنسان، وتضطرب منه أعضاؤه؛ لشدته وألمه، ومداخلته لجميع بدنه؛ فأخبر تبارك وتعالى: أنهم لا يجدون في الجنة حرا مؤذيا، ولا بردا مؤلما، وأن هواها ألذ هواء، وحال أهلها أحسن حال، دائم نعمته، سرمد سروره.

ثم قال عز وجل: ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ فدنو الظلال عليهم فهو: غشيانها لهم، وإظلالها عليهم، وقربها منهم، ولا أحسب – والله أعلم – أن الله عنى بهذا الظلال في هذا الموضع إلا: ظلال الأشجار، الدانية الثمار، المتهدلة. ﴿وذللت

قطوفها تذليلا (١٤)﴾، والقطوف فهي: الثمار التي تقطف، ومعنى تقطف أي: تقطع للأكل وتجذ؛ والتذليل فهو: الإرخاء والإدناء، حتى تدنو وتدلى، وتقرب من آخذها، وتمكن لآكلها؛ فذلك معنى تذللها، ومعنى ﴿تذليلا﴾ أي: أدنيت إدناء، وقربت تقريبا.

﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب﴾، والطوفان بها هو: الدوران بها عليهم، والعرض لها، والآنية فهي: آنية المشارب والمطاعم، يطاف عليهم بما فيها من الأطعمة والأشربة، يعرض عليهم أكلها وشربها في كل ساعة وأوان؛ كرامة لهم من الله الواحد المنان، وهي: الصحاف والأخونة والجفان ، وغير ذلك مما يكون فيه الطعام؛ والأكواب فهي: الكيزان والأقداح ذوات الحسن والهيئة والأرجل. ﴿من فضة﴾، والفضة فهي: هذه الفضة المعروفة، البيضاء المخلصة.

﴿كانت قواريرا (١٥) قواريرا﴾، يريد - والله أعلم -: التمثيل لها في ذكره القوارير -بصفاء القوارير التي يرى جميع ما فيها. فذكر: أن هذه الآنية ﴿من فضة﴾ صافية منيرة، رقيقة ومضيئة، يرى ما فيها كما يرى ما في القوارير من ورائها. ﴿قدروها تقديرا (١٦)﴾، يريد سبحانه: أنهم يقدرون أوقات الطوفان بها على الآكلين والشاربين تقديرا حسنا، فيأتونهم بها على أوقات حاجتهم إليها، ويكون ذلك من هؤلاء المقدرين، من الخدم والطوافين بها عليهم تقديرا حسنا، ومعرفة بقدر الأوقات التي يحتاج أهل الجنة إلى تقريب هذه الآنية التي فيها المأكل والمشارب؛ فهذا أحسن ما علمناه من التأويل في ﴿قدروها تقديرا (١٦)﴾.

﴿ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧)﴾، والكأس التي يسقونها هي: الشراب الذي في الكأس، غير أن العرب تدعو ما كان في الكأس كأسا، تقول: "اسقني كأسا وقدحا واحدا"، تريد: اسقني ملأه ماء؛ فأراد الله عز وجل: أنهم يسقون في الكأس ما يكون مزاجه زنجبيلا، ومعنى ذلك: أن توجد فيه رائحة الزنجبيل وطعمه؛ فهذا معنى ﴿مزاجها﴾.

﴿عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨)﴾، العين فيها فهي: الماء السائل، الكثير الجاري، النابع من الأرض. ﴿فيها﴾ يعني: الجنة. ﴿تسمى﴾ أي: تدعى ﴿سلسبيلا﴾، وهو: اسم لتلك العين، ومعناه: العذب الطيب السلس الخروج، السلس المدخل، المريء الغذاء؛ والزنجبيل فهو: عود طيب المطعم، يتداوى به في كثير من الأشياء، ويكسب آكله المريء، ويخفف عنه ثقل الغذاء. ﴿ويطوف عليهم﴾ أي: تدور الخدم عليهم. ﴿ولدان مخلدون﴾، والولدان فهم: الوصفاء. ﴿مخلدون﴾ فهم: المعمرون الذين لا يموتون، ولا يفقدهم من جعلوا له؛ لأن أهل الآخرة لا يموتون بعد مصيرهم إليها؛ فمدحهم الله عز وجل بالخلود، وهو أفضل ما أعطي العاملون. ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا (١٩)﴾، يقول: إذا أبصرتهم شبهتهم باللؤلؤ المنثور في صفاء ألوانهم، وحسن أبشارهم؛ ومعنى منثور فهو: المتفرق والمتبدد، وإنما عنى الله سبحانه من اللؤلؤ: كباره، ودره وحسانه.

﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيما﴾، يقول: إذا عاينت ما ثم وأبصرته -رأيت النعيم العظيم. والنعيم فهو: كثرة الخير من الأطعمات والأشربات، والآلات والأبيات. ومعنى ﴿ثم﴾ يريد: هناك. ﴿وملكا كبيرا (٢٠)﴾، والملك فهو: ما أعطاهم الله ثم، وجعل لهم في تلك الدار، من آنيات الذهب والفضة، والثياب الكثيرة من كل لون، والخدم وقصور الدر والياقوت، والذهب والفضة، وكل ما تشتهيه الأنفس، وتلذه الأعين، من منكح أو مطعم أو مشرب، أو لباس أو ركوب، أو غير ذلك من الثمار والأشجار، والعيون والأنهار، ثم مع ذلك: أن كل ما هم فيه دائم أبد الأبد، لا يدخله تغيير ولا فناء؛ فهذا الملك غير الملك في الدنيا، ومعنى ﴿كبيرا (٢٠)﴾ فهو: عظيم كثير، ممدود غزير.

﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾، والسندس والإستبرق فهو: من الحرير والديباج، غير أن السندس أخضر، والإستبرق أحمر - والله أعلم وأحكم

-. ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ يعني: هؤلاء الولدان الذين هم خدم أهل الجنة، فذكر: لباسهم وحليتهم. والفضة فهي: الفضة المعروفة، البيضاء النقية.

ثم رجع إلى صفة سادتهم من أهل الجنان، فقال: ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا (٢١) إن هذا كان لكم جزاء﴾، يريد: مكافأة لكم على عملكم، وعطاء على سعيكم. ﴿وكان سعيكم مشكورا (٢٢)﴾، فالسعي هو: العمل، والمشكور هو: المقبول؛ فأراد الله سبحانه بقوله: ﴿سعيكم مشكورا﴾ أي: عملكم عندنا مقبولا.

﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣)﴾، معنى ﴿إنا﴾ يريد أي: نحن إخبار عن فعله، ومعناه: دلالة عليه سبحانه. ﴿نزلنا﴾ معناها: أنزلنا وأوردنا. ﴿عليك القرآن تنزيلا (٢٣)﴾ أي: شيئا شيئا، حقا حقا.

﴿فاصبر لحكم ربك﴾، يريد: فاصبر على ما حكم به ربك، من معاشرتهم ومنافستهم، والإعذار والإنذار إليهم. ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤)﴾، يريد: لا تطع من كان آثما كافرا بربه، والآثم فهو: كل من يفعل ما يأثم فيه، والآثم فهو: العنود عن الحق، والكفور فهو: الكافر بربه، الراكب لكبائر معاصي خالقه. والطاعة التي نهى الله رسوله عنها في هذا الموضع فهو: الاتقاء والمخافة لوعيدهم؛ فقال سبحانه: لا تخف شيئا من وعيدهم، وإبراقهم وإرعادهم عليك، فتقف بذلك عن شيء مما يكرهون، من إقامة حدود دينك والإعلان بها.

وقد ذكر: أن معنى هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام لعنه الله؛ وذلك: أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله كان يغدو كل يوم، فيصلي عند الكعبة، فقال أبو جهل: والله لئن لم يدع محمد هذا الذي هو عليه، من الصلوات بين أيدينا - لأرضخن رأسه بصخرة إذا سجد. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، فأنزل الله عليه ما يثبته به، فقال: ﴿لا تطع منهم﴾ أي: لا تهب وعيدهم، فتترك

ما فيه غمهم، فيكون ذلك شبه الطاعة. فلم يبال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله بوعيده، وغدا لصلاته كما كان يفعل؛ فأخذ أبو جهل صخرا كبيرا، ثم أتى به من وراء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله يمشي، حتى إذا قاربه رمى بالحجر من يده في الأرض، ورجع هاربا مخلوعا؛ فقيل له في ذلك، فقال: إني لما دنوت منه حمل علي جمل، لم أر أكبر منه من الجمال، ولا أعظم رقبة، ولا أكبر أنيابا، فاتحا فاه، يريد: أن يأكلني، فرميت بالحجر، وهربت منه، وتالله لو وقفت لازدردني.

ثم أمره سبحانه بالمضي على ما كان عليه، من ذكر ربه في صلاته على رؤوسهم صاغرين داخرين، فقال: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا (٢٥)﴾، والذكر لاسم ربه فهو: ذكره، وهو: القرآن. ﴿بكرة وأصيلا﴾، فالبكرة: أول الغداة، وهي: صلاة الفجر، ﴿وأصيلا﴾ فهو: العشي، وهي: صلاة الظهر والعصر.

﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا (٢٦)﴾ فهو: صلاة المغرب والعتمة؛ فأمره سبحانه بالسجود في هذه الأوقات، وهي: أوقات الصلاة، وأمره بالتسبيح ليلا طويلا؛ والطويل هاهنا الذي أمره به فهو: من حين يدخل في الصلاة، حتى يفرغ منها؛ فهذا فرض التسبيح الذي ذكر الله سبحانه. وقد يدخل في ذلك: كل ما كان من التسبيح في غير الصلاة، والتقرب بذلك إلى الله؛ فكان أمره له بالتسبيح في الصلاة فرضا، وما كان في غير الصلاة فهو: نافلة، ووسيلة إلى الله وخير وفضيلة.

ثم قال: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة﴾، و ﴿هؤلاء﴾ فهم: الذي كانوا على عصر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، من أهل الشرك والكفر والمضارة له. ﴿يحبون﴾ ويؤثرون ويختارون ﴿العاجلة﴾، والعاجلة فهي: الدنيا الأولة. ﴿ويذرون وراءهم﴾، يقول سبحانه: يتركون ما وراءهم ويرفضون، ومعنى ﴿وراءهم﴾ فهو: قدامهم، غير أن " وراء " و "قدام" من حروف الصفات، وقد

تقدم ذكر حروف الصفات: أن بعضها يخلف بعضا في مكانه؛ وقال لبيد بن ربيعة العامري في ذلك:

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي مضت ... أدب كأني كلما قمت راكع

﴿يوما ثقيلا (٢٧)﴾ فهو: يوم القيامة، والثقيل فهو: الشديد الهائل، العظيم الفادح لأهله.

ثم قال سبحانه احتجاجا عليهم بما أنعم الله عليهم، فقال: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾، فقال: ﴿خلقناهم﴾ أي: جعلناهم وفطرناهم، ﴿وشددنا﴾ أي: قوينا ﴿أسرهم﴾، والأسر فهو: الخلق، وتركيب المفاصل، وتثبيت الأعضاء، فيقول: شددنا ذلك كله ومكناه، وثبتناه وفصلناه. ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨)﴾، ومعنى ﴿شئنا﴾: أردنا، أي: إذا شئنا أهلكناهم وأبدناهم، وأنشأنا خلقا غيرهم مثلهم. ﴿تبديلا﴾ فهو: جعلناه جعلا، وأتينا بمثله بدلا منهم؛ اقتدارا وإنفاذ إرادة؛ هذا معنى ﴿تبديلا﴾: تأكيد لما ذكر من تبديل المبدل، وإحداث ما يحدث بدلا من الذاهب؛ وهي كلمة للعرب تؤكد بها المعنى الذي يريده وتذكره، تقول العرب:" كلمناه تكليما " توكيدا للكلام، وتقول:" ضربناه ضربا " تؤكد بها الضرب، و" أخرجناه إخراجا " تؤكد الإخراج بقولها:" إخراجا "، وكذلك:" أدخلناه إدخالا " تؤكد الإدخال بقولها:" إدخالا "، وتقول:" بدلناه تبديلا " تؤكد معنى التبديل بقولها:" تبديلا ".

﴿إن هذه تذكرة﴾، فمعنى ﴿هذه﴾ هي: الأقاويل والمعاني، والاحتجاج عليكم بما كان منا في خلقكم وتركيبكم. ﴿تذكرة﴾ لكم، ومعنى ﴿تذكرة﴾ أي: تنبيها لكم، وحجة عليكم. ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (٢٩)﴾، يريد بقوله: ﴿من شاء﴾ أي: من أراد، ومعنى ﴿اتخذ﴾ فهو: فعل، وقدم وجعل، ومعنى ﴿إلى ربه﴾ هو: إلى عند ربه، ومعنى اتخاذ العبد عند ربه هو: تقديمه

للعمل الصالح، الذي يجد ثوابه عند ربه، في يوم حشره، ومعنى ﴿سبيلا﴾ أي: وصلة ومعنى صالحا، يجد عند الله ثوابه.

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾، يقول سبحانه: وما تقدرون على اتخاذ السبيل إلى الله، إلا أن يجعل فيكم استطاعة وقوة على ذلك، وعقولا تميزون بها بين رضاء الله وسخطه، فتتبعون الرضاء، وتدعون السخط؛ فلولا أن الله أراد أن يجعل فيكم تلك الاستطاعة التي تنالون بها التمييز، وتصلون بها إلى العمل -ما قدرتم على ذلك أبدا، غير [أن] الله سبحانه أراد: أن يجعل استطاعة ذلك فيكم وتركيبها، فجعل فيكم استطاعة تنالون بها الخير والشر، وأمركم ونهاكم؛ ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم (٤٢)﴾ [الأنفال]. ﴿إن الله كان عليما حكيما (٣٠)﴾، فمعنى ﴿كان﴾ أي: لم يزل، ومعنى ﴿عليما﴾ فهو: الذي لا يخفى عليه شيء، العالم بكل شيء كان أو لم يكن مما سيكون، فقد علم ما كان من قبل أن يكون، وعلم ما سيكون أنه سيكون من قبل أن يكون، ومعنى ﴿حكيما﴾ أي: متقنا لفطرته، ولجعله وخلقه، الذي لا يتغير ما أثبت، ولا يثبت ما غير، الجاعل ما لا يصلح غيره، الحسن التدبير، الجيد التقدير، الذي لا تفاوت في خلقه، ولا فساد في تدبيره.

ثم قال سبحانه: ﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾، والرحمة هي: الثواب، والذي شاء أن يدخلهم في رحمته فهم: أهل طاعته دون أهل معصيته؛ ألا تسمع كيف ميز بينهم وبين الظالمين، فقال: ﴿والظالمين أعد لهم عذابا أليما (٣١)﴾، فجعل الرحمة للمطيعين، والعذاب الأليم للظالمين، والظالمون فهم: الظالمون لأنفسهم، بإدخالها في عذاب ربهم. قوله: ﴿أعد﴾ أي: هيأ وجعل، والأليم فهو: الشديد المؤلم، الموجع المبالغ ممن داناه.

والحمد لله حق حمده وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليما.

سورة المرسلات

هذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:



قال الله سبحانه:﴿والمرسلات عرفا (١)﴾، فالمرسلات فهو: السحائب المنشآت. ﴿عرفا (١)﴾، يقول: متصلات معا، يتبع بعضها بعضا، ولا يفاوت شيء منها شيئا.

﴿فالعاصفات عصفا (٢)﴾، فهن: الرياح الهابات، الشديدات الهبوب، المزعزعات لما هببن عليه، الحاملات ما قوين عليه. ﴿عصفا (٢)﴾: فالعصف هو: الشدة منهن، وإنما قيل: عاصفة؛ لعصفها للأشياء، وعصفها للأشياء فهو: زعزعتها لها، وحملها ورفعها، ووضعها لما ترفع، من الأشياء وتضع، وإجالتها لما تحمل مما تمر عليه، وتقع فيه.

﴿والناشرات نشرا (٣)﴾، فهن: السحائب الممطرات، اللواتي ينشرنه برحمة الرحيم في كل الجهات، وحيث ما شاء من البقاع، المحتاجات إلى ما ينتشر فيهن وعليهن من الرحمة، ويقع فيهن بوقوع الغيث من البركة؛ فتنشر رحمة الله حيث شاء، وتنيلها من أمرت بإنالته من المربوبين، فتغيث بذلك من شاء الله من المغاثين.

﴿فالفارقات فرقا (٤)﴾، فهن: الملائكة المقربون، الذين يفرقون بين الحق والباطل، بما تتنزل به من التبيين والحجج، من عند الواحد المنان، في الوحي والقرآن.

﴿فالملقيات ذكرا (٥)﴾، فهن: الملائكة الملقون بما يلقون إلى الأنبياء والمرسلين، من وحي رب العالمين. و ﴿ذكرا﴾ فمعناه: وحيا وأمرا، وقصصا وخبرا، وإعذارا وإنذارا؛ ألا ترى كيف بين ذلك سبحانه، فقال: ﴿عذرا أو نذرا (٦)﴾، والعذر فهو: الإعذار في الشيء، بالتقدمة إلى أهله في العذر من وقوعه، وأخذ الأهبة قبل نزوله. ﴿أو نذرا﴾، فالنذير هو: الرسول المخبر بالأمر قبل وقوعه، المعلم المنذر به؛ فأخبر الله سبحانه: أن الملائكة تلقي الذكر والإعذار، وتكون بذلك إلى الأمة نذرا منذرين لهم من بطش رب العالمين.

ثم قال سبحانه، جوابا لقسمه الذي أقسم به فيما أقسم به، من: المرسلات، والعاصفات، والناشرات، والفارقات، والملقيات: ﴿إنما توعدون لواقع (٧)﴾، يقول عز وجل: إن كل ما يذكر لكم، وتوعدونه من ثواب أو عقاب لواقع حقا، ونازل بكم قريبا صدقا. وإنما أقسم الله بما أقسم به من هذه الأشياء؛ لعظيم ما فيها من براهينه، وجليل صنعه وتدبيره؛ فنبه الله جل جلاله بالإقسام بها، على عظيم الدلائل التي فيها الدلالات على جاعلها، المبينة بأثر الصنع صنع صانعها.

ثم دل على وقت وقوع ما يوعدون، فقال: ﴿فإذا النجوم طمست (٨) وإذا السماء فرجت (٩) وإذا الجبال نسفت (١٠)﴾؛ أراد: أن ذلك الوعد كائن، عند كينونة ما ذكر من هذه الأشياء. ومعنى ﴿طمست﴾ فهو: أذهبت وأفنيت، وقلعت ومحقت، وأبيدت ففنيت، ومحيت فذهبت. ومعنى ﴿فرجت﴾ فهي: فتحت، وقطعت ومزقت فانفرجت. ومعنى ﴿نسفت﴾ الجبال فهو: تمزيقها وإفناؤها، وإبادتها وإبلاؤها، وقلعها من مواضعها، حتى تخلو مواضعها منها، وتضمحل فيفنى ما كان يرى من تجسمها، وعظيم خلقها.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿وإذا الرسل أقتت (١١) لأي يوم أجلت (١٢)﴾، يريد بـ﴿أقتت﴾: أنها قد جعل لها وقت إليه تبلغ، وإياه تنتظر، وفيه تبعث وتنشر. ثم بين، فقال: ﴿لأي يوم أجلت (١٢)﴾؛ تعظيما منه

لذلك اليوم، وإخبارا بجليل ما فيه من عظيم الأمور، وشدائد النوازل بأهل الوعيد، وكريم المآب، وعظيم الثواب لأهل الوعد. وهذه الكلمة كلمة تقولها العرب: إذا أخبرت عن يوم تنتظره، جليل الأمر، هائل الخطر -قالت: " يوم كذا وكذا " تقول: أي يوم كان حرب كذا وكذا؟! وكذلك:" أي يوم يوم الموت ؟!"، تريد بقولها:" أي يوم؟ " أي: ما أشد ذلك اليوم وأهوله، وأفدحه لأهله وأعظمه. ومعنى ﴿أجلت﴾ فهو: وعدت، وجعل لحشرها ولقائها لربها أجل تنتظره، ومدة تقطعها بالانتظار لبلوغ غايتها؛ فعند بلوغ غايتها يكون ذلك اليوم الذي يكون فيه بعثها وحضورها، وتنجز موعد ربها؛ بنصرها من كربها، وخائف أمرها، وثواب من أطاعها وصدقها، فيما جاءت به عن ربها؛ ألا تسمع كيف يقول فيما بين من ذلك اليوم الذي أجلت [إليه] الرسل، حين يقول: ﴿ليوم الفصل (١٣)﴾، ثم قال: ﴿وما أدراك ما يوم الفصل (١٤)﴾، والفصل فهو: القطع بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، وإيصال الوعد والوعيد إلى أهلهما، وانقطاع ما كان الخلق ينتظرون من أمرهما. وقوله: ﴿وما أدراك﴾ يريد: ما أعلمك بأمر ذلك اليوم وهوله، وعظيم ما يكون فيه من أموره، لا علم لك منه إلا بما أعلمناك، ولا تدري شيئا إلا بما أدريناك.

ثم قال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (١٥)﴾، يريد: الويل والعويل والبلاء، واللعنة والشقاء يومئذ على المكذبين؛ و ﴿يومئذ﴾ فهو: يوم الفصل، ويوم الفصل فهو: اليوم الذي أجلت إليه الرسل.

ثم قال سبحانه توقيفا للمكذبين على جحدانهم، ومكابرتهم لما قد ثبت من الحق في قلوبهم: ﴿ألم نهلك الأولين (١٦) ثم نتبعهم الآخرين (١٧)﴾، يقول: ألم تعلموا إهلاك من هلك من الأولين، ويأتيكم نبأه عن الصادقين؟! فإذا صح عندكم عمن صح أنه أهلكهم -فلن يقولوا: إن لهم مهلكا غيرنا، ولا أحدا سوانا، فكما أخذنا الأولين بذنوبهم فكذلك نحن قادرون على أن نأخذ الآخرين

منكم ومن غيركم بتكذيبهم، وفسقهم وجحدانهم، للحق الذي جاء من ربهم.

ثم أخبر سبحانه: أن ذلك كله فعله في المجرمين، وفي كل من تمرد برب العالمين، فقال: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين (١٨)﴾.

ذكر الوعيد للمكذبين، والإخبار عما يلقونه من الويل في ذلك اليوم، والويل هو: البلاء الوبيل، والعذاب الطويل، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (١٩) ألم نخلقكم من ماء مهين (٢٠)﴾، والمهين فهو: القليل اليسير، الذليل الضعيف الحقير.

﴿فجعلناه في قرار مكين (٢١)﴾، والقرار المكين فهو: موضع قرار الماء من الرحم، وسمي قرارا: لقرار ما فيه، وقراره فهو: ثبوته فيه، ولزومه له. و﴿مكين﴾ فهو: متمكن ثابت، حصين محصن.

﴿إلى قدر معلوم (٢٢)﴾، يريد: إلى وقت معلوم، والمعلوم فهو: المفهوم عند الله، والمفهوم عند الله فهو: الأجل الذي أجله في المقام في الرحم، من قليل من الأشهر أو كثير.

﴿فقدرنا فنعم القادرون (٢٣)﴾، يريد بقوله: ﴿فقدرنا﴾ يقول: فقدرنا على جعل النطفة في القرار المكين، وإنشائها في الرحم، إلى وقت خروجها المعلوم. ﴿فنعم القادرون (٢٣)﴾، معنى ﴿نعم﴾: تعظيم القدرة، وإخبار عن جليل النعمة؛ وهذه كلمة تقولها العرب: إذا مدحت شيئا، وأثنت عليه -قالت:" نعم الرجل، ونعم الفرس، نعم الشيء "، تريد بذلك: ما أكمله، وأبين فضله، وأظهر خيره؛ فأخبر الله جل جلاله" أنه أفضل بقوله: ﴿نعم القادرون﴾، أي: أننا أفضل القادرين، وأعظمهم قدرة.

ثم ذكر الوعيد للمكذبين، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٢٤) ألم نجعل الأرض كفاتا (٢٥) أحياء وأمواتا (٢٦) وجعلنا فيها رواسي شامخات

وأسقيناكم ماء فراتا (٢٧)﴾، فقال: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا (٢٥)﴾: توقيفا لهم على أثر صنعه، وتقريرا على ما يقرون به من فعله. ومعنى ﴿كفاتا﴾ أي: ضامة جامعة لكم؛ إخبارا بما فيها من منازلها وبيوتها، ودورها التي تكتفتون فيها وتأوون، وتغلقونها عليكم، تضمكم وتجمعكم، وتكفتكم - أي: تجمعكم - أحياء وأمواتا، وكفتها لهم أمواتا فهو: ضمها لأبدانهم، في حفرها التي هي قبورهم، فكانت الأرض لهم كافتة في حياتهم وبعد وفاتهم، وكفتها لهم فهو: ما ذكرنا من جمعها وضمها إياهم.

والرواسي الشامخات فهي: الجبال الطامحات المرتفعات. ومعنى ﴿رواسي﴾ في الثابتات، أي: الراسخات عروقها، الثابتة أصولها. ﴿وأسقيناكم ماء فراتا (٢٧)﴾ فمعناها: أنزلنا عليكم وأوجدناكم ماء فراتا، والفرات فهو: العذب الطيب الذي لا ملوحة فيه. فكلما ذكر الله عز وجل من فعله بهم، وما جعل لهم بما امتن به عليهم، من هذه الأشياء المذكورات، والأمور المبينات -فإنما أراد بذلك سبحانه: توقيفهم على ما يعرفون أنه من فعله، ويقرون به أنه من صنعه، فيقول تبارك وتعالى: كيف تنكرون بعض ما ذكرناه لكم، من قدرتنا على بعثكم ونشركم، وقد ترون فعلنا فيكم، وأثر قدرتنا فيما أظهرناه وجعلناه لكم، ليس هذا منكم إلا كفرا وإنكارا، أي مضادة للحق واستكبارا.

ثم قال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٢٨)﴾ ببعض أمرنا، وبما قد رأوا أعظم منه في قدرتنا.

ثم قال سبحانه: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون (٢٩)﴾؛ فهذا أمر أمر به المكذبين الفاسقين، الكافرين الجاحدين في يوم الدين، بالانطلاق إلى ما كانوا به يكذبون، من جهنم وأغلالها، وعذابها وسعيرها.

﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب (٣٠) لا ظليل ولا يغني من اللهب

(٣١)﴾، فأخبرهم أنهم لا يرون فيها ظلا، إلا ما لا يغني من اللهب، ولا يستر من العذاب، فقال سبحانه: ﴿ظل ذي ثلاث شعب (٣٠)﴾، فمثل لهم ذلك بكل شيء فيه ثلاث شعب، فالشمس تدخل من كل شعبة، ولا يصفو له ظل، ولا يوجد فيه راحة ولا كن؛ فضرب الله لهم هذا الظل مثلا بعذاب جهنم، يريد: أنكم لا تجدون في جهنم راحة من العذاب، كما لا يجد طالب الظل في الموضع الذي فيه ثلاث شعب - والشعب فهي: الفرج والثلم، والمواضع المكشوفة -؛ فهو لا يجد فيه فرجا من الشمس، ولا يقدر فيها على ما يحب من الظل؛ لأن الشمس من حيث ما دارت دخلت عليه من فرجه، ووصلت إليه من ثلمه؛ كذلك أصحاب جهنم - نعوذ بالله منها ومن عذابها، ومن عمل يقرب إليها -: حيث ما دار منها، أو طمع بفرج فيه من جوانبها -وجد فيه العذاب له مضاعفا، ولم يجد في ناحية منه من عذابها فرجا. ﴿لا ظليل﴾ يقول: لا مانع لكم من حرها. ﴿ولا يغني﴾ لكم ﴿من اللهب (٣١)﴾، يقول: لا يمنع من وصول لهبها إليكم، ولا يستر عنكم شيئا من العذاب المكتوب عليكم.

ثم أخذ سبحانه في وصف جهنم وشررها، وعظيم ما جعل الله عليه من فطرتها، فقال: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر (٣٢) كأنه جمالات صفر (٣٣)﴾، والقصر فهو: الدار المبنية، الكبيرة المرتفعة. والجمالات الصفر فهي: الجبال الصغار، المنفردة من الجبال، التي تكون في قيعان الأرض، تسميها العرب: الظراب، واحدها: ظرب، وأهل اليمن يسمونها: جمالات؛ فشبه الله سبحانه شرر جهنم التي تطير منها عند استعارها بأهلها -بالقصور والجبال المململمات.

ثم ذكر الوعيد بالمكذبين بوعده ووعيده، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٣٤)﴾.

ثم أخبر بما يكون منهم في يوم الدين، من ترك المكابرة لليقين، والمجاحدة بآيات رب العالمين، فقال: ﴿هذا يوم لا ينطقون (٣٥) ولا يؤذن لهم فيعتذرون

(٣٦)﴾، يقول: لا ينطقون منطقا ينفعهم، ولا يتكلمون بكلام يقبل منهم. ومعنى ﴿يؤذن لهم فيعتذرون (٣٦)﴾ أي: لا يؤذن لهم في التوبة فيتوبون، والرجعة والأوبة إلى الحق فيؤوبون ويرجعون، ثم أخبر سبحانه: أن ذلك اليوم لا يجوز فيه توبة، ولا يقبل من ظالم معذرة؛ لأنه يوم جزاء على ما تقدم من الأفعال، وليس بأوان عبادة ولا عمل فيعملون.

ثم كرر الوعيد للمكذبين بقول رب العالمين، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٣٧)﴾.

ثم أخبرهم بوقوع اليوم الذي كانوا به يكذبون، فقال: ﴿هذا يوم الفصل﴾، ويوم الفصل فهو: يوم القطع بينهم بالحق، وهو: يوم القيامة والحشر. ﴿جمعناكم والأولين (٣٨)﴾، يقول: جمعناكم في هذا اليوم والأولين، والأولون فهم: الذي كانوا قبل عصر النبي صلى الله عليه وعلى آله من الأمم؛ فسمى الله تبارك وتعالى من كان قبل محمد صلى الله عليه وآله: أولين، وسمى الله من كان في عصر محمد صلى الله عليه وعلى آله ثم إلى آخر الدين: آخرين.

ثم قال سبحانه: ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون (٣٩)﴾، يقول: فإن كان لكم علي سلطان أو مقدرة، أو كنتم تستطيعون تغيير شيء من فعلي بكم، أو دفع عظيم صنعي فيكم -فادفعوه لتضادوني بذلك، وإن كنتم تطيقون إدخال ضرر علي -فأدخلوه بمكيدة تكيدونها، أو بمجاهرة تجاهرون بها. وإنما أراد الله سبحانه بهذا القول: توقيف أعدائه على ضعفهم، وشدة تكبرهم، وقلة منفعة شركائهم لهم، وأوليائهم الذين كانوا يطيعون من دون الله لهم، فقررهم على الاستسلام، وأوقفهم على صدق ما جاء به محمد عليه السلام.

ثم قال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٤٠)﴾، فأخبر: أن الويل والعذاب الطويل -عليهم وعلى نظرائهم من المكذبين، من الأولين والآخرين.

ثم ذكر - سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه - أمر المؤمنين، فقال: ﴿إن المتقين في ظلال وعيون (٤١) وفواكه مما يشتهون (٤٢)﴾، الظلال فهو: الظلال الممدود، الذي قال الله سبحانه: ﴿في ظل ممدود (٣٠) وماء مسكوب (٣١)﴾ [الواقعة]، وهي: ظلال الأشجار والقصور، وما ظللهم الله به من غير ذلك من الأمور، والعيون فهي: المياه الجارية، الكثيرة المتفجرة، والفواكه فهي: ما يعرف من الفواكه الطيبات، من ثمار الأشجار المثمرات، وصنوف الأثمار المتصنفات، المتشابهات من الطيبات وغير المتشابهات، التي تشتهيها أنفسهم، وتدعوهم إليها شهواتهم. فهي موجودة غير مقطوعة، مبذولة غير ممنوعة؛ عطاء من الله غير مجذوذ على صالح أفعالهم، وما قدموا في حياتهم، من مرضيات أعمالهم؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾، يقول سبحانه: تنعموا بالمآكل الطيبة، المشارب اللذيذة. ﴿هنيئا﴾ أي: جزاء بفعلكم، فمعنى ﴿هنيئا﴾ فهو: مريئا طيبا، لا آفة فيه ولا داء، ولا تخافون منه شيئا من الأذى، كما كنتم تخافون في مآكل الدنيا؛ فهذا معنى قول الله: ﴿هنيئا﴾.

ثم قال: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين (٤٤)﴾، يخبر: أن هذا فعله وحكمه في المحسنين، والمحسنون فمعناها: المحسنون إلى أنفسهم بما عملوا من الطاعات، التي استوجبوا بها الثواب والإحسان، من الواحد ذي الجلال والسلطان، فكانوا بذلك محسنين إلى أنفسهم، مطيعين لربهم، فاستوجبوا بطاعة الرحمن ما صاروا إليه، من الفوز والنعيم، والخبر الكريم، والثواب العام المقيم.

ثم كرر ذم المكذبين احتجاجا عليهم، وتوقيفا على جهلهم وتعنتهم، وقطعا بذلك لحجتهم، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون (٤٦)﴾، يقول سبحانه: تمتعوا في دنياكم، بأكلكم وتافه لذاتكم؛ فإن ذلك قليل منقطع، لا يتصل بنعيم الآخرة، ولا تذوقون بعد خروجكم من الدنيا نعمة فاخرة؛ لأنكم مجرمون، والمجرم لا آخرة له، كما تكون الآخرة مع

الدنيا للمؤمنين، وكما تتصل كرامة الدنيا بكرامة الآخرة للمتقين.

ثم كرر ذم المكذبين، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٤٧)﴾.

ثم ذكر ما كانوا فيه في الدنيا من كفرهم، وترك قبول ما يؤمرون به من طاعة ربهم، فقال: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون (٤٨)﴾، يريد بـ﴿اركعوا﴾: اخشعوا لله واخضعوا، ولا تتجبروا ولا تتكبروا، وأدوا فرضه عليكم؛ فأراد عز وجل بالركوع هاهنا - والله أعلم -: التذلل لله والخضوع، والإقرار بأمره والخشوع، والقبول لما به يأمرهم، والانتهاء عما عنه ينهاهم؛ وكذلك قال في أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ [البقرة:٨٥]، يقول سبحانه: خشعا خضعا، ذاكرين الله مقدسين، شاكرين على نعمه، ذاكرين له بصنائعه، عارفين بقدرته وجلاله، مقرين بأن النصر الذي رأيتموه -من قبله، وإنكم لم تدخلوا إن دخلتم إلا بتقويته، إن أطعتم فقواكم. فلو كانوا فعلوا ما أمروا به، وقالوا ما دلوا عليه، من قول الحطة -لكانوا قد نصروا نصرا عزيزا، وحطت عنهم لذلك الذنوب المتقدمة، ووجبت لهم الكرامة المتأخرة؛ ولكن خالفوا وأبوا وعتوا، فذاقوا وبال أمرهم إذ عصوا. فذلك معنى ما ذكر الله سبحانه في آخر ﴿والمرسلات﴾ من الركوع، وهو عندي على معنى: ما أمر الله به قوم موسى عليه السلام من السجود؛ أراد بهما كلتيهما - والله أعلم وأحكم -: التذلل لله والخشوع له، والمعرفة به والخضوع.

ثم كرر ذم المكذبين؛ تنبيها في الدنيا لهم، واحتجاجا بذلك عليهم، فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين (٤٩)﴾.

ثم قال: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون (٥٠)﴾ أي: بأي قرآن أو أمر أو نهي بعد هذا القرآن المبين، الساطع نوره، الظاهر برهانه. ﴿يؤمنون (٥٠)﴾، ومعنى ﴿يؤمنون﴾ فهو: يصدقون ويقرون؛ فأخبرهم سبحانه بما قال من ذلك؛ أنه لا

حديث يعدل هذا الحديث، والحديث فهو: القرآن والنور، وما جاء به من فرائض الدين في كل الأمور.

سورة النبأ

هذا تفسير السورة كاملة للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام:

قال عليه السلام:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

معنى ﴿بسم الله﴾ وتأويلها أي: ببسم الله يبتدأ كل شيء، وهو المذكور قبل كل شيء. ومعنى ﴿الله﴾ فهو: الإله الواحد الذي لا إله معه. ومعنى ﴿الرحمن﴾ فهو: المتعطف على الإنسان، العائد عليهم بالعفو والإحسان، المتفضل عليهم بالبر والامتنان، الرازق لهم على كل حال كانوا فيه من هدى أو ضلال. ﴿الرحيم﴾ فهو: البر الرفيق، المنقذ لهم بالدلالة على ما فيه نجاتهم، الدال لهم على ما فيه صلاحهم، المحذر لهم طريق التهلكة، المجنب لهم عن سبيل الهلكة، السالك بهم أبواب الكرامة والرحمة، الداعي لهم إلى ما فيه السلامة والنعمة.

قال الله سبحانه: ﴿عم يتساءلون (١)﴾، قال: ﴿عم﴾ يريد: عن ما، فأذهب النون إدغاما في الميم؛ لتقارب مخرجهما؛ وكذلك تفعل العرب بما كان كذلك: تطرح الألف التي مع الميم استخفافا لها؛ والعرب تفعل ذلك بالألف: تطرحها وهي تريدها، وتثبتها وهي لا تريدها، وكذلك تفعل بـ" لا " كما هي؛ قال الله سبحانه في طرح الألف وهو يريدها: ﴿لا أقسم بيوم القيامة (١)﴾ [القيامة]، وإنما معناه: ألا أقسم بيوم القيامة، فطرحها وهو يريدها، فخرج معنى الكلام معنى نفي، وإنما معناه معنى إيجاب.

وكذلك قال الله سبحانه: ﴿لا أقسم بهذا البلد (١)﴾ [البلد]، فطرح الألف استخفافا لها، وإنما معناها: ألا أقسم بهذا البلد، وقال سبحانه في موضع آخر،

أثبتها فيه وهو لا يريدها: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (١٤٧)﴾ [الصافات]، فخرج معنى اللفظ معنى شك، حين يثبت الألف، وإنما معنى الآية: وأرسلناه إلى مائة ألف ويزيدون؛ فأثبت الألف لغير معنى؛ استخفافا لها؛ لأن العرب تفعل ذلك، وهي لغتها، وإنما خاطبهم الله عز وجل بلغتهم. وكذلك قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، في طرح الألف واللام معا من الموضع الذي لا بد منهما فيه، فيما ذكر من فدية الصيام: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين﴾ [البقرة: ١٨٤]، فقال: ﴿على الذين يطيقونه﴾، فخرج اللفظ لفظا يوجب الفدية على من أطاق الصيام، وإنما المعنى: وعلى الذين لا يطيقون فدية طعام مساكين؛ فجعل على من لا يطيق الصيام، - من الشيخ الكبير الفاني، والعجوز الكبيرة الفانية، اللذين لا يطيقان الصيام، ولا يرجوان تجديد قوة؛ لما قد زال عنهما من القوة، بدخول الهرم والذهاب، وزوال الشدة والشباب - الصدقة على مساكين، بدل كل يوم، حتى ينقضي شهر الصوم، فيكون كل واحد منهما يتصدق على ثلاثين مسكينا بدل الثلاثين يوما. ومقدار ما يتصدق به فهو: مد بر على كل مسكين عن كل يوم، أو غير البر مما يأكل أهل تلك الفدية. فقال سبحانه: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾، وإنما يريد: وعلى الذين لا يطيقونه؛ فطرحها وهي أصلية في المعنى؛ لأنها لغة العرب، وبلغتهم خاطبهم الله سبحانه.

وكذلك أثبتها في موضع ولم يردها، ولا أصل لها في المعنى، وإنما جاءت ظاهرة في اللفظ، وذلك قول الله سبحانه: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ [الحديد: ٢٩]، فقال: ﴿لئلا يعلم﴾، فخرج معنى اللفظ معنى نفي، وإنما معناه معنى إيجاب، أراد الله سبحانه: لأن يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله؛ فأثبتها وهو لا يريدها، فخالف اللفظ المعنى عند من لا يعرف تفسيرها، ولا يقف على معانيها.

وفي الدليل على أن هذا الفعل لغة من لغات العرب، أفصح لغاتها عندها،

وأثبتها في ألسنتها: قول شاعر من شعرائهم في طرحها وهو يريدها:

بيوم جدود لا فضحتم أباكم ... وسالمتمو والخيل تدمى شكيمها

فقال:" لا فضحتم أباكم "، فأثبت فيها " لا "، وليس يريدها، و" لا " لها معنى، وإنما معناها: بيوم جدود فضحتم أباكم. وقال آخر من شعراء العرب في طرحها وهو يريدها:

نزلتم منزل الأضياف منا ... فعجلنا القرى أن تشتمونا

فطرح " لا " كما طرح اللام، فخرج معنى الكلام معنى إيجاب، وإنما معناه معنى نفي، أراد: لئلا تشتمونا، وطرح " لا " وهو يريدها.

فعلى ذلك يخرج معنى قوله سبحانه: ﴿عم يتساءلون (١)﴾؛ فطرح النون من ﴿عم﴾؛ لما ذكرنا من الحجة فيها أولا، وطرح الألف من " ما "؛ لما ذكرنا من استخفاف العرب لها، واستعمال ذلك في لغتها؛ فبقيت ﴿عم يتساءلون (١)﴾ مشددة، شددت لإدغام النون في الميم، والمعنى فيها: عن ما يتساءلون؛ غير أن اللغة والإعراب حذف منها الحرفين: النون والألف، يريد تبارك وتعالى بقوله: ﴿عم يتساءلون (١)﴾ أي: عم يستخبرون ويتذاكرون، ويترادون ويسألون؛ توقيفا لنبيئه صلى الله عليه وعلى آله على ما يفعلون، وعلى ما فيه يترادون.

ثم قال سبحانه: ﴿عن النبإ العظيم (٢) الذي هم فيه مختلفون (٣)﴾، فأخبره صلى الله عليه وآله: أن الذي كانوا عنه يتساءلون، وفي أمره يترادون -هو النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون؛ والنبأ هاهنا الذي هم فيه يختلفون فهو: ما كان ينبئهم به رسول الله صلى الله عليه وآله، ويعلمهم به، من بعثرة القبور، ومن النفخ في الصور، ومن حشر العباد، وتبديل الأرض والبلاد، والحساب والعقاب، والمناقشة والثواب. فكانوا في ذلك يختلفون، ومعنى " يختلفون " أي: تختلف أقاويلهم في التكذيب به، وتصنيف معاني رسول الله صلى الله عليه وعلى

آله فيه، فكانت طائفة تقول: إن إنباء رسول الله صلى الله عليه وآله لهم بهذا القول سحر. وطائفة تقول: إن إنباءه لهم به شعر وظنون. وطائفة تقول: إن ذلك كله منه كهانة وجنون. فهذا معنى اختلافهم في النبإ؛ والنبأ فهو: الإنباء، والإنباء فهو: الإخبار والتبيين، والإعلام للعالمين بما لا يعلمون.

ولا يتوهمن أحد ذو فهم ونظر، وتمييز وبصر: أن اختلافهم فيما كان ينبئهم به صلى الله عليه وعلى آله من ذلك، ويقصه عليهم ويقرؤه -اختلاف يكون بعضه إقرارا بما كان يقول، وبعضه إنكارا لهذا القول؛ بل كلهم كان منكرا له، مكذبا غير مقر، وإنما معنى الاختلاف منهم هو: اختلافهم في تصنيف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، والجحدان لما جاء به صلى الله عليه وآله من عند الله.

﴿كلا سيعلمون (٤)﴾، معنى ﴿كلا﴾: معنى الإنكار لقولهم الذي قالوا، وإنكار لما هم فيه من تصنيف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن ﴿كلا﴾ هي: كلمة جواب، رد على متكلم بغير صواب؛ إنكارا لقوله، وردا عليه في كذبه، ودفعا لما يأتي به من جهله، تستعملها العرب في ذلك من محاورتها، وتلفظ بها في لغاتها؛ فقال: كلا، ما جاءوا بحق، ولا تكلموا بصدق. ثم ابتدأ الكلام من بعدها: بالوعيد لهم على كذبهم، وجحدتهم للنبإ العظيم الذي أنبأهم به رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته من بعثهم وحشرهم، فقال: ﴿سيعلمون﴾ أي: سيعلمون صدق ذلك وحقه، ويعاينون ما ذكر من كينونة البعث والحساب، وما أوعدوا بالنكال والعقاب.

ثم رجع سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه، في إبطال قولهم، والتكذيب لهم في جحدانهم للنبإ العظيم، وإبطالهم الوعد والوعيد الجسيم، فقال: ﴿ثم كلا﴾، فكرر الجواب لهم؛ لنفي الصدق عنهم، وإيجاب الباطل عليهم، والتكذيب لهم في قولهم، فقال: ﴿ثم كلا﴾، أي: باطل ما أتوا به وزور، ومحال ذلك وفجور. ثم

رجع إلى الوعيد، فقال: ﴿سيعلمون (٥)﴾ غب فعلهم، ويجدون ما أوجبنا من الوعيد عليهم في تكذيبهم وشكهم، ودفعهم ما ذكرنا لهم من نشزهم، وشرحناه على لسان نبينا من الأنباء العظيمة، والأسباب الجليلة، التي لا بد من وقوعها، وكينونتها ووضوحها، من عجائب أفعالها في خلقنا، عند نفخنا في صورهم، وإخراجنا لهم من أجداثهم، وإيصالنا لهم ما حكمنا به لهم وعليهم، من كريم الثواب، وأليم شديد العقاب.

ثم قال سبحانه: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا (٦)﴾، والمهاد فهو: القرار الممهد، والممهد فهو: المسوى المجرد، الذي يضطجع الناس عليه، ويأوون فيه، وينشأون عليه؛ من ذلك ما تقول العرب لمضطجع الصبي، وموضعه ومأواه: مهد الصبي، وهو شيء يسوى له من الخشب، يغذى فيه، ويجعل عليه يكفته ويؤويه، ويشده ويقويه، ويستريح إليه، فجعل عز وجل الأرض للخلق مهادا يأوون إليها، ويسكنون فيها، فلما أن كانت الأرض لهم مأوى ومكفتا، يمهدون فيها، ويسكنون عليها -سميت مهادا؛ إذ كانت لهم مأوى، كما سمي موضع الصبي مهادا؛ إذ كان له مضجعا ومأوى.

ثم قال: ﴿والجبال أوتادا (٧)﴾، فأخبر عز وجل: أن الجبال أوتاد للأرض، تمنعها من الميدان بهم، وتوقفها عن التزعزع بمن فيها منهم، كما قال سبحانه: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠]، يقول: أن تزول أو تزعزع بهم؛ فشبه سبحانه الجبال في الأرض؛ للزومها لها، ومنعها بها من الميدان بأهلها -بالأوتاد اللازمة لأطناب البيوت، المقيمة لها على الثبوت، اللازمة المانعة لها عن الزوال؛ فجعل سبحانه ما جعل من الجبال للأرض أوتادا.

ثم قال سبحانه: ﴿وخلقناكم أزواجا (٨)﴾، فأخبر بعجيب صنعه، وما أظهر من فطرته، وما أرى الخلق من محكم تقديره، في خلق المخلوقين أزواجا، والأزواج فهي: الذكر والأنثى، الذي يكون منهما نسل الآدميين، وبتناسلهما

تكون كثرة المخلوقين.

ثم قال: ﴿وجعلنا نومكم سباتا (٩)﴾، والنوم فهو: الرقاد، والرقاد فهو: خروج الروح من البدن، وبقاء النفس التي منها النفس في مقرها من البدن. وهو: شيء جعله الله وركبه في الإنسان؛ منة منه سبحانه عليه، وإحسانا منه سبحانه إليه؛ لما في النوم من راحة البدن، وإراحة الجوارح كلها، وإزاحة النفس في كل وجه ومعنى. من تلك الراحة: راحة البدن من تعبه، وإقباله وإدباره، وراحة العين من النظر، والإصعاد والتصويب، وراحة الرجلين من المشي، وراحة الأذنين من السمع والاستماع، وراحة اللسان من القال والقيل، وراحة النفوس من الهموم والغموم، وراحة الخائف من وجل خوفه، وللمرعوب من رعب فزعه؛ وكل ما شرحنا من هذا القول ومثله -ففي النوم راحة من ألمه، وفرج من فادح عمله؛ لأن النوم يزيل ذلك كله. ويعرف: بزولان الروح من البدن، وزوال العقل الذي به يميز ذلك كله، ويعرف به ألمه؛ فإذا زال صار الإنسان بزواله في الغفلة عن ذلك [كله] كالميت المفارق لأرضه. وفيما ذكرنا من خبر النوم وفضله، وجزيل مواهب الله فيه ومنه، وما يزول عن كل أحد به من فادح همه -ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ [الأنفال:١١]، يقول: تطمينا لقلوبكم، وترويحا به عنكم، إذ بوقوعه يزول عنكم معرفة ما أنتم فيه، من الروع والهول، فتبارك الله العزيز ذو الطول. السبات فهو: الإطراق والخفات، والهدوء والسكون في الحالات.

ثم قال: ﴿وجعلنا الليل لباسا (١٠)﴾، يقول: غاشيا لكم، ملبسا عليكم ما يلبسكم من ظلامه، ويقع عليكم عند هجومه من ادلهمامه، فسماه الله: لباسا؛ إذ كان يلبس الأرض ظلمته، ويغلبها اسوداده، فيستر منها القريب الداني، ويواري معها بظلمته المختفي المتواري؛ فلما أن ستر بظلامه ما ستر، وألبس الأرض ما حجب الناظر به عن النظر، وستر عنه ما يكشفه النور من الخبر -قيل: لباس

ملبس؛ وكذلك تقول العرب:" أرخى الليل ستره، وضرب الليل بسجفه، وألبس الليل الأرض ثوبه "، تريد: ألبسها من ظلمته ما كان سترا [لها]، وحجابا دونها، فسمي بذلك الليل: لباسا.

ثم قال: ﴿وجعلنا النهار معاشا (١١)﴾، يريد سبحانه: متعيشا للناس، ومكتسبا يكتسبون فيه المعاش، ويطلبون فيه المراش؛ فلما كانت المعائش من الصناعات، وغيرها مما يكتسب به المعائش لا تكون إلا في النهار -قال الله سبحانه: ﴿وجعلنا النهار معاشا (١١)﴾؛ إذ جعله للمعائش سببا، ووقتا ومطلبا.

ثم قال سبحانه: ﴿وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)﴾، يعني بالسبع الشداد: السموات المبنيات، وهن الطرائق المركبات المجعولات؛ فذكر سبحانه: ما جعل من السماوات، التي جعلهن دليلا عليه وآيات؛ ولما فيهن وفي من يسكنهن من الدلالات المنيرات على الجاعل لهن، المقدر لتركيبهن، الممسك بلا عمد لهن.

ثم قال: ﴿وجعلنا سراجا وهاجا (١٣)﴾، والسراج الوهاج فهو: ما جعل الله من الشمس والقمر النيرين، السراجين الوهاجين، وما جعل من النجوم الوهاجة المتوقدة؛ فأضاء ما بين المهاد وبين السبع الشداد، من الهواء المدلهم، المتكاثف المظلم، بمنور السراج الوهاج، الذي جعله في الليل والنهار سراجا؛ والسراج فهو: المضيء المنور، الذي يسرج بضوئه وينير؛ لأن معنى السراج فهو: المضيء المنير؛ تقول العرب:" أسرج السراج "، تريد: نوره وأضئه، واجعل فيه نورا ساطعا، حتى يكون بتنويره سراجا وهاجا، والوهاج فهو: المتوقد الملتهب.

ثم قال: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤)﴾، والمعصرات فهن: السحاب المثقلات، العاصرات لما فيهن من الماء. وعصرهن للماء: حبسهن وحملهن له، وإمساكهن إياه؛ فسمين لحبسهن لما فيهن من الماء، وإمساكهن له:

معصرات. ومن ذلك ما سميت العصر: عصرا؛ لما يعصر بها ويحبس عن الظهر الذي قبلها، فسميت عصرا: للإمساك عنها، والتعصير بها؛ والعصر فهو: الحبس؛ ومن ذلك ما تقول العرب في كلامها وأمثالها، لحابس الشيء إذا حبسه عنها:" كم تحبسه وتعصره "، وتقول:" أكثرت عصر هذا الشيء "، أي: تزيد حبسه وإمساكه.

وقد قيل: إن معنى ﴿المعصرات﴾ هو: العاصرات لما فيهن من الماء، حتى يخرج من خللهن، وشبه ذلك بعصر الإنسان للشيء وغمزه، حتى يخرج ما فيه من مائه.

والقول الأول أحسن القولين عندي وأصوبها، وأولاهما بالحق وأشبههما. وقوله: ﴿أنزلنا﴾: أهبطنا. ﴿من المعصرات ماء ثجاجا (١٤)﴾، ومعنى ﴿ثجاجا﴾ أي: كثيرا جرارا، قوي السيلان، كثير الهطلان، يثج في الأرض ثجا؛ ومعنى " يثج ثجا " أي: يدفع دفعا كثيرا إتيانه معا، وتدافع سيوله جميعا، يعضد بعضه بعضا، ويقوي كل آخر منه أولا، فهو لتلاحقه وكثرته - يثج ثجا، ويتدافع تدافعا، ويتحامل على ما لقيه من الأرض تحاملا، يقلع بتحامله وثجه كل ما نبت من الأشجار في مجراه، أو اعترض له في وجهه.

ثم قال سبحانه: ﴿لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا (١٦)﴾، فأخبر سبحانه: أنه أنزل هذا الماء ليخرج به ما ذكر. ومعنى ﴿ســنخرج به﴾ هو: ننبت به، ونجعل منه وببركته. والحب فهو: كل حب يؤكل أو ينتفع به، مما يتولد في أشجار الأرض بالماء، كائنا ما كان من الأشياء. ﴿ونباتا﴾ فهو: ما كان غير الحب من أوراق الأشجار المختلفات، من أفنان الحشيش النابتات، وغير ذلك من زاهرات الأرض المورقات.

﴿وجنات ألفافا (١٦)﴾، الجنات: الحدائق الملتفات، المشتبكة فيها الأشجار

المثمرات، من الفواكه كلها المأكولات، الملتذ بأكلها، المتنعم بطعمها، وغير ذلك من الأشجار، الملتذ برائحتهن، المتفكه بشمهن، من الرياحين، وغيرها من الأشجار المنورة، المختلفة بنوارها. التي تجري من تحتها المياه، قد فجرت فيها أنهارها تفجيرا، وأبهجت سبلها سبلا وسبلا، وأعد فيها مما اتخذ من مجالس دورها، ومنتزهات قصورها، فاختلفت هذه الجنان لأهلها، وتزينت لهم بما فيها؛ فإذا كانت كذلك، وكان السبب فيها على ذلك -فقد انتظمها اسم الجنان،؛ وفي ذلك ما يقول الرحمن الرحيم: ﴿كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧) كذلك وأورثناها قوما آخرين (٢٨)﴾ [الدخان]؛ فسمى ما كان على ما ذكرنا من الأرض: جنانا، وإنما سمى ما كان من الأرض كذلك: جنانا؛ لما فيها من الملك والنعيم، والسرور والخير الكريم، فشبهت في الاسم بالجنان التي ذكر الله في الآخرة التي فيها النعيم الذي هو النعيم حقا، المقيم أبدا، فاشتبها في الاسمين، وتفاوتا - ولله الحمد - في المعنيين، والحالين والصفتين؛ وكيف لا تتفاوت، وكل ما في الآخرة فدائم أبدا، لا يعدم صيفا ولا شتاء، ولا يكون له أمد يبلغه وانتهاء، نعيمها مقيم، وملكها سرمد كريم، وما في الدنيا فيزول مع زوال الأزمنة، ولا يدوم منه شيء أبدا، ما أكل من لذيذ مأكلها إلا عدم في غير هذا الوقت من الزمان، فيتقلب مع تقلب الأزمنة، فلا يوجد منها ثمرة صيف في شتاء، ولا يوجد ثمرة الشتاء في الصيف أبدا؟!! هذا مع تصرم ذلك كله وانقضائه، وخروج أهله منه بالموت وفنائه، وترك ما جمعوا لذلك لغيرهم، وما تكالبوا عليه لورثتهم.

وكلما ذكره الله سبحانه من قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧) وخلقناكم أزواجا (٨) وجعلنا نومكم سباتا (٩) وجعلنا الليل لباسا (١٠) وجعلنا النهار معاشا (١١) وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢)﴾، إلى قوله: ﴿وجنات ألفافا (١٦)﴾، فإنما أراد الله تبارك وتعالى بذكر ما ذكر؛ احتجاجا على

المكذبين بالنبإ العظيم، بما جعل من ذلك كله وركب فيه، من الدلائل الدالة عليه سبحانه، والشاهدات على تصديق النبإ العظيم، الذي هم في تصنيف الكذب به مختلفون، فأخبر جل وعلا جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: أن في أقل مما رأوه من جعله، وعاينوا من أثر خلقه -دليل على عظيم قدرته، وصدق وعده ووعيده، وأن الذي عاينوا من أثر صنعه في هذه الأشياء -أعظم في بيان القدرة، ومضي الإرادة من نشر الموتى، وما نبأهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأشياء، التي ذكرها في يوم المعاد، وأنذر بها ورغب ورهب جميع العباد.

ثم قال سبحانه: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا (١٧)﴾ ويوم الفصل فهو: يوم الجزاء والقطع بين العباد، والقضاء بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وبه من النبإ يكذبون؛ فسمى الله سبحانه ذلك اليوم: يوم الفصل؛ ليفصل الأمور، وتفصيلها فهو: قطع ريبها، وبيان أمرها، وثبوت صحتها عند من كان جاحدا لها. ومعنى قوله: ﴿ميقاتا﴾ أي: موعدا وعائدا، وغاية ومدى، وإليه يوعدون، وفيه يثابون ويعاقبون، والميقات فهو: الوقت الذي إليه يؤخر الخلق فيما يوعدون، وإليه يجتمعون، وفيه يحصلون، وإليه يجرون.

وقوله: ﴿يوم ينفخ في الصور﴾، يريد بقوله: ﴿يوم ينفخ﴾ أي: أن هذا الميقات واليوم الذي فيه الميعاد -هو: يوم ينفخ في الصور، والصور فهو: صور الآدميين؛ فذكر سبحانه: أنه ينفخ فيها بعد فنائها وبلائها -روح الحياة بعد الفناء والبلى، فتعود من بعد ذلك صورا أحياء، معتدلة الخلق والبناء، كما كانت عليه من الخلق أولا. ومعنى ﴿ينفخ﴾ هو: يجعل فيها الحياة، ومعنى "يجعل فيها الحياة" فهو: ترد إليها الأرواح في الأجساد المبتدأة؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه، فيما أمر به الملائكة عليهم السلام من السجود له، عند إظهار ما يظهر من قدرته في خلق آدم صلى الله عليه، حين قال: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٢٩)﴾

[الحجر، ص: ٧٢]، قال: ﴿نفخت فيه من روحي﴾، يقول: جعلت فيه وركبت، وسويت وخلقت فيه روحا، به تمامه، وبكينونته فيه قوامه؛ ثم نسبه إليه؛ لأنه خلقه وفعله، كما قال: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣)﴾ [الزمر]، فنسبهم إليه؛ إذ هم فطرته وخلقه، وفعله وأمره؛ قال الله سبحانه في مريم عليها السلام: ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ [التحريم: ١٢]، يريد: جعلنا في الرحم ما جعلنا من خلقنا، وخلقنا فيه من غير ذكر ما خلقنا من عبدنا، الذي جعلناه آية لعبادنا، ثم نفخنا في ذلك الخلق روحا، و ﴿نفخنا﴾ فهو: ركبنا وجعلنا، وأدخلنا وثبتنا فيه روحا، به كمال ذلك الخلق المخلوق، وقوام ذلك العبد المجعول. ثم قال سبحانه: ﴿فتأتون أفواجا (١٨)﴾، والأفواج فهي: الجماعات الكثيرات، الآتيات معا معا، زمرا زمرا، يقول: تأتون إلى الميقات الذي وقت لكم، والموضع المحشر، الذي جعل لكم محشرا، وموضعا للحساب وموقفا.

ثم قال: ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابا (١٩) وسيرت الجبال فكانت سرابا (٢٠)﴾، يخبر سبحانه عن: تقطع السماء وتفتحها، وتقلعها وتمزقها، حتى تكون بعد جودة الانحباك قطعا، وبعد الاستواء أبوابا مفتحة ومزقا، حتى تكون كالمهل السائل، بعد العظم والتجسيم الهائل.

ومعنى قوله: ﴿وسيرت الجبال فكانت سرابا (٢٠)﴾، وتسييرها فهو: نسفها وإذهابها، والنسف فهو: القلع والإهلاك، والإزالة عما هناك، حتى تعود أمكنتها قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، والقاع الصفصف فهو: الموضع الأملس، المرت الخالي من كل شيء، الذي لا يستتر منه جانب عن جانب، ولا يتوارى فيه صاحب عن صاحب، والعوج فهو: المتفاوت في الارتفاع والانخفاض، والأمت فهو: الاختلاف.

ثم قال سبحانه: ﴿إن جهنم كانت مرصادا (٢١)﴾، والمرصاد فهو: المرصد،

فأراد بقوله: ﴿مرصادا﴾ أي: أنهم يرصدون لجهنم، وأنها لهم مرصدا، أي: مكانا وموضعا لا معدل لهم عنه، ولا منحرف لهم منه، ولا مصرف ولا مراغ ولا ملاذ سواها، ولا مساغ غيرها؛ وفي ذلك ما تقول العرب:" مرصد فلان مكان كذا وكذا "، تريد: مكانه الذي يرصد فيه. ومعنى " يرصد " هو: ينتظر فيه، حتى يأتيه ويصير إليه، فيصادفه فيه راصده، ويجده فيه طالبه، وهو: المكان الذي لا مراغ له عنه، ولا يوجد إلا فيه؛ فأراد سبحانه بقوله: ﴿كانت مرصادا﴾ أي: كانت مكانا وموئلا، لا بد للطاغين منه، ولا منصرف لهم عنه؛ ألا تسمع كيف بين سبحانه بقوله: ﴿للطاغين مئابا (٢٢)﴾ أي: للعاتين الجبارين المكذبين معادا وموئلا، ومكانا ومقرا يأوون فيه، ويصيرون إليه، والأوب فهو: الرجوع، والمآب فهو: المكان الذي يصار فيه، ويرجع إليه.

﴿لابثين فيها أحقابا (٢٣)﴾، فاللابث هو: المقيم، ومعنى ﴿لابثين﴾ فهو: مقيمون، الأحقاب فهو: الدهور الدائمة؛ وقد قيل: إن واحد الأحقاب حقب، وإن الحقب ثمانون سنة. فإن يكن ذلك كذلك فهي: أحقاب متوالية، متواترة متصلة، لا آخر لها ولا انقطاع، ولا فراغ لمدتها ولا فناء؛ لأن الله سبحانه ذكرها: أحقابا، ولم يذكر لها غاية ولا مدى؛ فدل بذلك على أنها أبدا، دائما سرمدا.

ثم قال سبحانه: ﴿لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا (٢٤)﴾، يريد: لا يجدون فيها فسحة ولا راحة تبرد عنهم كربهم، ولا تنفس عنهم ألمهم، ولا تكشف عنهم حرارتهم، ولم يرد هاهنا بقوله: ﴿بردا﴾: وقع البرد وحسه، وإنما أراد بالبرد: تهوين الأمر؛ لأن العرب تقول:" برد عني غمي كذا وكذا، وبرد عني ألم علتي كذا وكذا "، يريدون: هون عني، وسهل علي، وفرج كربي كذا وكذا؛ لا أنها تريد بقولها: أنه أصاب القائل لذلك بردا أبرد جلده؛ فهذا معنى ما ذكر الله سبحانه من البرد الذي لا يذوقه أهل جهنم، يريد: أمرا يسهل عليهم عذابهم، ويفرج عنهم كربهم، من أمر يطفي عنهم حر جهنم، وأمر يهون عليهم عظيم الألم. والشراب الذي لا يذوقونه

فهو: الشراب البارد الهنئ، الطيب المريء؛ فذكر الله سبحانه: أنهم لا يذوقون من ذلك الصنف شيئا؛ لأنه صنف كرامة من الله لمن سقاه إياه ونعمة، وأن شرابهم هو الحميم الذي ذكر الله أنه ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ [إبراهيم: ١٧]؛ ألا تسمع كيف يقول تبارك وتعالى: ﴿إلا حميما وغساقا (٢٥)﴾، فالحميم فهو: الماء المحمى المسخن، الذي قد منع الأيدي عن مسه؛ لشدة حموه وحره، والغساق فهو: الذي قد غلى حتى رمى بحبه، وتطاير نضجه من جوانب إنائه، فهو يتطاير من الإناء؛ لشدة الغليان.

﴿جزاء وفاقا (٢٦)﴾، يقول: جزاء وفقا، مثلا بمثل، بالسوأة سوأة، وبالمعصية نقمة، وبالمخالفة عذابا؛ فهذا معنى الوفاق، أي: أنكم عذبتم بفعلكم، ونكلتم بجرمكم، ولم تظلموا في شيء من أموركم، وكان ذلك منا جزاء، فعلا على فعلكم، ومجازاة على صنعكم، فأذقناكم من عذابنا ما جعلناه في حكمنا به: جزاء لمن عند عنا، فكان منا حقا حقا، ولم نسأله ولم نعذبه تجاهلا ولا ظلما، ولا ابتداء ولا غشما؛ بل كان جزاء بعد الإعذار والإنذار، والاحتجاج والإمهال.

﴿إنهم كانوا لا يرجون حسابا (٢٧)﴾، يقول سبحانه: لا يأملون محاسبة على فعلهم، ولا يتوهمون مجازاة على صنعهم، ولا يوقنون ما أخبرناهم به من شرهم، ولا يصدقون بشيء مما أنبأنا به من الوعد والوعيد. ومعنى ﴿يرجون﴾ يأملون، في مخرج الكلم هاهنا هو: لا يخافون ويتقون ويخشون. ﴿حسابا﴾ أي: محاسبة منا على ما قدموا، ومجازاة على ما صنعوا.

ثم قال سبحانه: ﴿وكذبوا بآياتنا كذابا (٢٨)﴾، يقول جل جلاله: وكذبوا بما رأوا وأبصروا، من الآيات الدالات علينا، وجحدوا بما بينت لهم حجتنا المركبة في صدورهم، من العقول المجعولة فيهم، من دلائل الحق، وبراهين الصدق، في ما يرون من الآيات، من عجائب الصنع في الأرضين والسموات،

وغيرهن مما جعل الله من المجعولات، وفطر سبحانه من بدائع المفطورات، اللواتي يشهدن لخالقهن، ويدللن على فاطرهن، وينطقن بربوبيته، بنواطق ما فيهن من أثر صنعه، الذي لا يجهله منصف، ولا يدفعه إلا مكابر مخالف؛ فذكر الله سبحانه: أنهم كذبوا بذلك بعد بيانه، ودفعوه بعد صحته في عقولهم، وثباته في صدورهم بأبين البيان، وأوضح البرهان. وقوله: ﴿كذابا﴾ فمعناها: تكذيبا، وملادة وتعطيلا، ومناكرة وكفرا.

ثم قال: ﴿وكل شيء أحصيناه كتابا (٢٩)﴾، ومعنى ﴿أحصيناه﴾ فهو: علمناه وحفظناه، ومعنى ﴿كتابا﴾ أي: محفوظا مثبتا، معلوما مبينا. وإنما ضرب الله لهم بما ذكر من الكتاب مثلا؛ إذ كان أبين ما عندهم بيانا واضحا وأثبته -ما كان في الكتاب مكتوبا، وفي الصحف المعروفة موقعا؛ فذلك عندهم أبين ما يعرفون، وأوضح ما يعلمون، وأحصى ما يحصون؛ فمثل الله عز وجل بما يكون حفظه لما يكون منهم وإحصاؤه إياه عليهم -بما هو أفضل الأشياء عندهم، وأبينه بيانا، وأثبته صحة مما يكتب في الكتب، ويوقع فيها.

ثم قال سبحانه: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا (٣٠)﴾، يقول سبحانه: فذوقوا ما نزل بكم على فعلكم، وما نزل بكم من الجزاء الوفاق على كفركم. وقوله: ﴿فلن نزيدكم إلا عذابا (٣٠)﴾، يقول: لن تروا فرجا ولا رخاء، ولن تزدادوا بالمكث الطويل في جهنم إلا عذابا وبلاء؛ لأن عذابهم دائم سرمد، وخلودهم في النار دائم أبدا، ومن كان كذلك -لم يزدد بالمكث في جهنم إلا عذابا.

ثم قال جل جلاله، عن أن يحويه قول أو يناله: ﴿إن للمتقين مفازا (٣١)﴾، والمفاز فهو: موضع الفوز، والفوز فهو: النعيم والخير والسرور، وقرة العين من المآكل والمشارب، والمناظر والمناكح والمطالب.

ثم فسر سبحانه ذلك المفاز، فقال: ﴿حدائق وأعنابا (٣٢) وكواعب أترابا (٣٣) وكأسا دهاقا (٣٤)﴾، والحدائق واحدتها: حديقة، والحديقة فهي: الحظيرة المجتمع فيها جميع الثمار المأكولات الطيبات، والمياه المشروبات. ﴿وأعنابا﴾ فهي: الأعناب المعروفة، التي يغني اسمها عن تفسيرها؛ لمعرفة الناس بها. والكواعب فهن: النساء النواهد، والناهد فهي: التي قد برز ثديها، وتبين للناظرين في صدرها، الذي لم ينكسر ولم يمل؛ فتلك تسمى: كاعبا وناهدا، والأتراب هو: الأمثال المشبهات، في القد والجسم، والصورة والخلق.

﴿وكأسا دهاقا (٣٤)﴾، والكأس فهو: ضرب من الأقداح، يشرب فيها الماء وغير الماء، من العسل واللبن، تكون الكأس من الفضة والذهب، ويكون في الآخرة من ذلك ومن غيره، من الجواهر والياقوت الأحمر، والدر الأبيض والزمرد الأخضر، و﴿دهاقا﴾ فمعناه: مملوءا مترعا؛ فأعد الله ذلك كله للمؤمنين.

ثم قال: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا (٣٥)﴾، واللغو فهو: الباطل والمحال، والأذى والطرح والمقال، وما يغم المؤمنين سماعه، ويكرهون استماعه. ﴿ولا كذابا﴾، والكذب فهو: الخلف للمواعيد، والكذب في الأقاويل؛ فأخبر: أنهم لا يجدون في تلك الدار خلفا لما وعدوا، ولا كذابا لما أملوا ورجوا، وأنهم سيجدون ما وعدوا، ويعاينون في دار الخلد ما أملوا، وأن آمالهم ورجاءهم وظنونهم غير كاذبة ولا باطلة، وأنها لهم على أفضل ما ظنوا وأكمل ما رجوا، وأوفر ما طلبوا، لم يكذب الله لهم ظنا، ولم يخلف لهم أملا؛ هذا معنى ﴿كذابا﴾؛ ألا تسمع كيف يقول القائل:" ظننت ظنا فكذبني ظني "، يريد: أملت أملا فأخلفني أملي.

﴿جزاء من ربك عطاء حسابا (٣٦)﴾، يقول تبارك وتعالى: إن ذلك منه كله جزاء للمؤمنين على أفعالهم، وعطاء منه على أعمالهم المرضية له، المتبعة أمره.

﴿عطاء﴾، ومعنى ﴿عطاء﴾ فهو: هبة وجزاء. ﴿حسابا﴾، يقول: عطاء كثيرا، إن حسب كثر حسابه، وإن عد لم يحط بعدده، كثيرا جسيما، جزيلا عظيما.

ثم قال سبحانه، وجل عن كل شأن شأنه: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا (٣٧)﴾، ومعنى ﴿رب السموات﴾ هو: مالكها وقاهرها، وصاحبها ومقدرها، وكذلك: الأرض وما بينهما؛ ومعنى ﴿وما بينهما﴾ فهو: ما على وجه الأرض من الإنس وغيرهم من الأشياء، وما فوق ذلك من الجن والإنس والسحاب والنجوم في الهواء؛ فهو: مالكهما ومدبرهما، ومالك ما بينهما، وسيدهما ومليكهما. ﴿الرحمن﴾ فهو: الرحمن، صاحب الرحمة والسلطان، والعظمة والبرهان، وهو: اسم من أسامي العزيز الجبار. ﴿لا يملكون منه خطابا﴾ أي: لا ينالون عنده مخاطبة ولا بهتانا، ولا مكابرة وجحدانا. و﴿منه﴾ فمعناها: عنده، فقامت " من " مقام " عند "، وهذه حروف الصفات يخلف بعضها بعضا، ويجزي بعضها عن بعض؛ من ذلك قول الله سبحانه، فيما حكى عن فرعون اللعين: ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ [طه: ٧١]، والجذع لا يصلب فيه، وإنما يصلب عليه، أراد: لأصلبنكم على جذوع النخل، فقامت " في مقام " على "، وكذلك قامت " من " مقام " عند " في قوله: ﴿لا يملكون منه خطابا (٣٧)﴾؛ فأخبر عز وجل: أنهم لا يملكون عنده قبول عذر معذرة، ولا ينفعهم جحدان، ولا يجوز عنده إلا الحق في ذلك اليوم، وهو:

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾، وقيامهم فهو: وقفهم، فهم بين يدي ربهم، وانتظارهم لأمر خالقهم. و﴿صفا﴾ فهو: صفوفا. و﴿الروح﴾ فهو: جبريل صلى الله عليه. و﴿الملائكة﴾ القيام صفا في ذلك اليوم فهم: الشهود والكتبة، والحفظة على الآدميين ما كان من أفعالهم في دنياهم، وهم الذين قال الله سبحانه: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه

رقيب عتيد (١٨)﴾ [ق]، ومن الملائكة الوقوف: ملائكة موكلون بإيصال المثابين إلى الثواب الكريم، وإيصال المعاقبين إلى عذاب الجحيم، وكذلك سائر الملائكة: كل منهم واقف ينتظر أمر ربه، معظما لما يرى من فعله. ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾، يقول: لا ينطقون من هيبته، ولا يتكلمون من إجلاله وتوقيره سبحانه وتقديسه، ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ منهم، والإذن هاهنا هو: الأمر من الله له بالكلام بما يأمرهم، من توقيف العباد على أفعالهم، ومحاسبتهم على أعمالهم. ﴿وقال صوابا (٣٨)﴾ معناها: قال حقا، من توقيف الحفظة للآدميين على ما كان من فعلهم، وتعريفهم ما تقدم من خطاياهم التي أحصوها عليهم في دنياهم، فوقفوا من ذلك على الصواب؛ والصواب هاهنا فهو: الحق في جميع الأسباب، من قول كان أو عمل.

ثم قال سبحانه: ﴿ذلك اليوم الحق﴾، يريد أي: ذلك يوم حق، معنى " يوم حق " أي: أنه يوم آت حق كفلق الصبح، لا خلف في إتيانه، ولا بطلان لما ذكر منه، فإتيانه حق، وكينونته حق، وكل ما يفعل فيه فحق، لا ظلم فيه ولا حيف. ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا (٣٩)﴾، يقول سبحانه: فمن شاء من الخلق اتخذ في دار دنياه، وقبل فنائه وانقضائه إلى ربه سبيلا، أي: يجده غدا عنده، من العمل بطاعته، والإتباع لمرضاته. ومعنى ﴿اتخذ إلى ربه مآبا﴾ هو: جعل بينه وبينه وصلة لا تنقطع، وسبيلا يوصله إلى جناته، ويوجب له ما وعد المطيعين من ثوابه، حتى يدخر له بطاعته، واتباع مرضاته -فوزا يؤوب إليه؛ ويؤوب: ينقلب فيه وإليه، ومعنى ﴿مآبا﴾ هو: موئلا ومرجعا يجده عند رجوعه إلى ربه، وسببا عند الله يصادفه عند مآبه إلى دار آخرته، يسره المنقلب إليه، وينفعه المآب فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿إنا أنذرناكم عذابا قريبا﴾، يريد: دانيا قد أزف حينه، وقرب وقته، ومعنى ﴿أنذرناكم﴾ هو: حذرناكم وتقدمنا إليكم، وأعذرنا في قطع الحجة بيننا وبينكم، قبل مصيركم إلى العذاب، بتماديكم في المعاصي

المهلكات، والمآثم الموبقات. ثم أخبر بوقت ذلك العذاب، فقال: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾، فأخبر سبحانه: أن ذلك العذاب يكون في ذلك اليوم الذي ينظر فيه المرء ما قدمت يداه. ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا (٤٠)﴾، وهو: يوم الحشر والحساب، ومواقعة العقاب والعذاب، ومعنى ﴿ينظر﴾ فهو: يجد ما قدمت يداه؛ معنى وجوده لما قدمت يداه هو: وجوده لجزاء فعله، ومواقعته ومعاينته لصدق ما وعد وأوعد على فعله، مما اكتسبته يداه في حياته وقبل وفاته. ومعنى قول الكافر: ﴿يا ليتني كنت ترابا (٤٠)﴾ فهو: تحسر منه وتندم، وفرق وهلع، وشدة وجزع، مما يعاين مما أعد الله له من العذاب الأليم، وما يستحب إليه من الجحيم، وما يصب فوق رأسه من الحميم؛ جزاء على كفره، وعذابا على صده عن طاعة ربه في حياته؛ فيقول عند معاينته ما يعاين من البلايا:" يا ليتني لم أرد حيا، ولم أبعث في هذا اليوم بشرا سويا، وكنت في القبر كما كنت ثاويا ميتا، وباليا فانيا، ورميما رفاتا ترابا "؛ فيتمنى أنه بقي ترابا رميما، ولم يلق ما لقي من جزاء فعله الرديء، وعمله السيئ؛ ﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا (٤٩)﴾ [الكهف]؛ فنعوذ بالله من البلاء، ونسأله الرحمة والهدى، والمعونة على أمور الآخرة والأولى، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الجليل.

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾[النازعات: من (١)، إلى: (٥)]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿والنازعات غرقا (١) والناشطات نشطا (٢) والسابحات سبحا (٣) فالسابقات سبقا (٤) فالمدبرات أمرا (٥)﴾؟

فقال: ﴿النازعات﴾ فيما أرى - والله أعلم – هي: السحائب المنتزعات بالأمطار من البحار والأنهار، وبما في الأرض من الندوة والبخار.

﴿والناشطات نشطا﴾، هو: الماتحات متحا، وهي: الناشطات الماتحات في نزعهن وإطلاعهن، والنشط هو: الإغراق، وهو: القوة القوية في جبذهن وإطلاعهن لما يطلعن في الهواء، بما ينزعن من الماء.

وهن ﴿السابحات﴾ في الهواء ﴿سبحا﴾، كما يسبح في الماء من كان سابحا، يمينا ويسارا، وإقبالا وإدبارا.

وهن أيضا ﴿ـالسابقات﴾ برحمة الله وفضله، من المطر والغيث، غير المسبوقات بإمساك الله للمطر لو أمسكه عن الأرض وأهلها بعدله، وقد تكون ﴿ـالسابقات سبقا﴾ هي: البروق؛ لأن البرق أسرع شيء خفقا، وأحثه اختطافا وسبقا.

والسحائب أيضا فهن ﴿فَالمدبرات﴾ بما جعل الله من الغيث فيهن والأعاجيب، لكل ذي حكمة أو نظر مصيب، وغيرها إلى يوم يحشرون، وكذلك البرزخ الذي جعله بين البحرين شارعا، فهو المحبس الذي جعله الله حاجزا بينهما مانعا؛ لكي لا يختلط البحر العذب السائغ للشاربين، بالبحر المالح الأجاج الذي لا يطيق شربه أحد من الناس أجمعين؛ رحمة منه جل ثناؤه للإنسان، وغيره من بهائم الحيوان، كما قال سبحانه: ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا﴾ [الفرقان:٤٩]؛ رأفة ورحمة في ذلك للإنسان وغيره، وقدرة على إحكام أمره فيهما وتقديره.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات: ٢٤]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

إنما تأويل قول فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾: أنا سيدكم ومليككم، لا ما قال موسى. ولم يرد: أنا لكم رب خلاق، ولا أنا لكم إله رزاق؛ لأن كل رب في لسان العرب فسيد ومليك، ولا سيما إذا كان وليس له عند نفسه فيما ملك شريك؛ أولا تسمع يا بني وترى: أنه لم يزعم أنه رب لغيرهم من أهل القرى، التي لا ملك له عليها، ولا سلطان له فيها؛ فلما لم يوقن بغيره، ولم يستدل على الله بتدبيره، وكذب من الله بما لم تره عيناه، وكان كل من صدقه مثله، لا يوقن إلا بما عاينه ورآه، وما كان لذلك مثلا ونظيرا -قال: أنا ربكم ومليككم، ولم يدع لهم صنعا ولا تدبيرا؛ صغرا منه وتضاؤلا عن تلك ودعواها، فلما صغر عنها وتضاءل -كان ادعاؤه لسواها، مما يدخل به وفيه غلط وامتراء، وما يمكن في مثله له عندهم الادعاء؛ ولو ادعى فيهم خلقا، أو انتحل لهم رزقا -لما اعترتهم في كذبه مع تلك مرية، ولا أعمتهم من الشبهة في أمره معمية؛ ولكنهم لما لم يوقنوا بالله وتدبيره، ولم يقروا إلا بما رأوا مثله من فرعون وغيره، وأنكروا ما لم

يروا أو يكون مثلا لما رأوا فدفعوه -جاز عندهم لفرعون ولهم في فرعون ما ادعوه؛ فنحمد الله الذي حسر كل من أيقن أو تحير، عن أن يدعي من صنعه وإن جهله صنعا، فيكون فيه لشبهة أو تحير لمبطل مدعى، وإن كان أثر التدبير فيه بأنه صنع مصنوع باديا، وكان هدى الله فيه لمن لم يهتد إليه بالهدى مناديا، فنداؤه بإحداث الله له أعلى من كل علي، وتبديه بأنه صنع لله وتدبير أبدى من كل جلي؛ فتبارك الله أحسن الخالقين خلقا، وأحق جميع الحقائق متحققا، الذي لم يزل ولا يزال، ومن له الكبرياء والجلال، رب الأرباب المعظمة، وولي كل إحسان ونعمة، الأول الذي ليس كمثله شيء، وهو القوي العزيز القهار الغلاب؛ ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ [آل عمران:٨]، وصل على جبريل أمينك، وعلى ملائكتك المصطفين، وعلى محمد رسولك، وعلى جميع الرسل والنبيين؛ والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد خير خلقه أجمعين، وأهله الطاهرين وسلامه.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ [النازعات: ٣٠]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام:

أخبرنا العلوي، قال: حدثنا ابن النجار، قال أخبرنا إسحاق بن محمد المقري، وعبد العزيز بن يحيى الجلوذي، قالا: أخبرنا محمد بن سهل، قال: حدثني عبد الله، قال: حدثني عمارة، قال: حدثني عبيد الله بن العلاء، قال: سمعت رجلا سأل زيدا عليه السلام عن قول الله جل ثناؤه: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها (٣٠)﴾: كيف جاز أن يقول: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها (٣٠)﴾، والأرض قبل السماء خلقها؛ لقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء﴾ [البقرة: ٢٩]؟

قال الإمام زيد بن علي عليهما الصلاة والسلام: المعنى في ذلك على وجهين:

أن تكون " بعد " في معنى:" مع "، وقد قال الله عز وجل: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾، وإنما هو:" مع ذلك "، ويقول الرجل للرجل يسابه:" هو أحمق بخيل، وبعد هذا لئيم الحسب "؛ أي: مع هذا.

وأنشد للهذلي:

حمدت إلهي بعد عروة إذ نجا ... خراش وبعض الشر أهون من بعض

يريد: أن خراشا نجا قبل عروة.

ووجه آخر: أن يكون خلق الأرض ولم يدحها، فلما خلق السماء دحا الأرض بعدها، أي: بسطها؛ و" دحاها ": بسط ومد؛ وذلك في كلام العرب، قالوا: دحى يدحوا، ودحيت أدحى لغة، وقال أمية بن الصلت:

دار دحاها ثم أعمر أرضها ... وأقام في الأخرى التي هي أمجد

وقال أوس:

ينفي الحصى عن جديد الأرض منتزل ... كأنه لاعب أو فاحص داحي

قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢)﴾ [النازعات: ٣٢-٤٢]

قال في كتاب الرد على مسائل الإباضية للإمام الناصر بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قوله: ﴿أرساها﴾ في مواضع من القرآن، فقلت: ما معنى ذلك؟

قال أحمد بن يحيى صلوات الله عليه: ﴿أرساها﴾ على وجهين في القرآن، كل واحد منهما غير صاحبه:

فالوجه الأول: ﴿أرساها﴾ يعني به: أثبتها، فقال في سورة النازعات: ﴿والجبال أرساها﴾، يقول: أثبتها في الأرض؛ لأن لا تزول بمن عليها، وكقوله: ﴿وقدور راسيات﴾، يعني: ثابتات في الأرض.

والوجه الثاني من ﴿أرساها﴾: يعني به: حينا، والحين هو الوقت، فذلك قوله عز وجل في ذكر القيامة: ﴿أيان مرساها﴾ ، يقول: مجيئها وقيامها وحينها.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

قال الله سبحانه: ﴿والنازعات غرقا (١) والناشطات نشطا (٢) والسابحات سبحا (٣) فالسابقات سبقا (٤) فالمدبرات أمرا (٥)﴾.

فقال عليه السلام: ﴿النازعات﴾ فيما أرى - والله أعلم- فهن: السحائب المنتزعات لماء الأمطار من البحار والأنهار، ومما في الأرض من الندوة والبخار، وكذلك صح في الروايات والأخبار. معنى ﴿غرقا (١)﴾: مغرقات لما أمطرن، وكذلك المغرق من كل شيء أيضا: الناهي فيه، تقول:" أغرق في النزع ".

وهن ﴿الناشطات﴾ في نزعهن ﴿نشطا (٢)﴾، والنشط والإغراق هو: القوة في النزع والصب، ومما ينتزع من المنتزع صكا. ومعنى تنشط الماء فهو: تحيده وتطلعه، و ﴿نشطا﴾ مصدر كمصادر الكلام.

﴿والسابحات﴾ هن: السحائب يسبحن في الهواء سبحا، كما يسبح في الماء من كان سابحا، يمينا ويسارا، وإقبالا وإدبارا، كما أراد الله عز وجل وشاء. ﴿سبحا (٣)﴾: مصدر أيضا.

وهن أيضا ﴿ـالسابقات﴾ بالمطر والغيث، برحمة الله وفضله، غير مسبوقات بإمساك الله للمطر لو أمسكه عن الأرض وأهلها بعدله، وقد يكون ﴿ـالسابقات﴾ هو البرق؛ لأن البرق أسرع شيء خفقا، وأحثه اختطافا وسبقا.

والسحائب أيضا فهي ﴿ـالمدبرات﴾ بما جعل الله من الغيث فيهن للشجر

والثمار والنبات، وفيما ذكرنا من هذا أعجب عجيب، لكل ذي حكمة ونظر مصيب. قيل: والمعني في: ﴿فالمدبرات أمرا (٥)﴾: الملائكة.

﴿يوم ترجف الراجفة (٦) تتبعها الرادفة (٧)﴾، الراجفة: القيامة، سميت راجفة لهولها، يقال:" أنزل ببني فلان رجفة "، والرادفة: مردفة بهول يتبع هولا.

﴿قلوب يومئذ﴾: ذلك اليوم. ﴿واجفة (٨)﴾ أراد: مضطربة.

﴿أبصارها خاشعة (٩)﴾: منكسة.

﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة (١٠)﴾: أولئك الذين كانوا يقولون - أراد: يكذبون بالرد لهم في الحافرة - هم: الذين تخشع أبصارهم وتذل، و﴿الحافرة﴾: التي تحفر على السرائر وتظهرها.

﴿إذا كنا عظاما نخرة (١١)﴾: تعجب منهم: أنهم لا يرجعون إذا صاروا عظاما نخرة، والنخرة: البالية الدامرة.

ثم قالوا: ﴿تلك إذا كرة خاسرة (١٢)﴾، أرادوا: نطفة خاسرة.

رد الله تكذيب قولهم بقوله عز وجل: ﴿فإنما هي زجرة واحدة (١٣)﴾؛ تحقيقا أنها كانت: مثل للزجرة. الزجرة - والله أعلم -: مثل مضروب للحياة بعد الموت، كما يفزع النائم بالزجرة من الصوت.

﴿فإذا هم بالساهرة (١٤)﴾: المتعبة لمن هو فيها؛ تقول:" فلان ألحق بالساهرة "، أي: لم يخبر به.

انتهى الموجود من تفسيره عليه السلام.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

سورة ﴿النازعات﴾

﴿والنازعات غرقا﴾ قال أبو عبد الله، محمد بن القاسم عليهما السلام: ﴿النازعات﴾ فيما أرى - والله أعلم- فهن: السحائب المتنزعات لماء الأمطار من البحار والأنهار، ومما في الأرض من الندوة والبخار.

وهن ﴿الناشطات﴾ في نزعهن ﴿نشطا (٢)﴾، والنشط والإغراق هو: القوة في النزع والصب.

﴿والسابحات﴾ هن: السحاب في الهواء. ﴿سبحا﴾، كما يسبح في الماء من كان سابحا، يمينا ويسارا، وإقبالا وإدبارا.

وهن أيضا ﴿ـالسابقات﴾ بالمطر والغيث، برحمة الله وفضله، غير مسبوقات بإمساك الله للمطر لو أمسكه عن الأرض وأهلها.

وقد تكون ﴿ـالسابقات سبقا﴾ هو: البرق؛ لأن البرق أسرع شيء خفقا، وأحثه اختطافا وسبقا.

والسحائب أيضا فهي ﴿ـالمدبرات﴾ بما جعل الله من الغيث فيهن للشجر والثمار والنبات، وفيما ذكرنا من هذا أعجب عجيب، لكل ذي حكمة ونظر مصيب.

(انتهى الموجود من تفسيره عليه السلام، وقد سقط باقي هذه السورة)

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)﴾ [عبس: ١٧]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألته عن: قول الله سبحانه: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾؟

فهو: لعن الإنسان ما أقل شكره، وكذلك كل من كفر بآيات الله، و لم يصر فيما أمر به إلى مرضات الله، فمن كان كذلك، أو عمل بذلك –فهو: الكافر غير الشاكر لما أولي ووهب له من النعم، فأعطي في مبتدأ خلقه حين أنشأ من نطفة من ماء مهين، فحفظ في الرحم، في مستقره، فأتم تقديره، وحسن تصويره، ثم يسر للسبيل الذي هو مخرجه من بطن أمه، بعد كماله في لحمه وعظمه.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: من (٢٤)، إلى: (٣٢)]

قال في المصابيح الساطعة الأنوار، في تفسير هذه السورة:

وفي هذه الآية الكريمة يقول الهادي إلى الحق عليه السلام: معنى ﴿شققنا الأرض شقا﴾، يريد: شققناها عن النبات الذي يخرج منها الحب والفواكه وغيرها، وفلقناها فلقا. والأب فهو: الحشيش والعشب الذي تأكله الأنعام،

وينبت في الأودية والآكام. ﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾: إلى انقضاء آجالها وآجالكم، فرزقناكم فواكهها وحبا، ورزقنا أنعامكم عظاها وأبا؛ فكل ما خرج فقد سماه لأهله ومن يملكه: رزقا؛ فهو لمن أجاز الله له أكله، وأحل له أخذه، وأمره عليه بشكره، فقال:﴿كلوا واشربوا ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، وقال:﴿يا أيها الناس كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾، وقال:﴿كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾؛ فرزق ذو المن والسلطان، والجبروت والبرهان، كل عبد ما أحل له وأمره بأخذه، فأما ما نهاه عن أكله، وعذبه في قبضه -فليس ذلك لعمرهم من رزقه، وكيف يحوز رزقا وقوتا به يعيشون وفيه يتقلبون، وينهاهم عن أخذ ما أعطاهم، وإليه ساقهم وهداهم؛ فهذا - والحمد لله - ما لا يغبى على من وهبه الله علما وفهما، وتمييزا ولبا؛ والحمد لله رب العالمين. انتهى.

وقال في شرح الرسالة الناصحة للإخوان للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، بعد ذكره للآيات المذكورة:

فعم بالذكر سبحانه متاعنا ومتاع أنعامنا، في هذه الألفاظ القليلة، الحلوة الجليلة؛ لأنه عم بقوله: ﴿حبا﴾ جميع أنواع الحبوب، وبقوله: ﴿وحدائق غلبا﴾ جميع أنواع الأشجار المثمرة، وبقوله:﴿وفاكهة﴾ جميع الفواكه؛ لأنه نكر واحد الجنس، فاقتضى العموم، وكذلك " الأب " عم جميع متاع البهائم، من الكلأ والخلى، وخص " الزيتون والنخل والعنب " مما يختص بالآدميين؛ لجلالة قدره، كما أعاد ذكر جبريل وميكائيل عقيب ذكر الملائكة، وإن كانا منهم؛ لجلالة قدرهما، وذلك ظاهر في قوله سبحانه: ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ [البقرة:٩٨]، وكذلك إعادته لذكر " القضب "، مع أنه يعود في أصل اللغة إلى: الأب؛ لعظم حاله في نفع البهائم؛ وعجائب الكتاب الكريم وغرائبه لا تنقضي؛ فالحمد لله الذي جعلنا من ذرية نبيئه صلى الله عليه وآله

وسلم، وورثة كتابه، وهدانا إلى معرفة علل الحكم وأسبابه، حمدا كثيرا. قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه(٢٤)﴾ معناه: نظر القلب الذي هو: الفكر، والنظر في عجائب الصنع؛ لأن النظر بالأعيان قد وقع من الكافة، وهو لحكمته لا يأمر بالواقع؛ ولعمري إن من أنعم النظر فيما ذكر سبحانه حصل له العلم به تعالى على أبلغ الوجوه؛ لأن الماء واحد، والأرض واحدة، والهواء واحد، والحبة واحدة، والتأثير في الحبة الواحدة مختلف، إذ بعضها يهبط إلى أسفل، وبعضها يصعد إلى أعلى، وبعضها قشر، وبعضها لب، وبعضها ورق، وبعضها عمود، وبعضها غصن، وهي واحدة؛ فيأتي منها أعداد أكثر منها، يعسر حصرها لكثرتها، وربما اختلفت ألوانها؛ بل قد شاهد الكافة ذلك، ثم جميع ذلك يحصل في وقت بعد وقت، شيئا بعد شيء، والعلل موجودة عند من قال بها، والمعلول لا يجوز تراخيه عن علته، وإلا انتقض كونها علة فيه؛ فحينئذ يضطر الناظر العاقل إلى إثبات الصانع المختار، ونفي العلل.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

قال أبوعبد الله عليه السلام: سألت أبي القاسم بن إبراهيم عليهما السلام عن معنى قوله تعالى: ﴿عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢)﴾؟

فقال عليه السلام: هذا تأديب من الله تبارك وتعالى لرسوله: أن لا يعبس في وجه الأعمى الذي يأتيه يطلب منه الاسترشاد والهدى؛ والأعمى هاهنا: أعمى القلب.

وقيل في ذلك: إن الأعمى أعمى البصر؛ قالوا: هو ابن أم مكتوم، أتى النبي يطلب منه الهدى، فأعرض عنه.

وليس ذلك كذلك.

ومعنى ﴿عبس﴾ هو: عبس وتولى بكليته.

﴿أن جاءه الأعمى (٢)﴾ في معنى: حين.

﴿وما يدريك لعله يزكى (٣)﴾ هو: تعريف من الله أنه يعلم الغيب، وأن الرسول لا يعلمه. ومعنى ﴿يزكى﴾ هو: يتزكى.

﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤)﴾، معنى ﴿أو يذكر﴾: يعرف فتنفعه المعرفة.

﴿أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦)﴾: هذا تأديب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يجل من سمع بغناه ولو كان كافرا، ولا يستحقر من سمع بفقره وإن كان مهتديا.

وقد يكون هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ نظرا لصلاح الأمة في الإقبال إلى من كان معه غنى، وثقة بديانة الفقير، واتكالا على صحته في الدين.

ومعنى ﴿تصدى﴾: تقبل عليه.

﴿وما عليك ألا يزكى (٧)﴾ من جهة النظر؛ وهذا - والله أعلم - ليس للرسول؛ ولكنه مثل للتعريف والتأديب.

ومعنى ﴿وأما من جاءك يسعى (٨)﴾: يبادر.

﴿وهو يخشى (٩)﴾: يتخشع.

﴿فأنت عنه تلهى (١٠)﴾: تتشاغل.

﴿كلا إنها تذكرة (١١)﴾ معناه: نعم إنها تذكرة، و﴿كلا﴾ هاهنا بمعنى: نعم، وليست بمعنى "لا" كغيرها.

﴿فمن شاء ذكره (١٢)﴾ معناه: فمن شاء تعرفه تفقه في معرفته، على الاستطاعة التي ركبت؛ وقد خص في ذلك خواص، وشرح فيه شرح كثير يستغنى عنه.

﴿في صحف﴾: في كتب مبينة. ﴿مكرمة (١٣)﴾: معظمة.

﴿مرفوعة﴾: مصونة. ﴿مطهرة (١٤)﴾: منقاة من الدنس الذميم، ومخصوصة بكل فضل كريم.

﴿بأيدي سفرة (١٥)﴾: الملائكة عليهم السلام.

﴿كرام﴾: مكرمين. ﴿بررة (١٦)﴾: صادقة القول.

﴿قتل الإنسان ما أكفره (١٧)﴾ معناه: لعن الإنسان ما أشره؛ والإنسان معناه: الناس، يخص بذلك كل كافر، كما قال: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦)﴾ [الانفطار].

﴿من أي شيء خلقه (١٨)﴾ معناه: على تقليل النطفة، في معنى: أنها لا شيء، فصار منها شيء.

وقوله: ﴿من نطفة خلقه﴾: تذكرة له وتوقيفا فيما من به من الحياة عليه. ﴿فقدره (١٩)﴾ معناه: فسواه وعدله.

﴿ثم السبيل يسره (٢٠)﴾ معناه: الطريق الواضح سيره وعرفه.

﴿ثم أماته﴾: حكم عليه بالموت غصبا. ﴿فأقبره (٢١)﴾: دل على قبرانه في التراب.

﴿ثم إذا شاء أنشره (٢٢)﴾ معناه :حتى إذا شاء بعثه ليوم نشوره.

﴿كلا لما يقض ما أمره (٢٣)﴾، ﴿كلا﴾ في موضع:" نعم، حتى يقضي ما أمره "؛ أراد: يحاسب على ما أمر به من الطاعة، فيحاسب على ما فرط فيه، ويجازى بالحسنة فيه على ما فعله. وقد يخرج ذلك على معنى:" لا، ما قضى"، معناه: ما فعل ما أمره؛ ولكن قصر فيه. وهل يكون أحد إلا وهو مقصر.

رجع إلى التعريف والتذكرة، ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤)﴾: إلى مأكله.

﴿إنا صببنا الأرض صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦)﴾ معناه: أنزل الماء من السحاب، وشق الأرض به، وبالاغتصاص بشربه.

﴿فأنبتنا به حبا (٢٧)﴾: حبا من الحبوب.

﴿وعنبا﴾: من ألوان صنوف العنوب. ﴿وقضبا (٢٨)﴾: من القضوب.

﴿وزيتونا﴾: خاص بزيتون الشام؛ لما فيه من البركة؛ يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿ونخلا (٢٩)﴾: المثمر للتمر، وهو هذا النخل.

﴿وحدائق﴾: حوائط من كل الفواكه. ﴿غلبا (٣٠)﴾ معناه: قوية تخرج من التراب على ثقله، وبضعف نباته حتى تصير قوية.

﴿وفاكهة وأبا (٣١)﴾، الأب: الشجر؛ هذا الثمام، الذي ينبت في الأسناد والآكام؛ ألا ترى أنه يقول: ﴿متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)﴾، الفاكهة لكم، والمتاع والأب لكم؛ لأنعامكم.

قوله تعالى: ﴿فإذا جاءت الصاخة (٣٣)﴾، المسمعة المصخة للأنفس من هولها، وما يرى فيها من عظمها، فتصخ لها النفوس.

﴿يوم يفر المرء﴾ هو: الإنسان. ﴿من أخيه (٣٤)﴾.

﴿و﴾ من ﴿أمه﴾ معناه: والدته. ﴿وأبيه (٣٥)﴾ الذي أولده.

﴿وصاحبته﴾: زوجته. ﴿وبنيه (٣٦)﴾: أولاده.

﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧)﴾، يعني: لكل على قدر ما قدم وأسلف، فيما غبر من الدهر؛ ألا ترى ما فسره حين قال: ﴿وجوه يومئذ﴾ معناه: وجوه ذلك اليوم، وهو: يوم القيامة. ﴿مسفرة (٣٨)﴾ معناه: ناضرة مشرقة حسنة، وهي: وجوه المؤمنين.

﴿ضاحكة مستبشرة (٣٩)﴾، تبين لك في وجه المسفر كالضحك، ولعله لا يضحك، ويبين لك في وجه الكافر البكاء، ولعله لا يبكي؛ وبلى: كم من باك ندامة، وكم من ضاحك استبشارا بما بشر به من نعم الله التامة. ومعنى

﴿مستبشرة﴾: متباشرة بما قد رأت من علامات الخير.

﴿ووجوه﴾ معناه: وجوه الكفرة. ﴿يومئذ﴾: تقدم تفسيره. ﴿عليها غبرة (٤٠)﴾، يعني: القتام، يلحق وجوه الكفرة والإظلام.

﴿ترهقها قترة (٤١)﴾: تلحقها وتعلوها قترة، والقترة فهي: الغبرة المقترة، المهلكة الكريهة، وهذا: جرم ما يكون من الكسوف على الوجوه، والظلمة.

ثم بين، فقال: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة (٤٢)﴾، ﴿الكفرة﴾ فهم: الكافرون لأنعم الله، والجاحدون لربوبيته أيضا؛ لأن الكفر كفران: كفر نعمة، وكفر جحدان؛ وكل أولئك صائر إلى سخط في عذاب أليم. ﴿الفجرة﴾ معناه: الفجرة في الدين، وأهل الإطراح لحقوق رب العالمين، والافتتان فيما لا يحل لهم [من] محارم خالق الخلق أجمعين. وقد يكون الفجور: الارتكاب لأكبر الشرور، من الفسق وأخبث الأخباث، من الإتيان للذكران والإناث، مما لم يأمر الله به، ولم يسوغه في قرآنه ولم يثبته.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

قال أبو عبد الله، محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام:

قوله عز وجل: ﴿عبس وتولى (١)﴾: معنى ﴿عبس﴾ فهو: قطب وجهه، و﴿تولى﴾ فهو: أعرض وتكبر، وقد يقال: العبوس والإعراض والتكبر -القلة منه والكبر فقد يختلفان، فما قل منه فصغير، وما كبر منه فكبير.

وقد قال كثير من هذه العامة؛ بما في أيديهم من الرواية: إن العابس المتولي، المذكور في هذه الآية المتصدي - والتصدي هو: الإقبال والتأني -، لمن استغنى بالجدة والغنى، والمتلهي عن من جاءه يسعى ويخشى -فهو: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وزعموا: أن ذلك كله فعل من رسول الله صلى الله عليه وآله

فعله وذمه الله منه، وذكره الله بالتقبيح عنه، وأن ابن أم مكتوم العامري جاءه، وجاء معه إليه من ذكر الله غناه، فعبس وتولى عن ابن أم مكتوم الأعمى، وأقبل وتصدى لمن استغنى.

وما ذكر من هذا القول فلا يجوز على الله، ولا على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الله - تبارك وتعالى في كبريائه وجلاله - لم يذم رسوله بعد إرساله في شيء من فعله؛ لأن الذم: لوم، والملوم: مذموم، ورسول الله صلى الله عليه وآله حميد غير مذموم، وكريم عند الله سبحانه غير مليم.

وقد يمكن أن يكون العابس الذي ذكره أنه عبس وتولى، عن من جاءه يسعى وهو يخشى، والذي تصدى لمن استغنى -غير رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن يكون الله سبحانه: نزل هذا ذما له ولغيره، والتذكرة فيه، فقال سبحانه ﴿عبس﴾: لعابس سوى رسول الله عبس وتولى، ممن كان مع رسول الله - صلى الله عليه وآله - أو ممن سلف من الأمم وخلا، فعبس في وجه أعمى، جاء للهدى مبتغيا، وتصدى لمن كان بالجدة مستغنيا.

وأما قوله: ﴿وما يدريك لعله يزكى (٣)﴾ فليس فيها نفسها دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله هو: المذكور في الآيات، والمذموم بها؛ لأنه قد يجوز أن يقول ﴿وما يدريك﴾ له، وهو يريد بها غيره معه، كما قال سبحانه له ولغيره معه: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾. وكقوله سبحانه: ﴿القارعة (١) ما القارعة (٢) [وما أدراك ما القارعة (٣)]﴾، وقال سبحانه: ﴿وأما من خفت موازينه (٨) فأمه هاوية (٩) وما أدراك ماهيه (١٠) نار حامية (١١)﴾؛ فكان ذلك له صلى الله عليه وآله ولغيره، من أهل دينه وغير أهل دينه.

وإن يك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المعني بذلك -فإنما كان ذلك منه لعلمه وخطره، وطلبه ما هو أصلح وأعز في دين الله وأرجح، من إجابة

الأغنياء، والأصحاء والأقوياء، لا على ميل ولا حيف، لقوي على مستضعف، ولا لغني على فقير، ولا لكبير على صغير؛ والحمد لله ولي كل نعمة وإحسان، وبالله نعوذ من كل حيرة وخذلان.

ومعنى ﴿قتل الإنسان ما أكفره (١٧)﴾ أي: لعن الإنسان ما أقل شكره، وكذلك: كل من كفر بآيات الله، ولم يصر فيما أمر به إلى مرضاة الله؛ فمن كان كذلك أو عمل بذلك -فهو من الكافرين غير الشاكرين لما أولاه، ووهب له من النعم وأعطاه، في مبتدإ خلقه، حين أنشأ من نطفة من ماء مهين، وحفظ من الرحم في مستقره، فأتم تقديره، وحسن تصويره، ثم يسره للسبيل الذي هو مخرجه من بطن أمه، بعد كماله، في لحمه وعظمه.

ومعنى قوله سبحانه ﴿وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)﴾ فقال: الفاكهة هي: الكثيرة التي جعلها الله متاعا للناس ومأكلة، والأب فهو: العشب والمرعى، الذي جعله الله مرعى ومرتعا للأنعام، ومهملا للإبل؛ وإنما سمي المرعى بذلك: لذهابه، وقلة بقائه وثباته؛ ولذلك قيل فيما ذهب من الأشياء ذهابا:" ذهب كذا وكذا تبابا "، فالأب: ما ذهب من النبات والبقول؛ كذلك يذهب إذا صافت فلا يبقى، وما سواها من المراتع يكون في الصيف وتبقى، فجعل الله ذلك بينها وبين الأب بيانا وفرقا.

انتهى الموجود من تفسير هذه السورة لمحمد بن القاسم عليهما السلام، والله أعلم.

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألت عن: قول الله تعالى: ﴿فأين تذهبون (٢٦) إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاءون إلا أن يشاء الله (٢٩)﴾؟

فقال: ولذلك ما يشاء الاستقامة إلا وقد شاءها الله قبله، ورضيها فيما نزل تبارك وتعالى، وقواه عليها، ودله جل جلاله إليها.

وقال في كتاب البساط للإمام الناصر الأطروش عليه السلام:

قد يجوز أيضا: أن يكون جل ذكره أراد بقوله: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾: ما تكونون ممن له مشيئة وإرادة، حتى شاء الله ذلك، وكل هذا فخبر صحيح المعنى؛ والله مشكور.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذا الشمس كورت(١)﴾، فتكويرها - والله أعلم -: طرحها وتهويرها، والتكوير: الطرح السريع للشيء إذا طرح، فجاء لشدة طرحه متكورا بعضه على بعض إذا طرح.

﴿وإذا النجوم انكدرت (٢)﴾، وانكدار النجوم - والله أعلم – فهو: تتابعها سريعا، بعضها في إثر بعض، منتشرة إذا انحدرت، وذلك حين تتابع يوم القيامة منحدرة، وتتكور يومئذ منتشرة.

﴿وإذا الجبال سيرت (٣)﴾، وتسيير الجبال يومئذ - والعلم عند الله – فهو: إذا حلها الله، فلانت وعادت كثيبا مهيلا، ثم هباء منبثا فسارت؛ والله أعلم، سبحانه الذي تولى عقد الجبال، وغيرها من الأشياء كلها، وهو الله العالم بنقضها إذا أراد ذلك وحلها.

يقول الله تعالى في هذه السورة للعرب، وهو يخبرهم عن ذهول الناس يومئذ عما يحبون؛ مما ينزل بهم من فادح الكرب.

﴿وإذا العشار عطلت (٤) وإذا الوحوش حشرت (٥) وإذا البحار سجرت (٦)﴾، والعشار: حوامل النوق من الإبل؛ وهي أنفس ما كان للعرب عندها من الأموال، التي لم يكونوا في الدنيا - لعجبهم بها - يصيرون لها إلى إغفال، فلعظم ما ينزل بهم ويعتريهم يومئذ من فادح الأهوال على ذلك -عطلوا من العشار أنفس أموالهم، وأعزها عليهم، وآثرها عندهم، وأحبها إليهم.

ويومئذ جمعت الوحوش وحشرت، والحشر لها: الاجتماع منها بعضها إلى بعض، إذا عاينت ما يعاين، ففزعت وذعرت.

ويومئذ تسجر البحار؛ وتسجيرها: تحريكها بالاستغفار، كما يضطرم بالسجر والتحريك مضطرم النار.

﴿وإذا النفوس زوجت (٧)﴾، تزويج النفوس - والله أعلم -: ضمها إلى الأبدان إذا نشرت.

﴿وإذا الموءودة سئلت (٨) بأي ذنب قتلت (٩)﴾، الموءودة: الأطفال، التي كان أهل الجاهلية من العرب يئدون من أولادهم ويقتلون، فحينئذ يسألون بأي

ذنب كانوا يقتلون؛ تبكيتا لآبائهم، وتعريفا للآباء بذنوبهم في قتلهم، وتوقيفا لهم على ظلمهم إياهم وتعنيفا.

﴿وإذا الصحف نشرت (١٠)﴾، والصحف هاهنا - والله أعلم -: إحصاء الله للذنوب، ونشر ما حفظت الحفظة على المذنبين، وإعلان ما كانوا يسرون منها في الغيوب، حين يعاين من قبائح الذنوب كل داهية، فيصير مكتومها وخباياها مكشوفا علانية.

﴿وإذا السماء كشطت (١١)﴾، وكشطها: قلعها من موضعها إذا طويت.

﴿وإذا الجحيم سعرت (١٢)﴾، وتسعيرها: التهابها واضطرامها إذا أججت.

﴿وإذا الجنة أزلفت (١٣)﴾، إزلافها: إحضارها وتقريبها إذا قربت.

يقول الله سبحانه: ﴿علمت نفس ما أحضرت (١٤)﴾، ﴿ما أحضرت﴾ - والله أعلم – هو: ما تعلمه النفوس يومئذ وتذكره من الذنوب بعد نسيان، ويعلم منه ما أحضرت، وما لها به من الثواب، أو عليها فيه من العقاب، بأيقن الأيقان، إذا رأت ثواب حسنه، والعقاب في سيئه بالعيان.

ثم قال سبحانه بعد هذا القصص من خبر يوم القيامة صادقا، وللخبر اليقين بقسمه البر محققا، وبعجيب آياته مقسما، ولما هو عجيب منها في الحكمة معظما، وبإقسامه به على عجيب ما فيه من آياته منبها: ﴿فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦)﴾، والخنس - والله أعلم -: النجوم الخمسة، والقمر والشمس - فمن النجوم الجارية، وجريها: تحريكها في الفلك بأنفسها؛ وخنوس ما خنس منها: رجوعها إذا بلغت الشمس إلى الدرجات التي خلفت من ورائها؛ والخنوس في لسان العرب: الرجوع إلى وراء بعد السير قدما. والخنوس - والعلم عند الله - الذي هو الرجوع بعد الاستقامة -لا يذكر به شيء من النجوم، إلا هذه الخمسة، من: زحل، والمشتري، والمريخ، وعطارد، والزهرة؛

فإن هذه الأنجم الخمسة قدر الله سيرها بالجري والإقبال، حتى إذا جرت في المنازل والبروج، حتى تكون في البروج الذي يواجه برج الشمس، وكادت أن تجتمع هي والشمس -رجعت متحيرة في سيرها، خانسة بالجري والرجوع إلى ما خلفت من ورائها؛ ولكل نجم منها درج معلومة: إذا بلغها وقرب من الشمس -رجع عند بلوغه لها عن الشمس متحيرا خانسا، راجعا إلى ما خلفه مدبرا، حتى يتغيب عن الشمس في الرجوع إلى ما وراءه من البروج.

وهذا المغيب عن الشمس - والله أعلم - فهو: الكنوس؛ وكلما غاب من شيء وتنحى في اللسان العربي -دعي: كانسا؛ تقديرا قدره الله فيها من أحكم التقدير، وتدبيرا منه في سيرها دبره لعجيب من الأمور.

وقد يمكن - والله أعلم - أيضا: أن يكون من الجوار الخنس الكنس - النجوم التي تغيب وتطلع بحساب الأوقات والأزمان، وعلم الحر والبرد والأمطار.

ثم قال تعالى: ﴿والليل إذا عسعس (١٧)﴾، وعسعسة الليل: إدباره، وتوليه عند آخره.

﴿والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩)﴾، وتنفسه: اعتراض الفجر بالضوء عند صدوع نوره. وإقسامه بهذه الأقسام -تنبيه منه تبارك وتعالى على أنها من آياته العظام، ومخرج القسم عند قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم (١٩)﴾ -دلالة أيضا على: ما لجبريل رسوله من الشرف والرفعة والتعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠)﴾، فأخبر عن: قوة جبريل في بنيته، وفضل ما له في الأمور التي قواه عليها من قوته، وعن مكانه منه، وكرمه لديه ومكنته.

ثم قال سبحانه لذكر فضل جبريل عليه السلام مثنيا، وبمكانه منه وكرمه

لديه وقدره عنده مخبرا: ﴿مطاع ثم أمين (٢١)﴾، يعني سبحانه: أن جبريل مطاع ثم، و ﴿ثم﴾ يعني بها: السماء، فهو ثم مطاع، والملائكة له فذو استماع. وهو هنالك الأمين، ومجاب الدعوة عند الله، يعطى ما سأل عند الله؛ فهو الذي لا يخون؛ لأمانته وصدقه وبره، ومنزلته عند الله ومكانته، وهو المجاب المطاع في دعوته.

ثم أتبع الثناء على جبريل: بالثناء على الرسول صلى الله عليه وعلى آله، فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون (٢٢)﴾؛ لما كان المشركون ينسبون إليه من الجنون.

﴿ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣)﴾، يعني سبحانه: رؤية النبي لهذا الرسول الكريم - وهو: جبريل ذي القدرة عند الله العظيم -؛ إذ رأى النبي جبريل صلى الله عليهما بالأفق من السماء، المبين.

﴿وما هو على الغيب بضنين (٢٤)﴾، يعني - والله أعلم -: بمتهم عند الله في سره المغيب، بادعاء باطل ولا تكذيب.

ثم قال تعالى للمشركين مكذبا، فيما كانوا يرمون به النبي عليه السلام ظلما وكذبا، من الأخذ لما يقول عن الشياطين، كما كان يفعل الكهان المبطلون: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥)﴾.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿فأين تذهبون (٢٦)﴾، يعني: فأين تذهبون باهتين كاذبين، في اتباع ظنونكم حائرين ضالين.

ثم أخبر عن هذا الوحي الصادق، والخبر عما نبأ به من أنباء الحشر وغيره، من وحيه إلى رسوله ونبيئه، فقال: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧)﴾، يعني سبحانه: إن هو إلا تذكرة وتذكير للمتذكرين.

ثم قال سبحانه، لا إله إلا هو: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨)﴾، فدل بقوله: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ على: أنه قد أعطى القدرة، والاستطاعة

والقوة، من أمره بالاستقامة من المطيعين، ولو لم يكن أعطاهم المشيئة، ووهب لهم بكرمه منها ما وهبهم، وأعطاهم من العطية -لما قال: ﴿لمن شاء﴾، ولكان القول إنما هو: لمن شئت منكم أن يستقيم.

ثم قال سبحانه: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٢٩)﴾، خبرا منه تعالى عن: أنهم لا يطيعون من قبل أنفسهم، فيشاءون الطاعة، فيكونوا لها مختارين، إلا أن يشاء الله جبرهم على الاستقامة، فيكونوا عليها مجبورين.

والحمد لله رب العالمين، وأصدق الصادقين، الذي يقول الحق، ويحب المحقين؛ وصلى الله على جبريل الأمين، ذي القوة عند ذي العرش المكين، وعلى محمد خاتم النبيئين، وأهله الطاهرين؛ ونستغفر الله [خير الغافرين]، ونعوذ به في هذا التفسير وغيره من سخطه وخذلانه، ونستعينه على فهم الحق والصدق بتوفيقه وتسديده وإلهامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهو رب العرش العظيم.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار: ١١، ١٢]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسئل عن: قول الله سبحانه: ﴿كراما كاتبين(١١) يعلمون ما تفعلون(١٢)﴾؟

فقال: ليس من الآدميين أحد إلا ومعه حافظان من الملائكة، يحفظان عليه الصالح والطالح من قوله وأعماله، أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، كما قال الله عز وجل: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)﴾ [ق].

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون (١٢)﴾؟

فالكرام هم: الملائكة الموكلون ببني آدم، ومعنى ﴿كاتبين﴾ فهو: حفظة، وإنما ضرب لهم بالكتاب مثلا؛ لحفظ الملائكة فعال الخلق؛ فأخبر أن حفظهم في الإحصاء مثل حفظ ما كتب، وأنه لا يزل عنهم شيء ولا أشياء، وأنه في علمهم وحفظهم عندهم كالكتاب المكتوب، يعرفون كل ما يفعله الآدميون؛ والكاتبون فهم: الذين يعلمون كل ما يفعل الآدميون، فهم الذين قال: ﴿عن

اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١٨)﴾ [ق]، وهما: ملكان موكلان بكل إنسان، يحفظان ما يفعل ويحيطان، عن يمينه وشماله قعيدان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)﴾ [الانفطار: ١٦]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، بعد ذكره للآية ما لفظه:

ومن لم يغب من النار فليس منها بخارج، ومن لزمه الفسق والفجور من كان فهو من أهل النار، إلا أن يتوب؛ لقول الله جل ثناؤه: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقوله: ﴿وإن الفجار لفي جحيم (١٤)﴾ [الانفطار].

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت (٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥)﴾:

فانفطار السماء: انصداعها وانفتاقها، وذلك فهو: توهينها وانشقاقها؛ وانفطار السماء - والله أعلم - فمن زلازل القيامة، وزعازع الرجفة. وهذه الدكة عندما يكون في الصور من النفخة، التي صعق بها وبما يكون من شدة هدتها -من في السموات والأرض، إلا من شاء الله.

وحينئذ تنتثر الكواكب، وتفجر البحار، وتبعثر القبور، بجميع رميم العظام؛ فهذا هو اليوم الأكبر الذي لا كالأيام.

وتفجير البحور- والله أعلم - حين ترج الأرض رجا، والرج للأرض هو:

الزعزعة والتحريك، الذي تضطرب به منها الأرجاء، فحينئذ تتفجر منها البحار، ولا يكون لها ثبات ولا قرار.

وحينئذ تعلم كل نفس ما قدمت وأخرت من أعمالها. و ﴿ما قدمت﴾ - والله أعلم – فهو: ما قدمت قبل موتها من حسناتها، وصالح أفعالها. و ﴿ما أخرت﴾ - والعلم عند الله – فهو: توانت عنه وأخرت من طاعة ربها، حتى فاتها بتقديمها بين أيديها، قبل فنائها بالموت وانقلابها، فخلفته وانقطعت الحياة، ولا رجوع لها إليه. وما قدمته النفس فهو: ما قدمه كل امرئ من خير أو شر، قبل انقطاع حياته، وهجوم الموت عليه.

ثم قال سبحانه للإنسان واعظا ومذكرا؛ لما هو عليه من الغفلة عن ذكر ربه؛ إذ كان به مغترا: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦)﴾، يعني سبحانه بقوله: ﴿ما غرك بربك﴾ أي: ما الذي غرك بربك الكريم؟! وكذلك هو: الكريم الذي جل في الكرم عن كل كريم، والحليم الذي جاز حلمه حلم كل حليم، ولي ما بالإنسان من جميع النعم والإحسان، المحتمل له مع فرط الغفلة والعصيان، وطول تماديه فيما هو عليه من السهو عن ذكره والنسيان؛ وهو: ربه وخالقه، ومليكه ورازقه.

وهو - كما قال سبحانه -: الذي خلقه فسواه فعدله، في أي صورة ما شاء ركبه، وكما أراد هيأه ومثله؛ فأي تعديل سبحانه عدل الإنسان مصورا مسويا؟! وأي تركيب ركبه؟! وتوصيل وصل أعضاءه مهيأ؛ فوضع كل عضو من أعضائه في موضعه، وهيأه معتدلا في موقعه؟!

ثم أخبر: أن الناس في غفلتهم عن ذكر خالقهم وربهم، وتماديهم لنسيانه فيما يرتكبون من ذنوبهم -إنما أتوا في ذلك من تكذيبهم بيوم الدين، وهو: يوم الجزاء والديانة لأعمال جميع العالمين.

فأعلمهم سبحانه: أن عليهم شهودا حافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما يفعلون؛ فهؤلاء الحافظون فهم: الملائكة المقربون، وما يكتبون فهو: حفظهم لما يعلمون من الحسنات، وعلمهم الذي ليس فيه نسيان لما يحصون عليهم من جميع السيئات؛ إذ أحفظ الحفظ عند الإنسان هو: الكتاب، والكتاب هو: الثابت من الحفظ، الذي لا يدخله وهم ولا شك ولا ارتياب؛ فمن أحفظ أو أحصى، أو أي شهود أعدل علينا شهادة وأرضى، من ملائكة الله المقربين، وأمنائه الأطيبين، الذين لا ينسون من أفعال الناس التي أمروا بحفظها شيئا، صغيرا ولا كبيرا، ولا يزيدون فيها ولا ينقصون قليلا ولا كثيرا؟! هم أعدل عدلا، وأصدق صدقا، وأفضل فضلا من أن يتقولوا قليلا أو كثيرا باطلا.

فقد يمكن - والله أعلم -: أن يكون حفظهم لأعمال البشر من الخير والشر، وهم في محل كرامتهم من السموات؛ لما أعطاهم الله من فضل القوى على كل الخلق في جميع الحالات، فيعلمون - بتقوية الله لهم، وما أعطاهم من فضل القوة في الإدراك - ما يأتي الناس به من الإساءة والإحسان، ويحفظون حفظا هو الكتاب، الذي لا يدرس ولا يذوى ولا يتغير؛ بما يكون منه من الطاعة والعصيان؛ لأن من عقل وفهم يعلم أن الملائكة في البنية والقوة والاحتمال على خلاف ما عليه الإنسان؛ لأن الملك روحاني لطيف قوي، والإنسان جسماني ضعيف جسدي، ومركب من طبائع مختلفة، والملك مخلوق من طبيعة واحدة لطيفة، ليس في خلقه تضاد بتركيب من الطبائع المختلفات، ولا يشبه الإنسان في جميع الصفات.

وكذلك الملك في فضله، وما ذكرنا من وصفه هذا كله -فيصغر وتقل صفته عند جلال الله، وخلوص وحدانيته؛ لأن الملائكة بعضهم ببعض محيطون، وبعضهم لبعض مدركون، ولهم مناه وحدود؛ فهم محدودون، والله سبحانه ليس بذي حد ولا أجزاء ولا أركان، ولا يحيط به تعالى ملك ولا بشر ولا جان.

وإذا كان البشر لا يدركون الملائكة بمعاينة، وهم خلق مثلهم -فالملائكة في العجز عن إدراك الله كـ: ـهم، ولا يدركه سبحانه أبدا مخلوق، وإن كانت بين خلقه في قواهم وبينهم كلهم فروق؛ فالله سبحانه محتجب عن جميع خلقه، لا يرى في هذه الدار، ولا في الدار الأخرى؛ لعجز بنيتهم كلهم عن إدراكه بلا شك ولا امتراء، بلا حجاب مستور، من ظلام ولا نور؛ ألا ترى أنا معشر بني آدم محجوبون عن المشي على الماء، حجاب عجز قوة، لا سترة عنه ولا غطاء، وكذلك حجب الإنسان لعجز بنيته عن الثبات في الجو والطيران، وكذلك حجبت الجن والملائكة عن أن يخلقوا ويصوروا؛ إذ لم يعطوا القوة على ذلك فيقدروا.

والله سبحانه لا يراه ملك ولا بشر ولا جان، بوهم ولا فكرة ولا عيان؛ ودرك أهل السماء والأرض له -درك إيقان، وعلم بربوبيته تبارك وتعالى وإيمان، غير أن الملائكة لله سبحانه أيقن يقينا، وأشد اتصالا، وأعرف معرفة، وأثبت إيمانا، وأقرب إلى العلم إفهاما، من جميع الناس؛ لما يدخل على الإنسان وهن الفهم والالتباس.

وبعد؛ فنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفا، من تفسير هذه السورة، وإلى ما ذكر الله فيها سبحانه من نعيم أوليائه البررة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم (١٣)﴾، والنعيم فهو: ما هم فيه من التنعيم، بالعيش اللين الناعم الكريم.

﴿وإن الفجار لفي جحيم (١٤) يصلونها يوم الدين (١٥)﴾، والجحيم فهي: النار التي يصلونها يوم الدين، والصلاء في اللسان العربي هاهنا فهو: الكي بالنار والشواء.

ثم أخبر سبحانه عن الفريقين جميعا خبرا، في التخليد لهم فيما هم فيه صادقا قاطعا، فقال: ﴿وما هم عنها بغائبين (١٦)﴾. وفي قوله: ﴿وما هم عنها بغائبين (١٦)﴾ يثبت أنهم جميعا لما هم فيه غير فاقدين؛ المؤمنون غير مقطوع عنهم ما

هم فيه من النعيم، والكافرون فغير مفارقين أبدا لما هم فيه من العذاب الأليم؛ لأنهم لو فقدوه طرفة عين كانوا عنه غائبين، وخبر الله في أنهم [عنه] غير غائبين -خبر صدق وحق ويقين.

يقول الله سبحانه على عظيم يوم الدين دالا موقفا، ولكبر أمره معرفا: ﴿وما أدراك ما يوم الدين (١٧) ثم ما أدراك ما يوم الدين (١٨)﴾، وقد قلنا قبل هذا: إن الله سبحانه إذ قال لنبيئه - مع ما جعل له من قوة العلم في أمره -، في شيء يخبره عنه: ﴿وما أدراك ما﴾ كذا؟ فإنما يدله على كبره، وقد لا يكتفي بذكر ﴿ما أدراك﴾ مرة واحدة، حتى قال ذلك مؤكدا ومكررا، ومرددا ثانية: ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين (١٨)﴾؛ تنبيها منه جل جلاله على فهم ذلك اليوم، وما له من الكبر والعظم؛ لأن الله العظيم الجليل الأعظم لا يستعظم إلا عظيما، ولا يذكر بالكبر والتكبير إلا كبيرا؛ ومتى ما قال تبارك وتعالى:" وما أدراك ... ثم ما أدراك " فهذا فهو: في غاية التوكيد والإفهام لنبيه، على ما ينبغي من الإكبار ليوم الدين والإعظام. وكذلك إذا قال الله سبحانه لنبيئه عليه السلام:" وما أدراك ... ثم ما أدراك " في شيء من عجيب آياته وأمره -فليعلم من سمع ذلك، حيث كان من القرآن: أنه لعظم المذكور وكبره وقدره.

يقول الله سبحانه، وهو يخبر عن هذا اليوم الأكبر المذكور الأعظم: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله (١٩)﴾، وهذا اليوم [هو: اليوم] الذي الأمر فيه والملك لله وحده، لا ينفع فيه ولد والدا، ولا والد ولدا.

فنستعين بالله على أخذ العدة له من طاعته، والتزود إليه خير الزاد، من تقواه وخشيته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونستغفر الله الرحمن الرحيم.

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)﴾ [المطففين: ١٤]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام زيد بن علي عليهما السلام:

حكى إبراهيم بن عبد الله عن أبيه، في قوله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾، قال: اكتسبوا الذنوب. قال عليه السلام: والران: سواد على القلوب حتى ترى المنكر معروفا، والمعروف منكرا، وحتى ترى الحق باطلا، والباطل حقا، وحتى ترى الهدى ضلالا، والظلال هدى.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين: ٢٦]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

التنافس هاهنا: التسابق والتحاسد على الأعمال الصالحة، التي ينال بها مثل هذا الثواب الأبرار المتقون؛ لأن هذا تحاسد وتنافس على طاعة الله، ليس فيه تباغض بين المؤمنين ولا تحاقد، ولا تغادر بحسد كحسد أهل الدنيا، بالتباغض بينهم والأذى، وإنما هو تنافس في الازدياد في طاعة الله؛ لينالوا من ثوابه ما نال الأبرار أهل التقوى.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ويل للمطففين (١)﴾، والمطففون هم: الذين لا يوفون، وينقصون عن الوفاء فيما يعطون، والتطفيف: النقصان عن بلوغ ما يحمله المكيال والميزان، والإيفاء: فإعطاء المكيال ما حمل، وهو في الوزن شبيه بالرجحان.

والمطففون كما قال الله سبحانه: ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٣)﴾، يقول تبارك وتعالى: إذا أخذوا من الناس واكتالوا عليهم - والاكتيال هو: الاكتيال منهم - اجتهدوا في الحمل على المكيال لما حمل فاستوفوا، فإذا كالوهم أو وزنوهم أخسروا ما أمكنهم وطففوا؛ أمرا من الله بالوفاء، ونهيا لكل كائل أو وازن أن يكون مخسرا مطففا؛ إذ لا يحب ولا يرضى إلا العدل والوفاء، وأن يكون كل امرئ من الآخذين والمعطين لصاحبه منصفا. وقد يكون ما نهى عنه سبحانه في هذه، من الإخسار في الكيل والوزن والتطفيف: أمرا منه تعالى بالوفاء في كل ما يتعامل الناس به في الكيل والوزن وغيرهما، وتعريفا لمن طفف وأخسر في كل ما أوجب الله فيه الإنصاف، من كل ما سخط من ذلك، ويكون تحذيرا للعقاب بما ذكر من الويل لهم الذي هو ثقيل العذاب.

ثم قال سبحانه لهم مهددا ومحذرا، ليوم البعث والدين متوعدا: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين (٦) كلا إن كتاب الفجار لفي سجين (٧) وما أدراك ما سجين (٨) كتاب مرقوم (٩) ويل يومئذ للمكذبين (١٠) الذين يكذبون بيوم الدين (١١)﴾، فأعلمهم سبحانه: أنهم لو ظنوا ظنا - فضلا عن أن يكونوا موقنين -، فتوهموا أنهم

مبعوثون ومعاقبون بظلمهم ومحاسبون -لما بخسوا ولا أخسروا، ولا طففوا إذا ظنوا - فضلا عن أن يوقنوا -: أن سيبعثون، ويقومون لرب العالمين ويوقفون.

ثم أخبر تبارك وتعالى خبرا صادقا، ونبأ عن عظيم ذلك اليوم نبأ محققا، وأي يوم أعظم أو أهول أو أكبر من يوم بعثة الله لهم من القبور، ونشر عظامهم بعد إذ كانت رفاتا، وقد مر عليها ما مر من الدهور، مع ما هم يعاينون في ذلك اليوم من عظائم الآيات والأمور، وأي يوم أعظم من يوم عقاب الله فيه لعصاة خلقه بحريق النار، وأي يوم أجل من يوم يثاب فيه من أطاع الله بما تقصر عنه الأوهام، من الجنة ونعيمها الذي أعده لأهل الطاعة الأبرار.

ثم ذكر الفجار، من أهل التطفيف والإخسار، فأخبر أن كتابهم في سجين، والسجين - والله أعلم -: مشتق من السجن، والسجن هو: الحبس والإسار، في أليم العقاب والنار؛ فكتابهم في ذلك، وحكم الله بجزائهم، الذي هو ما كتبه عليهم بسيئاتهم -فهو في سجين، ومصيرهم فإلى عذاب مهين.

وكتابهم - والله أعلم - المرقوم هو: ما عند الله وفي علمه، من حفظ كل ذي ذنب صغير أو كبير ثابت معلوم.

ثم أعلم سبحانه في هذا القصص والنسق: أن الويل للمكذبين، وهم: التاركون لإيفاء الحق، وأنهم لم يبخسوا إلا لشكهم وتكذيبهم بيوم الدين، الذي فيه يجازون، إذا أقيموا لرب العالمين وأوقفوا، وأن المكذبين بيوم الدين هم: هؤلاء وأمثالهم من المتعذبين الآثمين، فقال: ﴿وما يكذب به إلا كل معتد أثيم (١٢) وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا أساطير الأولين (١٣)﴾، استراحة من المكذبين إلى ما ليس لهم فيه راحة، من الشك والتكذيب بيوم الدين، وغرورا منهم لأنفسهم بالنجاة من الجزاء والعذاب الأليم، وقولهم من تكذيبهم إذا تليت عليهم آيات ربهم: أساطير الأولين.

ثم أخبر سبحانه: أنهم عنه يومئذ لمحجوبون؛ وحجابهم: منعهم من ثوابه، وعطائه لأوليائه؛ إذ لا يثابون، وإذ هم مجازون بالعقوبة، مبعدون عن رأفته ورحمته، وسعة جوده يومئذ على أوليائه، وما تضل فيه العقول من عظيم عطائه، فهم عن ذلك كله محجوبون، ومنه - مع كرم الله وجوده - يومئذ ممنوعون؛ فهذا هو الحجاب عن الله بعينه في مفهوم اللسان بأوضح الإيضاح، وأبين البيان. لما منعوا من أشرف جود الله شرفا، وأكبره قدرا، وأعظمه عظيما -جاز أن يقال:" إنهم محجوبون ". وفي ذلك: ما تكون الوجوه الناظرة من الأبرار إلى ربها وثوابه، وصدق ما وعدهم به من وعده ناظرون، ولما بشرهم به ونبأهم من كريم الثواب والنعيم والجزاء منتظرون.

وفي ذلك اليوم: ما يقال للمكذبين حين يبكتون، عند دخولهم الجحيم التي بها يعذبون: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون (١٧)﴾.

قال الله سبحانه في ذكرهم، وذكر ما كانوا عليه من إثم فجورهم: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (١٤) كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (١٥) ثم إنهم لصالوا الجحيم (١٦) ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون (١٧)﴾، والران على قلوبهم فهو - والله أعلم - : غرقها في الذنوب الذي يلزمها ما به وفيه من الله الجزاء بالخذلان؛ لما يجتمع عليها، أو يتراكب من الدنس بران العصيان، الذي يصديها ويسترها، ويكلها فيؤثر فيها، عن الذكر والتفكر في الآخذ بحظها، من طاعة الله خالقها بالتقوى والخير.

ثم ذكر عز وجل الأبرار الموقنين، الذين ليسوا بذوي تطفيف ولا إخسار، فقال سبحانه: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين (١٨)﴾، والعليون - والله أعلم – فهم: العالون في الكتاب الأعلى المكرم، والكتاب هاهنا - والعلم عند الله – فهو: ما كتب الله لهم من الثواب والنعيم في جنته، وما علا به كل محسن منهم، فصار كتابه في العليين، بما قدم من بره وإحسانه.

ثم أخبر أن كتاب الأبرار الذي هو في عليين -كتاب يشهده المقربون، والمقربون – والله أعلم – فهم: الملائكة الأطيبون، الذين هم على كرامة للأبرار شاهدون، عليهم في دار الثواب من أبواب الجنة داخلون.

ثم أخبر سبحانه ببعض ما فيه الأبرار من النعيم، فقال: ﴿وما أدراك ما عليون (١٩) كتاب مرقوم (٢٠) يشهده المقربون (٢١) إن الأبرار لفي نعيم (٢٢) على الأرائك ينظرون (٢٣) تعرف في وجوههم نضرة النعيم (٢٤) يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه مسك﴾، والنضرة في الوجوه فهو: الإشراق والنضارة من ألوانها، بالسرور والبهجة والازدهار؛ بما هي فيه من نعيم الجنة.

ثم ذكر تبارك وتعالى: الرحيق الذي منه يسقون، والرحيق: فاسم من أسماء الخمر الجيد، كانت تسميها به العرب، فسمى الله بها الخمر التي في الجنة؛ فأخبر عن: طيب ريح الرحيق، وأن ختام ما بريحها يجدون، وختام ريحها عند آخر شربها كريح المسك؛ إذ هو أفضل الطيب الذي يعرفون.

ثم قال في نعيم الجنة مرغبا، وعليه محرضا، وإليه داعيا: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٢٦) ومزاجه من تسنيم (٢٧) عينا يشرب بها المقربون (٢٨)﴾، والتنافس: التحاسد، ولم يحسن الله في شيء من أمور الدنيا كلها التحاسد، وإنما حسن سبحانه التحاسد الذي هو التنافس في نعيم الجنة؛ لعظم قدرها، وجلالة فضلها، فهنالك ما يحسن التحاسد لا في هذه الدنيا الفانية، والتنافس عليها، والتسابق في الأعمال الصالحة الموصلة إليها.

ثم ذكر سبحانه: مزاج خمر الجنة من الماء، فذكر: أنه من عين يشرب بها المقربون، سماها: تسنيما، وهذا اسم عال من الأسماء، جعله الله مشرفا مكرما.

ثم رجع القصص في الخبر إلى ما كان عليه أهل الكفر في الدنيا، من

الاستهزاء والتغامز بالمؤمنين: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢)﴾ والفاكهون: الضاحكون، المعجبون المستهزئون. ثم ذكر: أنهم كانوا يقولون في أقواهم، التي هم بها أهل الإيمان مؤذون: ﴿إن هؤلاء لضالون﴾.

يقول الله سبحانه: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فاليوم الذين ءامنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون (٣٥)﴾، يعني - والله أعلم -: أن الكفار لم يرسلوا حفظة على المؤمنين الأبرار.

ثم أخبر سبحانه عن اشتفاء نفوس المؤمنين؛ إذ هم على الأرائك ينظرون، إلى عقوبة الله لأعدائهم من الكافرين، فقال تبارك وتعالى لأهل الإيمان، والطاعة له والإيقان: ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)﴾؛ تعريفا للمؤمنين عند سرورهم ضاحكين: بما أخبر الله به من المعاقبة لأعدائهم من الكافرين، فقال لهم معرفا بنعمته عليهم في شفاء غيظهم ونفوسهم، بمعاقبة من كان في الدنيا يغمزهم ويستخف بهم: ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)﴾، مسألة تعريف من الله للمؤمنين وبشرى، لا مسألة شك ولا امتراء، أي: قد ثوب الكفار إذ عذبوا بعذاب النار ثواب نقمة فيما كانوا يلقون الأبرار.

والحمد لله رب العالمين، الذي لا يرضى بتطفيف المطففين، ولا إخسار المخسرين، الحكم العدل على المؤمنين والكافرين؛ ونعوذ بالله من غضبه، ونستجيره من أليم عذابه، ونستعينه على الائتمار بأمره، ونسأله السلامة من عصيانه وكفره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا وهو رب العرش الكريم.

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣)﴾ [الانشقاق: ٣]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى بن الهادي عليه السلام:

أي بسطت وزيد فيها مثلها؛ لأن السماء والأرض في الطول والعرض سواء؛ وذلك قول الله سبحانه في كتابه: ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا﴾ [الأنبياء:٣٢]، فلما أن كانت السماء على قدر الأرض صارت سقفا لها، ولو كانت السماء أمد من الأرض لكانت على غير الأرض سقفا، وليس شيء بعد الأرض يوقع عليه ولا يقال به، فسماء الآخرة كما ذكر الله سبحانه كعرض السماء والأرض، والأرض فتمد حتى تكون كمثلها كما ذكر الله سبحانه من فعله فيها، وما تصير إليه من حالها.

وقال في المصابيح الساطعة الأنوار عن الإمام المرتضى عليه السلام:

قال المرتضى عليه السلام: معنى ﴿مدت﴾: زيد فيها مثلها، وتفسير إلقاء الأرض - والله أعلم - لما فيها فهو: إخراجها للأبدان - والعلم عند الله -، لمن يبعثه من الموتى الذين صاروا بالدفن وغيره إليها، وإسلامها عند مهدها للأشجار والنبات الذي أنبته الله عليها.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)﴾ [الانشقاق: ٥]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى بن الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿وأذنت لربها وحقت﴾؟

قال محمد بن يحيى عليه السلام: معنى ﴿أذنت لربها﴾ فهو: أذنت بربها، ومعنى " بربها " فهو: أذنت بأمر ربها. ﴿وحقت﴾ فهو: حقوق الأمر بها ووقوعه، وما حكم الله عز وجل به من تغييرها؛ ولما أن كان تغييرها بأمر الله سبحانه -قال: ﴿لربها﴾، كما قال سبحانه: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ [الفجر:٢٢]، وإنما أراد: وجاء أمر ربك مع الملائكة المنفذين له، فقال: جاء ربك، وإنما أراد: أمر ربك.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥)﴾:

فقول الله: ﴿إذا السماء انشقت (١)﴾ هو: خبر منه تعالى عن يوم القيامة، الذي فيه انشقت السماء وحقت.

وقوله سبحانه: ﴿وأذنت لربها وحقت (٢)﴾ فهو: سمعت لربها وأطاعت. وقوله: ﴿وحقت﴾ - والله أعلم - عند من يسمع اللسان العربي فيفهم إنما هو: أن السماء حل بها من الله ما شقها، فأصابها بعينها وحقها.

وكذلك قول الله أيضا في الأرض: ﴿أذنت لربها وحقت (٥)﴾ فإنما تفسيره: حل بالأرض أمر الله، فأصابها وحقها، فحينئذ مدت ودكت، ومدها - والله أعلم -: رفعها حين رفعت فحملت.

يقول الله سبحانه: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه (٦)﴾، تفسير الكدح: ما يكسب الإنسان من الخير والشر الذي يجازى عليه، والكدح من الأفعال عند جميع أهل اللسان والعرب -فهو: ما يكون من

الإنسان في الخير والشر من الاكتساب.

ومخرج الخبر من الله سبحانه في هذه السورة عن: يوم انشقاق السماء، ومد الأرض، عند قوله سبحانه في هذه الآية: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه (٧) فسوف يحاسب حسابا يسيرا (٨)﴾، وتفسير الحساب اليسير - والله أعلم – فهو: الغفران للمؤمنين من الله الغفور، وتفسير - والله أعلم - قول الله ﴿من أوتي كتابه بيمينه﴾ فهو فيما نرى - والعلم عند الله -: من عنى من المؤمنين، بما كتب الله عليه في دينه. ﴿أوتي كتابه﴾ الذي هو حسابه ﴿بيمينه﴾، واليمين - والله أعلم - وتفسيرها: اليسر والتيسير عند من يفهم؛ لأن ميامن الأشياء وأيمانها أيسر يسرا من الشمائل والظهور، التي إذا جاءت الأشياء منها كانت أشد على الإنسان في التناول، وأعسر عسرا، فكان قول الله سبحانه: ﴿بيمينه﴾ هو: مثل ضربه الله - والله أعلم - لمن اتقى في دينه، يدل على أن المتقين في يوم القيامة تأتيهم كتبهم - التي هي - والعلم عند الله -: علم الله بأعمالهم، الذي هو: محاسبتهم - من اليمين التي معناها: اليسر والبركة، فيكون أمرهم كلهم وفعلهم في اليمين، واليمين والميمنة، التي ينجون بها من الهلكة.

والعاصون فتأتيهم كتبهم - والله أعلم -، التي معناها: العلم بأعمالهم، وحساب أفعالهم -من الشمال؛ إذ هم في ذلك اليوم وأفعالهم في الشمال والشؤم، الذي هي المشأمة؛ بعصيانهم وضلالهم؛ بكتابهم الذي يأتيهم من وراء الظهور منهم؛ فهو: ما يأتيهم - والله أعلم - وراء الظهور، الذي هو: عملهم وحسابهم من العسر عليهم والتعسير.

وإن يكن الكتاب: بشرى للمؤمنين، بكتاب يعطاه المؤمن يبشر فيه بالجنة والرحمة، التي جعلها الله جزاءه، وكتابا يعطاه العصاة الكافرون، يبشرون فيه بما أوعدهم الله على كفرهم وعصيانهم من النار -فذلك أيضا وجه ممكن مفهوم، وبالله يرجى الهدى إلى كل صواب في جميع الأمور.

ثم أخبر سبحانه عن الذين أوتوا الكتاب بأيمانهم: أنهم يحاسبون حسابا يسيرا، وينقلبون إلى أهليهم في الجنة مسرورين، وأن الذين أوتوا كتبهم وراء ظهورهم فسوف يدعون ثبورا، ويصلون سعيرا. يعني سبحانه بالسعير: النار التي يدخلها الكافرون، والثبور فتفسيرها: الويل عندما يعاينون من الخزي الطويل؛ نعوذ بالله من عذابه ومعصيته، ونسأله العون على العمل بما ينجو به من طاعته.

يقول الله سبحانه: ﴿إنه كان في أهله مسرورا (١٣)﴾، يعني: العاصي الذي أوتي كتابه وراء ظهره.

قال الله سبحانه: ﴿إنه ظن أن لن يحور (١٤)﴾، تفسيره - والله أعلم - في " يحور "؛ إذ الحوران في اللسان العربي: الرجوع من الراجع بالدورة -هو: أن الكافر ظن أن لن يرجع إلى ربه، وقد أحياه ونشره كما وعده من القبور.

يقول الله سبحانه: ﴿بلى إن ربه كان به بصيرا (١٥)﴾، يعني تبارك وتعالى بقوله: ﴿بلى﴾: أن الإنسان سيبعث حيا بعد التمزق والبلى، والله سبحانه فهو البصير بالإنسان وغيره من خلقه، المجازي للمطيعين والعاصين من عباده، بعدل حكمه وحقه.

ثم قال سبحانه: ﴿فلا أقسم بالشفق (١٦) والليل وما وسق (١٧) والقمر إذا اتسق (١٨)﴾، فأقسم بهذه الأقسام؛ لما فيها من عجيب آيات الله العظام. ﴿والليل وما وسق (١٧)﴾، وتفسير ﴿وسق﴾ فيه هو: كلما كفت الليل من الخلق عند وقوعه عليه. ﴿والقمر إذا اتسق (١٨)﴾، واتساق القمر هو: تمام نوره، وما يكون من استدارته واتساقه، بعد ذهاب نوره في آخر الشهر وامتحاقه.

يقول سبحانه: ﴿لتركبن طبقا عن طبق (١٩)﴾، والطبق - والله أعلم – هو:

ما ينتقل فيه بالبشر الحالات، من الحياة الدنيا التي هم فيها، ثم ما يصيرون إليه من الذهاب والمهات، ثم ما يصيرهم الله إليه من البعث والنشور، بعد البلى في القبور.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون (٢٠) وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون (٢١)﴾.

ثم أخبر سبحانه بالعلة التي أهلكوا بها، فتركوا الإيمان: أنها ما شقوا به من التكذيب وقلة الإيقان، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿بل الذين كفروا يكذبون (٢٢) والله أعلم بما يوعون (٢٣)﴾، يقول الله سبحانه: أعلم بما هم له يسرون.

ثم أخبر تعالى: بجزائه لهم، على تكذيبهم بالمعاقبة، وقال لنبيئه: ﴿فبشرهم بعذاب أليم (٢٤) إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)﴾، يخبر سبحانه: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من العذاب الأليم ناجون، وأن لهم أجرا غير ممنون.

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]

قال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿بل هو قرآن مجيد (٢١) في لوح محفوظ (٢٢)﴾؟

والقرآن فهو: القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وآله، والمجيد فهو: الكريم العظيم، واللوح المحفوظ فهو: العلم المكنون، و﴿محفوظ﴾ فهو: الذي لا يزل منه قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير، قد أتقن حفظه، وأحصى عدده، لا يزل منه زال، ولا يشتبه منه مشتبه؛ فأخبر سبحانه أنه كذلك في علمه: محفوظ معلوم.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والسماء ذات البروج (١) واليوم الموعود (٢) وشاهد ومشهود (٣)﴾، فهذه: إقسام من الله سبحانه بالسماء وبروجها؛ لما في ذلك من عظيم الآيات وعجيبها.

واليوم الموعود فهو: يوم القيامة والحشر، الذي وعد الله به جميع البشر؛ ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وليجازي كل امرئ من المطيعين والعاصين بما كانوا يعملون.

﴿وشاهد ومشهود (٣)﴾ فيشبه - والله أعلم - أن يكون الشاهد: من يعاين ويشهد، ويحضر يومئذ من البشر ما كان يوعد به من المجازاة على الخير والشر. والمشهود فيمكن - والله أعلم - أن يكون: ما يعاين ويرى ويشاهد، من صدق الخبر في الجنة والنار، اللتين جاءت فيهما عن الله سبحانه البشرى والنذرى؛ فبشر الله بالجنة في الدنيا عباده المؤمنين، وجاءت النذر والوعيد بالنار وعذابها إلى جميع الكفرة والعاصين.

وقد يمكن - والله أعلم -، ولا ينكر عند من ينظر ويفهم: أن يكون المشهود هم: المشهود عليهم، الذين أوصلت الأنبياء حجج الله إليهم.

ويخرج هذا القسم - والله أعلم- عند قوله سبحانه: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق (١٠)﴾.

وأما قوله تبارك وتعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود (٤) النار ذات الوقود (٥) إذ هم عليها قعود (٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (٧)﴾، فقد جاء فيما جاء من الأخبار: أن أصحاب الأخدود قوم من الكفار، كانوا عذبوا نفرا من المؤمنين، وفتنوهم بحريق النار؛ والأخدود: فالحفر التي حفرها العصاة الكفرة، فأوقدوا فيها النار ذات الوقود؛ والوقود: فاللهب، وكذلك تسمى كل نار التهبت، والعرب فلا يسمون النار وقودا إلا عند التهابها واضطرامها، وذلك معروف في لسان العرب، عند خواصها وعوامها.

يقول الله سبحانه: ﴿إذ هم عليها قعود (٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (٧)﴾؛ لعظيم ما ركبوا من تحريق المؤمنين؛ وأي أمر أعظم من أن يكون من كفر وأجرم قاعدا على أخدود من وقود النار، يحرق فيها أولياء الله المؤمنين

الأبرار؟! فيمهلهم الله سبحانه في حياة الدنيا مدة يسيرة، ويستدرجهم فيؤخرهم أياما قصيرة، ثم يعاقبهم بما فعلوا بالمؤمنين أشد العقوبة في الآخرة، فيدخلهم نار جهنم خالدين فيها أبدا، ويحرقهم بحريق جهنم تحريقا دائما سرمدا بقدرته سبحانه عليهم.

ولما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة الذي يخزيهم، ويعطي الله المؤمنين من جزيل مثوبته، والفوز الدائم، والخلد في نعيم جنته -أكثر مما يتمنون، يقول الله سبحانه: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٨) الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد (٩) إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق (١٠)﴾، يخبر سبحانه: أن الكفرة الظالمين إنما عذبوا في الأخدود المؤمنين، على غير أمر من الأمور، [ما] نقموا عليهم إلا إيمانهم بالله خالقهم وبارئهم.

يقول الله سبحانه: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير (١١)﴾؛ تسلية لعباده المؤمنين، عما يلقون من المحن من العصاة الكافرين، وبشرى منه سبحانه لهم بالثواب الكريم، وما يصيرون إليه من النعيم، الخالد الدائم الثابت المقيم.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد (١٢) إنه هو يبدئ ويعيد (١٣) وهو الغفور الودود (١٤) ذو العرش المجيد (١٥) فعال لما يريد (١٦)﴾، يخبر تبارك وتعالى: أنه سيبطش البطش الشديد بأعداء عباده المؤمنين، وأنه سينتقم لهم منهم أعظم النقمة بالعذاب الدائم الأليم.

ثم دل سبحانه على قدرته عليهم: بأنه الله ربهم، ومعيدهم وبارئهم.

ثم أخبر تبارك وتعالى بأنه الغفور الودود؛ وكذلك ربنا وسيدنا ومولانا في عفوه عنا، مع طول غفلتنا، وتغمده إيانا: فالغفور الذي لا يغفر مغفرته غافر،

والودود: فالمودة منه والرحمة التي لا يرحمها راحم.

وهو الله ذو العرش المجيد، والمجيد في لسان العرب: الجواد الماجد، ذو العطايا والإحسان والمحامد؛ وكذلك الله سبحانه: فالمجيد الذي لا يبلغ مجده ماجد، وولي جميع ما بين الأرض والسماء من الخير والعطايا والمحامد.

وهو الله الفعال لما يريد، كل شيء أراده بمقدرته عليه القدرة التي تفوت كل قدرة، سبحانه لا إله إلا هو خالق الدنيا والآخرة.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود (١٧) فرعون وثمود (١٨)﴾، والجنود: الجموع الكثيرة؛ خبرا منه سبحانه عمن أهلك بالمعصية، من هذه الأمم العصاة الكفرة؛ إذ كانوا في العدد أكثر كثرة، وأعظم في دنياهم جدة وقدرة، ممن كان في أيام محمد رسول الله عليه السلام، من أعدائه الكفرة، فلم تدفع عنهم جنودهم ودنياهم، حين أحل الله سبحانه عقوبته بهم فأفناهم.

يقول الله سبحانه: ﴿بل الذين كفروا في تكذيب (١٩)﴾، يعني تبارك وتعالى: من كان في أيام محمد من كفرة قريش والعرب -في تكذيب.

قال الله العليم الحكيم: ﴿والله من ورائهم محيط (٢٠) بل هو قرآن مجيد (٢١)﴾، والمجيد فهو: الممدوح الكريم المحمود.

﴿في لوح محفوظ (٢٢)﴾، واللوح هاهنا: مثل من الأمثال، يفهمه من يعقل إن شاء الله تعالى من أولي الألباب، وإنما أراد الله بذلك - والله أعلم -: أن القرآن محفوظ ثابت كحفظ ما في اللوح من أن يزاد فيه أو ينقص منه؛ ألا ترى كيف يقول تبارك وتعالى في خبره عنه: ﴿محفوظ﴾، وما حفظه الله فهو المحفوظ الحفظ الحريز، الممنوع من أن يلم به ضياع بمنع القوي العزيز.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم النبيئين، وعلى أهل بيته الطيبين، وسلم تسليما.

سورة الطارق

هذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿والسماء والطارق (١)﴾: لما ذكر الله سبحانه من القسم سماءه -فلما فيها من عظيم آياته؛ إذ هي على ما جعلها الله عليه من عجيب الصفات، في العظم والكبر والاستقلال بغير عمد، وما فيها من عظيم الآيات، بما قدر الله فيها وبها من جري النجوم الجاريات، وما جعل الله بها من الحر والبرد، وعلم السنين والحساب والأوقات. و ﴿الطارق﴾ فهو: النجم ذو الذنب، الذي يرى ليلا، ويطرق في الحين الطويل؛ فقد رأيتموه ورأيناه مرة بعد مرة. وإنما قيل له الطارق - والله أعلم -: لأنه لا يرى إلا بالليل، والعرب تسمي ما جاء من الأشياء ورئي ليلا: آتيا وطارقا؛ وهذا النجم يرى في الزمان بعد الزمان، ليلا غربيا ومشرقا. وإنما جعله الله قسما: لعلمه بما فيه من أسرار الآيات.

يقول الله فيه سبحانه عالم الخفيات: ﴿وما أدراك ما الطارق (٢) النجم الثاقب (٣)﴾، والثاقب فهو: الذي يبين نوره ويثقب؛ وفي مثل هذا من أمر النجم العجب العجيب. وإذا قال الله تعالى في شيء من عجيب آياته وأمره:" وما أدراك ... ثم ما أدراك " -فليعلم من سمع: أن ذلك لعظم المذكور وكبر قدره.

ومخرج القسم من الله سبحانه بالسماء والطارق في: قوله تعالى: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ (٤)﴾، وتفسير: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ (٤)﴾ هو: إن كل نفس لما عليها حافظ يحفظ أعمالها، ويحصي عليها ألفاظها وأقوالها.

ثم نبه الله سبحانه الإنسان على: أن ينظر في العجيب من آياته، وفي ما يدله

على قدرة الله وربوبيته؛ إذ يقول سبحانه: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦)﴾، والماء الدافق فهو: النطفة المندفقة من الإنسان عند إمنائه، والدافق فهو: الماء المنصب دفعة واحدة، ودفقة المندفق؛ وأي آية أعجب أو تعجب -أكبر وأصوب من خلق الإنسان من أضعف الأشياء وأوهنها، وأقلها قوة وأمهنها، فجعله على ما جعله عليه مخلوقا من الماء الميت المهين؛ فتبارك ذو الحكمة وأحسن الخالقين، فأنشأه من الماء المهين، فإذا هو خصيم مبين -حيا ناطقا مفكرا، قائما قاعدا، مقبلا مدبرا؛ يقول الله سبحانه: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٧٦)﴾ [يس] .

وأما تفسير قوله سبحانه: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب (٧)﴾ فإنه قد قيل: إن الماء الذي يخلق منه الإنسان يكون من الرجل والمرأة، فأما ماء الرجل فيجيء ويخرج من صلبه، وأما ماء المرأة فمنشؤه ومجيئه من ترائبها؛ فسبحان الله ذي القدرة.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إنه على رجعه لقادر (٨)﴾، وتفسير ذلك - والله أعلم سبحانه -: أنه إذا خلقه من الماء المهين الدافق، ونقله في الخلق تارة بعد تارة -قادر على أن يرجعه بعد موته وبلائه بأقدر المقدرة.

ثم أخبر متى يرجعه، ويحييه وينشره، فيجدد بدنه بعد البلاء وينشئه، فقال: ﴿يوم تبلى السرائر (٩)﴾، وهو: يوم القيامة الذي تبلى فيه كل سريرة، ويكشف فيه ما كان يستر في الدنيا كل مستوره.

يقول الله سبحانه: ﴿فما له من قوة ولا ناصر (١٠)﴾، يعني سبحانه: فما للإنسان يومئذ في دفاع المعاقبة بعمله، والجزاء له عن سيئ أفعاله، من قوة يدفع بها ذلك عن نفسه، ولا ناصر ينصره من قريب ولا عشير؛ فيلجأ إلى نصرته.

ثم قال سبحانه: ﴿والسماء ذات الرجع (١١) والأرض ذات الصدع

(١٢)﴾، فالرجع من السماء - والله أعلم -: دوران فلكها ذاهبا تحت الأرض، وراجعا من فوقها؛ والله أعلم فيما نظن هو: الرجع من السماء بعينه، وذلك: فمفهوم فيها، عند الفكرة فيه وتبيينه.

والصدع من الأرض فهو: انفراج منها وفيها، وقد يكون ذلك: لما يتصدع عنه من عجيب النبات والأشجار، التي يظهرها الله عليها، ويمكن أن يكون ذلك: صدعا من الصدوع لا يراه الناس، في بعض أطرافها ونواحيها؛ لأمر قدره الله من أمورها؛ فذكر الله ذلك الصدع؛ لعظم ما فيه من الآيات وكبرها.

يقول الله سبحانه بعد هذا القسم، وبعد ما دل عليه في السماء ورجعها، والأرض وصدعها -من عجيب الآيات والحكم: ﴿إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤)﴾، يقول سبحانه: هذا القول، وما جاء به من الخبر الذي ذكره في هذه السورة، وما أخبر به من وحيه في جميع السور -لقول فصل، وما هو بالهزل. والفصل - والله أعلم – فهو: الفرقان والبرهان، الفاصل بين قوة الحق وضعف الباطل. والهزل من الأخبار فهو: الزور.

ثم قال سبحانه: ﴿إنهم يكيدون كيدا (١٥) وأكيد كيدا (١٦)﴾، وتفسير الكيد: الإرادة للأمر؛ فهم يريدون أمرا، ويريد الله سبحانه أمرا، وإرادة الله النافذة الغالبة، وهو أقدر تعالى وأقهر قهرا؛ لأن إرادته الغالبة غالبة لإرادة كل مريد، وكيده سبحانه أبدا فهو: الذي يهلك معه ويتمزق كيد كل ذي كيد.

ثم قال سبحانه لنبيئه صلى الله عليه وآله، وهو يخبر لما يصير الكافرون بعد المهل من العقاب إليه: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (١٧)﴾، والرويد فهو: القليل، وقول الله سبحانه: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (١٧)﴾ أشد ما يكون من الوعيد بالعقاب، وأرعبه وعيدا؛ فنستغفر الله لنا ولكم من طول الحيرة في الحائرين، ونسأله أن يجعلنا بالأعمال الصالحة لوعيده حذرين، وحسبنا الله ونعم الوكيل؛ عليه توكلنا، وهو رب العرش العظيم.

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)﴾[الأعلى: ١٤]

قال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام:

يقول: قد أفلح من تزكى، أي: قد أفلح من زكى نفسه بالطاعة لله فزكى، وخافه في معاده فآمن به، ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾، وأطاع الله سبحانه، واتبع أمره، وأتقى وجنب عن معاصيه، وراقبه في نهيه له فانتهى.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سبح اسم ربك الأعلى (١)﴾، فتأويل ﴿سبح﴾ - والله أعلم تبارك وتعالى -: بعد اسم ربك ونزهه عما يصفه به المشركون، وتقول به من الكذب عليه العماة الذين لا يعقلون، من الإلحاد في أسمائه وصفاته، والكفر لنعمه، والعمى عن حجته وآياته.

ثم قال سبحانه: ﴿الذي خلق فسوى (٢)﴾، وكذلك الله تبارك وتعالى: خالق كل مخلوق بأحسن التعديل والتسوية، وواضع كل ما صور في خلقه من الصور في مواضعها بأحسن التقدير والتهيئة.

ثم قال سبحانه: ﴿والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥)﴾؛ فالله سبحانه الذي قدر الأشياء كلها على أحسن المقادير،

وهدى إلي كل رشد في دين أو دنيا وصواب، ودل على كل بركة وخير، وهو الذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحوى؛ والمرعى فهو: الرعي الذي ترتعيه بهيمة الأنعام، التي جعلها الله منافع لبني آدم؛ يقول الله ذو الجلال والإكرام: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)﴾ [يس]. وقال سبحانه وهو يذكر نعمته على البشر، بما جعل في الأرض من المعايش لهم، وإحسانه تعالى إليهم، وبما كفاهم من أرزاق ما أعطاهم، من بهيمة الأنعام وخولهم، فقال: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (٢٠)﴾ [الحجر]، وما ذكر سبحانه من شبه الرعي إذا خرج وبدا -بما هو له شبيه من خفيف الغثاء، والغثاء: القذى الصغار الخفاف الذي على السيل إذا جرى، والأحوى فهو: الأصفر من أطرافه، وكذلك الرعي فهو يخرج إذا بدا، بنبت أصفر من جوانب ورقه، والعرب تدعو الشاة إذا كان خداها أصفرين: حوى، وهم على هذا في اللسان مجتمعون غير مختلفين.

ثم قال سبحانه: ﴿سنقرئك فلا تنسى (٦)﴾، وتفسير ﴿سنقرئك﴾ - والله أعلم -: سنعلمك القرآن، ونقص عليك فيه العلوم والأخبار. ﴿فلا تنسى﴾ أي: فلا تكن ناسيا؛ أمرا منه سبحانه لنبيئه بأن يكون ذاكرا، لا غافلا ولا متوانيا.

يقول الله سبحانه: ﴿إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧)﴾؛ إخبارا عن قدرته على أن ينسي إن شاء الله من خلقه ما أراد أن ينسيه، ولا يكون ذلك إلا بأمر وعلة من العلل؛ لحكمة الله وعدله يوجب ذلك عليه. والله - كما قال سبحانه الذي يعلم جهر من جهر، وسر من أسر.

ثم قال سبحانه: ﴿ونيسرك لليسرى (٨)﴾؛ تبشيرا منه تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله بأنه سييسره لكل يسر ويسرى، في دينه ودنياه وما يرتضيه.

ثم أمره سبحانه بالتذكير للعباد بما أمره بتذكيرهم به من نعمه وآياته، والمرجع إليه والمعاد، فقال: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى (٩)﴾، يقول سبحانه: إن نفعت الذكرى فيهم؛ لما هم عليه من غفلتهم ومعاصيهم.

ثم أخبر بمن يصير إلى التذكر الذي هو الذكر، فأخبر: أنه من خشي من خلقه واتقى، وأن الذي يتجنب الذكرى -هو من خلقه: الأشقى؛ فأخبر: أن الأشقى الذي لا يصير إلى الذكرى -هو: الذي يصلى النار الكبرى، والنار الكبرى: نار جهنم التي لا يشبهها نار من النيران في العظم، والتي هي أبدا تلهب وتضطرم؛ نسأل الله بعفوه ورحمته: أن يعيذنا وإياكم عنها، وأن يسلمنا بمنه وفضله، ويسلمكم منها.

قال الله سبحانه وهو يذكر من يصلى النار الكبرى: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى (١٣)﴾، وكذلك من كان في تلك النار من الكفرة: فليس بميت ولا حي؛ لأنه من حريقها - نعوذ بالله منها - وعذابها في أخزى الخزي، ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ [فاطر: ٣٦]، فينقطع عنه ما هو فيه؛ بل العذاب في النار والخزي والهوان دائم عليه، فليست حياته فيها بحياة؛ إذ لم يكن له فيها إلا العذاب الذي أخزاه.

يقول الله سبحانه: ﴿قد أفلح من تزكى (١٤) وذكر اسم ربه فصلى (١٥)﴾، وهذا من القول والخبر -صدق مفهوم المعنى.

ثم أخبر سبحانه بأثرة من يؤثر الحياة الدنيا، التي تنقضي وشيكا وتفنى، على دار الآخرة التي ليس للحياة فيها غاية ولا انقضاء، كل من فيها فمخلد من المطيعين والعاصين في داره، إن كان من أهل الجنة ففي الجنة، أو من أهل النار ففي النار، فقال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى (١٧)﴾.

﴿إن هذا لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩)﴾،

يقول سبحانه: ﴿إن هذا﴾ من الخبر عن إفلاح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى ﴿لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩)﴾.

سورة الغاشية

هذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿هل أتاك حديث الغاشية (١)﴾، والغاشية: الساعة من يوم القيامة، المنتظرة الجائية، التي تغشى الناس بغتة وهم عنها غافلون، ولا يعلم وقت مجيئها وغشيانها إلا الله رب العالمين. وحديث الغاشية -فيما ذكر الله من أمرها، وإتيانها وخبرها، وما يكون فيها من البعث والحساب، وما أخبر به سبحانه من الثواب والعقاب، ومن حديث الغاشية: ما ذكر الله في هذه السورة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة (٢) عاملة ناصبة (٣)﴾، وما أخبر فيها عن الوجوه الناعمة، والوجوه يومئذ الخاشعة فهي: الوجوه الذليلة بعصيانها الخاشعة. والعاملة الناصبة فهي: التعبة المكروبة الدائبة، التي قد أعملها كرب العذاب والنار وأتعبها، فهي مشغولة مفدوحة، بعذابها دائبة؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿تصلى نارا حامية (٤)﴾.

ثم قال تعالى: ﴿تسقى من عين آنية (٥)﴾، وتفسير الآنية هي: النار الحامية؛ فمن أعمل أو أشغل، أو أدأب أو أكرب، أو أنصب ممن أنصبه وأعمله، وشغله كرب العذاب والنار، وما يشرب من العين الآنية، من الماء الحميم الحار.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع (٦) لا يسمن ولا يغني من جوع (٧)﴾، والضريع في لسان العرب فهو: اليابس الضارع من الشجر، والضارع في اللسان – فاعلم – من الأشياء فهو: النحيف اليابس الذي ليس بذي لين ولا ارتواء، تقول العرب لما يبس من شجرة خشناء تدعى " الشبرق "،

إذا يبست وأكلت، وذهبت رطوبتها ولينها وعادت عيدانا يابسة وشوكا وذبلت: " رأينا في أرض كذا وكذا ضريعا من شبرق، يابسا مكدودا "، والضريع فمعناه: اليابس القاحل الخشن، الذي ليس برطب ولا لين، فهو لا يزيد كل بدن أكله إلا يبسا وعجفا ونحافة، وهزالا وخشنة وجفوفا؛ فنعوذ بالله الرحمن الرحيم، من عذاب النار وأكل الضريع والزقوم.

ثم ذكر سبحانه: أهل الطاعة والتقوى، الذين صاروا بسعيهم في رضوانه إلى أرضى الرضى، فقال فيهم تبارك وتعالى: ﴿وجوه يومئذ ناعمة (٨)﴾، والناعمة فهي: الحسنة الألوان والأسباب، ذات البهجة والنضرة والبهاء والازدهار، التي قد رضيت ما كان من سعيها في دار الدنيا، لما رأت ما أثابها الله به من النعيم في جنة الخلد والبقاء، قال سبحانه وهو يذكر في هذه السورة بعض صفات أوليائه في الآخرة: ﴿وجوه يومئذ ناعمة (٨)﴾.

ثم أخبر سبحانه بما نعمت فيه من الثواب والكرامة، فقال: ﴿في جنة عالية (١٠)﴾، وتفسير العالية: المرتفعة السامية.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لا تسمع فيها لاغية (١١)﴾، وتأويل ما ذكر الله سبحانه من اللاغية فهي: الكلمة القبيحة المشينة، يخبر سبحانه: أن أولياءه لا يسمعون في الجنة لغوا ولا كلاما، ممقوتا مؤذيا؛ قال الله سبحانه: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما (٢٥) إلا قيلا سلاما سلاما (٢٦)﴾ [الواقعة].

وأما قوله سبحانه: ﴿فيها عين جارية (١٢)﴾، فالعين قد يمكن أن تكون: العيون الكثيرة؛ لأنه قال سبحانه في موضع آخر من كتابه: ﴿إن المتقين في جنات وعيون (٤٥)﴾ [الحجر]، وقد يدعى الجميع باسم الواحد في اللسان، وقد قال: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧)﴾ [الفجر]، و﴿يا أيها الإنسان﴾ [الانفطار: ٦، الانشقاق: ٦].

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿فيها سرر مرفوعة (١٣)﴾، السرر المرفوعة فهي: المستقلة المرتفعة، وتلك أحسن ما يكون من السرر هيئة وصنعة.

ثم قال سبحانه: ﴿وأكواب موضوعة (١٤)﴾، يعني سبحانه: أنها مهيآت منتشرة، موضوعة حاضرة.

ثم قال: ﴿ونمارق مصفوفة (١٥)﴾، وتأويل ما ذكر الله من النمارق المصفوفة فهو: المطابقة المعتدلة المصفوفة، وذلك من وصفها وهيآتها -أحسن ما تكون عليه من صفاتها.

﴿وزرابي مبثوثة (١٦)﴾ فهي: الكثيرة المبددة، وذلك من أحسن وضع الزرابي خاصة.

ثم قال سبحانه وهو ينبه على الفكرة في آياته، والاستدلال على وحدانيته وحكمته، بما خلق في أرضه وسماواته، حين يقول تبارك وتعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠)﴾، فكل ما ذكر الله سبحانه من هذا كله -فمن عجيب آياته وفعله، ومن الدلائل على قدرته ووحدانيته وحكمته، تدل كل من فكر ونظر فيه، ورمى ببصره متأملا إليه -على أن صانعه في الكبرياء والقدرة والجلال -الله الذي لا يشبهه شيء، ولا يمثل بأمثال؛ فأي عجب أعجب، ودليل على قدرة الله أقرب: مما يرى من رفع السماء في موضعها، وما هي عليه من استقلالها ورفعها بغير عمد، ثابتة لا تزول، وهي من الكبر والعظم على ما تحار فيه العقول، مع ما فيها من الآيات، من الشمس والقمر والنجوم المضيئات، وما قدر الله من مسير الشمس والقمر، من علم عدد السنين والحساب والأوقات، والليالي والأيام والحر والبرد والساعات؟!

وما ذكر الله سبحانه من خلق الإبل -فعجب عجيب، إذا نظر فيه المفكر

اللبيب؛ لما جعلها الله سبحانه عليه من عظيم الخلق، وشدة أسر الأوصال، وما كفى الله بها الناس، من حمل فادح الأثقال، وما جعلها عليه - من قوتها وشدتها - من السخرة والتذلل، وجعل فيها من الجمال، وبلوغ الحاجة والسفر البعيد؛ قال الله ذو الجلال والإكرام، وهو يذكر ما جعل من النعمة في الأنعام: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧)﴾ [النحل]، فهي كما قال سبحانه: تحمل من الأثقال، وتطيق من كبار الأحمال -ما لا يحمل غيرها من الدواب التي جعلها سخرة للركوب والأسفار؛ فسبحان الكريم الرحمن الجبار. وأي دليل أدل على ما ذكر الله سبحانه في تسخيره، مما هي عليه من الذلة، مع عظم خلقها، وشدة أسرها، وما يدل عليه من غلبتها الكبير من الدواب والحيوان، [و]لما هو أشد أضعافا من الإنسان؟! فمن يرى الإبل وتسخيرها وأمرها: إلا علم أنها لم تذل فنقوى عليها، إلا بتذليل الله وتسخيرها، فأمن الإنسان من مغالبتها، وقهر صيالها وشدتها، ولولا تسخير الله لها ما كان الناس لها مقرنين؛ فسبحان الله وبحمده الرؤوف الرحيم.

وقد زعم بعض من الجهال، ومن لا يعرف ما نزل الله به من القرآن في عربي اللسان: أن الإبل التي ذكرت غيم السحاب.

وهذا لا يحتاج لقائله - لانكشاف جهله - إلى جواب؛ والحمد لله رب العالمين كثيرا، الذي ذلل الأنعام وسخرها تسخيرا.

وما ذكر الله سبحانه من الجبال ونصبها -فمن دلائل آيات الله وعجائبها؛ إذ الجبال في كبرها، وعظمها وثقلها، التي فاقت فيه جميع ما في الأرض كلها -أشد ما في الأرض علوا وانتصابا، وأرفعه في الجو سموا وذهابا؛ فمن فهم وفكر، فعقل وأبصر -علم أن الجبل في عظم أسرها، وثقلها وقوتها في ذلك لجميع ما في

الأرض كلها -لم تستقل منتصبة، ولم تثبت منذ كونت فيها راسية، إلا بالله الذي أمسكها وقوته، وما أقلها وأثبتها من قدرته؛ فسبحان من نصبها في جو السماء، مع ما هي عليه من عظمها وثقلها، وجعل فيها - مع شدتها وصعوبتها - ما جعل من فجاج سبلها، التي جعلها مسالك ذللها طرقا لمن سلكها من أهلها.

وما ذكر الله سبحانه من سطح الأرض، الذي تفسيره: ما جعلها عليها من الدحو والسعة والعرض -فعجب عجيب من الآيات، ودلالة منيرة على قدرته من الدلالات.

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمصيطر (٢٢)﴾، وتفسير هذا - والله أعلم -: أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وآله أن يذكرهم بالله وآياته، وبما أمر به من طاعته، والانتهاء عن معصيته، وما وعد على الطاعة من مثوبته، وبما توعد به أهل المعصية من أليم عقوبته.

وتأويل: ﴿لست عليهم بمصيطر (٢٢)﴾ هو: أن النبي صلى الله عليه وآله لم يؤمر بتسطير حسابهم، وأن حسابهم إلى الله خالقهم وربهم.

فأما قول الله تبارك وتعالى: ﴿إلا من تولى وكفر (٢٣) فيعذبه الله العذاب الأكبر (٢٤)﴾، فيفهم تأويله بقوله: ﴿فذكر إنما أنت مذكر (٢١)﴾، كأن تفسير ذلك: أنه إذا ذكر فسيذكر من تذكر، إلا من تولى وكفر؛ فأخبر الله: أنه سيعذب من تولى وكفر العذاب الأكبر.

ثم أخبر سبحانه: ﴿إن إلينا إيابهم (٢٥) ثم إن علينا حسابهم (٢٦)﴾، وتفسير الإياب: الرجوع إلى الله والانقلاب. ثم أخبر تعالى: بأن عليه حسابهم، والحساب هاهنا تأويله: المحاسبة بأعمالهم، والجزاء منه لهم بالعقاب على سيء أفعالهم؛ فنسأل الله أن يجعلنا ممن يذكر ما ذكر به، وأن يمن علينا بفهم ما نزل من كتابه؛ والحمد لله رب العالمين كثيرا، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥)﴾ [الفجر: من (١)، إلى: (٥)]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿والفجر(١)وليال عشر(٢) والشفع والوتر (٣) والليل إذا يسر (٤) هل في ذلك قسم لذي حجر (٥)﴾؟

﴿والفجر﴾ هو: انفجار الليل عن صبحه، وانفتاقه عن ضوء الصبح ووضوحه. والليالي العشر، وما ذكر الله من الليالي العشر هي: ليالي ذي الحجة إلى آخرها يوم النحر. ﴿والشفع والوتر﴾ من العدد فهو: كل زوج أو فرد؛ وفي ذلك لكل ذي حكمة أو لب -أعجب ما يتعجب له من العجب. ﴿والليل إذا يسر﴾ فهو: الليل، و" يسري " فهو: السير؛ والليل فهو يسري ويمضي، حتى يطلع الفجر ويضيء. والقسم فهو: الحلف والإيلاء، وذو الحجر فهو: من جعل الله له عقلا، والحجر فهو: العقل والنهى، واللب والحجى.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾ [الفجر: ٢٢]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

يريد بذلك سبحانه: بآياته العظمى، فعاينها المكذبون العصاة عيانا كفاحا، وتقول العرب إذا جاءت جنود الملوك، فغلبوا قوما كانوا عالين لغيرهم ممن

دونهم: " جاءهم والله الخليفة "؛ فلم يكن لهم عليه قوة، ولا به طاقة، ولم يأتهم الخليفة، وإنما جاءتهم قدرته وتدبيره وسلطانه، وجنوده المبعوثة، ولا يتوهم المجيء من الله سبحانه كمجيء بدن من الأبدان، ولا زواله من مكان إلى مكان، جل عن ذلك وتقدس من هو بكل مكان موجود، لا بصفة الجسم الزائل من موضع إلى موضع المحدود.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام المرتضى بن الهادي عليه السلام:

إنما أراد: وجاء أمر ربك مع الملائكة المنفذين له، فقال: جاء ربك، وإنما أراد: أمر ربك.

وقال في كتاب حقائق المعرفة للإمام أحمد بن سليمان عليه السلام:

المراد به: وجاء أمر ربك، والملك.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عبد الله، محمد بن القاسم صلوات الله عليه:

تفسير: ﴿والفجر (١) وليال عشر (٢) والشفع والوتر (٣) والليل إذا يسر (٤)﴾: فما ذكر الله سبحانه من هذه الأشياء، وكرر منها في إقسامه بها، فأبان من عظيم آيات الله -لما فيها من عجائب حكمة الله، لا يخفى ذلك فيها ولا يغبى، على من وهبه الله عقلا ولبا. ولما فيها من عجائب الحكمة، ودلائل قدرة الله العظيمة -جعلها الله قسما من أقسامه لنبيه بإقسامه بها -على ما جعل فيها من حكمته؛ وأي عجيب أعجب من صدوع بياض الفجر معترضا، حتى يستطير في أفق السماء كلها عرضا، بعد سواد الليل وظلمته، وكلال الأبصار بلونه وغشوته، من هدأ في الليل من الخلق عن حركته؟!

وسرى بذهاب أوله، ثم ذهاب وسطه وآخره وانكفافته كله يسيح في الفلك، ويسلك فيما قدره الله له فيه من المسلك؟! فقد يرى ذلك كله من شأن الليل وأمره من نظر إليه عند تولي آخره، ورأى الليل مقبلا من المشرق عند آخر النهار وإدباره، فرأى أوائل ظلام الليل مقبلة من أقاصي الفلك، ثم رأى انبساطه فيما جعله الله من المخرج والمسلك، حتى يعلو ويظهر، ويتسع وينشر، فيطبق الأرض كلها ظلامه، ويشتد سواده وإطباقه والتئامه، ثم يسري الليل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿والليل إذا يسر (٤)﴾. وكل من عقل عن الله -لا يشك في سراه ولا يمتري؛ لأن الليل له أول ووسط وآخر، ولا يجيء آخره حتى يذهب أوله ووسطه ويدبر؛ وهذا الدليل على مسير الليل وذهابه -يبصره عيانا كل ذي عين، ويراه في إقباله وسراه ومسيره، وذهاب أوله وصدره، وانكفات أعجازه وأواخره، عند ظهور الفجر واعتراض نوره؛ عجب عجيب من آيات الله وتدبيره، لمن فهم عن الله ما جاء في تبيينه لذلك وتبصيره. يقول الله تبارك وتعالى في بعض الأقسام، بما أقسم به من آياته العظام: ﴿والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤)﴾ [المدثر]؛ تنبيها من الله تبارك وتعالى لمن عقل وفكر -على ما أظهر من حكمته لمن فهم وأبصر، بما قدر من أحوال الليل والنهار، وما أرى سبحانه من تدبيره لهما من الآيات العظام.

والفجر فإنه من عظيم آيات الله، وعجب عجيب من آثار قدرة الله، في تنفسه وصدوع نوره، وما قدر الله بظهوره، من عجيب حكمته وأموره، وتحرك هذا الإنسان، وجميع ما يسكن بظلمة الليل من الحيوان، عند طلوع الفجر فيما يتحركون له من المعاش والشأن. وما قدر الله سبحانه من الحكمة لذلك وفيه - فتكل وتصغر عقول الناس عن معرفة كنهه، والاطلاع عليه. ولما في الفجر من آيات تدبير الله وحكمة -ما جعل الله تعالى من قسمه.

والليالي العشر التي ذكر الله تبارك وتعالى -فهي: الليالي التي آخر أيامها يوم

الأضحى؛ فأقسم الله بها وذكرها؛ لكيما يعرف الناس فضلها وقدرها.

وما ذكر الله سبحانه من الشفع والوتر -فمن الآيات عند ذوي الألباب والفكر؛ والوتر فهو: الواحد الفرد، والشفع: فالاثنان من العدد. وإنما أقسم الله من ذلك بما أقسم به لنبيه، بما ذكر في كتابه: على أن الشفع والوتر آية لذوي الألباب والفكر.

ثم قال سبحانه: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر (٥) ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٦) إرم ذات العماد (٧)﴾، يعني سبحانه: هل في الإقسام بهذه الآيات، من الفجر، والليالي العشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر -مقنع في القسم لذي حجر.

وذو الحجر فتأويله – والله أعلم – عند كل من يعرف اللسان العربي ويفهم – فإنما يخرج على أنه: ذو العقل؛ والعقل فمعناه في اللسان: الحفظ، ولذلك قيل:" فلان عاقل لبيب " يراد: أنه حافظ، للفهم وللصواب مصيب. ومن الدلائل على أن العقل هو الحفظ بعينه، في معناه وقصده وتبيينه -قول جميع العرب إذا أراد حفظ البعير وتشديده بالحبال:" يا فلان، اعقل البعير بالعقال "، يريدون بعقله: حفظه بالعقال؛ وضبط الحفظ فهو: العقل نفسه. والحجر فهو أيضا من:" حجر الشيء من الأشياء وحفظه، وأحاط بالشيء فلزمه "، مثل العقل بعينه في تفسيره وتبيينه. وذو الحجر فهو: ذو العقل، وذو العقل فهو: ذو الحجر، وإنما يراد بذلك: ذو الحفظ واللزوم، للأمر المعقول المفهوم.

ومخرج هذه الأقسام التي ذكر الله في سورة الفجر -عند قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد (١٤)﴾؛ تخويفا منه – تبارك وتعالى – ووعيدا لعصاة العباد، وذلك: ما ذكر فعله في النقمة لعاد، إرم ذات العماد.

والعماد: جماعة العمود، وقد جاء فيما جاء من الأخبار عن عاد: أنهم كانوا

يسكنون المظال التي ترفع بالعماد، والعرب تقول لمن يسكن المظال والأخبية: ساكن العمود؛ فإن يكن ما ذكر من العماد: سكناهم في بيوت العمد -فالعماد: جمعها، وذلك فيما يفهمه كل أحد.

وقد يمكن - والله أعلم - عند من تفكر وتفهم، أن يكون ما ذكر الله من العماد: عمدا كان في بعض ما كانوا فيه من البلاد، من حجارة أو بناء أو خشب، نصبوها وصنعوها في بعض بلادهم، لا يقدر على مثلها غيرهم من جميع الناس؛ لما كانوا عليه من شدة البطش، وما زيدوا من البسطة في الخلق على كل الأجناس؛ ألا تسمع كيف يقول الله سبحانه: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد (٨)﴾، وهو يخبر عن هذه الآية المذكورة من عاد.

ثم قال: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد (٩)﴾، وثمود: فقوم صالح صلى الله عليه، والوادي: فبلد في بعض نواحي الحجاز، معلوم معروف، ويقال له: وادي القرى، وبلد ثمود: موضع منه، يسمى: الحجر، من يأتيه ممن في تلك الأرض من الناس -مساكنهم فيه تعاين وترى، قد نحتوها في أجواف الجبال نحتا، وجابوا فيها قصورا منحوتة وبيوتا.

ثم قال سبحانه: ﴿وفرعون ذي الأوتاد (١٠)﴾، والأوتاد - والله أعلم -: فأبنية كان بناها فرعون باقية إلى اليوم بأرض مصر، تسمى الأهرام، لم ير مثلها في جميع أبنية ملوك الناس، في الجاهلية والإسلام، كأنها لإشرافها وعظمها هضاب من الجبال، عظام الأصول، مصعدة إلى أعلى، يراها - فيما أخبرت - من أشرف على أرض مصر عن مسيرة ليال، قد بنيت بالصخور الكبار العظام الرواسي، التي لو اجتمع على مثل الحجر الواحدة منها عصبة من الناس -لما حركوه - فيما ذكر من رآها - ولا أزالوه، ترى الحجار في أعالي الأهرام، فلا يدري الناظر كيف رفعوه. وتلك الأهرام - فيما أخبرني من رآها -: سبعة، وهن على ما الله أعلم بقدره من الطول والعرض والسعة؛ يقال: إن منها ما طوله في جو السماء أربعمائة

ذراع صعدا، ويقال: إن طول بعضها خمسمائة ذراع في الهواء مصعدا، قدرت حجارتها، ونحتت وجوهها، ثم أطبق بعضها على بعض عند بنائها ورصفها، فليس بينها – زعموا – مدخل الخلال؛ من شدة تراصفها، فأسست عند ابتداء بنائها على عرض عظيم من السعة، فجعل عرض أساسها: ما بين أذرع مذروعة، ثم ذهب في الجو صعدا، ينقص عرضها كلما رفعت شيئا، حتى دقت أعاليها بعد عرض أسافلها، وهكذا ما أخبر من صفاتها كلها. وكان أبي رضوان الله عليه يخبرني: أنه كان يسمع أن تلك الأهرام كانت قبورا للعذارى من بنات الفراعنة، وقد قال بعض الناس: إن فيها كنوزا لهم كنزوها في الأزمان الجاهلية.

وقد ينبغي لمن تفكر وتفهم: أن يوقن بأيقن اليقين، ويعلم عند تفهمه لقول الله عز وجل في الكتاب: ﴿وفرعون ذي الأوتاد (١٠)﴾: أن هذه الأوتاد من أعظم آثار فرعون فيما كان فيه من البلاد.

ثم قال سبحانه: ﴿الذين طغوا في البلاد (١١) فأكثروا فيها الفساد (١٢)﴾، فذكر تعالى هذه الأمم الماضية، من عاد وثمود، وفرعون ذي الأوتاد، وأخبر بما كانوا عليه من الطغيان في البلاد، وما أكثروا فيها من الفساد، وكيف كان بطشه بهم وفيهم، حين انتقم منهم، ونزل العذاب عليهم؛ قال الله سبحانه: ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب (١٣) إن ربك لبالمرصاد (١٤)﴾.

تفسير قول الله – والله أعلم –: ﴿إن ربك لبالمرصاد (١٤)﴾: أن الله لمرصد معد لعذاب من خالف أمره وعصاه من العبيد.

وتفسير قول الله – والله أعلم –: ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب (١٣)﴾: مفهوم إن شاء الله، عند من فهمه الله بعض تأويل الكتاب –أنه إنما أراد أن يفهم: كيف سرعة انتقامه وعقوبته، إذا أراد أن يأخذ أهل معصيته؛ ليعقل ويفهم من تفكر ويعلم: أن سرعة عقوبته حين يأخذ أهل معصيته، في سرعة وقوعها لمن

مضى -كسرعة صبه السوط في وقوعه ضربة واحدة وخطفته.

وقد يمكن - والله أعلم - أن يكون ما ذكر الله من صبه لهذا السوط من العذاب، على هذه الأمم التي ذكر أنه دمرها فيما نزل من الكتاب: خبرا على أن هذه الأمم التي ذكرها وأخبر أنه أهلكها بفسادها ودمرها -إنما أهلكها بجزء من أجزاء العذاب، سماه سوطا في تنزيل الكتاب؛ ليعلم من عقل أن ما أعد الله لهذه الأمم في الآخرة من العذاب، والنقم التي تخلد لهم، ويخلدون فيها فلا تنقضي ولا تنصرم -ليست كالسوط من العذاب الذي عذبوا به في دنياهم، ففنوا به في الدنيا هم، وأفناه الله حين أفناهم؛ فنعوذ بالله ورحمته، من سخطه وعقابه، ونسأله النجاة بالعون على طاعته من سطوة عذابه، لمن خالفه وعصاه، ولم يؤثر رضوانه وتقواه.

ثم ذكر سبحانه: جهالة هذا الإنسان، وما لم يزل عليه الناس - إلا من عصم الله - من الغفلة والخطإ والنسيان، بقوله: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن (١٥) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن (١٦)﴾، وتفسير ما ذكر الله من هذا - والله أعلم -: أنه إذا ما ابتلى الإنسان بتوسعة رزقه وعطاياه، وما ينال بتوسعة الرزق من النعم في دنياه -غفل الإنسان بذلك عن ذنوبه وخطاياه، فظن أن ما نال من رزق الله بكرامة من الله - لرضاه عنه، وأنه قد سلم عند الله، وفيما بينه وبينه، ويغفل عن ذنوبه وخطاياه، ولا يفهم: أنه أراد امتحانه وابتلاه؛ ليرجع عن معصيته، ويعمل برضوانه وطاعته، ويشكر ما أولاه عند ذلك من نعمته.

وأما إذا ما ابتلى الله سبحانه الإنسان، فقدر عليه رزقه، وقدره عليه: أن لا يبسطه ولا يوسعه؛ لما هو أعلم به في ذلك من صواب تدبيره، في بسطه إذا شاء رزق الإنسان وتقديره، بعد حكمته في كل أمر، وعلمه بما هو أصلح وأرشد وأصوب، وأخبر به -فعند ذلك ما يقنط الإنسان ويسوء ظنه، ويرى أن الله قد

سخط عليه وأهانه، ويغفل؛ غير أن أفعال الله التي تأتي من الله في الأحوال كلها على ما لا يشك من يعقل -أنها عليه من صواب عدله.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ولا تحاضون على طعام المسكين (١٨)﴾، يرشد ويدل على ما يحب ويرضى، من إطعام المسكين وإكرام اليتامى؛ لرأفته سبحانه باليتيم والمسكين، وما أراد من عباده في إطعام المسكين، وإكرام اليتيم، من الحق المحمود الكريم، الذي يعطي عليه من ائتمر فيه بأمره الثواب العظيم. وفي قول أرحم الراحمين: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ولا تحاضون على طعام المسكين (١٨)﴾ -دليل والله أعلم على: أن ما يرى العباد من التقدير، على من قدر عليه الرزق من المرزوقين -إنما كان لما عليه أكثر الناس من الغفلة عن إكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿كلا بل لا﴾. تفسير - والله أعلم -: ﴿كلا بل لا﴾ يدل على: أنهم لو أكرموا اليتيم، وأطعموا المسكين، وفعلوا في ذلك ما أمرهم به الرحمن الرحيم -لما قدر رزقه، ولوسع رزقه بينهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وتأكلون التراث أكلا لما (١٩)﴾، والأكل اللم فهو: الأكل السريع والجم، الذي يشبه في سرعته وضمه ما يرى من الفم: وعيدا منه سبحانه لمن أكل تراث اليتامى، ونهيا عن ذلك وتحذيرا لمن فعله، بأن أنذره عذابا أليما.

ثم قال: ﴿وتحبون المال حبا جما (٢٠)﴾، والجم: الكثير المتصل الأوفر الذي لا ينقطع ولا يفتر: نهيا عن فرط الحب للدنيا والمال؛ لما يصير إليه من أفرط في حب ذلك من الركوب للظلم في كثير من الأمور والأحوال.

ثم أخبر سبحانه بيوم انتقامه وعقوبته، لمن خالف ما أمره به من تقواه وطاعته، فصار إلى الجرأة على معصيته، وعما يكون في يوم القيامة من عظيم

آياته، يقول: ﴿كلا إذا دكت الأرض دكا دكا (٢١) وجاء ربك والملك صفا صفا (٢٢) وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (٢٣)﴾.

ودك المدكوك فهو: تكسيره وتحطيمه، ودق بعضه ببعض وتهشيمه، وذلك حين تدك الأرض بالجبال، فتصير الجبال كالكثيب المنهال، قال الله تعالى:﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة (١٤)﴾ [الحاقة].

وما ذكر الله من مجيئه فهو: مجيء أمره ونقمته، وظهور ما يظهر يوم القيامة من عظيم آياته، وما يكون يومئذ من عقابه لأهل معصيته؛ فلما بدا من آيات الله العظام في يوم القيامة ما كان لا يعاين ولا يرى، من فعله في دار الدنيا، فرأى الخلق يومئذ من أخذ الله بانتقامه للعاصين، وشدة زلزال بطش عقاب الله بالظالمين، ما لم يكونوا في دار الدنيا يرون –جاز أن يسمي الله تبارك وتعالى – كما يسمعون– إتيان أمره وآياته، عند أخذه لأهل معصيته؛ لشدة بأسه وعقابه، وما يصير إليه من أطاعه من كريم ثوابه: إتيانا منه؛ إذ كان ما ظهر في ذلك كله من الآيات العظام –إنما كان بقدرته وعنه؛ وذلك مفهوم في لسان العرب، عند من كان ذا لب؛ قد يقولون اليوم في مفهوم اللسان بينهم، عندما يكون من سطوات ملوكهم فيهم، وعند حلول جنود ملوكهم بمن يعصيه:" جاء القوم ما لا يطيقون "، حين سطا جنود ملكهم بهم في الدنيا، ويقولون:" جاءهم الملك والخليفة "، وإنما جاءتهم جنوده المبعوثة.

فلما كان يبدو للخلق في يوم القيامة من الزلزال [والآيات العظيمة، بما يكور من الشمس والقمر وينتثر من النجوم، وما يبدي الله ملك الملوك وربهم الحي القيوم من] الآيات العظام، التي يظهرها الله في ذلك اليوم، وكان العصاة الظلمة من الآدميين –عنها وعن الحذر بها في دار الدنيا غافلين، وعما أنذرهم الله ورسله منها معرضين –كان معقولا عند من فهم عن الله من ذوي العقول والأفهام – قول الله ذي الجلال والإكرام: ﴿وجاء ربك﴾ و﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم

الله﴾ [البقرة: ٢١٠].

لما جاءهم يوم القيامة أمر الله، وبدا لهم ما لم يكن يبدو من انتقام الله، وحكم تبارك وتعالىٰ بينهم بالحق والفصل، ووضعت موازين القسط، التي معناها: ما يكون يومئذ من العدل، الذي لا يغادر معه صغيرة ولا كبيرة من الإساءة إلا أحصيت، ولا حسنة من الحسنات تدق ولا تجل إلا أحصي ثوابها وحصرت، وأحاط بالظالمين يومئذ من بأس الله ما كانوا يحذرون، ورأوا حينئذ كل ما كانوا به ينذرون، وحكم بين الخلق فيما كانوا يختلفون، وبدا لهم في ذلك اليوم الأعظم ما كانوا به من جهنم يوعدون - قال الله سبحانه: ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾، والمجيء بها فهو: حضورها، وإبداء الله لها -؛ فرأوها وسمعوا شهيقها وزفيرها، وأبصروا تغيضها ولهيبها وسعيرها، وأخذتهم الأغلال والسلاسل، وأحاطت بهم الكروب والزلازل، وصف الروح والملائكة صفا صفا، وامتلأت قلوب العاصين رعبا وخوفا -كان حضور أمر الله في ذلك كله ومجيئه -جائز به مفهوم فيه ومعه أن يقال: ﴿جاء ربك﴾، حين جاءت البطشة الكبرىٰ، وبدا من الله في ذلك ما لم يكن يعاين الكفار في دار الدنيا، وجاء يومئذ ثواب الله لأهل الطاعة والتقوىٰ، من جنات النعيم التي يخلدون فيها فلا يفنون ولا يفنىٰ.

ولا يتوهم الخبر في المجيء من الله سبحانه والإتيان: انتقال، ولا زوال من مكان إلىٰ مكان؛ جل عن ذلك وتبارك وتعالىٰ؛ إذ ليس كمثله شيء، ولم يكن له شيء مثلا، ليس زائل سبحانه ولا منتقل، ولا يوصف بهبوط من علو إلىٰ سفل، وليس يمثل سبحانه في شيء من أموره كلها بمثل ولا ند، ولا مثل له ولا نظير، ولا كفؤ ولا شبيه ولا عديل، له الأسماء الحسنىٰ، والأمثال العلىٰ.

نعوذ بالله من سخطه ومعصيته، ونسأله أن يؤمن روعنا يوم القيامة بعفوه ومغفرته، ويسعدنا بإيثار تقواه وطاعته، لنا يوم الفزع الأكبر باتباع مرضاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلنا، وهو رب العرش العظيم.

ثم قال ذو العزة والعظمة والقدرة، فيما ذكر من الخبر الصادق عن يوم القيامة والحسرة: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (٢٣)﴾، وتفسير ذلك: أن الإنسان سيذكر بما فرط فيه من الطاعة والتقوى، فيندم حيث لا ينفعه الندم، عندما يعاين ويرى من عظيم الآيات في يوم البطشة الكبرى، فيندم ويفكر ويتذكر؛ وأنى له التذكر؟!

وعند ذلك ما يقول: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي (٢٤)﴾، يعني: في أيام دنياه وقبل ما كان من وفاته؛ تذكر أو ندامة على ما فاته، من تقوى الله وطاعته، وألا يكون قدم ذلك قبل حضور أجله وموته، ليوم بعثه ونشوره وخلده، فيصير بطاعة الله لو كان أطاعه واتقاه، إلى الثواب الذي أعده الله لمن يتقيه ويطيعه ويخشاه.

قال الله سبحانه: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (٢٣)﴾، وتأويل ذلك: أن الإنسان فرط في الذكرى، حتى انقطعت عنه أيام حياة الدنيا، التي جعلها الله دار المهل والبلوى، فترك الطاعة والتقوى، حتى صار إلى الدار الآخرة التي ليست بدار مهل ولا بلوى، وإنما هي دار ثواب وعقاب وجزاء يجزى فيها، كما قال سبحانه تبارك وتعالى: ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى (٣١)﴾ [النجم].

ثم قال سبحانه، وهو يخبر عن شدة عذابه، وانتقامه لمن عصاه وعقابه: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد (٢٥) ولا يوثق وثاقه أحد (٢٦)﴾، وتأويل ذلك: أنه لا يعذب عذاب الله أحد من المعذبين، ولا يوثق وثاقه أحد من الموثقين؛ فنعوذ بالله من سخطه ونقمته، ونسأله العفو والمغفرة برحمته.

ثم قال الله تبارك وتعالى، وهو يخبر عن نفوس المؤمنين في يوم القيامة، الذي هو يوم الدين، وقوله عند فصله بين خلقه؛ لحكم عدله وحقه، فيما فصل بينهم

تعالى بالعدل، في مقامهم الذي جمعوا فيه لحكم الفصل، وصار العاصون إلى مقرهم من النار، وقيل لنفوس المتقين الأبرار، الذين ألقى الله عليهم السكينة من روعات ذلك اليوم فلم يرتاعوا، وأنزلت على قلوبهم الأمنة من فزع يومئذ، فاطمأنوا ولم يفزعوا: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧)﴾؛ إذ في اطمئنانها يوم الفزع الأكبر أعجب العجب وأعظم المنة.

﴿ارجعي إلى ربك راضية مرضية (٢٨)﴾، وتفسير رجوعها إلى ربها هو: رجوعها إليه فيما وعد من ثوابها، قد رضي سبحانه منها بتقواها وطاعتها، ورضيت بما صارت إليه من الثواب والنعيم في جنتها.

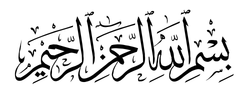
والنفس هاهنا المطمئنة: جميع نفوس المؤمنين، الذين يكونون يوم الفزع الأكبر آمنين مطمئنين، وسواء قيل: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة (٢٧)﴾، أو قيل: يا أيتها النفوس، عند من يفهم في ذلك ما أفهمه الله الملك القدوس، كما سواء في الشرح والبيان قيل: يا أيها الناس، أو: يا أيها الإنسان.

ثم قال تبارك وتعالى، للنفوس المطمئنة من أهل التقوى: ﴿فادخلي في عبادي (٢٩) وادخلي جنتي (٣٠)﴾، ودخولهم في عباده فهو: مصيرهم في الجنة إلى مقر أوليائه، ولحوقهم بمن عنده فيما أعد لهم من ثوابه.

والحمد لله رب العالمين، ونسأل الله أن يجعلنا من أوليائه المؤمنين، الذين يكونون في يوم الفزع الأكبر آمنين مطمئنين، وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته المتقين.

سورة البلد

هذا تفسير السورة كاملة للإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿لا أقسم بهذا البلد (١) وأنت حل بهذا البلد (٢)﴾:

فتفسير - والله أعلم - قول الله تبارك وتعالى، المعقول المفهوم عند من وهبه الله علما وعقلا: ﴿لا أقسم﴾ هو: توكيد للقسم؛ والإقسام -بالبلد التي كان فيها النبي، عليه أرضى الصلاة وأفضل التسليم. وإنما معنى ﴿لا﴾: ألا، وسواء قيل:" لا " في الأفهام أو: ألا، وذلك فواحد هاهنا في المعنى؛ فكان قول الله: ﴿لا أقسم بهذا البلد (١)﴾ -إنما تفسيره: كيف لا أقسم بهذا البلد؟! تعظيما منه تبارك وتعالى وتفضيلا للبلد، حين كان محلا ومنزلا لرسوله محمد، وتعظيم قدر محمد بن عبد الله وكبره صلوات الله عليه وعلى آله -ما أقسم سبحانه بالبلد الذي كان محمد عليه السلام حالا فيها.

وتفسير: ﴿وأنت حل﴾: مفهوم عند كل من كان عالما بعربي اللسان، لا يحتاج فيه عند أكثرهم إلى اشتغال بشرح ولا بيان؛ لوضوحه عند علمائهم وجهالهم، وما يدور فيهم من مفهوم اللسان بين كبارهم وأطفالهم؛ وهو عند العالم منهم والجاهل: الحال بالبلد والنازل، وسواء في لغة العرب قيل:" فلان حل بالعراق، أو نازل فيه "، أو قيل:" فلان حال به وفي ساكنيه ".

ثم قال تبارك وتعالى، فيما كرر من القسم وثنى: ﴿ووالد وما ولد (٣)﴾؛ لما في الولد والوالد من آياته، وعجيب آثار تدبيره وقدرته: بينما الوالد كما جعله الله واحدا، إذ خلق سبحانه منه نسلا كثيرا وولدا، بأعجب الأسباب والتدبير، وأدل

الدلائل على قدرة الله القدير، فأخرج من الوالد الواحد الفرد النسل الكثير ذا الألوف من العدد، بنطفة مني تمنى، باجتماع الزوجين الذكر والأنثى، وتصريف تدبير الله لتلك النطفة، إذ صارت في الرحم -فيما يصرفها فيه من التصاريف: بينما هي في الرحم نطفة إذ خلق النطفة علقة، ثم خلق النطفة العلقة مضغة، فخلق المضغة عظاما، فكسا العظام لحما، ثم أنشأه خلقا آخر، آيات من الله بعد آيات، ودلالة منه سبحانه لخلقه على ربوبيته وقدرته بعد دلالات؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة في قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (١٤)﴾ [المؤمنون]. ولما كان الوالد وما كان منه من النسل فيهما عجب من آيات الله عجيب، ودلالة من دلائل قدرته وحكمته، يفهمهما المفكر اللبيب -أقسم تبارك وتعالى بهما؛ لما أظهر من حكيم تدبيره فيهما.

واعلموا - رحمكم الله -: أن كل ما أقسم الله سبحانه من الإقسام به، منهما ومن غيرهما من أقسامه كلها في كتابه -فعجب والحمد لله عجيب، وصواب عند الله لأولي الألباب مصيب؛ لأن الله تبارك وتعالى أعلى من كل علي، وأنه في الارتفاع والعظمة فوق كل شيء، فليس شيء في جميع الأشياء -إلا والله أعظم منه وأكبر وأعلى؛ فلم يكن ليكون القسم من الله سبحانه إلا بخلقه؛ إذ ليس شيء من الأشياء من فوقه، والله سبحانه فوق كل شيء، ورب كل شيء، موات وحي.

وكذلك ما أقسم بها أقسم به من آياته، وخلقه وصنعه -دلالة للخلق على عظمته سبحانه وعلوه وارتفاعه، وأنه ليس من فوقه ما يقسم به؛ لأنه الله رب كل شيء وخالقه، ومليك كل شيء في السموات والأرض ورازقه؛ ولا يقسم الله إذا أقسم إلا بها أقسم به من أسمائه، أو بعجيب ما خلق من آياته، في أرضه

وسمائه؛ فكلما أقسم به في أقسامه، من التين والزيتون، والفجر، والسماء والطارق، والشمس والقمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، وغير ذلك مما أقسم به في كتابه، من جميع أقسامه التي أقسم بها؛ لما أحاط علمه من عجيب أمرها باطن علمه - فحكمة من حكم الله، يدل إقسام الله بها على أنها من عجيب آياته، وما جعله الله دليلا لأولي الألباب على حكمته وقدرته.

ثم قال سبحانه: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد (٤)﴾، يريد - والله أعلم -: في تقويم واعتدال، وانتصاب وصعد؛ لأن الله عز وجل لم يخلق في الاعتدال والإصعاد، والتقويم والكبد والانتصاب -شيئا من الأبدان غير بدن الإنسان؛ وفي ذلك عجب عجيب من التدبير والحكمة والبيان؛ ولذلك ما يقول الله سبحانه العليم الحكيم: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤)﴾ [التين]؛ تذكيرا من الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان بنعمته، فيما خلقه فيه من الكبد الذي هو: التقويم والتصعيد، وتفضيله لخلق الإنسان على خلق جميع الأبدان؛ ليشكر ما أنعم الله به عليه في ذلك من نعمته، وليعرف ما عرفه فيه من عجيب حكمته.

وقد ظن غيرنا: أن ما ذكر الله من خلق الإنسان في كبد -هو: ما الإنسان فيه، مما يلاقي في معايش دنياه، من التعب والكد.

والذي ذكرنا من تفسيره أولى وأشبه وأشرح، وأنور وأفهم وأوضح.

ثم قال سبحانه: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد (٥)﴾، كأن معنى ذلك - والله أعلم -: فكيف يغفل عن قدرة من أنشأه فيما أنشأه فيه من الكبد؟! تذكيرا من الله تعالى للإنسان، بما هو عليه من الاغترار به، والنسيان لنعمته، وإحسانه إليه وغفلته عن قدرته عليه.

ثم قال: ﴿يقول أهلكت مالا لبدا (٦) أيحسب أن لم يره أحد (٧)﴾، واللبد: المتراكم الكثير الوافر، الذي بعضه على بعض، وفي آثار بعض، يفهم هذا فيه

المفكر الناظر.

ثم قال سبحانه: ﴿ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩)﴾؛ تذكيرا من الله للإنسان، بنعمته عليه في العينين واللسان والشفتين؛ لما فيهن من القوة والمعونة، على فعل البر والتقوى والإحسان، وما جعل له من القوة والمعونة بالعينين واللسان على تقواه، والوصول بذلك إلى قبول ما نزل من نوره وهداه، وما ينال الإنسان بذلك أيضا مما أحل له من منافع دنياه؛ فسبحان من خلق الإنسان وفطره وأنشأه، وأراه من حكمته في تسوية خلقه ما أراه؛ قال الله سبحانه: ﴿ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨)﴾ [الانفطار].

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وهديناه النجدين (١٠)﴾، فالنجد من الأشياء فهو: الظاهر العالي الذي لا يخفى؛ ولذلك ما قيل لما برز من الأرض وعلا: نجدا؛ إذ ذلك إذا كان المكان من البلاد بارزا مرتفعا –قيل:" إن تلك الأرض لنجد من الأنجاد "؛ دلالة على أنها ظاهرة بارزة من البلاد. وما ذكر الله سبحانه من هدايته للنجدين فهما – والله أعلم –: الطريقان في مصالح الدنيا والدين، اللتان جعلهما الله ظاهرين غير خفيين، ولذلك ما دعيا بهذا الاسم من: النجدين؛ إذ كانا قد هدى إليهما وكانا بارزين.

ثم قال سبحانه: ﴿فلا اقتحم العقبة (١١) وما أدراك ما العقبة (١٢) فك رقبة (١٣) أو إطعام في يوم ذي مسغبة (١٤) يتيما ذا مقربة (١٥) أو مسكينا ذا متربة (١٦)﴾، فالعقبة والله أعلم، عند من يعرف اللسان العربي ويفهم –فهي: الشديدة من الأشياء، ولذلك ما سمي العقب في الأبدان: عقبا، ولذلك ما سمى اللسان العربي الطرق التي في رؤوس الجبال: عقابا، يراد: أنها كانت مكروهة لشدتها صعابا؛ فلما كانت هذه الأفعال التي دل الله تبارك وتعالى عليها، ورضيها وأحبها ورغب الناس فيها، من فك الرقبة، والإطعام في اليوم ذي المسغبة،

لليتيم ذي المقربة، والمسكين ذي المتربة -شديدا تجشمها وتكلفها على من يبخل، ولما كان تكلفها على أكثر الناس مما يشتد ويثقل -سماها الله تبارك وتعالى: العقبة، وأخبر بما جعل لمن تكلف شدتها وثقلها من كريم الجزاء والمثوبة.

والإطعام في اليوم ذي المسغبة فهو: الإطعام في يوم الجوع والأزمة؛ فهي: الجدب والضرورة والحطمة؛ لأن الجوع بعينه في اللسان هو: السغب، وبذلك قديما وحديثا كانت تسميه العرب؛ فأمر الله سبحانه: بالإطعام في اليوم ذي المسغبة، ورغب فيه تبارك وتعالى أكثر الرغبة.

ودل بقوله: ﴿يتيما ذا مقربة (١٥)﴾ على: أن أفضل ما يتقرب به من أطعم: قربة إطعام أيتام ذي الرحم والقرابة.

والمساكين الفقراء فهو: ذو المتربة، والمتربة من المساكين فهو: ذو الحاجة الملحة الشديدة، الذي ليس له معاش ولا بلغة، قد أفضى إلى التراب من شدة فقره، ووصل إليه من الحاجة والعري الذي هو فيه، وإنما سماه جميع من عرف اللسان العربية: متتربا؛ لأنه قد أفضى من شدة الفقر إلى التراب إفضاء متتربا.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾، بعدما رغب فيما دعا إليه، من إطعام ذوي المسغبة، وأيتام القرابات: أنه إنما يقبل فعل ما تقرب إليه -بالإيمان الذي معناه: ترك كبائر معاصيه. ثم ذكر الله سبحانه: الصبر على فعل ما أمر به، وجعل الصبر من أحسن ما دل عليه في كتابه، فقال: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧)﴾، والمرحمة فهي: التراحم بين المؤمنين، والتعاطف بينهم بالرحمة؛ لأن الله سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم فوق كل كريم يحب الكرماء.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أولئك أصحاب الميمنة (١٨)﴾، والميمنة فهي:

اليمن والبركة.

ثم قال: ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة (١٩) عليهم نار مؤصدة (٢٠)﴾، والمشأمة: الشؤم الذي صاروا به إلىٰ الهلكة، وصارت النار به علىٰ الكافرين بكفرهم وعصيانهم مؤصدة؛ والمؤصدة: المحيطة المطبقة بالأبواب المشددة؛ فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن نجا بتقواه، من سخطه وعقابه، وأن يبعدنا من النار المؤصدة، وما فيها من عذابه لأهل المعصية والعدوان، وأن يسلمنا ويسلمكم من الهوان، وحسبنا الله ونعم المولىٰ ونعم الوكيل، عليه توكلنا وهو رب العرش العظيم.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس: ٨]

قال في مجموع الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسألته عن: قوله الله تعالى: ﴿ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨)﴾؟

فقال: ﴿ونفس وما سواها﴾، يقول سبحانه: وما قدرها وما هيأها من تسوية التقدير، وحكمة التدبير، الذي لا يكون إلا بالله، ولا يوجد إلا من الله؛ وقد قال بعض المفسرين: ﴿وما سواها﴾ هو: ومن سواها. ﴿فألهمها﴾ هو: عرفها تعريفا بينا، ليس مما يلتبس بكفره منعمه، ولا يعايا بشيء من المعرفة بين فجورها وتقواها، إذا عرفها هيبتها واجتراءها؛ لأن الهيبة اتقاء، والفجور اجتراء، فهي تعرف من الأشياء كلها ما تجترئ عليه من الفجور، وما تهاب وتخشى من جميع الأمور، فهي على ما لا تهاب مجترأة، ولما هابت متقية، فهي ملهمة لتقواها وفجورها؛ لمعرفة ما تهابه وتجترئ عليه من أمورها.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

يعني سبحانه بقوله: ﴿ألهمها﴾: عرفها فجورها وتقواها؛ فليس عالم ولا جاهل من البالغين يعمل منكرا، ولا يأتي معصية ولا يفعل شرا، إلا ونفسه

تنكره، وهي ملهمة معرفة الشر إذا فعلته، ومعرفة التقوى والعمل الصالح إذا عملته؛ فليكن العبد المؤمن أبدا متيقظا، متنبها لنفسه في العمل بطاعة الله واجتناب معصيته؛ قال الله سبحانه: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٢٠١)﴾ [الأعراف: ٢٠١]، يعني: تائبون، ولم يقل: فإذا هم مصرون.

وقال في كتاب الأساس للإمام القاسم بن محمد عليه السلام:

أي: بما ركب الله فيها من العقول.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)﴾ [الشمس: ٩]

قال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام:

يريد: قد أفلح من طهرها من عصيان الله ونقاها، حتى زكت عند الله تعالى بالطاعات، وكرمت عنده باكتساب الخيرات.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والشمس وضحاها (١) والقمر إذا تلاها (٢)﴾:

﴿والشمس﴾ هي: الشمس في عينها، ونفسها واستدارتها. ﴿وضحاها (٢)﴾ فهو: ما يرى من علوها في السماء وظهورها واستنارتها.

وتأويل: ﴿والقمر إذا تلاها (٢)﴾ فهو: اتصاله بها، وجيئته وراءها، متصلا نوره بنورها، وظهوره في الضوء بظهورها.

وما أبين ذلك وأنوره، وأعرف ذلك وأظهره -في الليالي الغر من ليالي كل شهر؛ فنوره حينئذ بنورها متصل، ليس بين نورهما فرقة ولا فصل، وهي: ليال بيض مسفرة، مضيئة ساعاتها منيرة، عظمت في النعمة والقدر، فقيل عن النبي

صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن صيامها كصيام الدهر))، وهي: ليلة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة؛ وهي ليال جعلها الله كلها مضيئة مقمرة، وصل الله ضوء نهارها بضوء ليلها، فكان ذلك من عظيم النعمة فيها وجليلها؛ فسبحان من وصل وفصل بين الأمور، فوصل منها بين نور عظيم ونور.

﴿والنهار إذا جلاها (٣)﴾ فهو: إذا أظهرها النهار وأضحاها؛ لأنها لا تضحى أبدا بإظهار إلا فيما جعلها الله تضيء فيه من النهار.

وكذلك سبحانه دبرها في مقدارها، وبذلك فقدرها في مسيرها ومدارها؛ وفيها ما يقول سبحانه: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (٤٠)﴾ [يس]، فكلهم جميعا في فلك - وهو: المدار - يطلعون ويغربون؛ فليل الشمس والقمر عند كل أحد فغير نهارهما، وأنهما يدوران جميعا بالليل والنهار في مدارهما كما قال سبحانه، فلا يمكن أن يسبق النهار، وإن كان الفلك في ذلك كله هو المسلك والمدار، لأن الليل لو سبق نهاره -لسبقت الظلم أنواره، فبطل العدد والزمان وتقديرهما، وفسد البشر والحيوان وتدبيرهما، ولكان في ذلك أيضا فساد الأشجار والثمار؛ لأن قوام ذلك كله ونشأته بما فصل بين الليل والنهار؛ فسبحان مفصل الأمور والأشياء؛ لبقاء ما أراد بقاءه من النبات والأحياء، وليعلم العالمون عدد السنين والحساب، الذي عنه وبه يكون كل جيئة وذهاب، أو بقاء لشيء من الأشياء، جعله يبقى أو يفنى، مما فطره سبحانه خلقا؛ كما قال جل ثناؤه، وتقدست بكل بركة أسماؤه: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا (١٢)﴾ [الإسراء].

وتأويل: ﴿والليل إذا يغشاها (٤)﴾ فهو: إذا غشي الليل الشمس وآتاها، فوارى بظلمته نورها، وأخفى بظهوره ظهورها، ولم تر الشمس، ولم تنتشر

الأنفس، وسكن في الليل الإنس والوحش وكل طير، فهدأ من ذلك كله فيه كل صغير وكبير؛ رحمة من الله به لذلك كله، ومنة من الله من بها عليهم بفضله، كما قال سبحانه: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٧٣)﴾ [القصص].

وتأويل: ﴿والسماء وما بناها (٥)﴾: فالسماء هي: السماء التي نراها. ﴿وما بناها﴾ فهو: وما هيأها من حكمة الله وتدبيره، ورحمة الله وتقديره.

وتأويل: ﴿والأرض وما طحاها (٦)﴾ فهو: والأرض وما دحاها؛ ودحو الشيء هو: بسطه وتمهيده، ونشره وتوسيعه وتمديده، كما قال سبحانه: ﴿والأرض مددناها﴾ [الحجر: ١٩، ق: ٧]، وتأويله: بسطناها ومهدناها، كما قال الله سبحانه: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧)﴾ [النبأ: ٧]، والممدود إذا أريد مده وامتهاده -ضرب فيه وفي نواحيه؛ لتمتد أوتاده.

وتأويل: ﴿ونفس وما سواها (٧)﴾ فهو: الأنفس التي قد علمناها لكل ذي نفس من البهائم والإنس، وهي التي إذا فارقت وزالت -ماتت أجسادها وخفت، فعادت أجسادها أمواتا هلاكا، ولم ير لها أحد بعد ذهاب أنفسها منها حراكا. ﴿وما سواها (٧)﴾ فهو: وما هيأها، فجعلها حية كما جعلها، وعدلها سوية كما عدلها، من قدرة الله وإحكامه، ومنته عليها وإنعامه. وتأويل: ﴿فألهمها فجورها وتقواها (٨)﴾ هو: فعرفها تدبير الله لها، وإحكامه هيئتها، واجترائها، فجعلها تبارك وتعالى عارفة بكل ما كانت عليه مجترئة، أو له خائفة.

ثم أخبر سبحانه: أن نفس الإنسان من بين ما ذكرنا من الحيوان -نفس بين الزكاء والفلاح، والفجور والتدسية والصلاح: فإن تزكت بالتقوى أفلحت وزكت، وإن تدست بالفجور عند الله طلحت وهلكت، فقال سبحانه: ﴿قد

أفلح من زكاها (٩) وقد خاب من دساها (١٠)﴾، وتأويل تزكيتها هو: تطهرتها، وتأويل تدسيتها فهو من: تطغيتها.

ثم ذكر تبارك وتعالى من دساها، من سالف الأمم في الفجور فأطغاها، فقال سبحانه: ﴿كذبت ثمود بطغواها (١١)﴾، تأويله: بعتاها وغواها.

﴿إذ انبعث أشقاها (١٢)﴾، وتأويله: إذ قام أخزاها؛ لشقوته وشؤمه، وبرضاء قومه وعشيرته. والأشقى فقد يكون إنسانا واحدا، أو يكون جماعة عدة؛ وأي ذلك قيل به -كانت المقالة في الصدق والمعنى واحد، كما يقال:" أشقى هذه قبيلة فلان، وأشقى هذه قبيلة فلان "، فيكون ذلك كله واحدا في الدلالة والبيان. ويدل على أن أشقاهم ليس بواحد منهم قوله سبحانه: ﴿فقال لهم﴾، فلو كان واحدا منهم -لقال:" فقال له "، وقوله: ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾، فلو كان الأشقى واحدا منهم -لقال:" فدمدم عليه ربه "، ولقال أيضا:" بذنبه "، ولم يقل: ﴿بذنبهم﴾؛ إذ هو واحد منهم، ولقال:" عقرها "، ولم يقل: ﴿ـعقروها﴾ إذا لم يكن إلا من واحد عقرها.

وقد قال غيرنا: إن عاقر الناقة كان إنسانا واحدا، ليس بجماعة، وذكروا فيما في أيديهم من الأخبار: أن عاقرها يسمى بـ:" قدار ".

وتكذيب ثمود فإنما كان -بما وعدها صالح صلى الله عليه إن عقرت الناقة، من: عذاب قريب أليم، - لا تكذيبها بما لم تزل به مكذبة قديما قبل عقر الناقة، من عذاب الجحيم -، إذ يزجرها صالح صلى الله عليه وينهاها، عما أتت في عقر الناقة بطغواها، إذ يقول لهم: ﴿ناقة الله وسقياها (١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (١٤) ولا يخاف عقباها (١٥)﴾.

فتأويل ما ذكر الله من السقيا -هو: ما أعطى الله من لبن الناقة وسقى؛ ومما يدل على ذلك: قول الله سبحانه في الأنعام، وهي الآبال: ﴿وإن لكم في الأنعام

لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون (٢١)﴾ [المؤمنون]، وقوله سبحانه: ﴿ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)﴾ [يس]، والمشارب والسقيا هي: الموارد والسقيا.

والدمدمة هي: التسوية، والهلكة لجمعهم المفنية، وتأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿فسواها﴾ إنما يراد به: أدنى ثمود كلها وأعلاها، ومن أضعف ثمود [كلها] وأقواها.

وتأويل: ﴿فلا يخاف عقباها (١٥)﴾ فقد يمكن أن وجهها ومعناها هو: فلا يخاف أحدا - على الضمير - أن يراها بعد تدمير الله لها، وما أنزل من الهلكة بها؛ لا تعقب عقبا، ولا تنسل عقبا، من ولد ولا ذرية، ولا ترجع بعاقبة مؤذية.

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨)﴾

[الليل: ١٧، ١٨]

قال في كتاب الأحكام للإمام الهادي عليه السلام:

يريد سبحانه: يتقرب إلى الله سبحانه، فيقرب إليه بالإنفاق، والإخراج لماله في طاعة ربه، والإقراض لخالقه؛ تزكية منه بذلك لبدنه، وتزيدا منه في خالص دينه؛ وليس الزكاة الواجبة يعني بذلك الرحمن؛ ألا تسمع كيف يقول فيما نزل من النور والفرقان: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠)﴾، ولو كانت زكاة الأموال هي المذكورة هاهنا -لم يقل: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾؛ لأن الزكاة شيء من الله حكم به، وجعله لكل فقير معسر، عند كل ذي جدة موسر.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣)﴾:

فقال: والليل وغشيانه فهو: ظهوره وإتيانه.

وتجلي النهار فهو: ظهور شمسه، على وحشه وإنسه. وبتجليه وظهوره -يعيش أهل الأرض فيه، ويتحركون وينتشرون، ويقبلون ويدبرون، كما قال الله سبحانه: ﴿وجعل النهار نشورا (٤٧)﴾ [الفرقان]، فجعله برحمته لخلقه ضياء

ونورا، لتبتغوا فيه - كما قال سبحانه - من فضله، ولمنته على أهله: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٧٣)﴾ [القصص]؛ فكفى بما في الليل والنهار من الدلالة على الله -دليلا لقوم يتفكرون.

وتأويل: ﴿وما خلق الذكر والأنثى (٣)﴾ فهو: وما خلق به كل ذكر وأنثى، من الأزواج المختلفة الشتى، أزواج الإنس والبهائم والأشجار، وكل ما خلقه زوجا في الأصول والثمار؛ فأقسم بما خلق به جميع خليقته، من: قدرته وحكمته، ومنه ورحمته.

وقد قال غيرنا: إن تأويل ﴿وما خلق﴾ هو: ومن خلق. يريدون: أن القسم كان بالله جل ثناؤه.

وليس - والله أعلم - ذلك في القسم كذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى أقسم بالليل والنهار، فقدمهما في قسمه، ولو كان تأويل ﴿وما خلق﴾ هو: ومن خلق -لبدأ الله في القسم باسمه وذكره، وعظم اسمه وكبره؛ ولكنه إن شاء الله كما قلنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إن سعيكم لشتى (٤)﴾، فجعل عملهم متفرقا متشتتا؛ لأن عمل المتفرقين، من المبطلين والمحقين -بر وفجور، وصدق وزور؛ فهو كله شتى متفرق: هذا باطل في نفسه، وهذا حق؛ أما تسمع كيف يقول الله سبحانه في تشتته وتباينه، في الدنيا والآخرة وتفاوته: ﴿فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧)﴾.

فإعطاؤه هو: لما يجب من الحقوق عليه، واتقاؤه فهو: فيما أمر بالتقوى لله.

﴿وصدق بالحسنى (٦)﴾ فهو: تصديقه بأن سيجزى.

وتأويل: ﴿فسنيسره لليسرى (٧)﴾ فهو: سنصيره من الكرامة والثواب، إلى ما سيراه عند موته وفي حشره، وما سيعاينه في الموت والحشر من أمره.

وتأويل: ﴿وأما من بخل واستغنى (٨)﴾: بما يراه عند نفسه غنى، من ماله وكسبه، وبخل منه به عن ربه.

﴿وكذب بالحسنى (٩)﴾، فتكذيبه بالحسنى هو: تكذيبه بما وعد الله أهل التقوى.

وتأويل: ﴿فسنيسره للعسرى (١٠)﴾ هو: سنصيره من الإهانة والعقاب إلى ما سوف يرى.

وتأويل: ﴿وما يغني عنه ماله﴾ فهو: وما ينفعه في الغناء ماله. ﴿إذا تردى (١١)﴾ تأويله: إذا هلك وردي، بعد أن كان قد أرشد وهدي؛ وما أغناه من دنياه، وملكه الله إياه، فجعله الله له -فهو لله قبله؛ ألا تسمع كيف يقول في ذلك تعالى: ﴿إن علينا للهدى (١٢) وإن لنا للآخرة والأولى (١٣) فأنذرتكم نارا تلظى (١٤)﴾، وما كان من النيران يتلظى فهو: أشدها لهيبا وسعيرا، وأنكرها في الحر والتحريق مصيرا.

ثم أخبر تبارك وتعالى: من يصلاها، والإصلاء فهو: التحريق فيها، فقال: ﴿لا يصلاها إلا الأشقى (١٥) الذي كذب وتولى (١٦)﴾: كذب بالجزاء والمثوى، وتولى عن البر والتقوى.

ثم أخبر سبحانه: أن سيجنب هذه النار المتلظية من اتقى، فقال جل ثناؤه: ﴿وسيجنبها الأتقى (١٧) الذي يؤتي ماله﴾، يؤتي: يعطي ماله. ﴿يتزكى (١٨)﴾ تأويلها: ليطيب بها عند الله ويزكى.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩)﴾ تأويله يريد: تكافأ.

﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١)﴾ بما يعطى ويجزى، إذا أعطى ما أعطى؛ لابتغاء وجه ربه، وما أراد من رضائه به.

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾

[الضحى: ٧، ٨]

قال في شرح الرسالة الناصحة للإخوان للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام:

ضلاله -عليه وآله السلام- هاهنا: قلة علمه بالشرائع والتكاليف الشرعية؛ فهداه إليها، ودله عليها؛ لا ما يقوله المبطلون، ويتأوله الجاهلون. ﴿ووجدك عائلا فأغنى(٨)﴾، المراد بذلك: الزهد في الدنيا، والقنوع بالطفيف من الأشياء، وقد قيل: أغناه بمال خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن محمد عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالا فهدى (٧)﴾:

أي: جاهلا لشرائع الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى: ١١]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

وسئل عن: قول الله سبحانه: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾؟

فقال: هذا أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله بنشر نعمته عليه، وذكر إحسانه إليه؛ لأن الله تبارك وتعالى شاكر يحب الشاكرين، ويرضى الشكر والثناء

عليه بنعمه من المؤمنين، ويريد أن يحدث المؤمنون بعضهم بعضا بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم؛ ليكونوا بذلك ذاكرين.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

﴿والضحى (١) والليل إذا سجى (٢)﴾

﴿والضحى (١)﴾: إضحاء النهار، وشدة ضوئه وظهوره.

وسجو الليل: فتراكب ظلمته وتكوره، كما قال سبحانه: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ [الزمر: ٥].

وتأويل: ﴿ما ودعك ربك وما قلى (٣) وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥)﴾ -فخبر من الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن: أنه - وإن لم يعطه ما يعطيه ويكثره أهل الدنيا في دنياه - فما تركه: فمن حسن النظر في ذلك له، لا لبغضه فقلاه - والقالي فهو: الشاني، والشاني فهو: المبغض، وكل ذلك فهو: بغض -؛ ولكنه آثره بكرامته له في آخرته على أولاه.

وأخبره سبحانه: أن سوف يعطيه من عطايا الآخرة ما يسره ويرضيه.

ثم ذكره سبحانه بفضله ونعمته، وبما من به عليه من رحمته، فقال تبارك وتعالى: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) فأما اليتيم فلا تقهر (٩) وأما السائل فلا تنهر (١٠)﴾، وقد علم الناس أنه قليل من الأيتام من يؤوى.

﴿ووجدك عائلا فأغنى (٨)﴾: فأغناه بما لم يستغن به غيره في دنياه.

﴿ووجدك ضالا فهدى (٧)﴾: فهداه بما من به عليه من الهدى.

ثم نهاه تعالى عن: اليتيم أن يقهره، وعن السائل أن ينهره، وأمره من الحديث

بنعمة ربه بما به أمره: أن ذكره من اليتم والفاقة بما ذكره، وقرر بمعرفة ذلك بما قرره، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث (١١)﴾، تأويل ﴿فحدث (١١)﴾ هو: فخبر، وانشر ذلك واذكره وكثر؛ فكان بمن الله لما ذكر به ذاكرا، ولنعم الله فيها كلها شاكرا.

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح: ١ - ٣]

قال في مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي عليه السلام:

وأما ما سأل عنه من: قول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿ألم نشرح لك صدرك (١) ووضعنا عنك وزرك (٢) الذي أنقض ظهرك (٣)﴾ -فإنا نقول: إن الشرح من الله لصدره هو: توفيقه وتسديده، وترغيبه بالهدى وتأييده، وتعليمه ما كان يجهله وتفهيمه؛ فشرح الله بالإيمان صدره، ورفع بالوحي المنزل قدره. وأما الوزر الذي وضعه الله عن ظهره فهو: ما يغفر له من ذنوبه؛ ومن الوزر: ما كان منه من الضلال عن الوحي والهدى؛ فوضعه الله سبحانه عنه بهداه له. ومما خصه الله به: ما آتاه، من التبصرة والزيادة في تقواه، فجعله من بعد أن كان جاهلا عالما، ومن بعد أن كان متبعا متبعا. ومن ذلك: ما وضع عنه من وزر الفقر وضراه، وما امتن به عليه من بعد العيلة وأغناه، كما قال تباركت أسماؤه، وعزت بكريم ولايته أولياؤه: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ [الضحى: ٨]. وأما قوله سبحانه: ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ فهو: أوقره وفدحه، وغمه وكربه، من الضلال عن العمل برضى رب الجلال؛ فوضع الله عنه ثقل ذلك، بما بصره وأوحى إليه، وفضله وامتن به عليه. وليس ذلك الوزر حملا من الأحمال على ظهره، ولا وقرا أوقر بحمله، وإنما ذلك على المثل؛ قال الشاعر:

حملت أمرا عظيما فاضطلعت به... جزاك عنا إله الخلق رضوانا

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٥،٦]

قال في شرح الرسالة الناصحة للإخوان للإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام:

عرف " العسر "؛ فعلمنا أنه واحد، ونكر " اليسر "؛ فعلمنا أنهما اثنان؛ ولن يغلب عسر واحد يسرين، ومثل ذلك مروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم نشرح لك صدرك (١) ووضعنا عنك وزرك (٢) الذي أنقض ظهرك (٣) ورفعنا لك ذكرك (٤)﴾.

فقال: ﴿ألم نشرح لك صدرك (١)﴾، فشرحه هو: توسيعه لصدره صلى الله عليه وآله وسلم. وفسحه لما كان تضيق عنه كثير من الصدور: فما حمل من التبليغ والأمور. ومن شرح الله أيضا لصدره: تيسيره في الدين لأمره، وما أعطاه فيه من معونته ونصره.

﴿ووضعنا عنك وزرك (٢)﴾، فوزره هو: ثقله ووقره، والوقر من كل شيء فهو: الحمل، والحمل من كل شيء فهو: الثقل، وإذا قيل لشيء:" أوزره وزره " فإنما يراد بذلك: حمله وقره. وما حمل من الأثقال كلها والأمور -فإنما يحمل منه الحاملون على الظهور، وكلما يعمله المرء من خيره وشره -فإنما يحمله على ظهره، كما قال سبحانه: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما

يزرون (٣١)﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: ١٣]، يريد سبحانه: ما حملوه من كفرهم وفجورهم، وليس يريد بذلك: حمل أحمال، ولا ما يحمل على الظهور من الأثقال؛ وإنما هو مثل يضرب من الأمثال، مما كانت تضربه وتمثله العرب. وكذلك ما ذكره الله من الشرح لصدر نبيه، وما نزل في ذلك من وحيه؛ فذكره سبحانه لما ذكر من إنقاض الوزر لظهره، وما وضع سبحانه لما ذكر من وزره -فإنما هو تمثيل، وبيان ودليل، فليس يريد بشرح الصدر، ولا ما ذكر من الحمل على الظهر: شرح شيء يقطعه، ولا حمل ثقيل يضعه. وما حمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وزر على ظهره؛ وذلك فلا يكون إلا من زلل أو خطيئة في أمره. ووضع الله لذلك عنه فهو: حطة لما أثقله منه، وحط الذنب: فعفوه ومغفرته؛ وقد غفر الله لرسوله ذنبه كله وخطيئته، كما قال سبحانه له صلوات الله عليه: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما (٢) وينصرك الله نصرا عزيزا (٣)﴾ [الفتح].

وتأويل ﴿ورفعنا لك ذكرك (٤)﴾ فهو: رفعه لذكره، بما أبقى في الغابرين إلى فناء الدنيا، من أمره وقدره، ومن ذلك النداء في كل صلاة باسمه، وما جعل من الشرف به لقومه، فضلا عما من به على ذريته وولده، ومن يشركه في الأقرب من نسبه ومحتده؛ فنحمد الله الذي رفع ذكره، وشرف أمره.

ثم أخبر سبحانه في السورة نفسها، من أخبار غيوبه خبرا مكررا، فقال تبارك وتعالى: ﴿فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا (٦)﴾، فبشره بأن له مع عسره يسرا في دنياه، وأن له مع ذلك يسرا لا يفنى في آخرته.

ثم أمره سبحانه إذا هو فرغ من أشغاله، ومما يقاسي به في هذه الدنيا من عسر أحواله، فقال عز وجل: ﴿فإذا فرغت فانصب (٧) وإلى ربك فارغب (٨)﴾، والنصب فهو: الاجتهاد، والجد والاحتفاد، كما يقال:" اللهم لك نصلي ونسجد،

وإليك نسعى ونحفد ".

فذكر: أنه لما أنزل على رسوله ما أنزل في هذه السورة من آياته، فعبد رسول الله حتى عاد كالشن البالي في عبادته؛ شكرا لله وحمدا، وتذللا وتعبدا.

سورة التين

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣)﴾

فـ﴿التين﴾ فهو: هذا التين المأكول، ﴿والزيتون﴾ فهو: هذا الزيتون المعلوم.

وقد ذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: أن ﴿التين والزيتون (١)﴾ هو: التين الشامي خاصة وزيتونه؛ وذلك لما جعل الله للشام من التقديس والبركة، وفي الشام ما يقول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ [المائدة: ٢١].

وما ذكر الله من ﴿طور سينين (٢)﴾ فهو: الجبل الذي كلم موسى منه رب العالمين.

و ﴿البلد الأمين (٣)﴾ فهو: الحرم الذي على كل حد من حدوده رضم الحجارة، وعلم فصل به بين غيره وبينه؛ لتعرف بذلك ما هو منه.

وإنما أقسم الله سبحانه من الأشياء بما أقسم من القسم: لما جعل فيها من الآيات والبركات والكرم؛ وإنما يقسم أبدا المقسم بما يجل من الأشياء ويكرم، وكرم ما ذكر الله من هذه الأشياء -فما ليس به عند من يعقل من خفاء؛ فمن كرم التين والزيتون: ما جعل الله فيهما من المنافع والطعوم، وكرم طور سينين وبركته: ما كان من مناجاة الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام في بقعته، وفي ذلك ما يقول سبحانه: ﴿فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة﴾ [القصص: ٣٠]، فذكرها سبحانه بما جعل فيها من التقديس والبركة، وفي ذلك

ما يقول تبارك وتعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ [مريم: ٥٢]، والطور فهو: طور سينين المذكور. ومن كرم الحرم وفضله: فما جعل الله فيه من الأمن لأهله، وما فرض من حج بيته، وألزم الناس في ذلك من فريضته.

وتأويل: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤)﴾ فهو: خلقه للإنسان في أحسن تعديل، من كل توصيل وتفصيل: أصل به أو فصل، أو هيء بهيأته فعدل، من هيئة أو صورة مصورة مقدرة، أو فؤاد أو سمع أو عين مبصرة؛ وكل ذلك - كان مفصلا أو موصلا - فقد جعله سبحانه مستويا معتدلا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨)﴾ [الانفطار].

تأويل: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين (٥)﴾ فهو: رده إن بقي وعمر إلى آخر أعمار الآدميين، التي إن صار إليها وبقي حيا فيها -تغيرت حاله وعقله، وبان نكسه وسفاله، كما قال سبحانه: ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨)﴾ [يس]، وتأويل: ﴿ننكسه﴾ فهو: نرده في الهرم والذهاب، بعد القوة والجدة والشباب، أو يموت قبل ذلك على كفر وإنكار، فينكس بعد الكرامة في الهوان وعذاب النار؛ ومن الذي هو أسفل درجة من كفره إن لم يهرم، إذا هو نكس ورد في الآخرة إلى نار جهنم؟! فنعوذ بالله من السفال، بعد التمة والكمال.

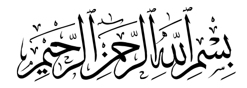
وكل إنسان فرذل، ليس له كمال ولا فضل - كما قال سبحانه -: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦) فما يكذبك بعد بالدين (٧) أليس الله بأحكم الحاكمين (٨)﴾.

فكلما لم يدخله من العطايا والجود -وذلك فما لا يوجد أبدا إلا في عطايا الله الجواد الكريم؛ وكل عطاء أعطاه معط سوى الله من حميد أو ذميم -فليس يخلو من أن تدخله منة وامتنان، وإن لم ينطق بالمنة فيه لسان؛ لأن من وهبه وأعطاه -لم

يعطه إلا بعد أن تكلفه وعاناه، والله جل جلاله يعطي من أعطى ما يعطيه -بغير معاناة من الله ولا تكلف فيه؛ وكل معط سوى الله -فإنما يعطي ما أعطا من رزق الله، وإنما يعطي مما قد جعله الله له، ومما هو لله تبارك وتعالى؛ فنحمد الله الذي لا شريك له، الذي يعطي فلا يعطى، والذي لا يعطي معط سواه إلا ما أعطاه.

سورة العلق

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢)﴾:

فتأويل: ﴿اقرأ﴾ فهو: أن يقرأ. وتأويل اسم ربه الذي أمر أن يقرأ به فهو: الذي قدم له في تعليمه كل سورة، عند الإقراء له والتعليم. وربه فهو: الله الذي خلق خلقه؛ فخلق الإنسان من علق إذا ما خلقه، - والعلق فهو: الدم الأحمر المؤتلق، الذي يتلألأ لشدة حمرته ويبرق - فيما ذكره الله سبحانه من علق الدم، وخلق الناس كلهم غير آدم وحواء؛ فإن حواء خلقت من آدم، وخلق آدم من تراب، فلم يخرج آدم وحواء من بين ترائب وأصلاب، كما خرج من بين الصلب والترائب غيرهما؛ ولكنه كان من الله سبحانه ابتداؤهما وتدبيرهما، من غير أصل مقدم من أب ولا أم، وكان ما بين ذلك من التباين والفرق، في الصنع والفطرة والخلق؛ إذ خلق آدم من تراب، وخلق نسله من علق -من أعجب العجائب، وأدل الدلائل على قدرة الخالق على ما خلق، مما يشاء أن يخلقه جل ثناؤه من الخلائق، وعلى أن قدرته فيما يخلق من خليقته واحدة غير متشتتة ولا متفرقة، على أقدار ما يرى من افتراق البدائع، والخلق المفطورة والصنائع، كما قال سبحانه: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (٤٠)﴾ [النحل]، فأخبر سبحانه: أنه لا يختلف عليه في قدرته البدائع والكون، وأن قدرته في ذلك كله لا تتفاوت، وإن تفاوت الخلق المبتدع المتفاوت.

ثم أمر تبارك وتعالى رسوله بالقراءة باسمه أمر مثنى، وكل ذلك فواحد في الإرادة والمعنى، إلا أن التكرير غير التفريد، في زيادة الأمر والتوكيد، والتكثير

فأكثر في الرحمة، وفي زيادة المن والنعمة بالعلم والتعليم، والأمر والتفهيم، وفي كل كلمة من كلمات الله - تقل أو تكثر - بصائر جمة بمن الله لمن يعقل ويبصر، فليس في شيء من كلام الله جل ثناؤه نقص ولا فضول، ولا يشبه قول الله في الحكمة والبيان من أقوال القائلين قول، فقال سبحانه: ﴿اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥)﴾ من كل ما علمه، ببصر أو سمع أو فؤاد، وما كان مرضيا أو مسخطا لله من غي أو رشاد، كما قال سبحانه: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٧٨)﴾: فبما جعل الله لهم من الأفئدة يعقلون ويتفكرون، وبما سلم من السمع والبصر يسمعون ويبصرون - فتبارك الله أحسن الخالقين خلقا، وأوسع الرازقين في العلم وغيره رزقا – فهو: المعلم سبحانه بالقلم وبغيره من وجوه العلم التي ليست بخط ولا كتاب، من كل ما يعلمه أولوا الألباب. ما يعلمه أيضا سواهم، ممن لم يبلغ في العلم مداهم، وإن لم يكتب، وكان جاهلا بالكتب، مما يعلمه من صناعة، أو تحرف أو بياعة –فالله معلمه ومفهمه، من ذلك أو تعلمه؛ فلولا قول الله سبحانه لم يظفر أبدا من علمه: من علم، ولم يفهم منه وفيه من يعلم ما فهم، وكذلك كل ملهم من طفل صغير، وكلما سوى ذلك من البهائم والطير، من ألهم علما في تغذي أو محاذرة لضر أو توق –فالله عز وجل ملهمه معرفته، وتوقيه ومحاذرته.

وتأويل قوله سبحانه: ﴿ربك الأكرم (٣)﴾ فهو: ما بان به الله من الجود والكرم، فيما وصل به إليه من النعم، من مواهبه في العلم وغير العلم؛ وقد علم الله رسوله عليه السلام من شرائعه ودينه، وإن لم يكتب بقلم أو بخط كتابا بيمينه –ما جعله الله به – فله الحمد – إماما لكل إمام، كان معه في حياته وبعد وفاته من الكتبة والعلام؛ فكان – بمن الله – لكلهم إماما ومعلما، وعلى جميعهم في العلم والحكمة مقدما؛ وفي ذلك وبيانه: ما يقول الله سبحانه في فرقانه: ﴿وما

كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون (٤٨)﴾ [العنكبوت]، فكفى بهذا - والحمد لله - بيانا وبرهانا لقوم يعقلون.

وتأويل: ﴿كلا﴾ فهو: نعم، وبلى. ﴿إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧)﴾، فتأويل ﴿ليطغى﴾ فهو: العتاء والطغاء.

وتأويل ﴿أن رآه استغنى (٧)﴾ فهو: تكثره بالجدة والغنى، في كل ما رآه فيه من علم ومال، وما يراه مستغنيا به أو مستطيلا به من كل حال.

وتأويل: ﴿إن إلى ربك الرجعى (٨)﴾ فهو: إلى الله المعاد في قيامة الموتى.

ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠) أرأيت إن كان على الهدى (١١) أو أمر بالتقوى (١٢)﴾؛ تثبيتا له عليه السلام، وتعريفا وتبيينا أيضا لمن كفر به، وتوقيفا على ما يعرفون ولا ينكرون، وما هم به جميعا كلهم مقرون، من أنه ليس لأحد أن ينهى عبدا من عباد الله، عن الصلاة والأمر بالتقوى لله. فتأويل ﴿أرأيت﴾ فهو: أرأيت أنت ومن معك ممن يرى كما ترون - وكلهم جميعا يرى -: أن كل من صلى من خلق الله، وأمر بما يحب الله ويرضى، مبتغيا بذلك رضوان الله، وطالبا بذلك لما عند الله، مصيبا لذلك في رشده وهداه، قد أصاب بذلك طاعته ورضاه؛ أليس من نهاه عندهم عن ذلك وآذاه -فقد استوجب لعنة الله وإخزاءه؟! وكذلك كل عبد لله أمر بالتقوى والإجلال لله، كما كان يصلي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لله ولمرضاته، ويأمر باتقاء الله جل ثناؤه ومخافته. وكل ما كان فيه من ذلك كله عندهم فحميد، ومن يعمل لله بذلك فيهم فرشيد؟!

ثم قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أرأيت إن كذب وتولى (١٣)﴾، تأويل ما يقرأ من ذلك ويتلى: أفرأيت من كذب به بعد إقراره بما يصف، وتولى في ذلك عما يعرف، من: أنه ليس له أن ينهى عبدا عن أن يصلي لله؛

ولكن أن يأمر بما هو الهدى عنده من تقوى الله.

﴿ألم يعلم﴾ من فعل ذلك ﴿بأن الله يرى (١٤)﴾، فيخاف أن يؤاخذه الله بفعله ويجزى - وتأويل رؤية الله فهو: علم الله بنهي من ينهى، عبدا إذا صلى -؛ فما بالهم ينهون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عن الصلاة، وعما لم يزل يأمر به من التقوى أهل البر والرشد من الهدى ،مع علم من ينهى عن ذلك ويقينه -بأن الله علم بنهيه عن ذلك وغيره.

فلما أصر الناهي عن ذلك على ظلمه فيه وكفره، مع ما أيقن به من علم الله بأمره فيه كله وأقر -قال سبحانه: ﴿كلا لئن لم ينته﴾ عما هو فيه، وعما أصر من ظلمه عليه ﴿لنسفعا﴾، وتأويل ﴿لنسفعا﴾ فهو: لنأخذن. ﴿بالناصية (١٥)﴾، والناصية فهي: مقدم الرأس العالية.

ثم قال سبحانه: ﴿ناصية كاذبة خاطئة (١٦)﴾؛ إذ كانت عما لا يجوز النهي عنه عندها من الصلاة والتقوى لله ناهية، فكذبت قولها في ذلك بفعلها، وأخطأت بنهيها عنه فيه بجهلها، فهي - كما قال الله سبحانه -:﴿كاذبة خاطئة (١٦)﴾، وهي لله مخالفة في ذلك عاصية.

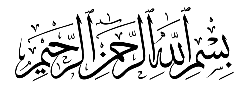
يقول الله سبحانه: فإذا أخذنا منه بالناصية ﴿فليدع﴾ إن استجيب له ﴿ناديه﴾، وناديه فهو: عشيرته وأولياؤه، وأنصاره وجلساؤه، الذين كانوا يجلسون في مقامه، وإليه يجتمعون لمجالسته، ونصرته لديه.

﴿سندع الزبانية (١٨)﴾، والزبانية فهم: الملائكة، المطهرة الزاكية، التي يأمرها الله سبحانه بأمره، فتنفذ بكل ما أمرها الله به، مطيعة لله غير عاصية، وآخذة لما أمرها الله سبحانه بأخذه غير وانية، تأخذ بالغلظة والشدة، كل نفس عاتية متمردة، كما قال سبحانه: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٦)﴾ [التحريم].

ثم قال سبحانه لرسوله: ﴿كلا لا تطعه﴾، يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تطع من نهى عن الصلاة والهدى، وعن الأمر – لله – بالتقوى، وكذب فعمل بالكذب؛ ﴿و﴾ لكن ﴿اسجد واقترب (١٩)﴾ بكل عمل صالح مقرب لمن فعله إلى الله؛ فليس لهم أن ينهوا عن شيء من ذلك، إذا كان عندهم كذلك ، ومن يفعل ذلك أو عمل به –فقد كذب فيه قوله بفعله، وصار إلى ما لا مرية فيه عنده من جهله، وتولى عما كان من الإقرار لله عليه، بتركه لما كان مقرا لله بالحق فيه، فتشهد عليه نفسه لله بكفره، وتثبت عليه في الحجة باعترافه وإقراره، فبان منه الكفر، وانقطع عنه العذر، فلا عذر له عند نفسه ولا اعتذار، ولا خفاء لكفره ولا استتار؛ وكذلك كل من أسلمه الله إلى الباطل وحيرته ولبسه، وحجة الله قائمة عليه في الحق بنفسه، وفي إقراره من ذلك ما يقر: حجة لله عليه فيما ينكر. وسواء قيل: اقترب أو تقرب؛ معناهما واحد في التقرب. والسجود فهو: السجود الذي يكون بعد الركوع، وليس سجود التذلل والخضوع، وكلا الوجهين فقد يدعى سجودا وبرا، إذا كان ممن هو فيه بينا موجودا. وتأويل: ﴿واسجد واقترب (١٩)﴾: فمن السجود والصلاة. وتأويل: ﴿واقترب (١٩)﴾: فمن التقرب مما يقربه من الحسنات. وسواء قيل: اقترب أو تقرب؛ معناهما جميعا: اقترب، وأجد ذلك كله فيما يقال به فيه فصواب.

سورة القدر

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر (١) وما أدراك ما ليلة القدر (٢) ليلة القدر خير من ألف شهر (٣) تنزل الملائكة والروح فيها﴾:

فقد يكون ﴿أنزلناه﴾: جعلنا، كما قال سبحانه: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر: ٦]، وتأويل ﴿أنزل﴾ في ذلك: جعل.

فيمكن أن يكون: جعل القرآن كله وأحدثه، وأتمه وأكمله فيما ذكر تبارك وتعالى من ليلة القدر المذكورة. والقدر فهو: وقت وقته الله جل ثناؤه من أوقات الدهور، وقد يكون القدر هو: الجلالة والكبر، كما يقال:" إن لفلان أو لكذا وكذا قدرا "، يراد بذلك: أن له لجلالة وكبرا؛ فإن يكن وقتا وقت فهو: وقت ذكره الله وكرمه، بما قدر فيه من أموره المحكمة.

ومن الأدلة على أن الله جعل القرآن في ليلة القدر كله، وأحدثه فيها فأتمه وأكمله، وأنه لم يرد بتنزيله ووحيه -إنزاله له جملة على رسوله ونبيئه: أن الله سبحانه إنما أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأوحى تبارك وتعالى به إليه مفرقا، لا جملة واحدة، وعلمه إياه جبريل صلى الله عليهما سورة سورة، وآيات آيات معدودة؛ ليقرأه - كما قال سبحانه - على مكث وترتيل.

ولترتيله وصفه تبارك وتعالى في الوحي له بالتنزيل؛ لأن المفرق المنزل هو: المرتل المفصل، وفي ذلك ما يقول الله تبارك وتعالى فيه: ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه

على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١٠٦)﴾ [الإسراء]، ويقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في قراءته: ﴿ورتل القرآن ترتيلا (٤)﴾ [المزمل]، والتفصيل هو: التقطيع والتنزيل.

وفي إجماله وجمع إنزاله: ما يقول المشركون لرسوله صلى الله عليه وعلى أهله: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [الفرقان: ٣٢]، فقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا (٣٣)﴾ [الفرقان]؛ فنحمد الله على ما نور بذلك من حجته بمنه ورحمته تنويرا.

ثم أخبر سبحانه: أن قد أنزله، وتأويل ذلك: أنه قد جعله الله كله في ليلة واحدة، فقال تبارك وتعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر (١)﴾، و ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ [الدخان: ٣]، فأبطل بذلك كل حجة لمن كفر مظلمة مهلكة؛ فكان ذلك من قدرته ما لا ينكره من أهل الجاهلية من أقر بمعرفته.

وقد يمكن أن يكون تأويل: ﴿إنا أنزلناه﴾ هو: تنزيله سبحانه من السماء السابعة العليا، إلى من كان من الملائكة في السماء الدنيا؛ وقد ذكر عن أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه: ((أن ذلك هو تأويل ﴿إنا أنزلناه﴾ وبيانه)).

فأي التأويلين جميعا تؤل فيه -وقع بإنزاله كله عليه.

ولو كان إنما أريد بذلك إنزاله على محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم -لكان إنما نزل إليه مفرقا ومقطعا، غير مجمل من الله؛ وإنما قال الله: ﴿إنا أنزلناه﴾ فأوقع التنزيل على كله، لا على بعضه، وقال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ [القصص: ٨٥]، فأخبر سبحانه بفرضه، والفرض هو: التقطيع والتفصيل، كما يقول القائل للشيء إذا أمر بقطعه:" افرضه وفصله "؛ ليقطعه، وتأويل: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾

[القصص: ٨٥] هو: إن الذي قطع تفريقا ما نزل من القرآن إليك؛ وذلك هو: الله الرحمن الرحيم، وما فرض فهو: كتابه المنزل الحكيم.

وأي القولين اللذين ذكرنا، وبينا في ذلك وفسرنا قيل به -فتأويل، وأمر كبير جليل، كريم ذكره، واجب شكره.

وليلة القدر التي نزل فيها القرآن -فليلة من الليالي مباركة، تتنزل الملائكة فيها - كما قال الله تبارك وتعالى: الروح والملائكة -؛ لبركتها وقدرها، وما عظم الله من أمرها، ﴿بإذن ربهم من كل أمر (٤)﴾ من أمور الله، بنازلة وبركة لأهل الأرض كلهم شاملة؛ فليلة ذلك الوقت والخير والقدر -خير، كما قال: ﴿خير من ألف شهر (٣)﴾؛ لما جعل الله جل ثناؤه فيها من اليمن والبركات، وما يمسك الله فيها عمن أجرم من النقم والهلكات، ولما نسب الله إليها من الخير - تنزلت الملائكة والروح فيها من أعلى العلا إلى الأرض السفلى.

يقول الله سبحانه: ﴿بإذن ربهم﴾، تأويل ذلك: بإذن الله فيها لهم.

وقد قال غيرنا في تأويل ﴿من كل أمر (٤)﴾: إنه من كل وجهة.

وما قلنا به - والله أعلم - في: نزولهم من أمر الله ورحمته بكل نازلة -أشبه وأوجه؛ فهم ينزلون فيها من أمر الله وتقديره، ولما جعل الله فيها من بركاته وخيره -وحدانا، وزمرا وأرسالا، ببركتها وإعظاما لها وإجلالا، وإذ جعلها الله سبحانه لتنزيله ووحيه وقتا ومقدارا، وذكرها بما ذكرها به من القدر تشريفا لها وإكبارا.

وليلة القدر: ليلة جعلها الله من ليالي رمضان؛ ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول سبحانه بعد ذكره لشهرها، وما جعل الله فيها من بركتها ويمنها: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين (٣) فيها يفرق كل أمر حكيم

(٤) أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين (٥) رحمة من ربك إنه هو السميع العليم (٦)﴾ [الدخان]، فهي ليلة بركة ورحمة، وسلامة وعصمة.

وفيها يقول أرحم الراحمين، ورب السماوات والأرضين: ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر (٥)﴾، وتأويل ﴿سلام﴾ فهي: في سلامة هي حتى طلوع الفجر؛ فليلة القدر ليلة سالمة مسلمة، ليس فيها عذاب من الله تبارك وتعالى ولا نقمة، جعلها الله بفضله بركة وسلامة، ورحمة للعباد إلى الفجر دائمة؛ ولحق الليلة نزل الله فيها وحيه وقرآنه، وفرق برحمته فيها فضله وفرقانه، بالبركة والتفضيل، والإعظام والتجليل.

وتأويل: ﴿ما أدراك﴾ فهو: ما يدريك، لولا ما نزلنا من البيان فيها عليك. ﴿ما ليلة القدر (٢)﴾ في القدر والكبر، وما يضاعف فيها لعامله من البر والأجر؛ فهي ليلة ﴿خير من ألف شهر (٣)﴾، جعلت لبركتها ويمنها في التضعيف لها والإضعاف -كعشرة آلاف ليلة، وعشرة آلاف ليلة، وعشرة آلاف ليلة؛ فذلك ثلاثون ألف ليلة ونحوها تامة، جعلت مقدارا مضاعفا لليلة القدر؛ تشريفا لها وكرامة، وهي ليلة مقدسة، يضاعف فيها كل بر وعمل صالح لمن عمل به فيها من أهلها، فتزاد على تضعيفه من قبل ثلاثين ألف ضعف؛ لقدرها وفضلها، ونحمد الله في ذلك وغيره، رب العالمين، على ما أنعم به من ذلك الله خير المنعمين.

سورة البينة

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾:

فـــ﴿أهل الكتاب﴾ هم: أهل التوراة، والتوراة فهي: الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام، وأهله وحملته: اليهود والنصارى. وهم أهل ملل كثيرة شتى، فاليهود منهم فرق كثيرة مختلفة، والنصارى أيضا فأصناف كثيرة متصنفة. فمن اليهود: اليهودية، [ومنهم: فرقة يقال لها: السامرية، ومنهم: فرق أخرى تعرف وتسمى. ومن النصارى: الملكية، ومنهم: اليعقوبية]، ومنهم: النسطورية، في فرق أخرى، تعرف أيضا وتسمى. ولسنا نحتاج في هذا التفسير إلى ذكرها، ولا تفصيل ما هي عليه من أمرها، غير أنهم كلهم وإن افترقوا في مذاهبهم -أهل الكتاب.

والمشركون فهم: أهل الإثبات مع الله للآلهة والأرباب، وهم مشركو العرب، ومن كان يقر برب.

ومن الناس من ينكر ويجحد: أن يكون للأشياء رب يعبد، ويزعم: أن الأشياء لم تزل كما ترى، ولا يثبت في الأشياء تدبيرا ولا أثرا، فيكابر في ذلك عماية وجهلا -ما يدركه بعينه عيانا وقيلا، من الصنع النير والتأثير، والبدع المتقن ومحكم التدبير، الذي لا يخفى على عمي ولا بصير، وإن لم يقر بمعاد ولا مصير.

وليس أولئك ولا من هو كذلك -من أهل التوراة، ولا من أهل الكتاب، ولا ممن يقر بإله ولا برب، كالعرب ومن كان مشبها للعرب، ممن يقر بالله وإن

أشرك مع الله؛ فإنما أولئك عند من يعقل كالبهائم السائمة، وإن لزمتهم الحجة بما جعل الله لهم من الجوارح السالمة، التي قطع الله بها عذرهم، وألزمهم بها كفرهم.

وأولئك فليس ممن ذكر في سورة لم يكن، وإنما ذكر فيها من يقر برب وإن لم يؤمن، من كفرة أهل الكتاب والمشركين، فقال سبحانه: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين﴾، والانفكاك والفك هو: المجانبة لما هم عليه والترك، وتركهم فهو: لإشراكهم، وانفكاكهم من عقد شركهم، وفريتهم فيه على الله وإفكهم. وتأويل ﴿كفروا﴾ فهو: لم يشكروا؛ لأن من لم يشكر الله تبارك اسمه بترك عصيانه -فكافر وإن كان مقرا ومعتقدا لمعرفة الله وإيقانه، كإبليس الذي ذكر الله سبحانه معرفته به، وذكر كفره لما ارتكب من الكبائر بربه، وكذلك: كل من ارتكب كبائر تسخط من أحسن إليه -فقد كفره، ومن أتى ما يرضاه، وتولى أولياءه، وعادى أعداءه -فقد شكره. ولما جمع أهل الكتاب والمشركين من كبائر عصيان رب العالمين -دعوا جميعا: كفرة، وإن كانت قلوبهم كلهم وألسنتهم بالله مقرة، فقال: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين﴾، تأويل ذلك: أنهم لم يكونوا مقصرين، ولا تاركين لما هم عليه، وعاصين لله فيه.

﴿حتى تأتيهم البينة (١)﴾ المنيرة الظاهرة؛ فقال: ﴿رسول من الله يتلو صحفا مطهرة (٢)﴾، و ﴿يتلو﴾: يقرأ، ويتبع بعد القراءة ما اقترأ، والصحف: ما صحف ليقرأ، والمطهرة: ما جعل منها بركة وتطهرة، وبينات منيرة مسفرة. وكل مطهر: فمبارك، وكل مبارك: فمطهر له، وفيه بالله البركة والتطهرة؛ وكذلك يقال في الرسول عليه الصلاة والسلام، إذا ذكر بما جعل الله من البركة فيه:" رسول الله الطيب الطاهر "، وهو قول الكثير عند ذكره الطاهر، عندما يذكره بذلك صلى الله عليه وآله وسلم من الصادقين كل ذاكر، وإنما يراد بذلك:

المبارك المزكى، وليس يراد بذلك طهارته بالماء إذا توضأ. وكذلك يقال في ابنته فاطمة صلوات الله عليها، إذا قيل:" الطاهرة " إنما يراد بذلك: ما جعل من البركة فيها، ومن ذلك: ما وهب لها وجعل؛ لبركتها، من بقية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونسله صلوات الله عليه وعلى آله. فهذا - والله محمود - من تأويل الطهارة و﴿مطهرة﴾، ومن وجوهه المعروفة غير المستنكرة؛ لا يجهل ذلك - إن شاء الله - ولا ينكره، من يعرف لسان العرب ويبصره.

وتأويل: ﴿فيها كتب قيمة (٣)﴾ هو: كتب منيرة، بينة محكمة، لها نور وبرهان واحتجاج، ليس فيها اختلاف ولا اعوجاج.

ثم ذكر سبحانه: ما ذكرنا من افتراق أهل الكتاب واختلافهم، وما هم عليه اليوم وقبل اليوم بتشتيت أصنافهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة (٤)﴾، والبينة فهي: الرسل، والأمور التي جاءتهم النيرة المبينة، وهي: التي ليس فيها دلسة، ولا عماية جليلة ولا لبسة؛ ولكنها بينة نيرة مضيئة، ظاهرة لمن يعقلها جلية؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾؛ فأمروا ليعبدوه - جل ثناؤه - وحده، فعبدت النصارى المسيح رسوله وعبده، وأمروا ليخلصوا له الدين، ولا يجعلوا له ولدا؛ فجعلوا له ولدا، وجعلوه كلهم ثالث ثلاثة عددا؛ وفيهم: ما يقول سبحانه: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد﴾ [المائدة: ٧٣]؛ فهو الله الأحد الصمد، الذي ليس له ولد ولا والد. وقالت اليهود كما قال الله جل جلاله، عن أن يساويه شيء ويماثله: ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة: ٣٠]، فلحقوا بالنصارى في الكفر بالله، وشبهوا الله ببعض حالات خلقه في الهيئة والقوى، وزعموا: أنه جالس على عرش هو سرير، وأنه لا يتوهم له قرار في جو ولا هواء؛ فإن له مقعدا من العرش والكرسي ومستوى. وتأول من شبهه من هذه الأمة في ذلك: ما يقول الله سبحانه: ﴿الرحمن على

العرش استوى (٥)﴾ [طه].

وأمروا أن يكونوا ﴿حنفاء﴾، فكانوا جورة حيفا، والحنيف هو: الطائع، المستقيم الخاشع.

وأمروا أن يصلوا له، فصلوا لغيره معه، فمنهم: من صلى لأثرة صنم، ومنهم: من صلى لعيسى بن مريم صلى الله عليه، ومنهم: من صلى لمن شبهه بآدم صلى الله عليه في الصورة واللحم والدم، ومنهم: من صلى لمن هو عنده نور من الأنوار، وجسم مسدس المقدار، له – زعم – جهات ست: خلف وأمام، ويمين ويسار، وفوق وتحت؛ فتعالى الله عما قالوا كلهم علوا كبيرا، وجل وتقدس عن أن يكون لنفسه من خلقه مثلا ونظيرا؛ وكيف يكون عابد ذليل كعزيز معبود؟! ومن لم يزل دائما –مشبها لما كان طول الدهر غير موجود؟!

ثم قال سبحانه في دينه وصفته: ﴿ذلك دين القيمة (٥)﴾، تأويل ذلك: أن كل ما أمر به فمن الأمور المرشدة الهادية المستقيمة.

﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية (٦)﴾، فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بالله – مع إقرار الفريقين بالربوبية لله – فهم كما قال الله: شر البرية، بما كان منهم على الله من الدعوى المبطلة المفترية. والبرية: فما ذرأ الله وبرأ، مما يرى الخلق كله، ولا يرى. ونار جهنم فهي: النار التي لا يعرف في النيران مثلها، ولا يعلم منها كلها مشبها لها، فيما عظم الله من نارها، وحر استعارها. وتأويل ﴿خالدين﴾ فهو: غير فانين ولا بائدين، كما قال سبحانه: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور (٣٦)﴾ [فاطر]، فنار جهنم هي: النار المستعرة، التي ليس لاستعارها أبدا من انكسار ولا فتور، ولو فترت من استعارها والتهابها –لكان في ذلك تخفيف عن أهلها من عذابها.

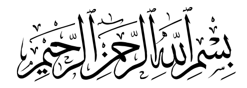
﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية (٧) جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه (٨)﴾:

فمن آمن فهم: المؤمنون من كبائر العصيان، والذين لا يخافون على ارتكاب زور ولا بهتان، ما ثبت لهم أبدا اسم الإيمان، وحكم أهل الهدى والبر والإحسان. والصالحات من الأعمال فهي: كل صالح عند الله من قول أو أفعال.

وجزاؤهم هو: ثوابهم من الله وعطاؤهم. وتأويل ﴿جنات عدن﴾ هو: جنات مستقر وأمن. وتأويل ﴿رضي الله عنهم﴾ هو: رضاء الله سبحانه لهم. ﴿ورضوا عنه﴾ فتأويل رضاهم فهو: بما أعطاهم وجزاهم؛ بأنهم لم يزالوا راضين عنه جل ثناؤه في دنياهم، قبل مصيرهم إلى ما صاروا. ثم أخبر سبحانه: لمن جعل جزاءه، فقال: ﴿ذلك لمن خشي ربه (٨)﴾، يعني: لمن خافه واتقاه؛ فأخبر جل جلاله: أنه جعل لأهل التقوى الكرامة والرضى، والارتضاء في المعاد والمأوى. وتأويل: ﴿خالدين فيها﴾ فهو: بقاؤهم أبدا، بعد المصير إليها.

سورة الزلزلة

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



وسألت أبي صلوات الله عليه عن: قول الله سبحانه: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها (١) وأخرجت الأرض أثقالها (٢)﴾؟

فتأويل ﴿زلزالها﴾ هو: ما ينزل بها وبأهلها، من أمر الساعة وأهوالها. وفي ذلك ما قلنا به من بيانه: ما يقول الله سبحانه في يوم الساعة وأهواله: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم (١)﴾ [الحج]، ومن بيان ما قلنا به في الزلزلة من القول، وأنه من الشدائد والهول: قول رب العالمين، عند نزول الشدة والهول في يوم الأحزاب بالمؤمنين: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (١٠) هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (١١)﴾ [الأحزاب].

تأويل إخراج الأرض لأثقالها فهو: طرحها لما كان عليها من أحمالها، والأثقال هي: الأحمال، وأحمال الأرض: فما جعل الله عليها، وكان من الثقل - الذي هو الإنس - ساكنا فيها، من ميت وحي، وفاجر وتقي؛ وكيف لا تكون مخرجة لهم منها، وكلهم فمنتقل إلى دار القرار عنها؟! وأرض الحياة الدنيا - فأرض بائدة فانية، وأرض دار القرار -خالدة باقية؟! ومن أثقال الأرض: من في قبورها، ومن كان من الموتى على ظهورها. فمن كل ذلك طائعة تتخلى، من قبل أن تبيد وتبلى؛ وفي تخليها من ذلك كله، وإخراجها عنها له: ما يقول الله جل جلاله، من أن يحويه قول أو يناله: ﴿وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤)﴾ [الانشقاق]، تأويل ذلك: أوحشت الأرض من أهلها وأخلت،

فنشر موتاها نشرا، وحشر الموتى إلى الموقف حشرا.

وعند ذلك من حالها، وما يخرج من أثقالها -يقول ﴿الإنسان﴾ - والإنسان هو: الناس كلهم، عندما يرون من زلزالها، وإخراجها لما كان فيها من أثقالها -: ما للأرض وما شأنها؟

فتحدث الأرض حينئذ بخبرها أعيانها: بأن الله سبحانه قد ﴿أوحى لها (٥)﴾، فقطع مدتها وأجلها، فحان فناؤها، وانقطع بقاؤها.

فـ ﴿يومئذ يصدر الناس﴾ - كما قال الله سبحانه -:﴿أشتاتا ليروا أعمالهم (٦)﴾. وتأويل ﴿أشتاتا﴾ هو: يصدرون عن موردهم في حشرهم صدرا أشتاتا متفاوتا: فريق في الجنة، وفريق في السعير، خالدا كل فريق منهم فيما صار إليه من مصير.

فيرى كل من عمل مثقال ذرة من خير وشر -ما قدم لنفسه من عمل في فجور أو بر، كما قال سبحانه: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨)﴾، فتأويل " يراه " فهو: يجزاه.

سورة العاديات

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



وسألت أبي رحمة الله عليه عن: قول الله سبحانه: ﴿والعاديات ضبحا (١) فالموريات قدحا (٢) فالمغيرات صبحا (٣)﴾؟

فـ﴿العاديات﴾: من كل ذات ظلف أو حافر صلب أو خف، من كل بهيمة جنية وحشية أو إنسية. وتأويل قوله: ﴿ضبحا (١)﴾ فهو: عدوا ومرحا.

و ﴿الموريات قدحا (٢)﴾ فهو: ما يورين ويقدحن، إذا عدون وضبحن، بصلابة الأظفار والحوافر والأخفاف، من نار الحجارة والحصاة، والأرض الصلبة الخشناء، فيورين النار من ذلك كله بإيقاد، كما تورى وتوقد النار بالزناد.

و ﴿المغيرات صبحا (٣)﴾ فيما أرى - والله أعلم – خاصة: الخيل؛ بينهن وبين غيرهن من ذوات الحافر، في العدو والقدر واليمن -من الفرق النير الجليل. ولخاص ما فيهن من النعمة والبركة والخير قدمن إن شاء الله في الذكر على البغال و الحمير، فقال الله سبحانه: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨)﴾ [النحل].

وتأويل ﴿فأثرن به نقعا (٤)﴾، والنقع هو: الغبار المثار.

﴿فوسطن به جمعا (٥)﴾ هو: توسطهن بغبارهن للجمع الذي عليه كان المغار.

وتأويل ﴿إن الإنسان لربه لكنود (٦)﴾ فهو: الكافر لنعم الله بكبائر عصيانه، الفاجر العنود.

وتأويل: ﴿وإنه على ذلك﴾ من حاله وعداوته ﴿لشهيد (٧)﴾ لربه بنعمته وإحسانه، بما يرى عليه من النعمة والإحسان، وما بين فيه من حسن الصنع والإتقان.

وتأويل ﴿وإنه لحب الخير لشديد (٨)﴾ فهو: أنه لمحب للخير مريد، لا يضعف فيه ضعفه في غيره، من طاعة الله وأمره ودينه؛ وكفى بذلك فيه شرا، ومنه لربه فيه كفرا.

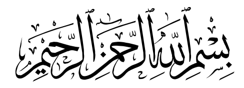
﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور (٩)﴾ من عظام الموتى.

﴿وحصل ما في الصدور (١٠)﴾ مما يبطن اليوم من غير الله ويخفى، وما سيظهر حين يحاسب كل امرئ ويجزى.

﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير (١١)﴾، ﴿يومئذ﴾: يوم البعثرة والتحصيل. ﴿لخبير﴾: لا يخفى عليه منهم يومئذ خير ولا شرير، وكما لا يخفى عليه اليوم من أعمالهم صغير ولا كبير.

سورة القارعة

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿القارعة (١) ما القارعة (٢) وما أدراك ما القارعة (٣)﴾، فالقارعة: ما هال من الأمور وقرع، وهجم على أهله بغتة بأهواله فأفزع.

وأما تأويل " ما أدراه " فهو: تعظيم منها لمرآه، وما سيعانيه فيها ويراه، من الأهوال والأمور الفادحة، وجزاء الأعمال الصالحة والطالحة، حين تقوم القيامة، وتدوم الحسرة والندامة، على كل خائب وخاسر، وظالم معتد فاجر؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه، عند بعثه فيها لخلقه المبعوث: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (٤)﴾.

وتأويل ﴿يكون﴾ فهو: يصير، والفراش: فطير صغير، خفيف عند من يراه حقير، من همج الأرض والطير، تمثل به العرب في الكثير؛ لأنه كثير ضعيف، وطير محتقر خفيف؛ فتقول إذا استكثرت شيئا أو استضعفته، واستقلت وزنه فاستخفته:" ما هذا إلا كالفراش في الخفة والقلة "، وللقوم إذا استكثروهم:" كالفراش في الكثرة والجمة ". وانبثاثه فهو: انبعاثه متحيرا وطائرا، في كل وجهة من الجهات، يموج ويصدم بعضه بعضا في تلك الوجوه المختلفات؛ فمثل الله سبحانه الناس في يوم البعث -بما وصفنا من الفراش المنبث، الذي يموج بعضه في بعض، ويسقط تهافتا على الأرض؛ لما ذكرنا من كثرته، وموجه وحيرته، واختلاف جهاته.

ويومئذ يدعوهم من تلك النواحي المختلفات -الداعي، فيستجيبون لدعوته كلهم جميعا باستماع، كما قال سبحانه: ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾ [طه:

١٠٨]، تأويلها: لا اختلاف لهم بعد معه، كما كانوا يختلفون في المذاهب قبل دعائه، وما سمعوا وهم في حيرتهم من ندائه، كما قال سبحانه: ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب (٤١)﴾ [ق]، وهو يوم الإصاخة بالأسماع؛ لتسمع صوت المنادي الداعي؛ وفي ما ذكرنا من هذه الإصاخة: ما قيل في يوم الصاخة: ﴿فإذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧)﴾ [عبس].

وتأويل: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥)﴾، فالعهن هو: الصوف الناعم، الذي ليس يفرد، وذلك من الصوف -فما يلين للنفش في اليد، وينتفش ويتجافى، ويعود خفيفا أجوفا، وقد تفرقت أجزاؤه، وبان جفاؤه فعاد قليله كثيرا، وصغيره كبيرا؛ لتحلله وتمزقه، وتزايله وتفرقه؛ كذلك تبلى الجبال إذا بليت، وتفنى يوم القيامة إذا فنيت، فتكون كالسراب الرقراق، في الفناء والتهيؤ والامتحاق.

وفي جزاء الأعمال، بعد تلك الأهوال -يقول الله سبحانه: ﴿فأما من ثقلت موازينه (٦)﴾، تأويلها: من ثقل في الوزن بره وإحسانه، فيسعد بثقله، وثقل بعمله.

وتأويل ﴿في عيشة راضية (٧)﴾ فهو: في عيشة مرضية زاكية.

وإنما يعرف أمر الخفة يومئذ واليوم والثقل: بما يعرف منها اليوم في الحال، والقدر والعمل، وليس نعلم الخفة والثقل يومئذ في المقادير والأوزان -بمثاقيل يوزن بها من خف وثقل وجرمان؛ ولكنه يعرف - والله محمود - بما ذكرنا من العبرة والبيان، وما تعرفه العرب العاربة في اللغة واللسان.

﴿وأما من خفت موازينه (٨)﴾، فتأويله: من خف به فسقه وعداوته.

﴿فأمه هاوية (٩)﴾، تأويل ﴿ـــأمه﴾ فهو: من مصيره ومهواه وما أمه؛ ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿وما أدراك ما هيه (١٠) نار حامية (١١)﴾،

فكانت النار الحامية التي صار إليها أمه التي نسبه الله إليها؛ إذ كانت له مقرا ومأوى، وقر به فيها المصير والمثوى، والنار الحامية فهي: التي لا يطفيها مطفية، ما كانت باقية أبدا، والتي من دخلها كان فيها مخلدا.

سورة التكاثر

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿ألهاكم التكاثر (١) حتى زرتم المقابر (٢)﴾:

فتأويل ﴿ألهاكم﴾ هو: أغفلكم عما عليكم في المعاد، ولكم بما أنتم فيه من تكاثركم بالولد والمال والعشائر، وتفاخركم بما في ذلك عندكم من الخيلاء والمفاخرة؛ ولذلك وبه شغلوا، وألهوا فغفلوا، بكدهم فيه، وكدحهم وتكالبهم عليه، وشحهم عن رشادهم، وتيقن معادهم. ولما في التكاثر بالأموال، وما في التشاغل بالتكاثر من الاشتغال -طهر الله منه خيرته من الرسل والأبرار، فلم يكونوا بأهل مكاثرة ولا بتجار.

وتأويل ﴿زرتم المقابر (٢)﴾ هو: مصيرهم إليها، واتصالهم بالآخرة وإشرافهم عليها.

وتأويل: ﴿كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون (٤) كلا لو تعلمون علم اليقين (٥)﴾ هو: تكرير من الله تبارك وتعالى في ذلك كله عليهم؛ للتعريف والتبيين؛ ألا ترى كيف يقول سبحانه: ﴿لترون الجحيم (٦) ثم لترونها عين اليقين (٧)﴾، يقول جل ثناؤه: لترون ما وعدتم منها رأي العين عين يقين.

وتأويل ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم (٨)﴾ هو: لتوقفن حينئذ على ما كنتم فيه قبل متوفاكم، وفي حياتكم ودنياكم -من النعيم والمن العظيم، الذي كانوا ينعمون به في الحياة الدنيا وبقائها، وقبل ما صاروا إليه من الآخرة وشقائها.

وليس مما نزل من الله عز وجل من آياته، في هذه السورة ولا غيرها، طويلة

ولا قصيرة، إلا وفيها - بمن الله - دلالات خفية، باطنة وظاهرة منيرة؛ ففي أقل ظاهرها ما كفى وأغنى، وفي خفيها من الحكمة والبركة ما لا يفنى.

سورة العصر

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿والعصر (١) إن الإنسان لفي خسر (٢)﴾:

فـ﴿العصر﴾ قد يكون من: آخر النهار، ويكون من: الدهر؛ فأشبه ذلك - والله أعلم - بالتأويل، وما يصح فيه من الأقاويل: أن يكون العصر الذي بعد الظهر، لا العصر الذي من الدهر؛ وإن كان كل ذلك وقتا، وكان ذلك لكلا الوقتين نعتا -كان أفضل الأوقات: ما كان لصلاة من الصلوات، وكان تأويل القسم به أشبه، وأفضل وأوجه، والله أعلم وأحكم، وكان تأويل أنه قسم -كما أقسم بالفجر والليالي العشر؛ لفضلهما وقدرهما، وما ذكر الله من أمرهما. والعصر والإعصار من النهار فهو: بعد الظهر والإظهار، وإذا كان الدهر وقتا كله -كان ما كان منه للصلوات هو أفضل، والأفضل هو الأولى بالتقدم في القسم وغير القسم.

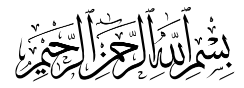
وأما تأويل الخسر فهو: النقص في الخير والبر. ولم يكن من الناس في خير ولا بر فهو - كما قال الله عز وجل -: ﴿لفي خسر﴾، وكان الناس: فغير مفلح ولا رابح، إلا من عمل لله بعمل صالح، كما قال الله سبحانه: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣)﴾.

وتأويل الإيمان: فترك كبائر العصيان. وتأويل: ﴿وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٣)﴾ فهو: عملهم لله صالحات، وهي أولى الأعمال بهم؛ لما فيها من رضى ربهم، وصلاحهم وصلاح غيرهم. وتواصيهم بالحق فهو: تآمرهم بطاعة الحق. وتواصيهم بما ذكر من الصبر هو: تآمرهم

بالمقام على البر، وعلى ما يعارضهم في المقام عليه، من اليسر والعسر، وما يقاسون فيه من منابذة المبطلين، ومن ليس بمراقب، ولا متق لرب العالمين، من الفجرة المستهترين، والجورة المتغلبين المتمردين.

سورة الهمزة

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿ويل لكل همزة لمزة (١) الذي جمع مالا وعدده (٢) يحسب أن ماله أخلده (٣) كلا لينبذن في الحطمة (٤) وما أدراك ما الحطمة (٥) نار الله الموقدة (٦) التي تطلع على الأفئدة (٧) إنها عليهم مؤصدة (٨) في عمد ممددة (٩)﴾:

تأويل ما ذكر الله من الويل: ما يعرف من الحرقة والعويل، والخزي الكبير العظيم الجليل، والهمزة فهو: من يغتاب صاحبه ويغمزه، والهمزة فهو: الذي يعيب حقا أو محقا ويهمزه، والهمزة فهو: الباخس المغتاب. واللمزة هو: الهامز العياب.

وجمعه للمال فهو: اكتنازه له واجتهاده، وتعديده له فهو: إرصاده له، وإعداده بما في يده من ماله -لما يخشى من نوائب حاله.

وتأويل: ﴿يحسب﴾ هو: أيحسب؛ استفهاما وتوقيفا، وتبيانا له وتعريفا، على أن ما جمع وأعد من مال لنوائب مكروه بحال -لن يخلده فينقذه، ولن يدفع عنه ويقيه فيه ما يخشى ويتقى من مكروه النوائب؛ كيف لا؟! وهو لا يدفع عنه من الموت أكبر المصائب، لا ينتفع عند الموت به، ولا بكده فيه وكسبه، وكذلك كلما أراده الله به من كبر ضر سوى الموت -فليس يقدر له بجمع ماله وإعداده على خلاص ولا فوت في عاجل دنياه.

وكذلك هو في مثواه يوم القيامة إذا نبذ في الحطمة، ونبذه فيها إلقاؤه إليها؛ والحطمة فهي: الأكول لأهلها، باستعارها وحرها، وهي: النار التي جعل الله

وقودها - كما قال سبحانه - بما جعل من حجارتها، وأهلها في قرارها؛ وفي ذلك ما يقول تبارك وتعالى للمنذرين: ﴿ٱتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (٢٤)﴾ [البقرة]، فنار الآخرة جعلت نارا فطرها الله يومئذ افتطارا، من غير حديد ولا حجر ولا شجر، ولا أصل لها قبلها مفتطر، كما نراه من هذه النار التي جعل أصلها من الحجر والأشجار، كما قال سبحانه: ﴿أفرأيتم النار التي تورون (٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون (٧٢)﴾ [الواقعة]، ولو كانت نار الآخرة كهذه النار -لكان وقودها بما توقد هذه النار من أشجار؛ ولكن الله عز وجل جعل أصلها حجارتها التي فيها وأهلها، فتوقدت واستعرت لذلك بهم، كما يوقد أهل هذه النار نارهم بحطبهم، فأهلها حطبها، كما هم حصبها، كما قال الله سبحانه: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون (٩٨)﴾ [الأنبياء]، فأهل جهنم بخلودها ودوام وقودها -فيها خالدون، لا يفنون أبدا ولا يبيدون، كما يعود الحطب رمادا جامدا، ورفاتا خامدا، كذلك تعود جلود أهل النار نار الآخرة رفاتا، وشيئا هامدا باليا مائتا، فيجدد الله ذلك بعد بلائه وتهافته تجديدا؛ ليخلد الله بالتجديد له أهل النار فيها تخليدا، كما قال سبحانه: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما (٥٦)﴾ [النساء]؛ فنار الآخرة أبدا بحجارتها وأهلها موقدة، وحجارتها وجلود أهلها كلما بليت فمعادة؛ تقدير من عزيز حكيم، لبقاء عذاب الجحيم.

وتأويل قوله: ﴿تطلع على الأفئدة (٧)﴾، فهو: ما يصل إلى قلوب أهلها من الكرب والشدة.

وتأويل: ﴿عليهم مؤصدة (٨)﴾ فهو: مطبقة مغلقة، وإغلاق جهنم فهو: ما ذكر الله عز وجل من أبوابها، والإيصاد للأبواب الذي هو: التغليق عليهم -فهو من شدة عذابها، وما ذكر الله من الإطباق والغلق -فهو أكبر الغم والألم

والحرق، كما قال سبحانه: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون (٢٠)﴾ [السجدة].

وتأويل ﴿في عمد ممددة (٩)﴾، بعد ذكره تبارك وتعالى المؤصدة –فهو: ما يغلق به أبواب جهنم المؤصدة المطبقة، من عمد معروضة، على أبوابها ممدودة، كالمهاج والأوصاد التي تجعل على الأبواب المغلقة، وذلك من الإغلاق والغلق –فأوثق ما يغلق به كل مغلق أراد إغلاق الباب أو إطباقا؛ وذلك: أنه يأخذ ما في طرفي المغلق كله، وليس يأخذ ذلك من الأغلاق كلها غلق، وإنما يغلق كل غلق من الأبواب ما يغلق: إن كان قفلا –فإنما يغلق واسطة الأبواب، وإن كان غير ذلك فإنما يغلق جانبه من كل باب، فأما المهج والوصد فيغلق الباب كله، ويستقصي في الغلق آخره وأوله، ولاسيما إذا كان ممتدا ثابتا: مهجا كان أو وصدا؛ فأبواب جهنم وأغلاقها كلها –كالمقامع التي ذكر الله من الحديد لا تبيد، كما مقامع أهلها فيها إذا أرادوا أن يخرجوا منها: حديد، كما قال سبحانه: ﴿ولهم مقامع من حديد (٢١)﴾ [الحج].

ألا فسبحان من جمع في جهنم ما جمع، من أنواع الخزي والضيق للظلمة الملحدين، فقيل في يوم البعث لهم جميعا: ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين﴾ [غافر: ٧٦].

سورة الفيل

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١) ألم يجعل كيدهم في تضليل (٢) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤)﴾:

معنى ﴿تر﴾ في مخرج التأويل -ليس هو برؤية العين؛ ولكنه علم اليقين؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير ذلك بعينه؛ ولكنه رآه بعلمه ويقينه، وبها ذكر الله جل ثناؤه عنه، ووصفه الله به منه. وسواء قيل: ألم تر، أو قيل: ألم تعلم؛ معناهما واحد في اليقين والعلم. وتأويل ﴿كيف فعل ربك﴾ هو: كيف صنع، و﴿أصحاب الفيل﴾ فهم: من جاء معه، أو بعث به وإن تخلف عنه؛ فكل من كان -للفيل صاحبا: من بعث وإن لم يصحبه، ومن كان له مصاحبا.

وتأويل ﴿كيدهم﴾ فهو: إرادة مريدهم، والإكادة فهي: الإرادة، كما قال الشاعر:

كادت وكدت وتلك خير إرادة ... لولا الوشاة بأن نكون جميعا

وذلك: أن أصحاب الفيل كادوا - ومعنى ذلك هو: أرادوا -: أن يخربوا الكعبة، ويجعلوها متهدمة خربة؛ لأن العرب خربت كنيسة كانت يومئذ للحبشة، وكان يومئذ فيهم وملك عليهم رجل من العرب من أهل اليمن، يقال له: أبرهة بن الصباح، وكان يدين دينهم، فهو الذي بعثهم.

فأرسل الله سبحانه على أصحاب الفيل - كما قال تبارك وتعالى -: ﴿طيرا أبابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف مأكول (٥)﴾، لا

يصيب حجر منها أحدا إلا قتلته وأهلكته، ولم يكن له بقاء معه ولا بعده.

والطير الأبابيل فهي: الطير الكثير الأراعيل ، التي تأتي من كل جهة، ولا تأتي ناحية واحدة.

والسجيل فهو فيما يقال: الطين المستحجر، الصلب الذي ليس فيه لين، فهو لا يقع على شيء إلا حطمه، وفته وهشمه، وجعله - كما قال الله سبحانه - كالعصف المأكول.

والعصف فهو: عاصفة قصب الزرع البالي المدخول، الذي قد دخل وأكل، وتناثر وتهلهل، والمأكول منه فهو: الذي جوف له، والذي قد انهت جوفه كله .

وهذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن علي العياني عليه السلام:

وسألت عن سورة: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١)...﴾ إلى آخرها؟

الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله جل اسمه: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١)﴾.

معنى: ﴿ألم تر﴾ هو: ألم تعلم. ومعنى: ﴿فعل﴾ هو: صنع. ومعنى: ﴿بأصحاب الفيل﴾ هم: السائرون مع الفيل.

وقال: ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل (٢)﴾

معنى: ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل (٢)﴾ هو: نصرف مرادهم في هلاك وتخيل.

وقال جل اسمه: ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣)﴾.

معنى: ﴿وأرسل عليهم﴾ فهو: سلط عليهم. ومعنى: ﴿أبابيل﴾ فهو: الكثير

غير القليل.

وقال جل اسمه: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل (٤)﴾.

ومعنى: ﴿ترميهم بحجارة من سجيل (٤)﴾ هو: ظاهر لا يحتاج إلى تأويل. ومعنى: ﴿سجيل﴾ فهو: الطين المستحجر الصلب الذي ليس فيه لين؛ فهو لشدته لا يقع على شيء إلا هشمه وحطمه.

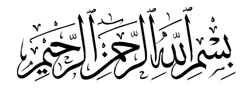
وقال جل اسمه: ﴿فجعلهم كعصف مأكول (٥)﴾.

ومعنى: ﴿فجعلهم كعصف مأكول (٥)﴾ فهو: إخبار من الله أنه فعل بهم من العذاب ما عادوا بعده يشبهون بالعصف المأكول، وهو: القصب المقطوع الذي قد أخذت أعاليه، وبقيت أسافله في الأرض قياما على أصولها. ومعنى: ﴿مأكول﴾ هو: بال مدخول.

وأما خبر هذه السورة، وما ذكر أنها نزلت من أجله: فإنه يروى أن العرب خربت كنيسة كانت يومئذ للحبشة، وكان يومئذ فيهم رجل من العرب من أهل اليمن، يقال له: إبراهيم بن الصباح، وكان يدين دينهم؛ فهو الذي بعثهم، فأرسل الله عليهم الطير؛ وهي فيما يروى: هذه الطير الخفاف التي تسمى الخطاطيف، ويروى: أن الحجارة التي رموا بها كانت من الصغر على غاية؛ فكان الحجر منها تقع على رأس الإنسان فلا يبرح ينحدر، أو تقع على جوفه فتحرقه، حتى لا تبقي في جوفه شيئا من أمعائه ولا غيرها؛ فهذا ما روي من حديث هذه السورة، والله أعلم بحقيقة ذلك.

سورة قريش

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿لإيلاف قريش (١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢)﴾:

المعنى هو إلفهم وإيلافهم. فقريش – من: أنفسهم وحليفهم، ومن جاورهم في الحرم ولفيفهم –: فكل من كان يسكن في الحرم في مسكنهم، ويأمن بمكانه معهم في الحرم بأمنهم، ويرحل معهم إذا أراد أمنا الرحلتين، وينتقل معهم الطعام والإدام معهم في السنة نقلتين.

لا يعرض لهم أحد من العرب بقطع في الطريق، وليسوا في شيء مما فيه غيرهم من الخوف والضيق، والعرب كلهم خائفون جياع، وهم كلهم آمنون شباع؛ لحرمة البيت عند العرب وتعظيمه وإجلاله، ولإكبارهم القطع على سكان الحرم ونزاله.

فذكرهم في ذلك تبارك وتعالى بنعمته، وبما من به تعالى من بركة الحرم وحرمته؛ وفي ذلك وذكره، وما ذكرنا من أمره: ما يقول الله سبحانه: ﴿أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون (٥٧)﴾ [القصص]، وفيه: ما يقول الله سبحانه: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (٦٧)﴾ [العنكبوت].

وتأويل ﴿فليعبدوا﴾ هو: فليوحدوا، ومعنى " فليوحدوا " فهو: ليخلصوا، ومعنى " ليخلصوا " فهو: ليفردوا بعبادتهم، وليخصوا ﴿رب هذا البيت (٣)

الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤)﴾، الذي بمكانهم منه وبما كان من مجاورتهم له -أطعموا من جوع، وأومنوا من خوف، فلم يجوعوا جوع الجائعين، ولم يخافوا خوف الخائفين، فكلهم يعلم ويقول: إن البيت بيت الله ذي الجلال والإكرام، لا بيت ما عبدوا دونه من الملائكة والأصنام، وأن الله سبحانه هو الذي حرم الحرم، وجعل له تبارك وتعالى الجلالة والكرم، لا الملائكة المقربون، ولا الأصنام التي يعبدون، وأمرهم جل ثناؤه أن يعبدوه وحده، وأن يوجبوا شكره وحمده، على ما صنع لهم وأولاهم، ووهب لهم بحرمة بيته وأعطاهم.

سورة الماعون

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿أرأيت الذي يكذب بالدين (١) فذلك الذي يدع اليتيم (٢) ولا يحض على طعام المسكين (٣) فويل للمصلين (٤) الذين هم عن صلاتهم ساهون (٥) الذين هم يراءون (٦) ويمنعون الماعون (٧)﴾:

قال عليه السلام:

تأويل ﴿أرأيت﴾ هو: تعريف، وتبيين من الله وتوقيف، لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولمن آمن بما أنزل من الوحي والكتاب إليه، لا رؤية مشاهدة وعيان؛ ولكن رؤية علم وإيقان، كما يقول القائل لمن يريد أن يعرفه شيئا إذا لم يكن ذلك الشيء له ظاهرا جليا:" أرأيت كذا وكذا "، يعلم علمه، يريد بـــ" أرأيت ": توقيفه على أن يعرفه ويعلمه على حدود ما فهمه منه وأعلمه.

فأعلم الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن نزل عليه معه وبعده -هذا البيان: أن الذي يكذب بيوم الدين، من الناس أجمعين – ويوم الدين فهو: يوم يجزي الله جل ثناؤه العاملين بما كان من أعمالهم، في هداهم وضلالهم، وهو: يوم البعث، حين يدان كل امرئ بذنبه، ويرى المحسن والمسيء جزاء العامل منهما يومئذ بعينه؛ وتكذيب المكذب بيوم الدين فهو: ارتيابه وإنكاره فيه لليقين –، وذلك ومن كان كذلك فهو: الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين.

لارتيابه فيه وتكذيبه، ولقلة يقينه به دع اليتيم – ودعه له هو: دفعه عن حقه

ومنعه ، وتكذيب المكذب بالدين -، ولم يحض غيره على إطعام المسكين.

وفيه وفي أمثاله: ما يقول الرحمن الرحيم: ﴿ويل للمصلين (٤)﴾، يعني: من غير أبرار المتقين، وهم: الفجرة الظلمة المنافقون، ﴿الذين هم﴾ - كما قال الله سبحانه - ﴿عن صلاتهم ساهون (٥)﴾، والساهون فهم: الذين عن صلاتهم ووقتها لاهون، ليس لهم عليها إقبال، ولا لهم بحدود تأديتها اشتغال؛ فنفوسهم عن ذكر الله بها ساهية، وقلوبهم بغير ذكر الله فيها لاهية.

﴿الذين هم يراءون (٦)﴾، وهم: المراؤون، الذي ترى منهم عيانا الصلاة، وقلوبهم بالسهو والغفلة عن ذكر الله مملاة.

﴿ويمنعون الماعون (٧)﴾، وهو: ما جعل الله فيه العون، من المرافق كلها، التي يجب العون فيها لأهلها، من غير مفروض واجب الزكوات، وما ليس فيه كثير مؤنة من المعونات، مثل: نار تقتبس، أو رحى أو دلو يلتمس، وليس في بذله إضرار بأهله؛ وكل ذلك وما أشبهه -فماعون يتعاون به، ويتباذله بينهم المؤمنون، ومانعوه بمنعه له من طالبه -فمانعون، وهم كلهم بمنعه لغيرهم - فذامون.

وما ذكر الله سبحانه من قوله: ﴿فويل للمصلين (٤)﴾ -فقول لمن كان قبله، من ذكره بمنع الماعون -موصول في الذم والتقبيح، وما يعرف في التقبيح فصغيره صغيرة، وكبيره كبيرة، وكله عند الله فمسخوط غير رضى، وخلق دني من أهله غير زكي، تجب مباينته، ولا تحل مقارنته، إلا لعذر فيه بين، وأمر فيه نير.

والحمد لله مقبح القبائح، والمنان على جميع خلقه بالنصائح، الذي أمر بالبيان والإحسان، ونهى عن التظالم والعدوان.

سورة الكوثر

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿إنا أعطيناك الكوثر (١)﴾، تأويله: آتيناك، وآتيناك: وهبناك الكوثر، والكوثر فهو: العطاء الأكبر؛ وإنما قيل:" كوثر " من الكثرة، كما يقال:" غفران " من المغفرة. فعرف الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وغيره من عباده -بما من به عليه من نعمته، ومنه وإرشاده، التي أقلها برحمة الله كثير، وأصغرها بمن الله كبير، لا يظفر به إلا بمن الله، ولا يصاب أبدا إلا بالله.

وتأويل: ﴿فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الأبتر (٣)﴾ -فأمر منه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: بأن يصلي صلاته كلها لربه - وربه فهو: الله تبارك وتعالى، الذي أنعم عليه من النعم والكرامة بما أنعم به -؛ لأنه قد يصلي كثير من المصلين لغير الله مما يعبدون، ويصلي أيضا بعض أهل الملة بالرياء، وإن كانوا يقرون ويوحدون.

وأمره سبحانه إذا نحر شيئا من النحائر قربانا لربه: ألا ينحره عند نحره له إلا لله وحده ربه؛ لأنه قد كان ينحر أهل الجاهلية للأصنام والأوثان، ويشركون في نحائرهم بينها وبين الرحمن، ويذكرون أسماء آلهتهم عند نحرها، ويذكرون الله جل ثناؤه عند ذكرها؛ وفي ذلك: ما يقول الله سبحانه: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ [الأنعام: ١٢١]، يعني: اسمه خالصا، وما لم يكن له جل ثناؤه من النحائر والذبائح خالصا.

وأخبر سبحانه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن من شنأه فأبغضه من البشر -فهو مخذول ذليل أبتر، ليس له عز مع بغضه له وشنآنه ولا منتصر؛

إكراما من الله لرسوله صلى الله عليه وعلى آله، وإخزاء لمن شنأه وأبغضه، ولم يؤد إلى الله في محبته فرضه؛ فنحمد الله على ما خص رسوله من كراماته، وأوجب على العباد من محبته وولايته.

وقد قيل: إن الكوثر نهر في الجنة خص الله رسوله به، وجعله جل ثناؤه في الجنة له.

وقالوا: إن شانئه الأبتر، المذكور في هذه الآية قصده -هو: عمرو بن العاص السهمي خاصة.

وتأويل ذلك إن شاء الله وتفسيره هو: كل من شنأه، عمرو كان أو غيره.

سورة الكافرون

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿قل يا أيها الكافرون (١) لا أعبد ما تعبدون (٢) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٣) ولا أنا عابد ما عبدتم (٤) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٥) لكم دينكم ولي دين (٦)﴾.

فهو: أمر من الله جل ثناؤه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم -أن يقول لمن كفر بربه، ولم يوقن بما أيقن - من توحيد الله - به: لست أيها الكافرون بعابد ما تعبدون مع الله، ولستم عابدين من التوحيد بما أنا به عابد لله، وما أنا على حال بعابد لما تعبدون من الأصنام، ولا أنتم بعابدين لله بالتوحيد والإسلام.

وكذلك من الله الأمر فيمن أشرك بالله، ما كانت الدنيا وإلى يوم التناد، فليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعابد لغير الله، ولا هم بالتوحيد لله بعابدين.

والصدق - بحمد الله ذي المن والطول - في ما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول به من القول؛ لا مرية في ذلك ولا شبهة، ولا يختلف فيه - بمن الله - وجهه، ولذلك وكد فيه من القول ما أكد، وردد فيه من التنزيل ما ردد.

وقال في كتاب مجموع تفسير بعض الأئمة، من الآيات التي سئل عنها الإمام الهادي عليه السلام:

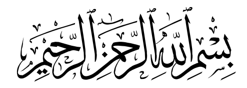
قال أبو القاسم الإمام المرتضى لدين الله:

سألت: أبي الهادي إلى الحق صلوات الله عليه عن: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾: في من نزلت؟

قال: نزلت في الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص؛ عرضوا على النبي صلى الله عليه وعلى آله: أن يعبدوا ما يعبد، ويعبد ما يعبدون.

سورة النصر

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا (٢)﴾:

تأويل ﴿جاء﴾ هو: أتى، وتأويل النصر هو: ما يفعل من الظهور والقهر؛ والفتح من الله فهو: حكم الله بالإمضاء فيما حكم به، وأوجبه من الجزاء لمن أحسن بإحسانه، ومن عصى بعصيانه، وهو الذي طلب شعيب عليه السلام ومن آمن معه من الله، فقالوا: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (٨٩)﴾ [الأعراف]، يريدون: احكم بيننا وبينهم بالحق يا خير الحاكمين؛ فاجزهم جزاءهم، وعجل إخزاءهم.

وتأويل: ﴿ورأيت الناس﴾ فهو: رؤيتهم يدخلون فيما جئت به من الملة والدين. والأفواج من الناس فهو: ما يرى من الجماعات، التي تأتي من القبائل والنواحي المختلفات، شبيه بما كان يفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من وفود القبائل والبلدان، من عقيل وتميم وأهل البحرين وعمان، ومن كل الأمم؛ فقد كان وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقدم، وآمن بالله [جل ثناؤه] وبرسوله وأسلم.

﴿فسبح بحمد ربك﴾: تأويل ﴿فسبح﴾: فاخشع واشكر لله حامدا له فيما يرى بعينه، من إظهار الله له ولدينه، وصدق وعده في إظهاره على من ناواه، وما أراه من ذلك: بنصره له بكل من والاه في أيام حياته، وقبل حمام وفاته. وتأويل: ﴿واستغفره إنه كان توابا (٣)﴾: فأمره بالاستغفار إذ تم ما وعده الله من

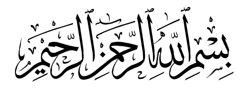
الإظهار. وتأويل التواب فهو: العواد بالرحمة، وبالنعمة منه بعد النعمة.

وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لما أنزلت: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إليه، وأمر فيها بالاستغفار، ورأى ما رأى من الإظهار -قال عليه السلام: ((نعيت إلي نفسي، وأخبرت بعلامات موتي)).

فصدق في ذلك كله - نصر الله، والفتح من الله – الخبر، حين أتاه من الله الفتح والنصر: فتوفي صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا منصورا، وقبضه إليه بعد أن جعل ذنبه كله له عنده مغفورا؛ وفي ذلك ما يقول الله سبحانه فيه صلوات الله عليه وآله: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما (٢) وينصرك الله نصرا عزيزا (٣)﴾ [الفتح]؛ فنحمد الله على ما خصه في ذلك من نعمائه، ونسأل الله أن يزيده في الدنيا والآخرة من كراماته.

سورة تبت

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿تبت يدا أبي لهب وتب (١)﴾، أبو لهب هو: عبد العزى بن عبد المطلب، وتأويل ﴿تبت﴾ فهو: خابت وخسرت، فيما رجت وقدرت، واليدان فهما: اليدان المعروفتان، وهما مثل قد كان يضرب به لمن خاب وخسر فيما يطلب. ﴿وتب﴾ يعني: أبا لهب كله، فيما عليه من أمره وما له.

﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب (٢)﴾، تأويله: ما أجزأ عنه ماله وكسبه، إذا هلك عند الله سبحانه وعطب، بضلاله وسيء أعماله.

﴿سيصلى نارا ذات لهب (٣)﴾، وذات اللهب من النيران فهي: ذات التوقد الشديد والاستعار.

﴿وامرأته حمالة الحطب (٤)﴾، تأويله: فقد تبت امرأته معه تبابه في الهلكة والعطب. وتأويل ﴿حمالة الحطب﴾ فقد يكون حملها للنمائم والكذب الذي كانت تكذبه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأتي به زوجها وتنقله إليه، وتنقله إلى غيره، ممن كان من الكفر في مثل ما هي وما هو فيه؛ لتفسد بكذبها وتغري، وتكثر نمائمها وتسري على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله، كما يكثر ويسري الكذوب النمام.

﴿في جيدها حبل من مسد (٥)﴾، جيدها فهو: عنقها، والجيداء من النساء فهي: التي قد تم في طول العنق خلقها. وتأويل ﴿حبل من مسد (٥)﴾ فهو: الحبل الوثيق المحصد، وقد يكون حبلا من قد، والقد فقد يكون من جلود

الإبل، وهو أوثق ما يكون من الأحبال، وهو: مثل يضرب لمن يحمل كذبا أو زورا يلقي به بين الناس عداوة وشرورا.

وقد قال بعض من فسر فيما ذكرنا من أمر أبي لهب وأمرها: إن تفسير حملها للحطب: إنما كانت تحمل الشوك، فتطرحه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ممره ومسلكه، وقالوا: إن ﴿حبل من مسد﴾ هو: حبل من ليف .

سورة الصمد

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



﴿قل هو الله أحد (١)﴾، الأحد هو: الواحد.

وقوله سبحانه: ﴿الله الصمد (٢)﴾، الصمد هو: النهاية والمعتمد، الذي ليس وراءه مصمود، ولا سواه إله معبود.

﴿لم يلد﴾ تبارك وتعالى ولدا، فيكون لولده أصلا ومحتدا، ﴿ولم يولد (٣)﴾ فيكون حدثا مولودا، أو يكون والده قبله شيئا موجودا.

﴿ولم يكن له كفؤا أحد (٤)﴾، والكفؤ فهو: المثل والنظير، والأحد فهو: ما قد تقدم فيه منا البيان والتفسير؛ فهو: الله الأحد الواحد الذي ليس كالآحاد، فيكون له ند في وحدانيته من الأنداد، وأنه هو الأحد الصمد، والنهاية في الخيرات والمعتمد، الذي ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١١)﴾ [الشورى]، يعلم ما في السماوات والأرض، وهو العليم الخبير.

وقال في مجموع كتب ورسائل الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفؤا أحد (٤)﴾

معنى: ﴿قل﴾: أمر من الله عز وجل بالقول، ومعنى الأحد فهو: الواحد الذي ليس بذي أجزاء ولا عدد، وهو الواحد أيضا في فعله، الذي لا يفعل

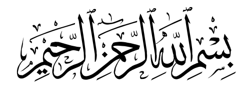
مثله أحد.

ومعنى قوله ﴿الله الصمد (٢)﴾ هو: المقصد، المصمود إليه في الحوائج والمعتمد.

والكفؤ هو: المثل والنظير؛ فنفى عز وجل أن يكون له أحد كفؤا ولا نظيرا.

سورة الفلق

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



تأويل ﴿قل أعوذ برب الفلق (١)﴾

﴿أعوذ﴾ هو: أستجير، وتأويل الرب فهو: السيد المليك الكبير، وتأويل ﴿الفلق﴾ فهو: الفجر إذا انفلق؛ كذلك يقول الناس:" انفلق الفجر وبدا " إذا تبين وظهر وأضاء، وفي ذلك وبيانه أشعار كثيرة لا تحصى، لشعراء الجاهلية الأولى.

﴿من شر ما خلق (٢) ومن شرغاسق إذا وقب (٣) ومن شر النفاثات في العقد (٤) ومن شر حاسد إذا حسد (٥)﴾

فأمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ به من شر خلقه، في النهار كله، وأن يستعيذ به من شر جميع خلقه في ليله، ولا يكون شر إلا في ليل أو نهار، وإلا بعد غسق أو انفجار.

و﴿الفلق﴾: فأول الفجر وفلوقه؛ قال لبيد:

الفارج الهم مسودا عساكره ... كما يفرج جنح الظلمة الفلق

والغسق: فأول الليل، وغسوقه: ظلمته؛ كما قال ابن عباس: غسق الليل:" أول الليل، وظهوره، وظلمته ". فقد أتى على ذلك كله استجارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستعاذته؛ وغسق الليل ووقوبه فهو: وجوبه.

وأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مع استعاذته به من شر الليل والنهار: أن يستعيذ به - لا شريك له - من شر السواحر والسحار؛ والسواحر هن: النفاثات في العقد والنفث هو: التفل على العقدة إذا عقدت،

والعقد: جمع، فهي: عقد يعقدها الساحر في خيط أو سير، كان العقد كبيرا أو غير كبير.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالاستعاذة من شر الحاسد عند حسده، وتأويل ﴿إذا﴾ هاهنا: عند، وسواء قيل: عند، أو: إذا؛ معنى هذا فهو معنى هذا، [وشر الحاسد: ما يكون من ضره ومكره، وعداوته وكيده، وغير ذلك.]

وليعلم إن شاء الله من قرأ تفسير هذه السور الثلاث وما بعدها من التفسير: أن كل ما فسرنا من ذلك كله -فقليل من كثير، وأن كل سبب من كلمات الله - فموصول بأسباب، عند من خصه الله بعلمها من أولي النهى والألباب، لا ينتهى فيه إلى استقصائه، ولا يوقف منه على إحصائه، كما قال سبحانه: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا (١٠٩)﴾ [الكهف]؛ فكلام الله جل ثناؤه في الحكمة والتبيين والهدى -فما لا يدرك له أحد غير الله منتهى ولا مدى، وكلام غير الله في الحكمة - وإن كثر وطال، وتكلم فيه قائله بما شاء من الحكمة، فأقصر أو أطال - فقد يدرك غيره من الخلق غايته ومنتهاه، وكل وجه من وجوه كلامه فلا يفتح وجها سواه؛ لأن علمه ينفد، وكله يحصى ويعد؛ وكلمات الله - كما قال الله سبحانه - لا تنفد بإحصاء، ولا يؤتى على ما فيها من خفايا العلم باستقصاء؛ وقليل علمها فكاف بمن الله كثيرا، وكلها فضياء ونور، وهدى وتبصير.

سورة الناس

هذا تفسير السورة كاملة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام:



قوله عز وجل: ﴿قل أعوذ برب الناس (١)﴾:

قال القاسم بن إبراهيم صلوات الله عليه: هذا أمر من الله لنبيه أن يتعوذوا وأن يقولوا هذا القول، ومعناه: أستجير وألوذ برب الناس؛ فالرب هو: السيد المليك، مالكهم وفاطرهم، والقادر عليهم، والرازق لهم.

﴿ملك الناس (٢)﴾، الملك فهو: الذي ليس في ملكه شريك [معارض].

﴿إله الناس(٣)﴾، والإله فهو: الذي تأله إليه ضمائر القلوب، وهو: الرب الذي ليس بصنيع ولا مربوب.

وتأويل: ﴿من شر﴾ فهو: من كل مفسد مضر.

وتأويل: ﴿الوسواس الخناس (٤) الذي يوسوس في صدور الناس (٥)﴾ فهو: ما وسوس في الصدور من الجنة والناس؛ والموسوس فقد يوسوس: بحضوره في الصدور ويخنس، وقد تكون الوسوسة من الموسوس في الصدور: ما يكون فيه من الذكر والخطر. وخنوس الوسواس: مفارقته وغيبته عن الصدور، ووسوسته: فما ذكرنا من الخطر والحضور.

وما ذكر الله عز وجل في ذلك من الوسواس -فقد يكون كما قال الله سبحانه: ﴿من الجنة والناس (٦)﴾، والناس فهم: الآدميون؛ فأمر الله نبيه: أن يتعوذ من شر شياطين الجن والإنس؛ فهم المغوون المردة الملاعين، من جني وإنسي؛ وفي ذلك: ما يقول الله سبحانه: ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض﴾ [الأنعام: ١١٢]. وشياطين الإنس أقوى على الإنسان وأشد عليه من شياطين

الجن.

وتأويل: ﴿الوسواس الخناس (٤)﴾ فهو: الشيطان الخانس؛ فهو يخنس عن أعين الناس فلا يرونه، ومعنى " يخنس " فهو: يغبى فلا يرى؛ فهو الشيطان – عليه لعنة الله – يوسوس بحضوره في الصدور، من الذكر والخطرة بالوسوسة والإغواء، والفسق والردى، حتى يدخل بحب المعاصي في الصدور.

وقد تكون الوسوسة من الفريقين: بالمشاهدة والمحاضرة، وقد تكون منهما الوسوسة: بالذكر والخطرات الخاطرة؛ وأي ذلك كان في الصدور: بخاطرة تخطر، أو حضور –فهي وسوسة كما قال سبحانه، من شيطان أو إنسان، بما يجول منهما في الصدور والجنان؛ قال الشاعر:

وكم أخطر في بال ... ولا أخطر في بالي.

تم الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه، وله الحمد كثيرا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس